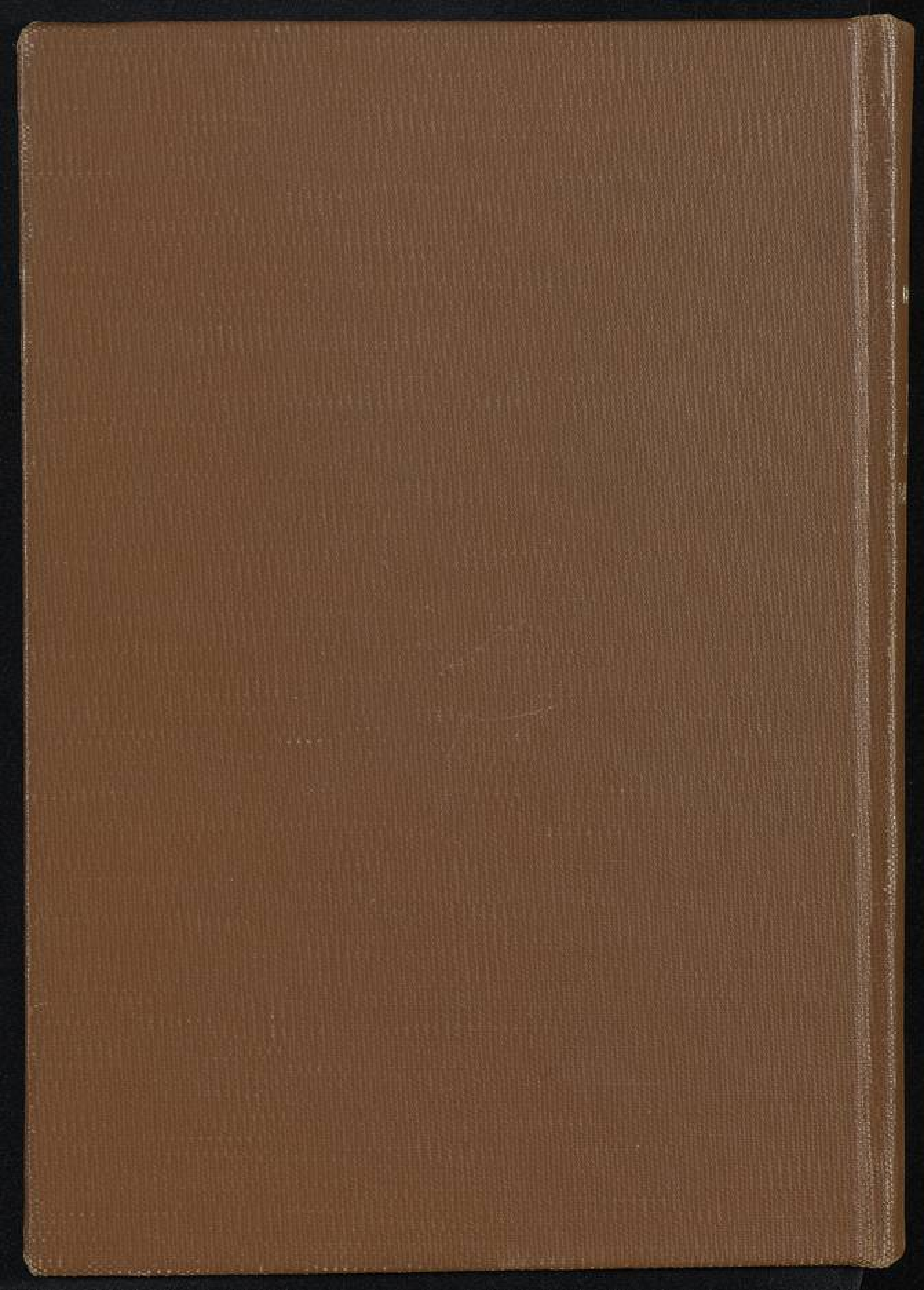
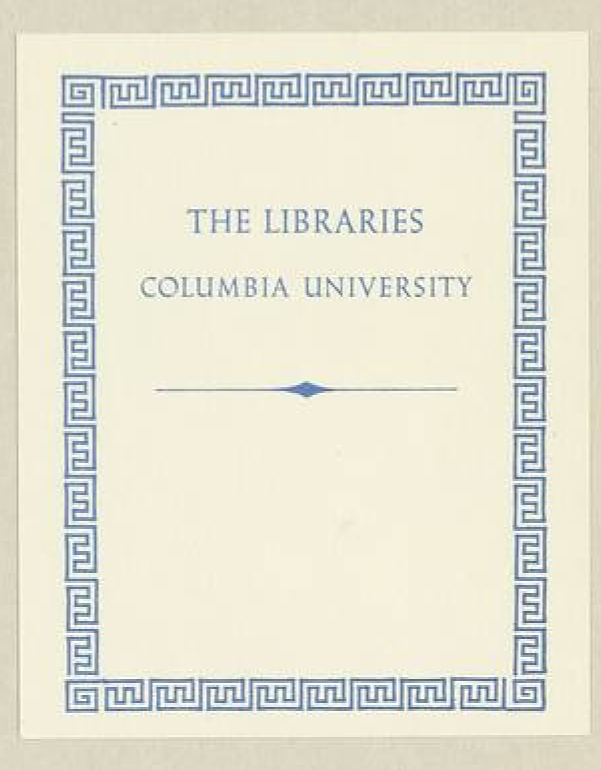
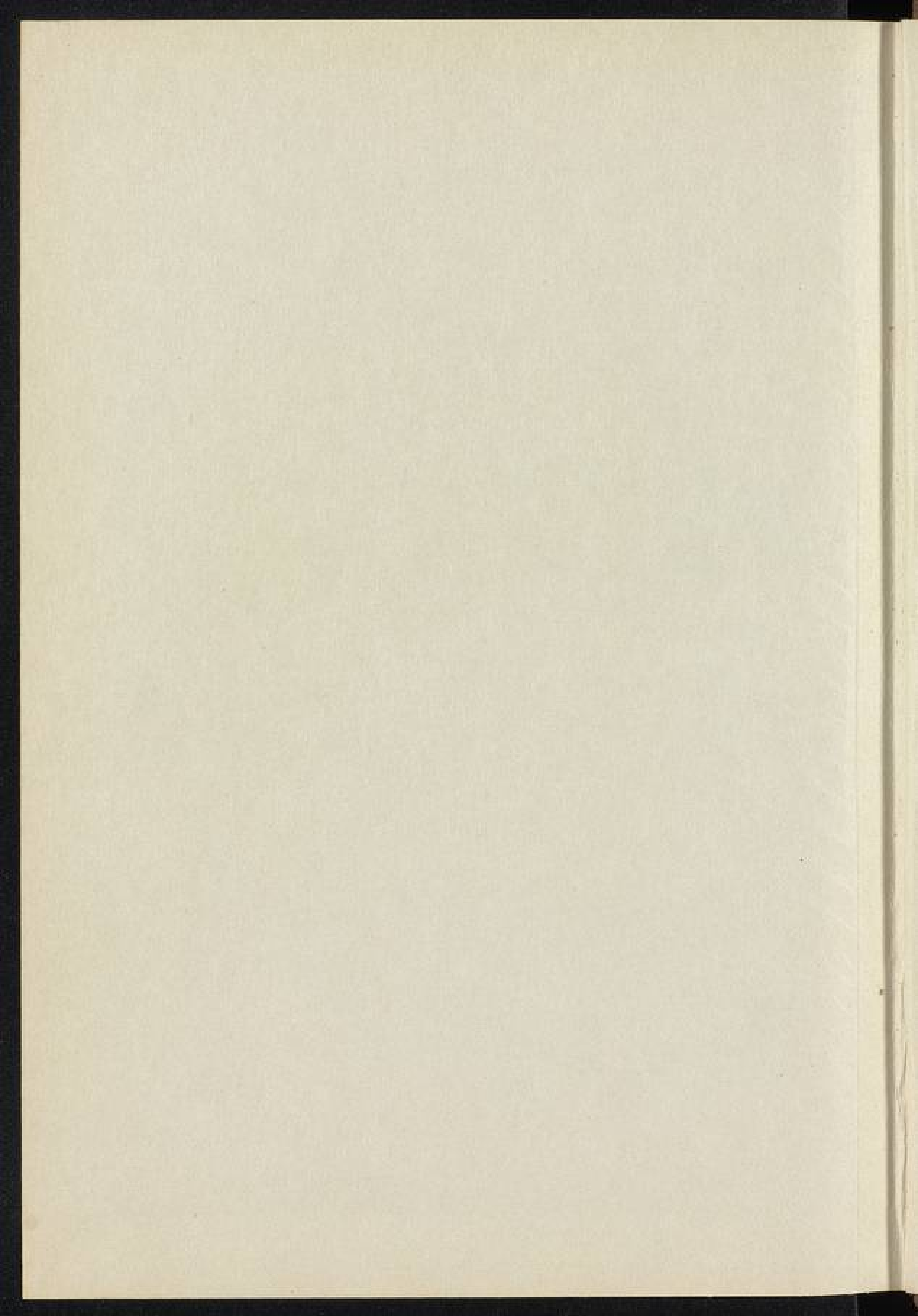
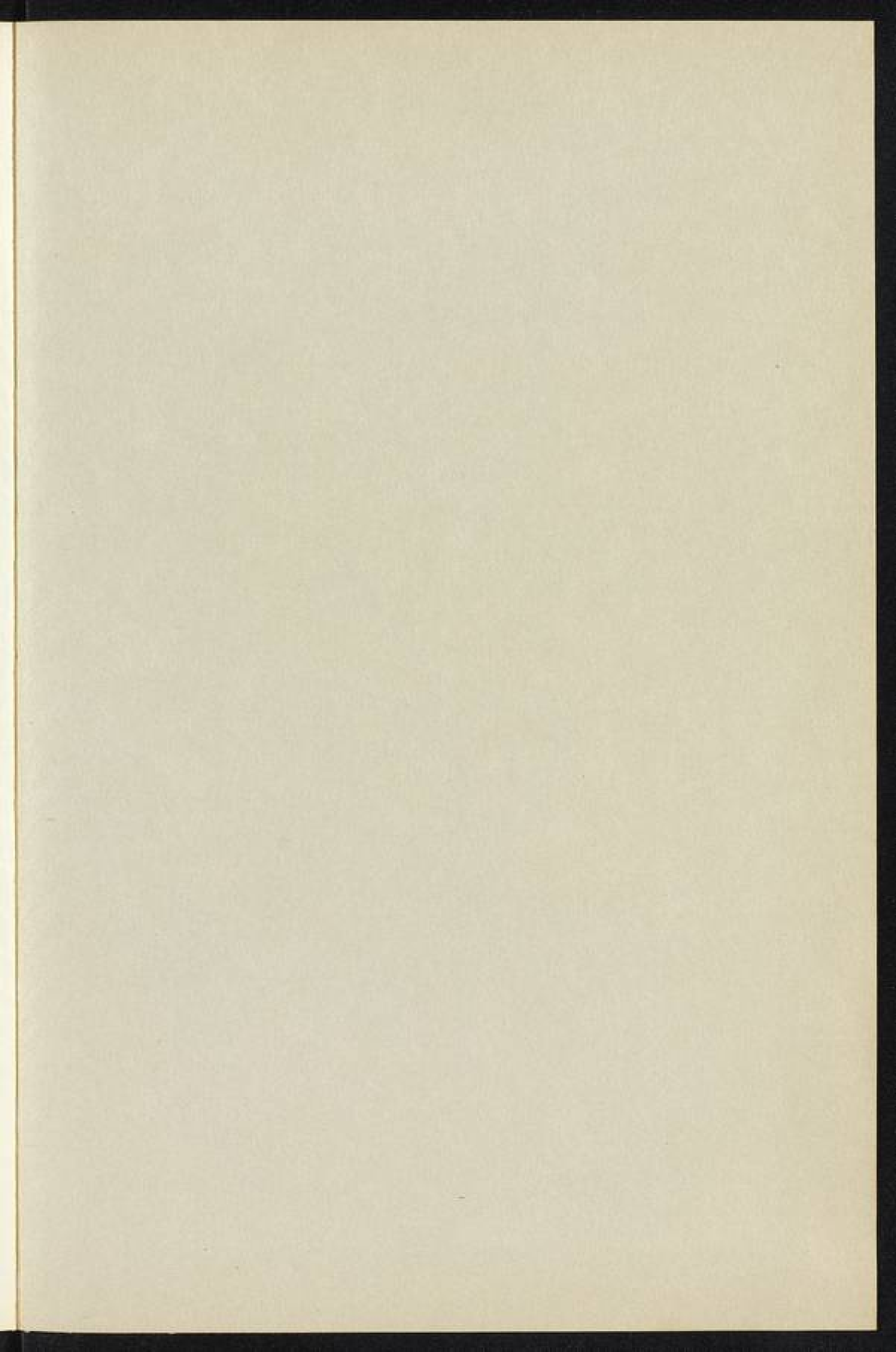
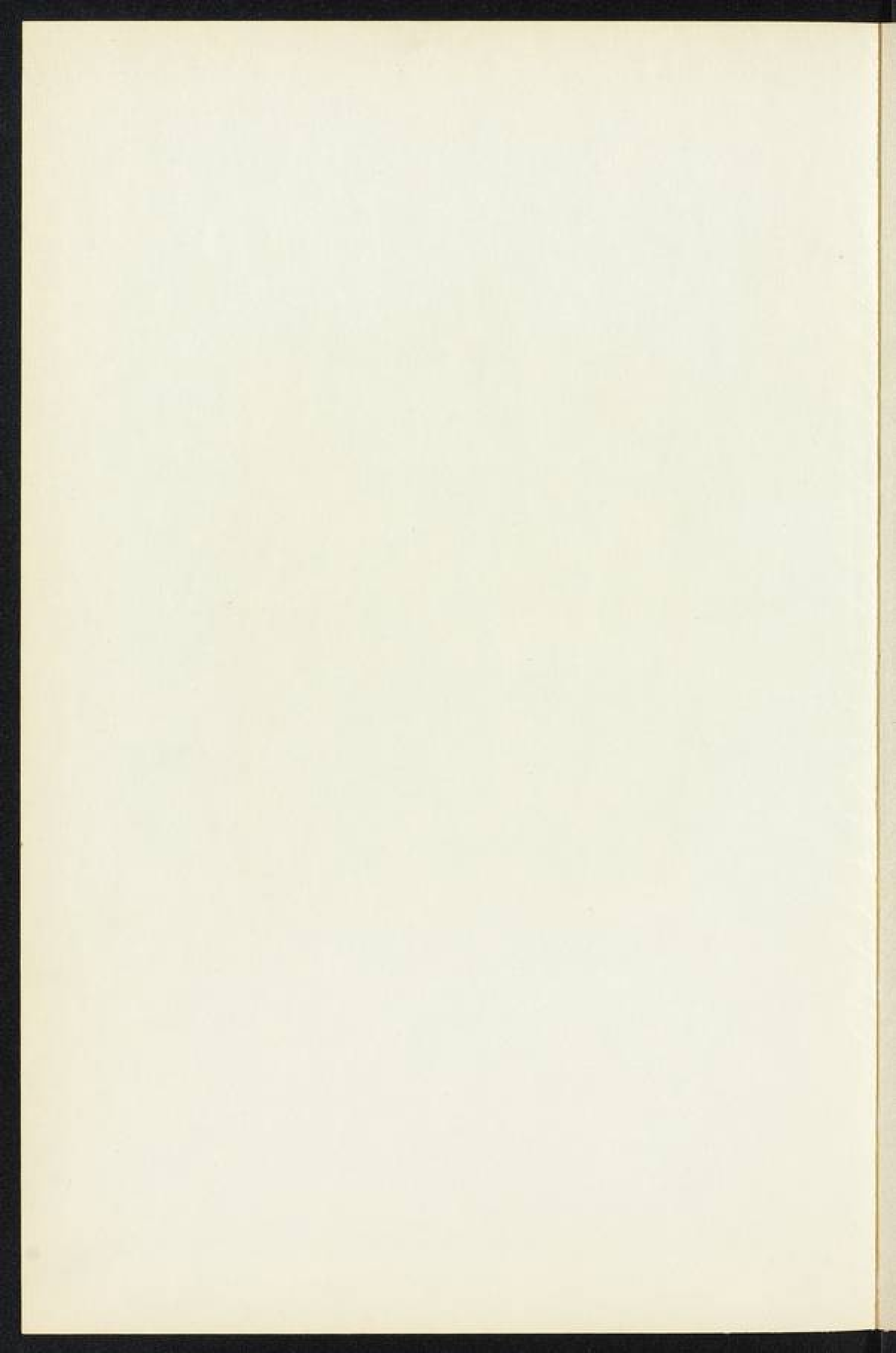



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY









المعهد الفرنسي بدمشق
للدراسات العربية

زبدة الحلب
من
تاريخ حلب

تأليف

المولى الصاحب كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله
ابن العديم
٥٨٨ هـ – ٦٦٠ هـ

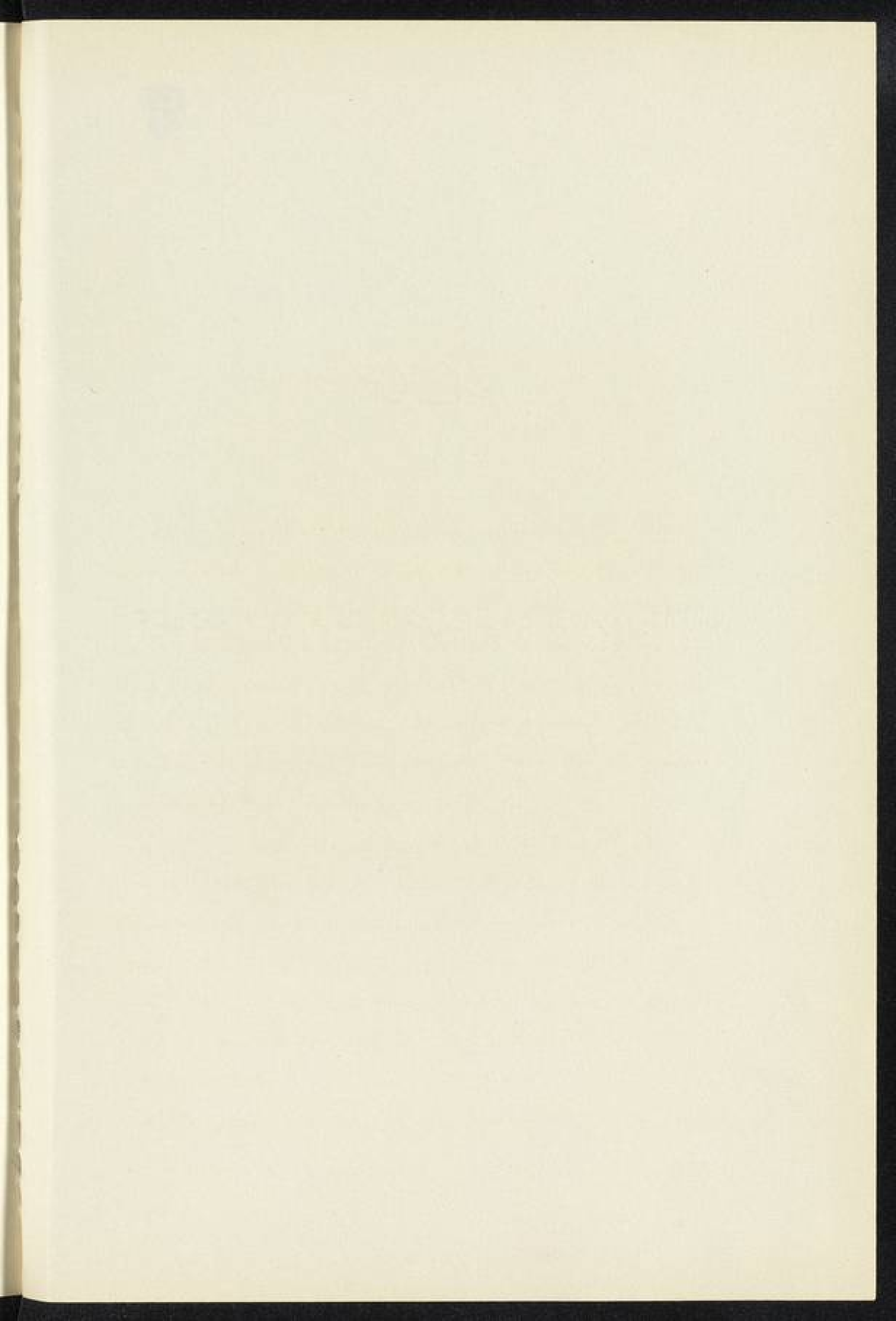
عُني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه
سامي الدهان

دكتور دولة في الآداب من باريس
عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

الجزء الثاني
٤٥٧ هـ – ٥٦٩ هـ

كلمة الناشر

تأليف زبدة الحلب ـ طريقتنا في التحقيق ـ حوادث هذا الجزء ـ ثناء وأمل



مقدمة الجزء الثاني

عرضنا في مقدمة الجزء الأول لحياة ابن العديم ، وتطرقنا إلى تحليل آثاره على شيء من الاختصار ، لئلا نتجاوز ما يرسم للمقدمات من بحث ودراسة ، على أن ميدان القول ما يزال فسيحاً واسعاً في دراسة الرجل والبحث في أدبه وعلمه . فنحن لم نبسط الكلام في أسلوب ابن العديم أو إنشائه كما يبدو من كتابه « زبدة الحلب » ، ولم نتحدث عن ميله إلى الشعراء والأدباء في هذا الكتاب ، ولم نحكم على مختاراته في الأدب أو أحكامه على الحوادث أو تحليله لشخصيات الحاكمين أو وصفه للمعارك أو عنايته بأخبار القضاة ورجال الدين ، فلذلك كله كتاب سنصدره في حياة هذا المؤرخ وفي آثاره لعصره وبعد عصره .

ونحن إنما نريد هنا أن نقدم بين يدي هذا الجزء برهاناً جديداً على ما قلناه في طريقة تأليفه للتاريخ . فقد بينا من قبل أن الرجل استعرض مصادر التاريخ قبله ، فاختار منها أولاً نصوصاً نقلها إلى تاريخه الكبير « بغية الطلب » ، وبوّبها وجعلها على الحروف في تراجم الرجال كما فعل الخطيب البغدادي وابن عساكر الدمشقي . وقد ذكر في هذه التراجم عنوانات الكتب التي نقل عنها وأسماء مؤلفيها ، ثم وصف لنا كيف وصلت إليه ، وأين وقعت له ، في أمانة علمية عُرف بها الحفاظ الثقات في علم الحديث .

فلما أراد أن يلخّص كتابه الكبير وأن يرتّب تاريخه على السنين عاد إلى « بغية

الطلب » فنقل بعض النصوص ، وحذف منها أسماء الرواة والمؤلفين وكتبهم ، واكتفى غالباً برواية واحدة للحادثة الواحدة ؛ فكان كتابه هذا زبدة لتاريخ حلب ، يحمل بين طياته ما في المصادر المختلفة من عبارات وإشارات وروايات في أسلوب موجز مقتضب . وهو في هذا كغيره من المؤرخين لزمانه ، ولكن النقد العلمي لم يتطرق إليهم ، فلم يبيّن مبلغ ما وضعوه ومقدار ما نقلوه ، وأين تقع شخصيتهم المستقلة ، وما هي أحكامهم الأصيلة !

*
* *

ولم نشأ أن تخلو الزبدة من هذا النقد فرحنا نفتش عن التواريخ التي وصلت إلينا مخطوطة أو مطبوعة ، لنوازن بينها وبين ابن العديم ، ولنصل إلى مدى قربه من هذه المصادر أو بعده عنها ، لعلنا نعرف له يده في هذا الكتاب وجهده في هذا التأليف . وقد وفقنا حيناً إلى اكتشاف مصادره ، وأخفقنا أحياناً في العثور على الكتب التي اعتمدها في صدر القرن السابع الهجري . ذلك لأن المكتبة العربية أصابتها نكبة التتار سنة ٦٥٧ هجرية قبل وفاة الرجل ، فمزّقت مصادره وفرقت كتبه ، وحالت بيننا وبين معرفة خزانته لعصره. ولم يصل إلى علمنا ما كان في بيته من تواريخ ، وما وقع له من دواوين شعرية وكتب أدبية . ولا شك في أن هذه الخزانة كانت قيّمة غنيّة تهدى إليها المؤلفات من مشارق العالم الاسلامي ومغاربه . ولا شك في أن صاحبها القاضي الأديب ، والوزير السفير ، والمؤرخ الوجيه خير من يقتني الكتب وينصرف إليها ، وكتابه «البغية» دليل على ما نقول.

لذلك عولنا في حواشي هذا الجزء على « بغية الطلب» نسألها بيان النصوص وتفصيلها وكمالها ، ثم رجعنا إلى ابن القلانسي والعظيمي وابن الأثير وابن واصل وابن الجوزي وأبي شامة وأبي الفداء وابن تغري بردي ، فنقلنا كثيراً من عباراتهم إذا كانت تحمل تفصيلاً وتذييلاً وإيضاحاً ، وأثبتنا الأسماء عن هذه المصادر حين أردنا تمامها بذكر الأب والجد والكنية واللقب والنسبة إلى البلد والإقليم والعرق ، وذلك لنوضح ما أورده ابن العديم في الزبدة موجزاً موغلاً في الايجاز حتى ليخيل

للقارىء أن الرجل وضعه لأنداده وأقرانه وزملائه واخوانه من معاصريه والمتمرسين بالتاريخ العربي القريب . فلما بعدت الشقة وضربت بيننا وبين هذه الحوادث ثمانية قرون غابت معالم القوم وأوصافهم وعاداتهم ومعاركهم وحروبهم ، فاختلطت علينا الأسماء التركية وثقلت الألقاب الأعجمية ، وانقطع ما بيننا وبين أساليب المؤرخين لذلك الزمان حتى لقد حسبنا أنهم يكتبون في ايجاز مخل أو اقتضاب ممل أو ينشئون في عبارة غريبة أو جمل غامضة .

° ° °

وابن العديم في هذا كغيره من مؤرخينا ، ولكن الناشر يجب أن يحترز لهذه النصوص القديمة فيرسل بين يديها مواكب من نصوص مختلفة للحادثة نفسها تخفف من جفاف العبارة وغموض الحادثة وعري الاسم ، خدمة للقارىء المعاصر والشادي الناشىء ، والدارس المستقصي ، وخاصة في تأريخ حقبة كهذه التي يصفها هذا الجزء .

وهذه الحقبة تحفل بالأحداث الجسيمة ، فقد تغلغل فيها العنصر التركي في الحكم والادارة ، وأطبقت على البلاد جيوش الفرنج مغيرة من كل فج عميق ، وقامت في السكان ريح الطائفية وهبّت بين الحكام شهوة الملك والسلطان .

وقد أحصى ابن العديم هذا كله ، فبسط في هـــذا الجزء حال حلب ، بل سوريا الشمالية ، في عهد المرداسيين والعقيليين وتحدث عن ملكشاه ، ورضوان بن تتش ، وألب أرسلان ، وإيلغازي بن أرتق ، وعماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ؛ فكانت هـــذه الحقبة عصراً كاملاً (٤٥٧هـ — ٥٦٩هـ) بدأ في منتصف القرن الخامس وانتهى بعد منتصف القرن السادس ، شهدت فيه هذه البلاد خصاماً بين الأمراء وحرباً بين الدويلات والأمارات ودسائس وفتناً بين الشيعة والسنة ، فلاحت الباطنية وظهرت الدعوات المختلفة ، وزاد في ذلك اختلاف الأتراك فيما بينهم على حكم حلب ، ثم اضطراب الصداقة بين مصر والشام ، وقيام الخلاف بين بغداد وحلب ؛ والافرنج يتقلبون على أساليب مختلفة في القتـــال والسياسة ،

يتقربون إلى بعض أبناء البلاد، ويختصمون فيما بينهم ، وينقلبون على الروم أحياناً ، ويشتركون معهم على غزو البلاد حين تسكن الخصومة ويموت التنافس .

وهذا كله يبعث في تاريخ هذه الفترة بالشام حياة ونشاطاً يخيل معه للقارئ أن البلاد لم تعرف إلا الحرب والقتل والضرب والتنكيل والتعذيب والشنق والانتقام ، فكأن « الزبدة » سفر للمعارك تصف الكرّ والفر والانكسار والانتصار ، أو كأنها كتاب في تاريخ الأتراك والروم والفرنج أو معجم لأعلامهم ، فهو يعجّ بالأسماء التركية والألقاب الأعجمية والكنى التركمانية والمراتب الدينية .

والكتاب على إيجازه ثمين لأنه سجّل كلّ ما وقع ، ولم يغفل من الأحداث السياسية والحربية إلاّ ما يخرج عن حدود ما رسمه لكتابه من بلاد حماة وحمص وشيزر وحلب والجزيرة ، فقد جعله لسورية الشمالية وخصّه بذكر قراها وجبالها وأنهارها ومدنها ، فأصبح مرجعاً هاماً لهذه المنطقة ، ولا نعرف له مثيلاً بين تواريخنا.

وقد عرف له المستشرقون هذا القدر فنشروا قسماً منه وترجموه ، وعُني ده مينار وبلوشه بهذا الجزء خاصة فنقلا بعضاً منه إلى الفرنسية ، ونشرا صفحات منه ، ولكننا نظهره هنا للمرة الأولى في ثوبه العربيّ كاملاً كما وضعه ابن العديم ، ليضاف إلى تواريخنا العربية ويقف بينها في خدمة التاريخ والأمجاد .

* * *

ولقد عنينا بهذا الجزء كعنايتنا بالذي ظهر قبله ، بوّبناه على طريقة كتابه الكبير « بغية الطلب » فقد توفي الرجل قبل أن يبلغ أمنيته من الزبدة ، فلم يفعل لها كما فعل لكتابه الأول ، لذلك قمنا بهذه الأمانة وأدينا هذه الرسالة ، فجعلناه على أقسام ، وجعلنا الأقسام على مقاطع وعناوين صغيرة وكبيرة ، واستخدمنا الترقيم ، وضبطنا بالشكل حيث مسّت الحاجة إلى ذلك ، وشرحنا الكلمات الصعبة ، وحققنا الأعلام ، وحدّدنا على وجه التقريب مواقع البلدان ، وعدنا إلى دواوين الشعراء ، وتحمّلنا كلّ تضحية وعناء في سبيل ابن العديم راضين مغتبطين ، لأننا نؤدي زكاة العلم . وقد سعدنا بصحبته ونعمنا بالجهد فيه ، فحمل إلينا رضى كثيراً

وخيراً وفيراً ، فتفضل كثير من النقاد والأدباء بالكتابة عنه والثناء عليه ، وأغدقوا من جميل الكلام وكريم العبارة مما نحمله محمل الرضى والتشجيع ، فحفزوا خطواتنا المتواضعة في إكمال تحقيقه ونشره والتعليق عليه . وكان علينا أن نسجّل أسماءهم هنا شاكرين لهم ما أظهروا من عطف وما أبدوا من تأييد بمقالاتهم في صحف الغرب والشرق أو برسائلهم الخاصة . ولكننا نعجز عن ردّ الثناء وبسط الأسماء . ونكتفي بأن نسجّل فوزاً للنصوص القديمة ، فقد ربحت أصدقاء وكسبت مؤمنين ينتصرون لهذه الفئة التي تعمل جاهدة في إظهار التراث القديم على وجه علمي يجمع إلى الأمانة والصحة وفرة الفهارس والمسارد ودقة التعليقات والتحقيقات ، فقد حان للعرب أن يجمعوا آثارهم وأن يبوبوها وأن يبنوا دراساتهم وبحوثهم الجديدة على أساس متين من هذه النصوص التي تظهرنا على ما خفي من تاريخنا وحضارتنا ، وتكمل الناقص من معلوماتنا وتسد ثغرة فاضحة في كتبنا .

ونحن نرجو أن يقع هذا الجزء من النفوس موقع أخيه فقد بذلنا له كلّ ما نستطيع ، وعملنا في سبيله وفاق خطتنا التي وصفناها « في حرص بالغ وخوف مسرف وشك ملحّ » لنتقرب من الكمال في خدمة الكتاب ، ونستهدف للصّواب في إبرازه على أحسن وجه ، لا نريد من ذلك إلا وجه الوطن واللغة والتاريخ ، والله من وراء القصد له الحمد والشكر والمنة .

دمشق الشام　في ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٧٣
و ٥ آذار ١٩٥٤

سامي الدهان

بيان الرموز المستعملة في هذه الطبعة

ص : صفحة

ج : جزء

ط : طبعة

و : وجه الورقة من المخطوط

ظ : ظهر الورقة من المخطوط

الاصل : نسخة باريس المخطوطة رقم ١٦٦٦

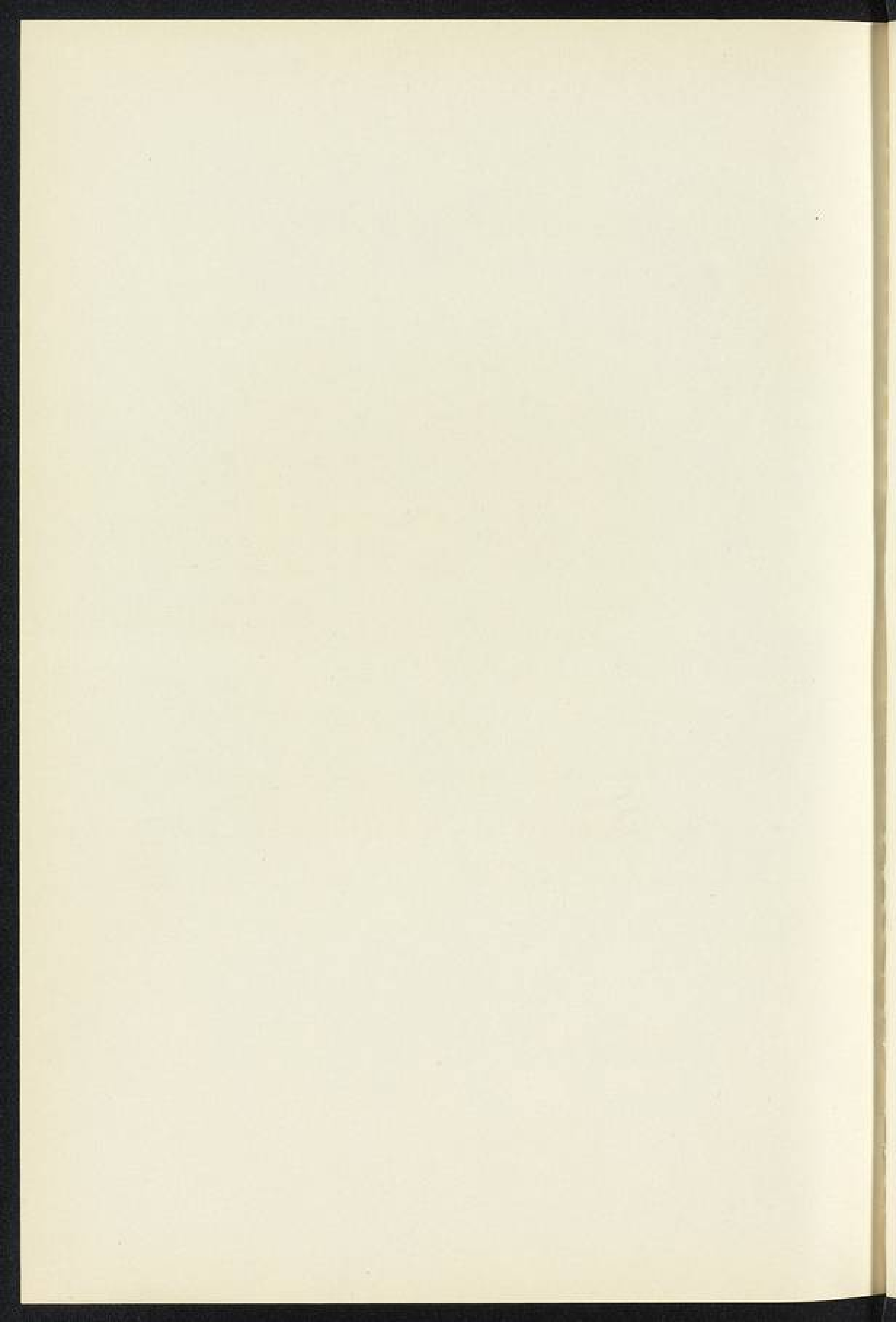
[ ] : وضعنا بينهما ما رأينا إضافته للسياق من غير ان تدل النسخة على وجود نقص أو غموض .

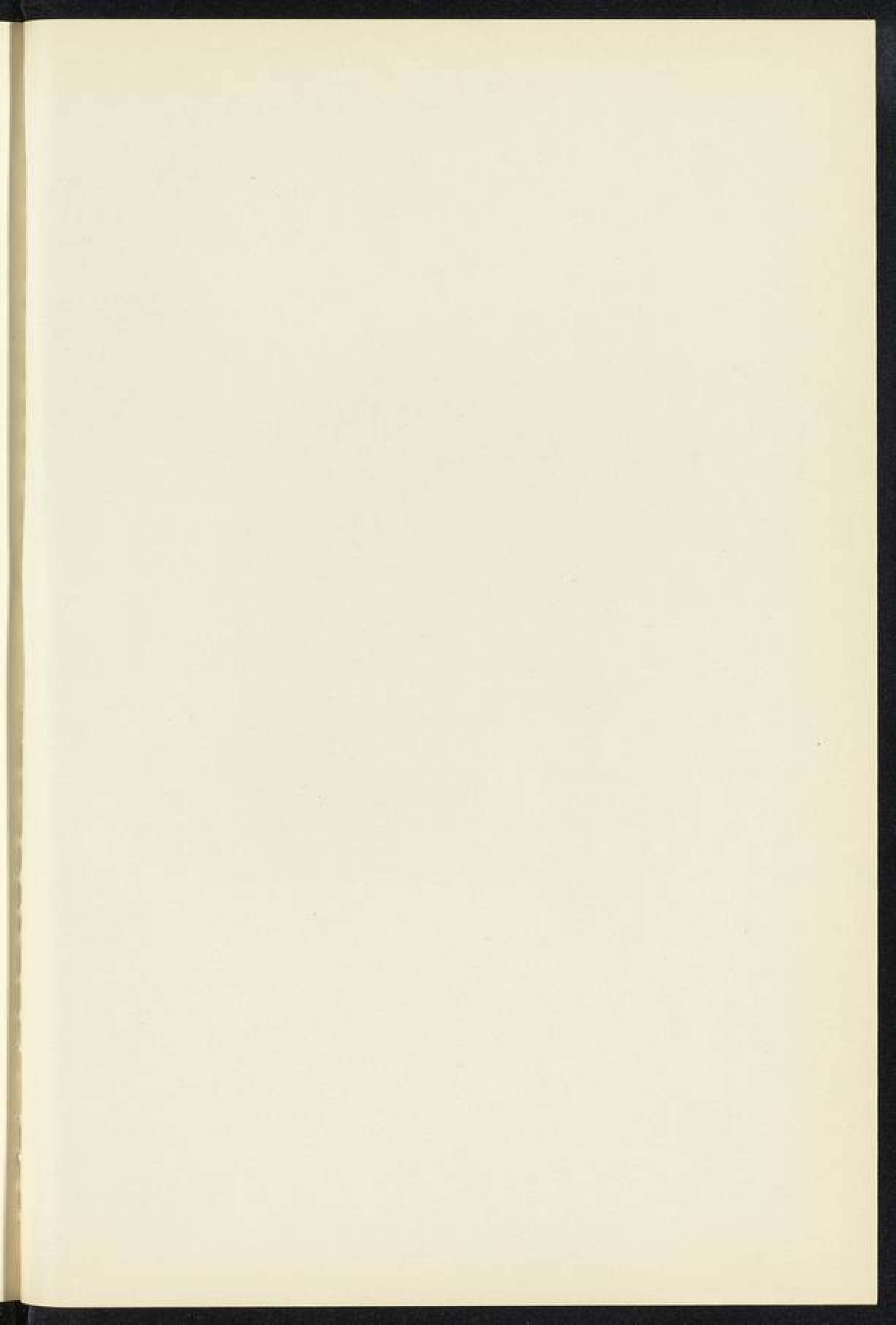
<> : وضعنا بينهما ما أكملنا به نقصاً دلّت عليه النسخة أو طمساً لم يقرأ .

‖ : للدلالة على نهاية الصفحة وبدء الصفحة التالية في مخطوطة الأصل .

[...] : وضعناهما في الهامش للدلالة على رقم الورقة من مخطوطة الأصل مع بيان وجه الورقة أو ظهرها .

(وفي فهرسي الكتب والأعلام بيان بالمختصر من أسماء الكتب ومؤلفيها)





زُبْدَة الحلب

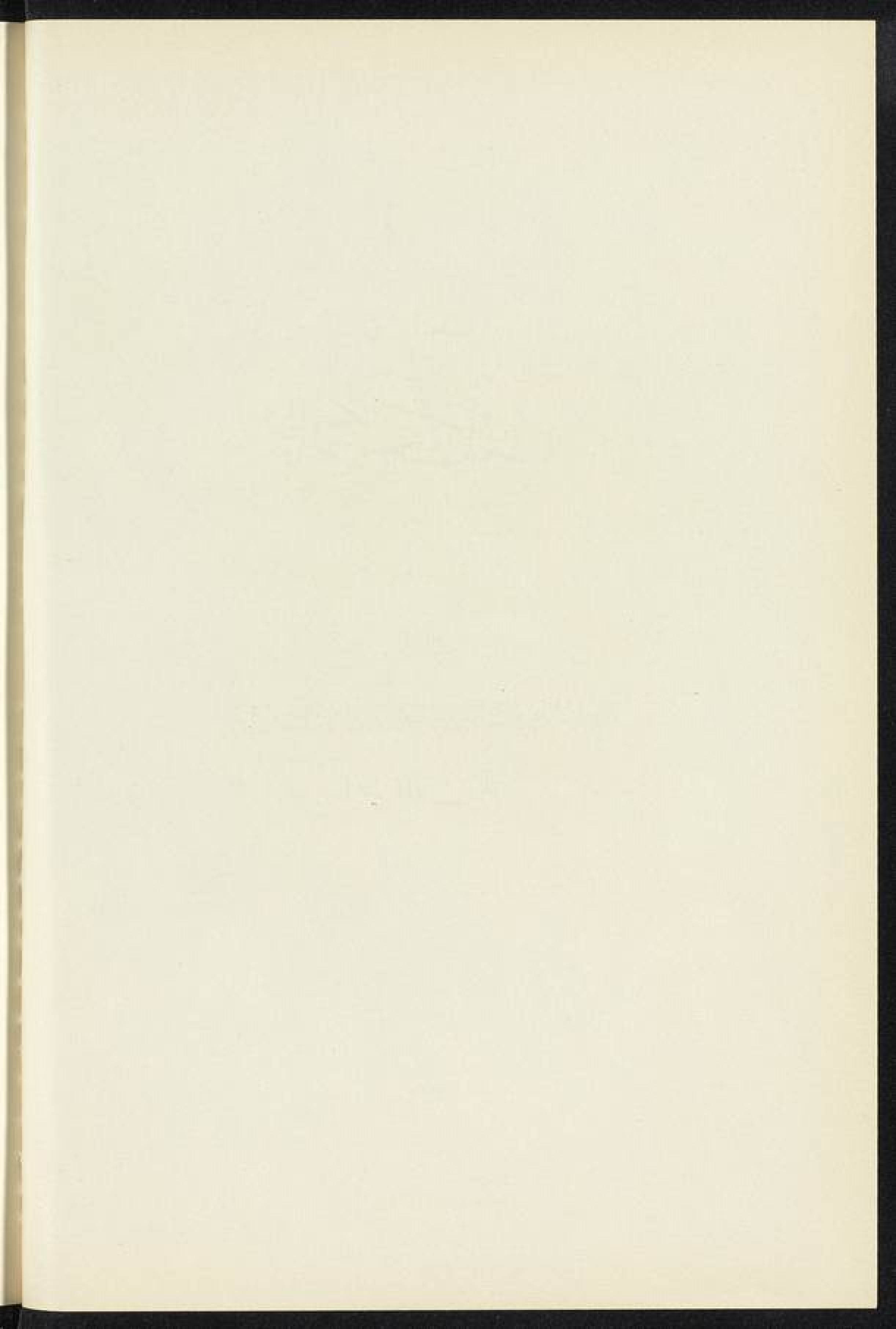
مِن

تاريخ حلب

تأليف

المولى الصاحب كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله

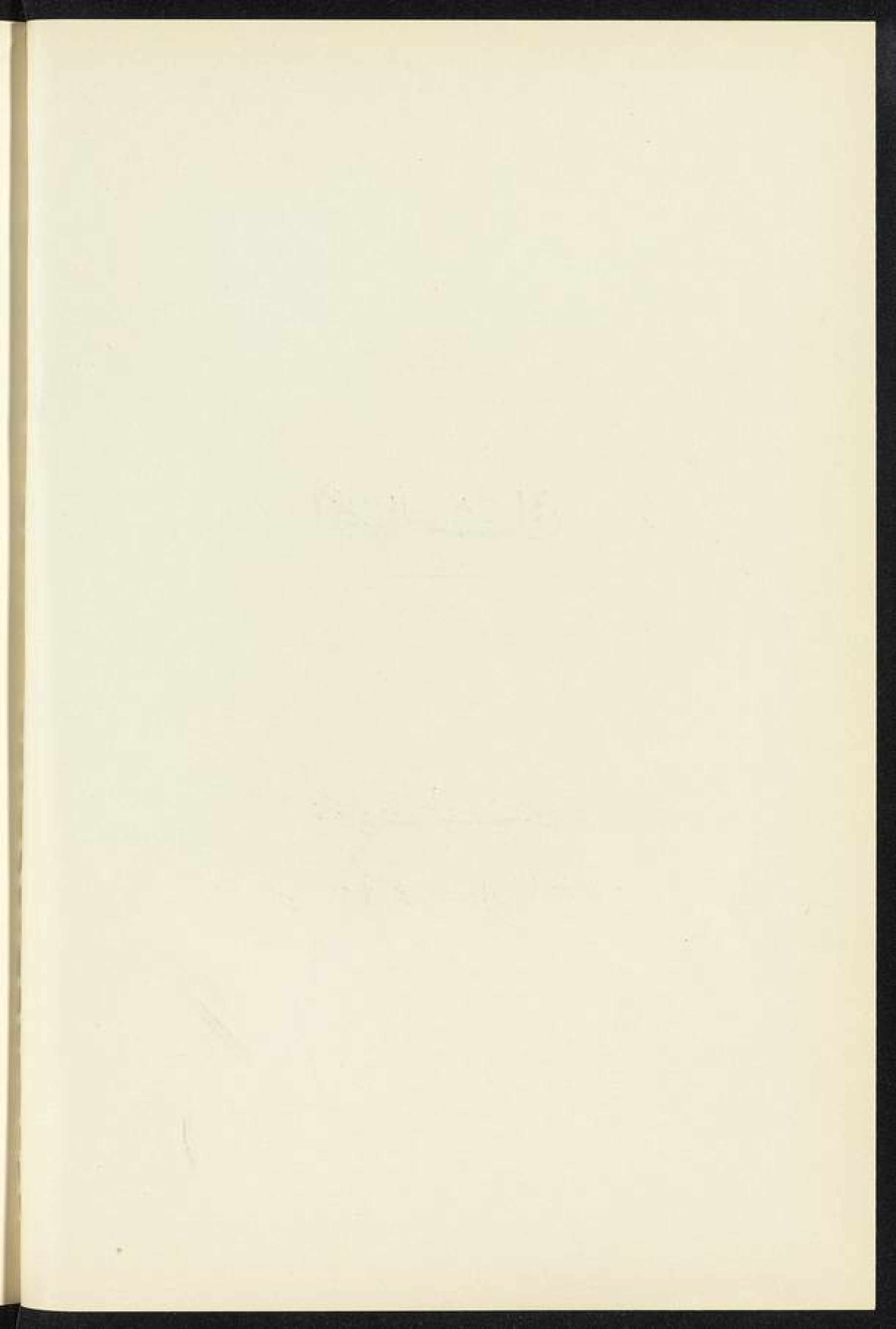
ابن العديم



الجزء الثاني

حوادث السنين

من ٤٥٧ هـ إلى ٥٦٩ هـ

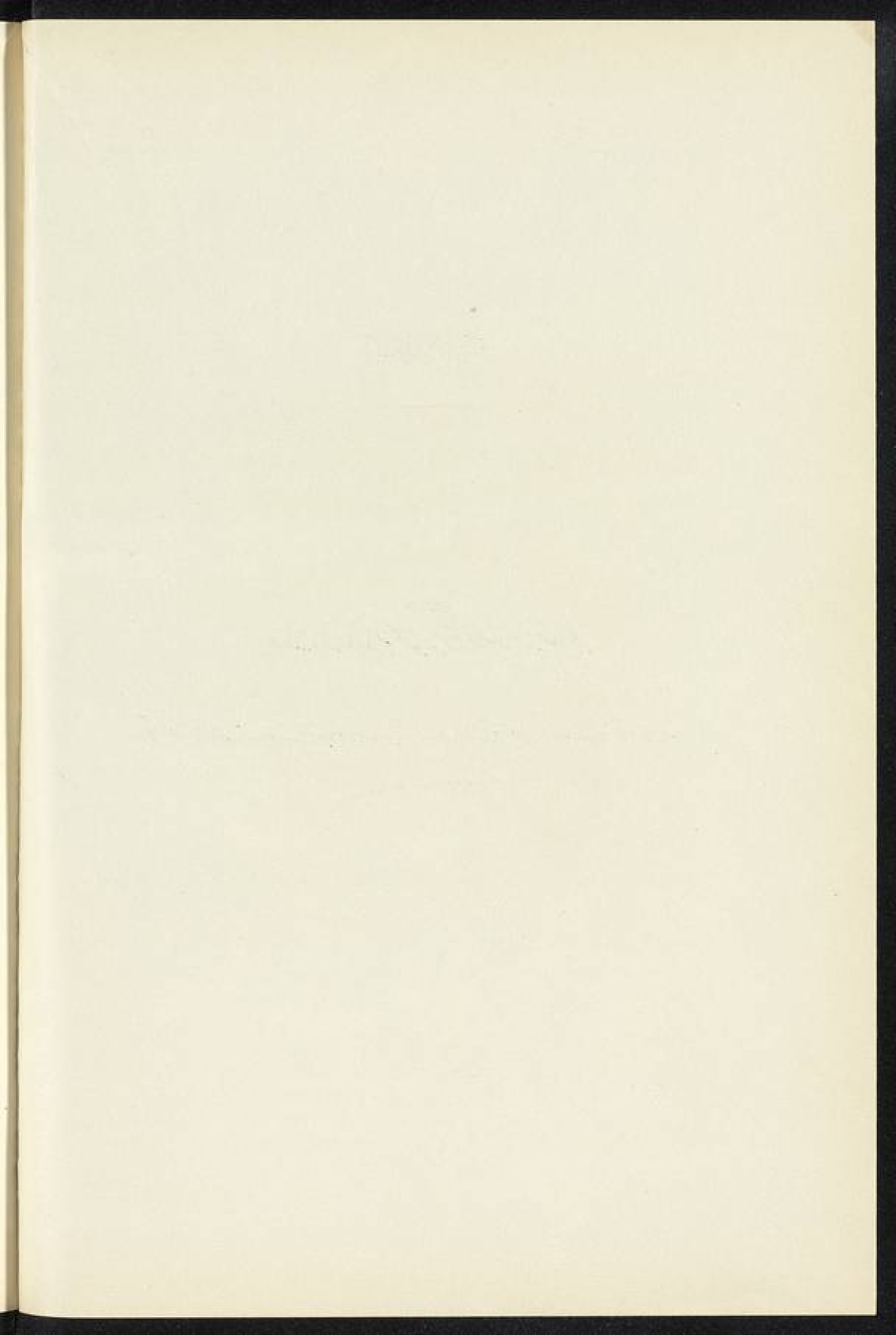


القسم الرابع عشر

ذكر
حلب في أيام محمود بن نصر بن صالح

حكم محمود في حلب - حرب الروم وآل مرداس - ألب أرسلان ومحمود - حاشية محمود وشعراؤه

٤٥٧ هـ - ٤٦٧ هـ



حكم محمود في حلب

زيادة عطية

وَدَخَلَها[1] محمودُ بنُ نَصر يوم السَّبت النصفَ من شهر رمضان سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، واستقرتْ ألقابُه: الأجلّ ، شرفُ أمراء العرب ، سيفُ الخلافة ، معزّ الدّولة وفخرُها ، وعضدُها ، ناصرُ الملك ، ‖ ذو الحَسَبَيْن[2] .

[٨٣ و]

ومَضَى عَطيّةُ إلى الرَّحبة[3] وكانتْ ألقابَ عطيّة ‹ خالصةُ ›[4] الأمراء ، عمدةُ الإمامة ، عضدُ الخلافة ، أسدُ الدّولة وسيفُها ، ذو العزيمتين .

وأقطع محمودٌ معرَّةَ النّعمان الملكَ هٰرونَ بْنَ خانَ ملكَ التُّرك[5] ؛ فدخل المعرّة يومَ الأربعاء السّابعَ عشر من شوال ، سنة ثمان وخمسين

---

(١) أي مدينة حلب — وقد ذكر ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق ٩٣ : « سنة سبع وخمسين وأربعمائة : في هذه السنة نزل الأمير محمود بن شبل الدولة بن صالح على حلب ثالث دفعة ومعه الأمير ابن خان التركي وأقام عليها إلى انتصاف شهر رمضان ».

(٢) انظر الجزء الأول الذي طبعناه من زبدة الحلب سنة ١٩٥١ ص ٢٩٧ : « ولقبوه عظيم أمراء العرب ، عضد الدولة سيف الخلافة ، ذو الفخرين . وكان يلقّب أولاً عز الدولة وشمسها » — ولقبه فيما يرد من الصفحات هو عز الدولة ، انظر ١٢، ١٤ .

(٣) الرَّحبة : بينها وبين حلب خمسة أيام — انظر زبدة الحلب ١ / ٩٣ بالحاشية .

(٤) هذه الكلمة مطموسة في الأصل المخطوط لم يبق منها إلّا [. . . صة] ؛ فلعلها كما أثبتنا ، وقد مرّ بنا في زبدة الحلب ١ / ٢٤٨ لقب نصر بن صالح بن مرداس وهو : « مختص الأمراء ، خاصة الإمامة » — انظر ما يلي بالصفحة ١٨ .

(٥) مرّ بنا اسم الرجل في زبدة الحلب ١ / ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

وأربعمائة ، ووصل معه إليها من التُّرك ، والدَّيلم ، والكُرد ، والأُوج [١] مقدار ألف رَجُلٍ مع حاشِيَتِهم فنزل بالمُصلَّى.

فما رؤي أعفَّ منهم عن البَساتين والكُروم وغيرها ، ولم يكونوا يأخذون من أحدٍ شيئاً إلا بثمنِهِ ؛ وسقَوْا دَوابهم الماء بثمنِهِ. وفزعتِ العَرَبُ منه فزعاً عظيماً ؛ ثمَّ استدعي إلى حلب وعوض معرّة النّعمان. ٥

وخرج محمودُ بنُ نصرٍ بابن خان والتّركمان ، في سنة تسع وخمسين ، ومعه بنو عوف من بني أبي بكر بن كلاب ، فنزل المعشيرة – من بلد حماة – ، ثم أتى حَماة ؛ ووَطئ جميعَ العَرَب وأذلّها.

وكانت العرب تطلبُ فتنةً تقع بينه وبين عمّه عطيّة بن صالح ، وكان بحمص ، فظنّت بنو كلاب أنه يُحاربُه ؛ فلم يفعل عطيّة ، ١٠ لمعرفتهِ بغَدْر العَرَب به مرةً بعد أخرى ؛ وأراد أنْ لا ينهدِم مجدُ آلِ مرداس.

وفي هذه السَّنة سلّم حسين بن كامِل بن الدّوح « حِصْنَ أسفُونا » [٢] إلى نُوّابِ المصريّين ، بعد أن نَهَبَ عسكر التّرك « حناك » [٣] وجميع ضياعِهِ بالشّام. ١٥

ووقع الوباء العظيم بحلب ، حتّى أنه مات في رجب من هذه السَّنَة || زهاء عن أربعة آلاف فضلاً عن سائر الشّهور. [٨٣ ظ]

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ١ / ٣٩٧ : «الأوج : بالضم ثم السكون وجيم – قرية صغيرة للخرلخية ، وهم صنف من الأتراك بما وراء سيحون ».

(٢) في معجم البلدان لياقوت ١ / ٢٤٩ : «أسفُونا : بالفتح ثم السكون وضم الفاء وسكون الواو ونون وألف – اسم حصن كان قرب معرّة النعمان بالشام افتتحه محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابي».

(٣) حصن كان بمعرة النعمان وخرب سنة ٥٠٩ هـ – انظر زبدة الحلب ١ / ٦٦ بالحاشية.

وفيها طَلَعتْ طائفةٌ كبيرةٌ من التركِ ، فنزل بَعضُها على دُلوكٍ[١] وتقدّم منهم نحوُ ألفٍ ، فَنَهبُوا بلدَ أنطاكيةَ عن آخرِه ؛ وأخذوا نحو أربعين ألف جاموس . وقيل أكثر ، حتى أنَّ الجاموس كان يُباع بدينار ، وأكثره بدينارَيْنِ وَثلاثة . وأما البقر ، والغنم ، والمعز ، والحمير ، وَالجواري ، فلم يقع على ذلك إحصاء من الكثرة . وكانت الجارية تُباع بدينارَيْنِ والصبي بتطبيقة[٢] نِعَالٍ للخيل .

انكسار الروم

وخرب بلد الرُّوم خَراباً لم يسمع بمثلِهِ ؛ وبقيت الغلّاتُ في البيادِر ما لها من يرفعُها مِنهم ، حتى كان الفلّاحونَ وسائرُ العوَامِّ يمضي الواحد منهُم ويأخذ ما يريدُ ، فلا يجدُ من يُدافِعه عن ذاك ؛ لِأنَّ الرُّومَ تحصّنُوا في الحُصُون والجبالِ ، والمَغَاير ، وتَركوا بيوتهم على حالِها لم يأخذُوا مِنها شيئاً ، لأنَّ التُّرْكَ أتوْهم على غَفلَةٍ ، وكان ذَلِكَ في شوّال .

وكان مُقدّمُهم أفشِين بن بكجي ، وكان قد غَضِبَ عليه العادل ألب أرسلان بسبب خادم كان زعيم بعض عساكِره ، فقتله الأفشين . وقطع الفُرات إلى بَلَد الرُّوم ، ثم خرج إلى أعمال حَلَب ، وباع الغنائم الّتي كانت مَعَهُ .

وَنَزَلَ في سَنة سِتّين حول أنطاكية ؛ وضاق الشيء فيها[٣] حتى

(١) دُلُوك : بليدة من نواحي حلب بالعواصم – انظر زبدة الحلب ١ / ٥٧ بالحاشية .

(٢) انظر في معاني هذه الكلمة معجم دوزي ٢ / ٢٥ ومن معانيها : قطعة من حديد أو نحاس توضع على سرج الخيل ، أو تستعمل للنعال .

(٣) خبر هذه الضائقة ورد كذلك في تاريخ العظيمي ، مخطوطة استانبول بالورقة ١٨١ و : ٥ سنة ستين وأربعمائة ؛ وجاء بالشام سحابٌ عظيم أتلف النبات ، وجاء بعده

بلغت الحنطة قفيزين[1] بدينار. فلمّا لم يَبْقَ شيء دون فتحها أَتَته كتب العادِل ألب أرسلان من العِراق بالرّضا عنه. وقيل إنّ أصحاب مؤونة السّوق بحلب حَصَل في دفاترهم نحو || سبعين ألف مملوك ومملوكة [٨٤ و] سِوى ما بِيع بغير مَؤونة في بلد الرّوم وسائر البُلدان، وأَخذ من أصحاب أنطاكية مائة ألف دينار، ومثلها من ثياب الدّيباج والآلة. ٥ وسار إلى العراق في جُمادى الآخرة من السّنة[2].

وفي هذه السّنة سَلّم أميرٌ من أمراء المغاربة يعرف بابن المرأة حصن أَسفُونَا إلى الأمير عزّ الدّولة محمُود بن نصر بن صالح. وتولّى ذلكَ الأمير سديد المُلك أبو الحسن عليّ بن مُنقذ.

حرب الروم وآل مرداس

وفي يوم الثّلاثاء السّابع والعشرين من شعبان[3]، فُتحت أرتاح[4] ١٠ بالسّيف؛ ونهب جميع ما فيها وما في حصنها من الأموال والذّراري؛ وكان فيها خَلقٌ عظيمٌ من النّصرانيّة لأنّ جميع من كان في تلك

سيل ارتفاعه ثلثون ذراعاً» – وفي ابن الاثير ٨/١٠٦ خبر زلازل وخراب في الشام، وكذلك في ذيل تاريخ دمشق ص ٩٤.

(١) القفيز: مكيال ثمانية مكاكيك؛ والمكوك يسع صاعاً ونصفاً، والقفيز من الأرض: قدر مئة واربع وأربعين ذراعاً ج أقفزة وقفزان.

(٢) نقل هذا الخبر وترجمه المستشرق هونيغمان في كتابه بالألمانية عن حدود الامبراطورية البزنطية ص ١١٨.

(٣) ساق هونيغمان خبر هذا الفتح في ١٧ شعبان – انظر كتابه ص ١١٩.

(٤) أرتاح: حصن كان من العواصم في أعمال حلب تحت منعطف نهر عفرين – انظر زبدة الحلب ١/١٦٩ بالحاشية – وفي تاريخ العظيمي مخطوطة استانبول بالورقة ١٨١و: «فتح الأفرنج طليطلة، وخرج ملك الروم إلى عزاز ومنبج ففتحها وفتح ارتاح ونهب الافشين عمورية، وفتح الروم حصن اسفونا».

المواضع منهم حَصَل بها لأنها كانتْ الكرسيّ لهم هُناك . وقتل من رجالها نحو ثلاثة آلاف رجل ؛ وَقَدْ كان الملكُ ابن خَان حاصرها زُهاء خمسة أشهر .

وأتى عسكرٌ عظيمٌ من عساكرِ الرّوم ، فنَزَلَ على باب أنطاكية ٥ ليُصالح الملك ابن خان عن أرتَاح وغيرها من بلادهم ؛ فلم يتمّ بينهم صُلحٌ . وإنّما كان غَرض العَسكر أنْ يَدُسَّ إلى أنطاكية غلّة حُمِلَتْ إلى السُّوَيْدَاء (١) لتقويتها .

وكان فتح أرتاح فتحاً عظيماً لأنّ عملها قريبٌ من أعمال الشّام، مِن الفُرات إلى العاصي إلى أفامية (٢) إلى باب أنطاكية إلى الأثارب (٣) .

١٠ وقيل بأنهم أحصوا إلى شهر رمضان من هذه السنة أنّه افتقد من الرّوم في الدّرب (٤) إلى أفامية بحساب قتلًا وأسرًا ثلاثمائة ألف نفر .

وخَرَج ملك الرّوم في سنة إحدى || وستّين وأربعمائة إلى ديار [٨٤ ظ] الشام فأخذ كثيرًا من أهل منبج ، وهَرَب أهلها من حصنها فأَخَذَهُ ، وَشَحَنَهُ رجالًا وغلّةً وعدّةً . وسار إلى عَزاز (٥) فوقف عليها ساعة ،

(١) في معجم البلدان لياقوت ٣/ ١٩٧ : « السُّوَيْداء : تصغير سوداء ، بلدة مشهورة في ديار مضر بالضاد المعجمة قرب حرّان بينها وبين بلاد الروم ، فيها خيرات كثيرة وأهلها نصارى أرمن في الغالب » – وقد علّق هونيغمان ١٣٦ على موقعها في الحاشية فقال ما ملخصه انها بالأرمنية Sevaverak ، وانها اليوم Siverak ومن شاء التفصيل فليرجع الى هذا الكتاب .

(٢) أفامية : كورة من كور حمص – انظر زبدة الحلب ١ / ١٧١ بالحاشية .

(٣) الأثارب : قلعة بين حلب وحمص – انظر زبدة الحلب ١ / ١٣٣ بالحاشية .

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٢ / ٥٦٢ : « الدَّرْبُ : إذا أطلقتَ لفظ الدّرب أردتَ به ما بين طرسوس وبلاد الروم لأنه مضيق كالدرب » .

(٥) عزاز : بليدة في شمالي حلب – انظر زبدة الحلب ١ / ١٦٥ بالحاشية .

ورَجع جَاولًا ، وسلّط الله عَلَيه وعلى أصحابه الغَلاء ، والعِلّة ، والوباء. فذكر ملك الرُّوم للقاضي القضاعي رَسول المصريّين أنّه مات له في يوم واحد ثلاثة آلاف من خيله سوى عسكره .

وقيل : إنّ منبج بقيتْ في بلَدِ الرُّوم سبع سنين ، وهذا الملك هو ديوجانس[1] . ولا يبعُد عندي أنّه الّذي عناه هرقل بقوله : « لا يعود إليك روميٌّ إلّا خائفاً حتّى يولد المولود المشئوم ، ويا ليتهُ لا يولد »[2] .

وفي يوم السَّبت أوّل شعبان من هذه السنة، جمع قَطَبان أنطاكية ودوقسها المعروف بالنحت[3] جموعاً كثيرة . وطلَع إلى حصن أسفُونا بعَمْلة عملها عليه قوم يُعرفون ببني ربيع من أهل جوزن[4] ، ففتحوه ، وقتلوا كثيرًا من رجالِهِ وكانوا ثمانين رجلًا ، وأسروا الباقين . وكان الوالي به رجلًا من الأتراك يعرف ببنادِر .

هدنة الروم

وبلغ الخبرُ إلى الأمير عزّ الدّولة محمود بن نصر بن صالح ، وهو يسير في الميدَان بظاهِر مدينـة حلب ؛

---

(١) في الأصل المخطوط : « اليزدوجانس » – وقد ذكر الواقعة هونيغان في كتابه ١١٩ ، وقال انه القيصر : « ديوجانس » Kaiser Romanos Diogenes – وقد ذكره ابن العديم بالورقة ٨٩ ظ الآتية باسم « ذيوجانس » فلعله هنا من تصحيف الناسخ حين عمي عليه الاسم الاعجمي.

(٢) لما انكسر الروم في الشام فصل هرقل عنه وعلا على شرف والتفت ونظر الى سورية وقال : « عليك السلام يا سورية سلام لا اجتماع بعده ، ولا يعود اليك روميّ أبدًا إلّا خائفًا ، حتى يولد المولود المشئوم ويا ليته لا يولد » – انظر زبدة الحلب ١ / ٣٥.

(٣) وقع الاسم هنا من غير نقط وقد مرّ بنا في زبدة الحلب ١ / ٢٩٦ اسم بطريق للروم يعرف بالنحت ولكننا لم نهتد في المصادر الاخرى إلى حقيقة لفظه ، وهونيغان ترجم النص ص ١٢١ كما يلي Dux von Anṭākiya من غير ذكر لاسمه.

(٤) لم نقع على ذكر لهذا الموقع في معاجم البلدان.

فسار في الوقت يوم الاثنين في التُّرك والعرب ؛ ولم يدخُل البلد ، واجتمع عليه خَلْقٌ عظيمٌ سمع من يحزرهم بخمسين ألفاً ؛ فحاصره سبعة أيام ، وفتحه يوم السَّبت ، وقتل جميع رجالِهِ ، وكانوا ألفين وسبعمائة ؛ وفي ذلك يقول أبو محمّد الخفاجي[1] :

٥ إنْ أظهرَتْ لِعُلاكَ « أنطاكِيَّةٌ » حُزناً فقدْ ضَحِكَتْ عَلى قُطّانِها[2]

[٨٥ و] ‖ بَعَثَ البَريدَ مُخَبِّراً عَنْ وَثْبَةٍ ما كان أحْوَجَهُ إلى كِتْمانِها

لَمّا أطَلَّ لَهُ[3] لِواؤُكَ خافِقاً عرفَتْ وُجوه الذُّلِّ في صُلْبانِها

وفيه يقول أبو الفضل عبد الواحد بن محمّد الحلبيّ الربعي :

رَدَدْتَ عَلى الاسلامِ شَرْخَ شَبابِهِ وكَادَتْ عَلَيْهِ أنْ تُقامَ المَآتِمُ

١٠ وظَنَّ طُغاةُ الرُّومِ مُنذُ أغِبْتُهم نِزالَكَ أنَّا حينَ ذاكَ نُسالِمُ

ثم إنّ محموداً هادن الرُّوم في هذه السَّنة على أن اقترضَ منهم أربعة عشرَ ألف دينار ، وعلى أن يجعل ولده « نصراً » رهناً عليها ، ويهدم حصن أسفُونا . فأخرج ثابت ابن عمّه معزّ الدّولة وشبل بن جامِع ، وجمعا النّاس من معرّة النّعمان و كفرطاب[4] وأعمالها ؛ وخربا

١٥ حصن أسفُونا .

---

(١) جاءت هذه الأبيات في قصيدة من ديوان أبي محمد عبدالله بن سعيد بن يحيى بن سنان الخفاجي ، نسخة كوپريلي بالورقة ٧٦ ظ ، ومطلع القصيدة ومقدمتها في الديوان كما يلي :

« وقال يمدح شرف أمراء العرب سيف الخلافة أبا سلامة محمود بن نصر بن صالح ابن مرداس ، وكتب إليه يذكر مسيره إلى حصن اسفونا وقد ظفرت الروم به واستنقاذه منهم وقتل من كان فيه ، وذلك في شعبان سنة احدى وستين وأربعمائة :

أمّا ظُباكَ فقد وفت بضَمانِها فمتى تجُودُ جا على أجفانِها ؟ »

(٢) في زبدة الحلب : « حرباً » – في ديوان الخفاجي : « حزناً » .

(٣) في زبدة الحلب : « لما أطلّ » – وفي ديوان الخفاجي : « لما أطلّ له » .

(٤) كفرطاب : بلدة بين المعرة وحلب – انظر زبدة الحلب ١ / ٩٠ بالحاشية .

ووقعتْ فتنة بحلبَ بين الحلبيّين والأتراك ، وقُتِـل من الأتراك نحو أربعين رجلًا ومن الحلبيين عشرة . ووَصَل في سنة اثنتين وستّين وأربعمائة صندق التركي[١] خارجاً من بلد الرّوم ، ومعه عسكر عظيم ؛ وَدَخَلَ إلى بلَد حلب مِنَ الأُرتيق[٢] إلى الجزر[٣] إلى بلد معرّة النّعمان و كفرطاب إلى حماة وحمص إلى رفنية[٤] . ٥

وشتوا في هذه السِنة فنهبوا الضِّياع وسَبَوا منها ، وعاقَبُوا مَنْ وُجِدَ هناك ؛ وفتحوا جبابَ الغَلّة ومَدَافنها . وقطع القطائع الكثيرة على مواضِع امتنعَتْ عليه .

ولقي أهـلُ الشّام مِنْ عسكره شِدّةً عظيمةً ، وهو أوّلُ نَهْبٍ وفسادٍ جرى بالشّام من الأتراك . ولما انقضى زمنُ الشّتاء عاد إلى بلد ١٠ الرّوم بعد أن أكرمَهُ محمود بن نصر بتُحفٍ وهَدَايا || حَمَلها إليه . [٨٥ ظ]

ألب أرسلان ومحمود

ألب ارسلان

ثمّ إنّ محمود بن نَصْر بن صالح راسل في هـذه السّنة السلطان العادِل ألب أرسلان[٥] ، واستقرّ الأمر بينهما

---

(١) هو صُنْدَق التركي–ولمعرفة الأعلام والأقوام الواردة في هذا القسم انظر المصدر الآتي :
C. Cahen, *Byzantion*, IX, pp. 613-642.

(٢) الأُرتيق : بالضم والفتح – كورة من أعمال حلب – انظر زبدة الحلب ١ /٢٩٣ بالحاشية – وارجع إلى المصدر التالي :
M. Hartmann, *Das Liwa*....

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٢ /٧١ : « الجزر أيضاً كورة من كور حلب » – انظر في دوسو ٢١٣ .

(٤) رفنيّة : كورة ومدينة من أعمال حمص – انظر زبدة الحلب ١ / ٢٣٠ بالحاشية ، وارجع الى دوسو ٩٨ : « Rafanée » .

(٥) هو أبو شجاع محمد بن جغرى بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب

على أن يخطب محمود بحلب للإمام القائم خليفة بغداد[1] وبعده للسلطان العادل ألب أرسلان وبعده لنفسه ؛ فوصل إليه نقيبُ النقباء أبو الفوارس طراد بن علي الزينبي[2] لإقامة الدعوة العباسية ، ومعه الخِلع من القائم بأمر الله[3] ومن السلطان.

٥ فجمع محمود أهل حلب وقال لهم : « قد ذهبت دولة المصريين ! وهذه دولة جديدة ، ومملكة سديدة ونحنُ تحت الخوف منهم ، وهم يستحلّون دماءكم لأجل مذهبكم والرأي أن نُقيم الخطبة خوفاً من من أن يجيئنا وقت لا ينفعُنا فيه قول ولا بذل »[4].

عضد الدولة ألب أرسلان ، وهو ابن أخي السلطان طغرلبك - وكانت ولادته سنة ٤٢٤هـ. - ووفاته ٤٦٥ هـ ؛ ومدة ملكه تسع سنين ، وألب أرسلان بفتح الهمزة وسكون اللام وبعدها باء موحّدة ، وهو اسم تركي معناه شجاع أسد ، فألب : شجاع – وأرسلان : أسد. - انظر وفيات الأعيان في ترجمته ٣ /٦٦ ، وكذلك في المنتظم لابن الجوزي ٨ /٢٧٩ – وارجع إلى سيرته في الكامل لابن الأثير ٨ /١١٣.

(١) في الكامل لابن الأثير ط. مصطفى محمد بالقاهرة ٨ /١٠٨ « ثم دخلت سنة ثلاث وستين وأربعمائة – في هذه السنة خطب محمود بن صالح بن مرداس بحلب لأمير المؤمنين القائم بأمر الله والسلطان ألب ارسلان ، وسبب ذلك أنه رأى اقبال دولة السلطان وقوتها وانتشار دعوتها » – انظر ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ٩٨.

(٢) في تاريخ ابن خلدون ٣ /٤٧٠ : « وكتب بذلك إلى القائم فبعث إليه نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي بالخلع » – وصحيح اسمه في المنتظم كذلك ٩ /١٠٦ طراد ابن محمد بن علي ، فجدّه علي ، ولي نقابة العباسيين بالبصرة ثم انتقل إلى بغداد ، ولد ٣٩٨ هـ – وتوفي ٤٩١ هـ ودفن فيها – وقد ورد اسمه في كبار المشايخ بكتاب طبقات الحنابلة طبعة الاستاذين لاووست والدهان ١ /١١٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ – انظر الكامل لابن الأثير ٨ /١٠٨.

(٣) القائم بأمر الله هو عبدالله بن القادر بالله ويكنى أبا جعفر – ولد سنة ٣٩١ هـ – وتوفي ٤٦٧ هـ ؛ بويع بالخلافة ٤٢٢ هـ – انظر المنتظم لابن الجوزي ٨ /٥٧ ، ٢٩١.

(٤) في الكامل لابن الأثير ٨ /١٠٨ : « فجمع اهل حلب وقال هذه دولة جديدة ومملكة شديدة ، ونحن تحت الخوف منهم ، وهم يستحلون دماءكم لأجل مذاهبكم ، والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتي وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل ».

فأجاب مَشايخ البلَد إلى ذلك فلبِسَ المؤذِّنونَ والخطيبُ السَّواد، وخطب للامام القائِم، وبَعْدَه للسّلطان ألب أرسلان، وبعده لمحمود، ولقّبَ الأمير الأجلّ حُسام الدّولة العبّاسية، وزَعِيم جيوشها الشّاميّة تاج المُلوك، ناصر الدّين، شرف الأمّة ذو الحسَبَيْن خالِصَة أمير المؤمنين[1]. ٥

وأمر ابن خان الأتراك بالوُقوف على باب الجامع، وقتلَ كُلّ من يخرجُ ممتنعًا من الصَّلاة وسَماع الخُطبة؛ فسأله الشّيوخ ألا يفعَل خوفًا مِنْ وقوع فتنة. وأخذتِ العامّة الحصر الّتي في الجامع، وقالوا: «هذه حصر عليّ بن أبي طالب فليجئ أبو بكر بحصرٍ حتى يُصَلّي عليها النّاس[2]». وكان ذلك يوم الجُمعة التّاسع عشر من شوّال سنة اثْنَتَيْن ١٠ وستّين وأربعمائة.

[٨٦ و] ومَدَحه الشّيخُ أبو مُحمّد بن سَنان الخفاجيّ الحلبيّ بقصيدةٍ طويلةٍ، يقولُ فيها[3]:

مَا يَصْنَعُ ٱلحسَبُ ٱلكَرِيمُ بِعَاجِزٍ ... يُبْنَى لَهُ ٱلشَّرَفُ ٱلرَّفِيعُ وَيَهْدِمُ[4]

---

(١) ورد هذا الخبر مختصرًا في الكامل لابن الأثير بالصفحات المذكورة قبل قليل.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/١٠٨: «وقالوا هذه حصر علي بن أبي طالب فليأت أبو بكر بحصر يصلي عليها الناس».

(٣) وردت هذه القصيدة في ديوان أبي محمد عبدالله بن سنان الخفاجي، بنسخة كوبريلي في الورقة ٧٩و. يتقدمها قوله: «وقال يمدحه أيضًا ويذكر دعاءه للخليفة القائم بأمر الله في حلب وأعمالها، ولُقّب بحسام الدولة العباسية وزعيم جيوشها الشاميّة وذلك في صفر سنة ثلث وستين وأربعمائة:

قد غادَرَ الشُّعَراءَ مَنْ يَتَرَنَّمُ ... إنْ كانَ يُسْمَعُ ما أقولُ ويُفْهَمُ

(٤) في مخطوطة الأصل عندنا: «يبني له الشريف» وهو لا شك سهو من الناسخ لا يستقيم مع روايته البيت أخذناه عن المخطوطة والبيت قاله في معرض هجاء لرئيس الروم.

وكان ناصر الدّولة بن حمدان قد تغلّب على مصر، ووَقَع بينَه وبين جماعةٍ مِن الأمراء بمصر وحشَة؛ فأنفَذَ إليه الفقيه أبا جعفر محمد بن أحمد البخاري المعروف بقاضي حلب[1] — وأظنّ ناصر الدولة قلّده قضاء حلب حين وردها؛ ووقعت به وقعة الفُنَيدِق[2]، والسلطان ألب أرسلان حين حاصر حلب وهو معه فعُرِف بذلك — أرسله ابنُ حمدان رسولًا إلى السلطان ألب أرسلان يستدعي عساكره ليسلّم إليه ديار مصر ويغيّر الدعوة؛ وذلك في سنة اثنتين وستّين.

فلمّا ورد عليه الرسول إلى خراسان جهز العساكر العظيمة التي تملأ الفضاء، ووَصل معها على طريق ديار بكر، ونَزَل الرّها[3] في أوّل سنة ثلاث وستّين، وأقام عليها نيّفًا وثلاثين يومًا.

رسول السلطان

وسَيَّر الفقيه أبا جعفر قاضي حلب المذكور رسولًا إلى محمود بن نَصر بن صالح يستدعيه إلى وطء بِساطه وخدمته أسوةً بمَنْ وَفَد عَلَيه مِن المُلوك مثل: شرف الدولة مسلم بن قريش، وابن مروان، وابن وثّاب، وابن مزيد، وأمير التّرك والدّيلَم. فلم يُجِبْ محمود إلى ذلك، وخاف منه.

فسار عن الرُّها إلى الشّام قاصدًا محمود بن نصر، فقطع الفُرات

(١) هو محمد بن أحمد بن حامد بن عبيد اليكندي أبو جعفر القاضي من أهل بخارى كان عارفًا بعلم الكلام على مذهب المعتزلة داعية إليه – ذكر ذلك القرشي في الجواهر المضية ٢ / ١٠ ونقل عن ابن العديم: «انه مات سنة اثنين وثمانين وأربعمائة وقد جاوز التسعين» وهو المعروف بقاضي حلب، دفن في مقبرة باب حرب ببغداد.

(٢) الفنيدِق: من أعمال حلب كانت به عدة وقعات – انظر زبدة الحلب ١ / ٢٧٨ بالحاشية.

(٣) الرُّها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام – انظر زبدة الحلب ١ / ٢٥ بالحاشية.

في النّصف من شهر ربيع الآخر سنـة ثلاث وستّين وأربعمائة ، من نَهر الجوز[١] ؛ ونَزَل على بعض المُروج فأعجبَهُ ، ‖ فقال له الفقيه أبو جعفر قاضي حلب : « يا مَولانا احمَـد الله تعالى على هٰذِهِ النّعمة ؛ وهي أنَّ هذا النهر لم يقطعهُ قطُّ تركيٌّ إلا مملوكٌ . وأنتَ قد قطعتَهُ مَلِكًا »[٢] . [٨٦ ظ]

فأحضرَ الأمراء والأتراكَ وأمرهُ بإعادَة القَوْلِ . قال : فأعدتُهُ ، فحمد الله تعالى حمدًا كثيرًا . ٥

ونَزَل بنقرة[٣] بني أسد إلى أرض قِنَّسرين إلى الفُنَيـدِق . وكان نقيبَ النقباء بحَلب لم يَنفَصِلْ عنها بعد إقامة الدَّعْوَةِ ، فسألهُ محمود أن يَخرُجَ إلى السُّلطَان ، ويُصلِحَ أمرَهُ معه ، فخرج مُستَفسِرًا ومتوسّلًا . وتلطّفَ الأمر ، وأحسن السفارة . وخاطب السّلطان بأنّـه قريب العهد بالخطبة للخليفة ، وقد لبس تشريفه . ١٠

فقال السّلطان : « أيّ شيء تساوي خطبتُه للخليفة ولبسُ تشريفه ، مع ما سبق من شَقِّهِ العَصَا وخروجِهِ عن الطّاعة ! » وأبى قبول الشّفاعة فيه بدون وطء محمود بساطه[٤] .

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٢/١٥١ : « نهر الجوز : ناحية ذات قرى وبساتين ومياه بين حلب والبيرة التي على الفرات ، وهي من عمل البيرة في هذا الوقت . وأهل قراها كلهم أرمن » .

(٢) في وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٦٦ : « وقال المأمون في تاريخه : قيل إنه لم يعبر الفرات في قديم الزمان ولا حديثه في الاسلام ملك تركي قبل ألب أرسلان فانه أول من عبره من ملوك الترك » .

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٤/٨٠٦ : « النُّقرة : يروى بفتح النون وسكون القاف ، ورواه الأزهري بفتح النون وكسر القاف – وقال الأعرابي : كل أرض منصوبة في وهدة فهي النقرة » .

(٤) في الكامل لابن الأثير ٨/١٠٩ : « فقال له محمود صاحب حلب اسألك الخروج إلى السلطان واستعفاءه لي من الحضور عنده ، فخرج نقيب النقباء وأخبر السلطان

حصار حلب

فخاف محمود ولم يجب إلى ذلك ، وتمادى الأمر نحو شهرين . وحصّن محمود حلب وجفل الناسَ من سائر الشام إليها ، وحصَل الرّعبُ في قُلوبهم هيبةً له ، لما اجتمع إليهِ من العساكر الجمة ، والجيوش الكثيفة الضخمة . وكان الأمر بخلاف ما ٥ ظنَّ الناسُ ؛ فإنَّهُ لما أيس من خُروج محمود إليه عادَ من الفُنيدق وكانتْ خيمتُه على ذلك التّلِّ فعرف بتلّ السّلطان[1] من ذلك اليوم.

ونَزَل على حلب في آخر جمادى الآخرة من السَّنة، وكانت الخيامُ والعساكرُ من حلب إلى نقرة بني أسد ، إلى عَزاز ، إلى الأثارب ، متقاربةً بعضها من بعضٍ ؛ ولم || يتعرَّض أحدٌ من العَسكر بمالِ أحدٍ ، [٨٧ و] ١٠ ولا سُبِيَتْ حرمة ، ولا قاتل حصناً .

وبَلَغني أنّ عسكره العَظيم لم يأخذ عليقةَ تبنٍ مِنْ فَلّاح إلَّا بثمنهِ ، وأقام مُحاصِرًا حَلَب شهرًا ويومين . ولم يقاتلها غيرَ يوم واحدٍ ، وقصد المُطاوَلة بالبلد بَعْدَ أنْ أشرفَ على الأخذ ، وقال : « أخشى أنْ أفتحَ هـذا الثغر بالسّيف فيصير إلى الرّوم » . ونُقبَ بُرجُ الغَنَم ، وعُلِّق ، ١٥ فظَفِرَ أهلُ حلب بمن دَخلَ ذلك النّقب وأخذوا بعضهم ، ووقع الرَّدْمُ على الباقين .

وعصّب الحلبيون بُرجَ الغَنَم بشقة أطلس ، وكان السلطان نازلًا بميدان باب قنّسرين ، فسأل عَنْ ذلك فقيل : « هؤلاء الحلبيّون

بأنه قد لبس الحلة الفاطمية وخطب . فقال : أي شيء تساوى خطبتهم وهم يؤذنون (حيَّ على خير العمل) ولا بد من الحضور ودوس بساطي » .

(١) تلّ السلطان هو الفنيدق ، وقد مرّ تحديد موقعه – انظر زبدة الحلب ١ /٢٧٨ بالحاشية.

يقولون على سبيل المزح : قد صَدَعَ البُرجِ رأسَهُ من حجارة المَنجنيق فقد عَصَبُوه » . فغَضِبَ ، وفرّق في تلك اللّيلة ثمانين ألف فَرْدة نشّاب خلنج [1] ، غير ما رماه بَقِيَّة العسكر .

وأصبح وأمر بالزّحف فجَدَّ النّاسُ في قِتال البلد ، وحمل السّلطان بنفسه في ذلك اليوم ، فوقعت يدُ فرسه في خسف كان هناك ، وأصاب في الحال رأس فرسه حجر المنجنيق [2] فرَكِبَ غيرَه ؛ وعاد ، وصرف النّاس عن الحرب بعد أن أشرف البلد على الأخذ إبقاء لحُرمة البلد ، وكان عسكره دائرًا بالبلد من جميع وجوهه .

ثم إنّ السّلطان راسل الأمراء من بني كلاب وأحضرهم من البرّيّة ، فوصَلوا إليه ، وعوّل على تقليد بعضهم وتَرْكه في مُقابلة محمود وعَوده لأجل ما بلغه من ظهور ملك الرّوم إلى بلاد أرمينية عازماً على قصد خُراسان .

[٨٧ ظ] ولمّا علم محمود بأنّ البلد قد أشرفَ || على الفتح ، وعَلِمَ بوُصول الأمراء من بني كلاب ، وأنه إنْ تمّ ذلك خرج الشّام مِنْ يدِهِ ، فراسل السُّلَيماني – وكان يتردّد إليه في الرّسالة – يُعلمه أنه قد عزم على وَطء بساط السّلطان وخِدمته خوفاً مما أشرَفَ عليه .

فَخرج إلى السُّلطان بنفسه ، ومعه والدته علويّة ، المعروفة

(١) الخَلَنج : شجر كالطرفاء ، وزهره أحمر وأصفر وأبيض ، وحبّه كالخردل ، وهو فارسيّ معرّب.

(٢) أورد ابن الأثير هذا الخبر في إيجاز على عادته ٨ / ١٠٩ : «فامتنع محمود من ذلك فاشتد الحصار على البلد ، وغلت الأسعار ، وعظم القتال وزحف السلطان يوماً وقرب من البلد فوقع حجر منجنيق في فرسه».

بالسيّدة[1]، في أوّل شعبان؛ وأخذَ مفاتيح البلَد معه، فدخلا والعسكر سِماطان بينَ يدَيه، فخدماه، وسلّما عليه، فأكرمها، وأحسن اليهما، وقال للسّيّدة: «أنتِ السّيّدة؟» قالت: «سَيِّدةُ قومي»[2]. — وقد ذكرنا أنه جَرى لَهَا ذٰلِكَ مع المُستَنْصِر —.

٥ وأطلق لهُ البلد، وشرّفهُ، وخلع عَلَيه، وكَتَب له توقيعاً بحلب، وتردّد خُروج محمود إلى خدمته مرّةً بعد أخرى؛ وقرّر معه السُّلطان أن يخرج بعسكرِهِ، ويضيف إليه السّليماني، وأنْ يتوجّها إلى بلاد دمشق والأعمال المصريّة لِفتحها فَفعل ما أمَرَهُ به، وعاد السُّلطان إلى بلاده.

الروم والسلطان

١٠ وقيل: إنّه خَلّف ابنَه مع فوج من عساكره بكُورَة حَلَب، وقصد ملك الرُّوم، وأسرع في السَّير لأنّه بلغه أنّ ملك الرُّوم خرج في جموعٍ لا تُحصى؛ وأنه وَصل إلى قاليقَلا[3] — وهي أرزن الرّوم[4] —. فوَصَل السّلطان إلى

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/١٠٩: «فلما عظم الأمر على محمود خرج ليلاً ومعه والدته منيعة بنت وثاب النميري فدخلا على السلطان وقالت له هذا ولدي فافعل به ما تحب، فتلقاهما بالجميل، وخلع على محمود وأعاده إلى بلده» – والخبر في ذيل تاريخ دمشق ٩٩ مختصر جدًّا، وكذلك في وفيات الأعيان ٢/٤٦– وأما تاريخ العظيمي مخطوطة استانبول بالورقة ١٨١ ظ فتورد عن الحادثة: «وخرجت أمه السيّدة إلى السلطان وخرج محمود ووطئ بساطه فأنعم عليه بالبلد» – وهنا نلاحظ أن ابن الأثير وابن العديم وحدهما أوردا اسم السيدة زوجة نصر وأم محمود، وقد مر بنا في الجزء الأول من زبدة الحلب في محلات كثيرة اسم هذه السيّدة، وهو «علوية» لا «منيعة» كما يورد ابن الأثير واوصاف الذكاء والنجابة هنا تنطبق عليها في كل ما روي عنها.

(٢) انظر زبدة الحلب ١/٢٦٧: «فأعجبه منها سرعة جوابها وحسن توصلها وقال لها: أنت المسماة بالسيّدة فقالت: نعم سيّدة قومي وأمتك يا أمير المؤمنين!»

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٦/١٩: «قاليقلا: بأرمينية العُظمى من نواحي خلاط ثم من نواحي منازجرد».

(٤) في معجم البلدان لياقوت ١/٢٠٥: «أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط

أذربيجَان[١] حين بلغه أنّ ملك الرُّوم قد أخذ على سمْتِ خلَاط[٢]،
وكان السّلطان في خوَاصِّ جُنْدِهِ، وجموعُ عَساكِرِهِ بعيدةٌ عنه، ولم
يَرَ العوْدَ إلى بلاده؛ فسيَّر وزيرَه نظامَ المُلك وزَوْجته الخَاتُون إلى
تبريز[٣] مع أثقالِهِ[٤].

[٨٨ و] وبَقِيَ في خمسة عشر ألف فارسٍ من نُخْبَـةِ عسكرِهِ ‖ مع ٥
كل واحدٍ فرسُه وجنيبةٌ[٥]؛ والرُّوم في زُهـاء ثلاثمائة ألفٍ أوْ
يزيدُونَ ما بَيْنَ فارس وراجلٍ، من جموعٍ مختلفـةٍ منَ الرُّوم،
والرُّوس، والخزَر[٦]، واللّان[٧]، والغزّ[٨]، والقفجق[٩]، والكرج

ولها قلعة حصينة وكانت من أعمر نواحي أرمينية، وأما الآن فبلغني أن الخراب ظاهر فيها»
– ثم يقول ياقوت: «وأرزن الروم بلدة أخرى من بلاد أرمينية أيضاً أهلها أرمن»
ولكنه لا يحدد موقعها، بل يضطرب في ذلك ويتردد في النصل.

(١) في معجم البلدان لياقوت ١/ ١٧١: «أذربيجان: بالفتح ثم السكون وفتح
الراء وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة وجيم وهي اقليم واسع ومن مشهور مدائنها تبريز
وهي اليوم قصبتها وأكبر مدنها» وهي تتصل من الشمال ببلاد الديلم من أرض الفرس.

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٢/ ٤٥٧: «خلاط: بكسر أوله وآخره طاء
مهملة – البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة... وهي قصبة أرمينية الوسطى».

(٣) في معجم البلدان لياقوت ١/ ٨٢٢: «تِبْرِيز: بكسر أوله وسكون ثانيه
وكسر الراء وياء ساكنة وزاي – كذا ضبطه أبو سعد – وهو أشهر مدن أذربيجان،
وهي مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والجصّ».

(٤) في الكامل لابن الاثير ٨/ ١٠٩: «فسيّر الأثقال مع زوجته ونظام الملك
إلى همذان».

(٥) الجنيب: كل طائع منقاد، والجنيبة: الدابّة تُقاد

(٦) الخزر: بلد بين بحر الخزر والروس، يسمى باسم النهر الذي يجرى عليه – انظر
زبدة الحلب ١/ ٢٦٠ بالحاشية، وارجع الى معجم البلدان لياقوت ٢/ ٤٣٦.

(٧) في معجم البلدان لياقوت ٤/ ٣٤٣: «اللّان: آخره نون – بلاد واسعة في
طرف أرمينية قرب باب الأبواب مجاورون للخزر... وهم نصارى تجلب منهم عبيد أجلاد».

(٨) الغُزّ: من أجناس الأتراك – انظر كتاب البلدان للهمذاني ص ٣٢٩.

(٩) لعله الخفشاخ او الخفشاق كما في كتاب البلدان للهمذاني بالصفحة المذكورة؛
وهم صنف من الأتراك كذلك – وقد رسمه كاهن Qipčâq.

والأبخاز[١] ، والفرنج ، والأرمن . وفيهم خمسة آلاف جَرْخي[٢] ؛ وفيهم ثلاثون ألف مُقدَّم ما بين دوقس ، وقومص[٣] ، وبطريق.

فرأى السُّلطان أنّ الإمهال للحشد والجمع مُضِرٌّ ؛ فركب في نُخبتِهِ وقال : أنا أحتَسِبُ نَفْسِي عِندَ الله ؛ وهي إما السعادة بالشهادة ، وإمّا النصر[٤] ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾[٥] . ثم سار مرتّباً جيشه قاصدًا جموعَ الرُّوم .

وكانَ ملك الرُّوم قد قـدم مقدّماً في عشرين ألف مدرع من شجعان عسكره ، ومعه صليبُهم الأعظم ؛ فوصل إلى خلاط ، فنهب وسبى ، فخرج إليه عسكر خلاط ، ومعه صندُق التّركي الخارج إلى بلد حلب ، في سنة اثنتين وستّين ــ على مـا قدَّمْنا ذِكْرَهُ ــ فكسره صنْدق ؛ وأَسرَه ، وصادف ذلِك وُصول السّلطان ، فأمر بِجدْعِ أَنْفِهِ[٦] . وعَجَّل إنفاذَ الصَّليب[٧] الّذي كان في صُحْبته إلى نِظام المُلك ،

(١) الكرج هم الأبخاز ، وقد ذكر مسالك الممالك للاصطخري ١٩١ : « ان الأبخاز قوم من أرمينية ولهم مدينة باسمهم » – والكرج عند الافرنج Géorgiens .

(٢) الجرْخ : آلة عليها قوس يرمي السهام أو النفط ، ج جُرُوخ – والجَرْخيُّ : هو الذي يرمي بهذه الآلة – انظر معجم دوزي ١ / ١٨٢ .

(٣) في الأصل : «مومص» ولعلها محرفة عن «قومص» وقد ترجم كاهن الى الفرنسية هذه المراتب فقال : « Ducs, comts ou patrices.

(٤) في الكامل لابن الأثير ٨/١٠٩ : « وقال لهم : إنني أُقاتل مُحتسباً صابرًا فان سلمت فنعمة من الله تعالى وان كانت الشهادة فان ابني ملكشاه ولي عهدي » – انظر المنتظم لابن الجوزي ٨ / ٢٦١.

(٥) القرآن الكريم – سورة الحج ٢٢ / ٤٠ وتمامها : « ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَن يَنْصُرُهُ إنّ الله لَقَويٌّ عَزِيزٌ ».

(٦) في الكامل لابن الأثير ٨/١٠٩ : « فانهزمت الروسية وأسر مقدمهم وحمل الى السلطان فجدع أنفه » – انظر شذرات الذهب ٣ / ٣١١.

(٧) في ابن الأثير : « وأنفذ بالسلب إلى نظام الملك » – في المنتظم لابن الجوزي

وأمره بتعجيل إنفاذِهِ إلى «دار السَّلام» مُبَشِّرًا بالفَتْح ؛ وتَلاحق عسكرُ الرُّوم، فنَزَلوا على خلاط مُحاصِرين لها ؛ ونَزَل المَلِكُ على مَنازكِرد[1] فسلّمُوها إليه بالأمـان خوفاً من معرّة جُيُوشه إنِ استَوْلوا عليهم ؛ وذلك في يوم الثّلاثاء رابع ذي القعدة، سنة ثلاث وستّين وأربعمائة.

٥ فلما كان يوم الأربعاء سَيَّر أهلَ مناز كرد، وخرج بنفسه ليشيّعهم وهو في جُمُوعِهِ وحُشُودِهِ ‖ ووافق ذلك وُصول العسكر السُّلطاني، ووَقعت [٨٨ ظ] العَين في العَين، فحَمل المسلمون حملةَ رَجُلٍ واحد، فردّوهم على أعقابهم.

وشرع أهلُ مناز كرد يتسلّلون من بينهم فقَتَل الرُّومُ بَعْضَهم، ونجا البَاقون، وترك الرُّوم طريقهم الّذي كانوا سالكيه، وعـاد ١٠ ملكهم فنزل في مَضَاربِهِ بين خلاط ومَناز كرد ؛ وباتُوا ليلتَهُم على أعْظمِ قلق وأشدِّهِ.

نصرة السلطان

فلمّا أصبَحُوا بُكرة الخميس وَصل السلطـانُ ألب أرسلان في بقيّة عساكره، فنزل على النّهر، وملك الرُّوم على موضع يُعْرَفُ بالزّهوة[2] في مائتي ألف فارس، والسّلطان

٨/٢٦١ : «وأخذ الصليب وهربوا بعد أن اثخنوا قتلاً وجراحاً، وحمل مقدمهم الى السلطان فأمر بجدع أنفه وأنفذ الصليب وكان خشباً وعليه فضة وأقطاع من الفيروزج».

(١) منازكرد أو منازجرد : بلد بين خلاط وبلاد الروم، في شمالي بحيرة وان — انظر زبدة الحلب ١/٢١٩ بالحاشية.

(٢) في الأصل المخطوط عندنا «بالزهراء» ولم نقع عليه في معاجم البلدان — وفي المنتظم لابن الجوزي ٨/٢٦١ : «فالتقيا بموضع يقال له الزهوة.» — والزهوة كما في معجم البلدان لياقوت ٢/٨٨٠ ما اطمأن وارتفع ما حوله، ثم يحدد أنه صحراء قرب خلاط، فلعلّ الاسم هنا هو الزّهوة لا الزهراء لقرب الأول من مواقع الحرب المذكورة ولأنه يوافق كذلك ما في مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي بحاشية الصفحة ١٠٢ من ذيل تاريخ دمشق : «في موضع يعرف بالزهو بين اخلاط ومنازجرد» — لذلك صححنا الاسم في المتن كما ترى.

في خمسة عشر ألف[١] ؛ فأرسل السّلطان رسولًا حمّله سُؤالًا وضراعة، ومقصوده أن يكشف أمرهم، ويختبر حالهم ويقول لملك الرّوم: «إنْ كُنتَ ترغبُ في الهدنة أتممْناها، وإنْ كنتَ تزهدُ فيها وَكلنا الأمرَ إلى الله عزّ وجل[٢]».

٥ فظنّ الرُّوميّ أنه إنّما أرسله عن ضرورةٍ فأبى واستكبر، وأجاب[٣] بأنّي سوف أجيب عن هذا الرأي بالريّ[٤] ؛ فغاظ السّلطانَ جوابُهُ، وانقطعت المراسلةُ بينهما.

وأقام الفريقان يوم الخميس على تعبئة الصّفوف، فقال أبو نصر محمد بن عبد الملك البُخاريّ الحنفي فقيه السُّلطان وإمامُه: «أنتَ ١٠ تُقاتِلُ عَنْ دين الله الّذي وعد بإظهاره على الأديان[٥]، فالقَهم يومَ الجُمعة بعد الزّوال، والنّاسُ يَدعُون لكَ على المنابر في أقطار الأرض».

فلما أصبحوا يومَ الجمعة ركب السّلطان بجموعه وركبت الرّوم

(١) يختلف عدد المحاربين في المصادر ؛ وابن الجوزي يورد تفصيلات يحسن الرجوع اليها ٨ / ٢٦١.

(٢) في المنتظم لابن الجوزي ٨ / ٢٦١ : «فراسل السلطان ملك الروم بأن يعود الى بلاده، وأعود أنا فتتم الهدنة بيننا التي توسطنا فيها الخليفة، وكان ملك الروم قد بعث رسوله يسأل الخليفة أن يتقدم إلى السلطان بالصلح والهدنة. فعاد جواب ملك الروم بأني قد انفقت الأموال الكثيرة للوصول إلى مثل هذه الحالة».

(٣) في المنتظم: «هيهات لا هدنة إلّا بالري ولا رجوع إلا بعد أن أفعل ببلاد الاسلام مثل ما فعل ببلاد الروم».

(٤) الريّ : مدينة مشهورة بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً – انظر معجم البلدان لياقوت ٢ / ٨٩٣.

(٥) في الكامل لابن الأثير ٨ / ١٠٩ : «فقال له امامه وفقيهه ابو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي : إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره واظهاره على سائر الأديان وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة...» – انظر تفصيل ذلك فيما يلي من سطور بعد هذه الجملة.

فتواقفوا ، فلما حان وقتُ الزَّوال نَزَلَ السُّلطان عن فرسه[1] ، وأحكَمَ [٨٩ و] مَدَّ حزامِهِ ؛ وتضرَّع بالدُّعاء إلى الله تعالى ، ثم رَكِبَ وفرق أصحابه فِرَقاً كُلّ فرقةٍ منهم لها كمينٌ ؛ ثمّ استقبل بوَجْهِهِ الحربَ .

انكسار الروم

وحَمَل ملكُ الرُّوم بجمعـهِ ، فاستطرَدَ المسلمونَ بَيْنَ أيـديهم ، وَاسْتَجَرُّوا الرُّومَ إلى أن صار الكَمينُ مِنْ وَرَائهم ؛ ثُمَّ خرج الكمينُ مِنْ خَلْفِهم ، وردّ المسلمون في وُجوهِهم ؛ فأنْزَلَ اللهُ نَصْرَهُ ؛ وكُسِرَتِ الرُّومُ ، وأُسِرَ المَلِكُ ، واستولى المُسلمون على عساكِرِهم ، وَغَنِموا ما لا يُعَدُّ كثرةً ولا يُحصى عـدَدًا وعُدَّةً[2] .

وقيد المَلِكُ أسيرًا إلى بَيْنَ يَدي السُّلطان ، فأقامه بَيْنَ يـديهِ ومعه بازي وكلبُ صَيْدٍ .

وكانَتْ مع الرُّوم ثلاثةُ آلاف عجلَة تحمل الأثقالَ والمنجنيقات ، وكان مِنْ جُمْلَتِهَا منجنيقٌ بِثَمانيةِ أسهُمٍ تحملُهُ مائة عجلَة ؛ ويمدّ فيهِ ألفٌ ومائتا رَجُلٍ ، وَزِنُ حَجَرِهِ بالرَّطلِ الكبيرِ قنطار ؛ وحمل العسكر من أموالهم ما قدَرُوا عليْهِ .

وسقَطَتْ قِيمَةُ المَتاعِ والسِّلاحِ والكراع ، حتى بيعت اثنتـا عشرة خوذة بسُدس دينارٍ ؛ ولم يسلَمْ مِنْ عَسْكَرِ الرُّوم إلَّا العَسْكَرُ الَّذي كان مُحاصرًا خلاط ، فلما بلَغَتْهُم الكَسْرَةُ رحلوا عن البلـد جَافِلِين ؛ فاتبعَهُم المُسلمونَ وتخطَّفُوا أطرافَهم ، فلم يُلْوِ أوَّلُهم على آخِرِهم .

(١) في الكامل ، والمنتظم : « وعقد ذنب فرسه بيده » .

(٢) في الكامل لابن الأثير ٨ / ١١٠ : « فانهزم الروم وقتل منهم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى وأسر ملك الروم » .

فمِنْ عَجيبِ الاتّفاقِ ما حُكِي : أنه كان لِسَعْد الدّولة كوهرائين[1] مملوكٌ أهداه لِنظام الملك، فَرَدَّهُ عليه فجعل يُرَغِّبُهُ فيه، فقال نظام المُلك : « وماذا عسى أن يكون من هٰذا المملوك ! يأتِينا بملكِ الرُّوم أسيراً » ، مستهزئاً بِهِ .

٥ ثم أُنسِيَ هٰذا الحَديث ‖ إلى أنْ كان في هٰذه الحادثة فاتّفقَ وُقوعُ ملكِ الرُّوم في أمرِ ذلك الغُلام ، فخلع السُّلطانُ عَلَيْهِ ، وبالغ في إكرامِهِ ، وحكّمَهُ في طلبِهِ واقتراحِهِ[2] ، فَطَلَبَ بشارة غَزْنة[3] ، فكتب له بذلك . [٨٩ ظ]

ثمّ رَحَل السُّلطَانُ إلى أذربيجَان ، والمَلِكُ في قَيْدِهِ ، فأحضرَه ١٠ السُّلطانُ بين يدَيه[4] ، وسأله عن سَبَبِ خُروجه وتَعريضِهِ نفسَهُ وعسكره لهذا الأمر ؛ فذكر أنه لم يُرِد إلّا حَلَبَ ، وكلّما جرى علَيَّ كان محمود السببَ فيه والباعث عليه ، فقال : « اصدقني عما كنتَ

(١) في الأصل المخطوط عندنا : « كوهرابين » – وفي ابن الأثير : « كوهرائين » – وفي المنتظم : « الكهر – أي الخادم » – وهو سعد الدولة كوهرائين قُتل سنة ٤٩٣هـ ؛ وكان في ابتداء أمره خادماً للملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة بن بويه انتقل اليه من خوزستان – انظر ابن الأثير ٨/١٩٦ ، والنجوم الزاهرة ٥/٩٣ .

(٢) في المنتظم لابن الجوزي ٨/٢٦٢ : « وخلع على الذي أسره وحجبه وأعطاه ما اقترحه » – وفي هذا المصدر تفصيل واسع يحسن الرجوع إليه لا كال ما جاء عند ابن العديم هنا .

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٣/٧٩٨ : « غزنة : بفتح أوله وسكون ثانيه ثم نون هكذا يتلفظ بها العامة ، والصحيح عند العلماء غزنين ويعربونها فيقولون جزنة . . . – وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان ، وهي الحد بين خراسان والهند . »

(٤) في الكامل لابن الأثير ٨/١١٠ : « فلما أحضر ضربه السلطان الب ارسلان ثلاثة مقارع بيده ، وقال له : ألم ارسل اليه في الهدنة فأبيت فقال دعني من التوبيخ وافعل ما تريد » – في المنتظم ٨/٢٦٢ : « فتقدم السلطان باحضاره فاحضر بين يديه فضربه بيده ثلاث مقارع أو أربعاً ورفسه مثلها . . . »

عازماً عليه أن لو ظَفِرْتَ بي » فقال : « كنتُ أجعلكَ[١] مع الكِلاب في ساجُور »[٢] .

فقال السلطان : « ما الذي تؤثر أن يُفعل بك ؟ » فقال : « انظُر عاقِبةَ فَساد نيّتي واخترْ لنفسِك[٣] ! » فرقَّ لـه قلبُ السُّلطان ، فَمَنَّ عليه ، وأطْلَقَهُ ، وأكْرَمَهُ ، وخَلَع عليه بعـد أن شَرطَ علَيْهِ[٤] أنْ لا يَتَعَرَّض بشيء من بـلاد الاسلام ، وأن يُطلق أسرى المسلمين كلهم ، وسَيَّرَهُ إلى بلادِهِ ، وسَيَّر مَعَهُ قِطْعةً من العسكر توصله[٥] .

فلمّا انصرف ديوجانس إلى قسطنطينية خلعوه من المُلك[٦] ، ولم يَتِمَّ له ما أراد . وقيل : إنه كحل ، ومات بعد مدّة . ولَمْ يُنقَلْ أَنَّهُ أُسِر للرُّوم مِلكٌ في الاسلام قبل هذا .

حاشية محمود وشعراؤه

وأما محمود بن نصر بن صالح فإنه سار بعسكره بَعْدَ رحيل

---

(١) في ابن الأثير : « فقال : افعل القبيح » – في المنتظم : « قال : القبيح » .

(٢) الساجور : خشبة تعلق في عنق الكلب يقاد بها .

(٣) في الكامل لابن الأثير ٨ / ١١٠ : « قال له : فما تظن أنني أفعل بك : قال إما أن تقتلني واما ان تشهرني في بلاد الاسلام والاخرى بعيدة وهي العفو وقبول الاموال واصطناعي نائباً عنك » – انظر تفصيل حديثها في المنتظم لابن الجوزي ٨ / ٢٦٣ .

(٤) في المنتظم وفي ابن الاثير شروط مفصّلة منها انه فداه بالف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وأن يرسل اليه عساكر الروم اي وقت طلبها ، وأن يطلق كل اسير في بلاد الروم – انظر الصفحات المذكورة قبل هذا الكلام في كل من المصدرين .

(٥) في ابن الأثير : « وسيّر معه عسكراً أوصلوه الى مأمنه وشيعه السلطان فرسخاً » – في المنتظم : « وأنفذ حاجبين ومائة غلام يسيرون معه إلى قسطنطينية وشيعه نحو فرسخ » .

(٦) في ابن الأثير : « وأما الروم فلما بلغهم خبر الوقعة وثب ميخائيل على المملكة فملك البلاد » – في المنتظم : « ولما بلغ الروم ما جرى حالوا بينه وبين الرجوع الى بلادهم

السّلطان عن حلب ، ومعه بنو كلاب والسّليماني ، في شعبان من هذه السّنة ، فنزلوا بالقرب من بَعلبكّ قاصدين دمشق وبلادها ــ وبها يومئذ ابن منزو الكتاميّ ــ حسب ما تقدّم السلطانُ إليه ، وأقام محمود ليتبيّن ما يفعل .

٥ وكان عمّه عطيّة بنُ صالح قد || صارَ مع الرّوم مستنجدًا بهم على [٩٠ و] ابن أخيه محمود ؛ وبعد أن قصد المصريّين فلم يحصل على شيء منهم . فخرج عطيّة مع النحت دوقس أنطاكيـة وعسكر الرّوم ؛ فهجموا معهُ معرّة مصرين[1] وأحرَقُوا بعضَها ، وقَتلوا من قَدرُوا عليه .

وبلغ الخبر محمودًا وهو في أرض بعلبكّ فعاد إلى حلب ، وسار ١٠ السُلَيماني[2] ليَلحَقَ بالسُّلطان ألب أرسلان ؛ واتصلت غاراتُ الرّوم على الشّام ، فاستنجد محمود « بقرلو التركيّ » ومن معه من الأمراء بفلسطين ، وهم : ابن أخي الملك ابن خان ، وأتسز بن أوق[3] وإخوته . وكانوا أوّل من طلع من التّرك إلى بلاد فلسطين ، وفتحوها ، وأقاموا بها فنزلوا إلى محمود مُنجدين له ، وأقاموا إلى أن تفرّق عسكر الرّوم .

١٥ موت عطية — ودخل عطيّة عمّ محمود إلى قُسطَنطِينيّة ، فسَقطَ مِنْ سَطح كان نائمًا عليه وهو سكران ؛ فماتَ سنة أربع وستّين ؛

وملكوا غيره فأظهر الزهد ولبس الصوف » — انظر كذلك في مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي بحاشية ذيل تاريخ دمشق بالصفحة ١٠٣ — ١٠٦ .

(١) معرة مصرين : كورة بنواحي حلب .

(٢) هو ايتكين السليماني شحنة بغداد — انظر ابن الأثير ٨ / ١١١ .

(٣) هو اتسز بن أوق الخوارزمي من أمراء السلطان ملكشاه — وقد جاءت ترجمته في تاريخ ابن عساكر لدمشق ط . الشام ١٣٣٠ ﻫ ٢ / ٣٣١ وقد قتل سنة ٤٧١ هـ . وابن الأثير ٨ / ١٢٣ يقول ان الشاميين يسمونه « الاقسيس » ، والشائع انه أتسز وهو اسم تركي .

وسار محمود إلى الرَّحبة[١] فأخذها؛ وحُمل إلى حلب ودُفِنَ بها غربيَّ باب الجنان[٢]، في مشهد أمه طَرود[٣] قبليّ بُستان النقرة، وصلّى عَلَيه ابنُ أخيه محمود. ثمّ عاد الأتراك بعد أن حَمل إليهم محمود مالًا وخيلًا.

أبو بشر النصراني

٥ وفي سنة أربع وستّين وأربعمائة، تغيّرت أخلاق محمود بعد رحيل السّلطان، وتنكّر لأصحابه؛ وتغَيّر على وزيره أبي بِشر النَّصراني؛ وكان هو الذي ساعده بماله حتى ملك حَلَب، واستجذب العربَ إليه، وكان القائد أبو الحسن بن أبي الثريا — الذي كان وزير عطيّه — قد سَعَى به ليليَ وزارة محمود، ١٠ وطالبه بمالٍ جليلٍ.

[٩٠ ظ] وكان محمود قد رغب في جمع المال، وَغَلَبَ عَلَيهِ حُبُّ || الدنيا فذكر له أبو بشر أنه عاجز عن أداء ما طُولِبَ به، وأنه ممّا لَا تَصِلُ يده إليه ولا إلى بعضه. فأمر محمود بقَتلِ وَلَدٍ كان لأبي بشرٍ وبقتل أخيه؛ فقُتِلا وقُطع رأساهما، وعلّقا في عُنُقـهِ؛ فسُمِعَ أبو بشرٍ وهو ١٥ يقولُ:

وَيحَ دَهرِي مَا أمرَّه ما وفى خيرُ بشرِّه[٤]

وحلف أبو بشر أنه بعد ما فعله بابنه وأخيهِ لا يظهر لـه شيئاً من

---

(١) الرحبة: بينها وبين حلب خمسة أيام: انظر زبدة الحلب ١/٩٣ بالحاشية.

(٢) باب الجنان يقع في الجانب الغربي من حلب.

(٣) مرّ ذكر هذه المرأة في زبدة الحلب ١/٢٠٢، وهي زوجة صالح بن مرداس أم عطيّة، وإليها ينسب مشهد طرود خارج باب الجنان في طرف الحلبة.

(٤) وقع العجز في الأصل: «ما وفى خيره بشره» وهو جدا أقرب إلى الشعر العاميّ، فلعله كما صوّبنا.

ماله . وقال : كُلّ مَنْ عِنده شيءٌ مُودَعٌ فهو في حلّ مِنه وسَعة .

وندم محمود على ما فعلَ ، وأراد الرّجوع له ؛ وأرسل إليه شافِع ابن الصُّولي أن يقرّر عليه شيئاً ويطلقَهُ فامتنع .

واتّفق أنّ محمودًا اصطبحَ ، وقُدّم إليه طَعامٌ بعد سكره ، ٥ فأنفَذَ منه لأبي بشر مع فرّاشه ؛ فقامَ قائماً ، وقبّل الأرضَ ، وشكر ودعا . فعرف ابن أبي الثّريا ، فركب ، ولقِيَ الفرّاشَ ودَفعَ إليه مِائة دينار ؛ وسأله أن يقول لمحمود : « إنّ هذا شيخٌ خرفٌ لأنه لم يَقْبلْ طعامَ مَوْلانا » وقال : كافأه الله وعجّل عَلَيْهِ » . ففعل الفرّاشُ ذلك .

ودخل ابن أبي الثّريا عقيبه على محمود ؛ وجاراه في حديثٍ لا ١٠ يتعلّق بأبي بشر فلم يُقبِلْ عَلَيْهِ ، ووجده مملوء القَلْب غَيْظاً من جَواب الفرّاش . فقال ابن أبي الثّريا : « الله لا يُشغِل لمولانا خاطرًا ، فما أراه منبسطاً في مجلسه ولا مُصغياً إلى المملوك » . فحدّثهُ بما قال الفرّاش ، فقال يا مولانا : « لم تزل إليه محسناً ويُقابلُكَ بالاساءة فكيف يكونُ بعدما جَرى عليه وعلى ابنه وأخيه ما جرى ؟ وأنا أدري أنك تريد ١٥ ماله ؛ وقد تكرّر قولُه أنه لا يُعطيك شيئاً » . قال محمود : « هـذا سَيْفي || وَخاتمي ، خُذْهما وامض إليه فان لم يقرّ بشَيْءٍ فاقتُلْهُ » . [٩١ و]

فقام ابن أبي الثّريا مِنْ عِندِه بذلك ، واشتغل محمود بالشرب < فَنَهم >[1] منه ؛ وأحضر ابنُ أبي الثريا أبا بشر فلم يُطالبه بمالٍ بل قال له : « ما زلتَ تتجلّدُ حتّى صرتَ إلى هٰذهِ الحال » . فقال : « يا قائدَ السُّوء قـد

(١) طُمست معالم هذه الكلمة في الأصل المخطوط ، فرأينا أن أقرب كلمة إلى الرسم والمعنى : « نَهم » أي أفرط وبالغ .

علمتُ أنّ هذا كله مِنْ سَعْيك ؛ والأجلُ لا مَرَدّ له ، وهذا موتُ الشهداء ؛ ولكنْ استعِدّ لِرِجْلِكَ بِحَبْلٍ ، فستموتُ مِيتَةَ الكلابِ ، ويُجَرُّ جيفتُكَ إلى الخندق ».

مقتل أبي بشر

وقُتل أبو بشر ، ورُمي وَسْط بئرِ بُستان القَصْر . وصعد الوزير أبو نَصر بن النحّاس ثاني يَوْم قَتْل أبي بشر إلى خدمة محمود ، فقال له سِرًّا : « تمضي إلى أبي بشر لتقْرير ما عليه ، ويُطْلَق » . فقالَ : « يا مَوْلانا وما قد قَتَلْتَهُ » . فأطرقَ محمود ساعةً وقال : « تَمَّتْ عليَّ وعليْهِ الحيلةُ ، ويَجِبُ يا أبا نَصر أنْ تَكْتُمَ هذا الأمر » . قال أبو نصر : « فما حَدَّثْتُ بهِ إلّا بَعْدَ مَوْتِ محمود » . واستقلّ ابن أبي الثريا بوزارة محمود .

خبر ابن منقذ

وأما سديدُ الملك أبو الحسن بن مُنْقِذ فإنّه استَشْعَرَ مِنْ تاج الملوك أن يَقْبِضَهُ — وكان أخاهُ من الرّضاعة — فاجتمع بإسباسلار[1] أبي حرب ، المعروف ، بخريبة الفايا[2] ، وكان صاحب سِرّ محمود ونديمه ، وكان لابن منقذ إليه إحسانٌ كثيرٌ وصنائعُ جَمّةٌ ؛ فقال له : « قد استشعرْتُ مِنْ تاجِ الملوكِ فانظرْ ما تعمله معي » . فقال : « تُكلّفني أنْ يقول الأمير أريدُ أقبضُ على فُلانٍ فأخبرك بذلِك ! لا ؛ والله ، ولكن أنا أنفِذُ إليك مع عجوزٍ عِنْدي ألفَيْ دينار ؛ فاذا نَفِدَتْ طَلَبْتُها منك فشأنك ونفسك » .

فبقيَتْ تلك الدنانير عنده مُدّةً ثُمّ نَفَذَ العجوزَ يَطْلُبها ، وكان

---

(١) في الأصل : « اسباسلار » — وهي مثل اسفهسلار ، انظر في معناها صبح الأعشى ٣/٤٨٣.

(٢) في الأصل : « خريبة الفافا » ولم نقع عليه في المصادر الأخرى ، ويخيّل إلينا أنه مصحّف ، فلعله « خريبة الفايا » .

قد أصلح حاله || للسفر، فدفع إليها الدنانير، وركِبَ مِنْ يومه، وخرج [٩١ ظ]
من حلب إلى كفرطاب فاستصحب منها ما أراد.

وسيَّر حُسَين بن كامِل بن الدَوح إلى سديد المُلك بن مُنقِذ يسأله الاجتماع به فاجتمعا؛ فقال له حسين: «ايش رأيك في الدُخول إلى
٥ حلب؟» فقال: «ما أقولُ لك شيئاً لأنَّ لك مالًا عظيماً، فإنْ أشرْتُ عليكَ بِتَرْكه كُنتُ مَلوماً عِندَك، ولكنّي أقولُ لكَ ما أعمل، وأنتَ ترى رأيك. واللهِ لا نَظرْتُ محموداً أبداً»!.

وسار إلى طرابلس فكتب محمود إلى ابن عمار[1] يأمُرُهُ بالقَبْضِ عَلَيْهِ، ويَبْذُل له ثلاثة آلاف دِرْهمٍ ورَقيّة فلم يظفر بِهِ.

١٠ وسار ابن منقذ حتى وصل إلى طرابلس في سنة خمس وستّين، فلقي ابنَ عمّار وأخاهُ، فكاتبهما محمودٌ فتنكّرا له.

وعزم ابن مُنقذٍ على الطُلُوع إلى مصر، فاتّفق مَوْتُ أمين الدَّولة ابن عمّار فشدّ ابن مُنقذ مِنْ جلال الملك عليّ بن عمار[2] وعاضَدهُ بَمماليكِهِ ومن طَلَع مَعَه من أهل كفرطاب؛ فأخرجُوا أخا أمينِ الدَّولة؛ وتولّى
١٥ جلال الملك؛ وعظم محلّ ابن مُنقذ عندَهُ حتى كان حكمه في طرابلس مثله. وكاتَبَهُ محمود بتطييب قَلْبه، فلم يثق به، ولم يَعُدْ إلى حلب حتّى مات.

---

(١) في الأصل: «إلى ابن عمرون»؛ ولعل الناسخ سها فجعلها كذلك، فنحن لا نعرف من هو ابن عمرون، وأصحّ منها أن تكون «ابن عمّار» كما يفهم من السياق فالعبارة مكررة.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٨/١١١–وفي النجوم الزاهرة ٥/١١١: «فلانو في قام مكانه ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن بن عمارة، وضبط البلد أحسن ضبط ولم يظهر لفقد عمه أثر كفايته».

ابن النحاس

وقيل : إنّ ابن النحاس، كاتِب محمود، كَتَب إليه كتاباً من نفسه يضمَنُ له فيه الرّضا عن محمود، وكتب في آخره: « إنّ شاء الله »[1] وشدَّدَ النّون من « إنّ »؛ ففطن ابنُ منقذ بأنه أراد قوله تعالى: ﴿ إنّ المَلأَ يأتمِرُونَ بكَ لِيَقْتُلوكَ ﴾[2] فكتبَ جوابَهُ: « وكتب إنّا الخادم » وكسر الألف، وشدّد النُّونَ من « إنّا »؛ ففطن ابنُ النَّحّاس بأنه أراد قوله تعالى: ﴿ إنّا لَنْ نَدخُلَهَا أبدًا ما داموا فِيها ﴾[3]. ٥ [٩٢ و]

وأما محمود فإنه لما يئس من عَوْد أبي الحسن بن مُنقِذ قَبَض على أملاكه جميعها. وأمّا حُسَيْن بن الدَّوح فانه دَخَل إلى حلب فقتله محمود ولم يُمهلهُ. ١٠

ابن سنان الخفاجي

وكان محمود قد خَطَر له أنْ يُوَلّي في كُلّ قَلْعَةٍ من قِلَاعه رجلًا من أهل حلب، وتكون ذريته وأهله تحت يده، وطلب من الوزير ابن أبي الثريا أن يختار له من يُوليه عزاز؛ فقال: « لا أجِدُ لذلك إلّا أبا محمد بن سنَان الخفاجيّ ». وكان أبو نصر ابن النحاس حاضرًا، فصوّب الرأي فيه. ١٥

---

(١) وردت هذه الحكاية في كتب التاريخ على أنها بصدد الشاعر أبي محمد عبدالله ابن سنان الخفاجي، وابن العديم نفسه يتردد في حكايتها عن ابن منقذ أو الخفاجي ثم يقول لعلها وقعت للاثنين جميعاً – انظر ما يلي من صفحات، وارجع كذلك إلى فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي في ترجمة الخفاجي ٢٣٣/١.

(٢) القرآن الكريم – سورة القصص ٢٨ / ٢٠ وكمال الآية: « وَجاءَ رَجُلٌ مِن أقصى المَدِينَةِ يَسْعَى قالَ يا مُوسى إنّ المَلأَ يأتمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فاخْرُجْ إنّي لَكَ من النّاصِحين »

(٣) القرآن الكريم – سورة المائدة ٥/٢٣ وكمال الآية: « قالُوا يا مُوسَى إنّا لن نَدْخُلَها أبدًا ما داموا فيها فاذْهَبْ أنت وَرَبُّكَ فقاتِلا إنّا هَهُنا قاعِدُون »

فأحضره محمود وَوَلّاهُ بعد أن امتنع ثُمّ أجاب .

ثُمّ إنّه استوحش عليه فاستدعاه محمود عدّة دفعات إلى حلب ، فتعلّل عليه ولم يحضر ، وكان أبو نصر بن النحّاس صَديقَه وكان كاتِب محمود ؛ فكان يكتب إليه ويحذّره .

٥ فأمَرَهُ في بعض الأيّام أنْ يكتب إليه كِتاباً يتلطّفه ويأْمُرُهُ بالحضور والكتاب عَنْ أبي نصر ؛ لأنّه كان يعلم ما بينهما من المودّة؛ وأمَرَهُ أن يضمن له عَنْ محمود كلّ خير ؛ وأمَرَهُ أنْ يكتب الكِتاب بين يديه ، ولم يقع له أن يُلْغز فيه شيئاً .

قال أبو نصر: « فما قدرتُ أن أعملَ فيه سوى أن شدّدتُ النُّون من ١٠ (إن شاء الله)؛ وتناهيتُ في لفظ الكِتاب، وقُلتُ: لو عرفت ضدّ ما كتبتُ لما كنتُ بصورة من يغُشُّه » . وأخذ محمود الكتاب وَوَقَفَ عليه ، و كرّر فيه نظرهُ فرآه كافياً شافياً ، فأمَرَ بِإلصاقِهِ وعُنْوانه ؛ وَدَفَعه لبعض أصحابه وَوَصّاهُ أن يقول:« هذا كتاب دفعه إليّ أبو نصر بِدارِهِ » . وسار الفرّاش .

١٥ فلما وقف ‖ أبو محمد عليه كرّر فيه نظره ، وبقي متعجّباً منه ، [٩٢ ظ] ويقول:« أخي أبو نصر أعطاك الكتاب بِدارِه أم بالديوان أم بالقلعة قدّام الأمير ؟ » فقال : « بَلْ بِدارِه » فقال : « ما هـذا صحيح ! » فحلف له فلم يُصَدِّقه إلى أن قال : «وقعتُ على المعنى » . و كتب جوابه يذكر فيه شُكْرَ أبي نصر ، وأنّه مهتمٌّ بالحضور عند زوال حُمّى جسمه.
٢٠ ثم إنّه كاتَبَ أبا نصرٍ خفيَةً،وأعلمه أنه عَثَر على المعنى في تشديد «إنّ».

وقد ذكرنا أنه جرى له ذلك مع ابن مُنْقذٍ فيحتمل أن يكون وقع ذلك معهما جميعاً[١].

ثم إنّ محمودًا أنكر وقال : « ما أعرف قتله إلّا منك » ؛ فقال : « كيف ؟ » قال : « تمضي إليه اليوم ومعك ثلاثون فارساً يقفون لك في بعض الطّريق ، وتقدم منك إليه من يُعلمهُ بوُصولكَ ومعَك في ٥ رانِكَ هذه الخشكنانة[٢] ومعك أنت خشكنَان غيره ؛ فإذا فعلتَ ذلك لا بُدّ أن يَنزل ويلتقيك من قَلعة عَزَاز ، ويَعرض عليك الصُّعُود والنُّزول عنده ، فقل له : أنا مُوجل ومُستَحلَفٌ أن لا أنزل على الأرض ، ولا آكُلَ لكَ طَعاماً ؛ وطَوِّل الحديث مَعَهُ إلى أن تعلَم أنه قد جاع ؛ ١٠ ثم اذكر أنتَ الجوعَ واخرج لك خشكنانَة من الّذي معك ؛ ثم أخرج المسمومَة فادفعها إليه ، وكُل أنتَ الّتي لك ، وتَحدّثْ معه ويكُونُ حَديثكما على فرَسَيكما وأنتما بمَعزلٍ من أصحابكما ، وطوّلْ معه الحديث ولا تبرَحْ حتّى يستَوْفي أكلَها ، وعلامَةُ صِدقك مَوْتُه ؛ وإلّا ضَرَبتُ عُنقك » .

موت الخفاجي

١٥ قال أبو نصر بن النحاس : فنزل عَلَيَّ مِنْ ذلك أمرٌ تمنّيتُ الموتَ معه ، فخرجتُ وأنا على غايةٍ من الجزَع والتأسف كيف قضى || الله ذلك على يَدِي ، وجعلتُ دَفعَةً أعولُ على [٩٣ و]

---

(١) ارجع إلى الصفحة ٣٦ السابقة .

(٢) الخشكنانة : نوع من الخبز يصنع مع الزبدة والفستق وهو كالحلوى المعروفة في الشرق ، وفي الفارسية تعني ما يسميه الغربيون « بسكويت Biscuit » انظر معجم دوزي ١ / ٣٧٣ في كلمتي « خُشْكُنانَج وخُشْكُنانك » .

الهرب ؛ ثُمَّ إنِّي أفكِّر في أولادي وأهلي ، وإنني إنْ فعلتُ ذلك أهلكتُهم لِعلمي بظُلْم صاحبي ؛ ثُمَّ إنَّ الفرسان مُتوَكِّلةٌ بي .

فلمّا اجتمعتُ بهِ فعلتُ ما ذكره لي ، ثُمَّ ودَّعتُهُ عند استيفاء أكل الخشكنانة ، ورجعتُ مِنْ مَوْضعي مُبادِرًا ؛ وأبعدتُ من أرض عَزاز ، ورَكِبْتُ جنيباً كان معي ، وجدَّيتُ في السَّيرِ خوفاً مِنَ الطَّلَبِ .

٥

وصعد أبو محمد إلى المركز ، فوجدَ مغصاً شديدًا ورِعْدةً ؛ ثُمَّ قال : « قَتَلَني أخي أَبُو نَصرٍ اطلبوهُ » . فركبتِ الخيلُ خلفَه فلم تلحقْهُ .

ووَصَل أبو نصرٍ فاجتمع بمحمود ، فعرَّفه ما جرى . فلمّا كان من ذلك الغَد وصل رسول من عَزاز يستدعي الشَّريفَ النقيبَ أبا المعالي الفَضْل بن مُوسى وابنه سنان بن أبي محمّد الخفاجيّ ، وجماعةً من أهله . وذكر الرسول أنه في السِّياق ، فمَنَع محمودٌ وَلَدَهُ من الخُروج ؛ وأَمَرَ الشَّريفَ أن يتولَّى القلعَةَ إلى أن يُنْفِذَ إليها والياً ؛ فولّاها بعد خمسة أيام واحِدًا مِن أصحابه .

١٠

وتوفّي أبو محمد في قلعة عزاز في سنة سِتٍّ وستّين وأربعمائة[1] ؛ وقيل سَنة أربع وستِّين — وهو الصَّحيحُ — وحُمِلَ إلى حلب ؛ وصلَّى عليه الأميرُ محمودُ بن صالح ؛ وقيل : إنه تُوفِّي سنة ثلاثٍ وستِّين — والأوّلُ أصحُّ — ولمَّا أحسَّ بالموت عَمِل :

١٥

(١) انظر ترجمة أبي محمد الخفاجي في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١ / ٢٣٣ ، وهو عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الشاعر الأديب كان يرى رأي الشيعة وقد عصى بقلعة عزاز من أعمال حلب — ارجع إلى تمام الحكاية عند ابن شاكر الكتبي .

خَفْ مَنْ أَمِنْتَ وَلَا تَرْكَنْ إلى أَحَدٍ فَمَا نَصَحْتُكَ إِلَّا بَعْدَ تَجْرِيبِ
إِنْ كَانَتِ التُّرْكُ فِيهِمْ غَيْرَ وَافِيَةٍ فَمَا تَزِيدُ على غَدْرِ الأَعَارِيبِ
[٩٣ ظ] تَمَسَّكُوا بِوَصَايَا اللُّؤْمِ بَيْنَهُمُ وَكَادَ أَنْ يَدْرُسُوهَا فِي المَحَارِيبِ[١]

وقيل: إنه كان كتبها أبو محمد من عَزاز إلى سديد الملك بن مُنقذ، ويذكر له في كتابِهِ أحوالَهُ ولِجاجَ محمُود في طلبه، وتَغَيُّرَ نِيَّتِهِ فِيهِ، وخوفه من غائلته وظُلمه. ٥

وفي سنة خمس وستّين وأربعمائة – وقيل في شوّال سنة أربع وستّين – وَفَدَ أبو الفِتْيان بنُ حَيُّوس[٢] على محمود ابن نصر بن صالح، وكان سَديدُ المُلك بن مُنقذ اجتمع به بطرابلس، ورأى نُفُور بني عَمّار منه لِأَجل مَيْله إلى الدّولة المصريّة، فأشار عليه أن يقصدَ محمودًا بحلب، فقصده صُحْبَةَ نصر بن سَديد الملك بن مُنقذ، فأحضره محمود. ١٠

ابن حيوس

وكان قد جلس في مجلسه وأمرَ بإحضار الشّرابِ فَشَرِبَ أقداحًا، ثم قال: «ارفعوا الخمرَ فإنَّ ابنَ حَيُّوس يحضرني مُمْتَدِحًا، وفي نفسي أن أَهَبَهُ جائزةً سَنِيّةً فإنْ كانَ الشّرابُ في مجلسي قيل وَهَبَهُ وهو سكران» فرُفِعَ. وحَضَرَ الأميرُ أبو الفِتْيان فأنشده قصيدتَهُ الميميّة الّتي أوّلُها[٣]: ١٥

(١) وردت هذه الأبيات في فوات الوفيات ١/٢٣٣.

(٢) هو أبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حيّوس الغنويّ الدمشقي الملقب بمصطفى الدولة الشاعر المشهور، أحد الشعراء الشاميين المحسنين ولد سنة ٣٩٤ هـ – وتوفي ٤٧٣ هـ – انظر وفيات الأعيان ١/١٠، ومقدمة ديوان ابن حيّوس صنعة الأستاذ خليل مردم بك، بدمشق ١٩٥١.

(٣) وردت هذه القصيدة في الديوان المطبوع ٢/٥٩٨ – ٦٠٦.

قِفُوا في القِلَى حيثُ انتهيتُم تذمُّماً ، وَلا تَقْتفُوا مَنْ جارَ لمَّا تَحكَّما
أرى كُلَّ مُعْوَجِّ المَوَدَّةِ يُصْطَفَى لَدَيْكُمْ ، وَيَلْقَى حَتْفَهُ مَنْ تَقَوَّما

وهي قصيدة طويلة ، أَحسَنَ فيها كُلَّ الإحسان ، وذكر إشارةَ ابن منقذٍ عليه بقَصدِهِ فقال :

٥ سَأَشكُرُ رأياً مُنقِذيًا أحلَّني ذَرَاكَ فقد[1] أَوْلَى جَمِيلاً وأَنعَما

فوهب له ألفَ دينارٍ ذهباً في صِينيَّةٍ فِضَّةٍ[2] ، وجعلها لـه رسماً عليه في كل سنةٍ .

واحتفر الخندق بحلب فجاءه أبو الفِتْيان فقال : « هٰذهِ أعمال يَعْجِزُ عنها كِسْرَى ‖ وَذُو الأكتاف » . فقال محمود : « ما كانَ الأميرُ أَبُو [٩٤ و]

١٠ الحَسَن < يَنفذُكَ حتَّى عملت >[3] واجتمع بباب محمود بن نصر جماعةٌ من الشُّعراء ، فلم تصل إلى واحدٍ منهم جائزةٌ ، غير ابن حَيُّوس ، فكَتَب إليه ابنُ الدُّوَيْدَةِ ، المعروف بالقاق[4] :

عَلى بَابِكَ المَيْمُونِ[5] مِنَّا عِصَابَةٌ مَفَالِيسُ فَانْظُرْ في أُمُورِ المَفَالِيسِ
وَقَدْ قَنِعَتْ مِنْكَ العِصَابَةُ كُلُّها بِعُشْرِ الَّذِي أعطيتَهُ لِابْنِ حَيُّوسِ
١٥ وَمَا بَيْنَنَا هٰذا التَّفاوُتُ[6] كُلُّهُ وَلٰكِنْ سَعِيدٌ لا يُقَاسُ بِمَنْحُوسِ

---

(١) في الديوان المطبوع : « لقد أولى » .

(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/١٢٤ : « وأمر له بما كان يعطيه أبوه وهو ألف دينار في طبق فضة » .

(٣) هذه الجملة مطموسة في الأصل من أثر الرطوبة وبلل المداد ، ولعلها كما رسمنا .

(٤) في الكامل لابن الأثير ٨/١٢٤ : « وكان على بابه جماعة من الشعراء فقال بعضهم : » – وابن الدويدة هو أبو الحسن أحمد بن محمد المعرّي كما في الوفيات ١/١١ .

(٥) في ابن الأثير ٨/١٢٤ ، والمنتظم ٨/٣٠٥ : « على بابك المعمور » – وفيات : « على بابك المحروس » .

(٦) في ابن الأثير : « هذا التقارب » – وفي المنتظم كذلك : « هذا التفاوت » .

فقال محمودُ: «واللهِ لوْ قالَ بِمثلِ الّذي أعطيتهُ لأعطيتُهم مِثله». ثُمَّ أمرَ لهم بالجائزة مائة دينار أو أكثر[1].

وقصَدَ الرُّومُ ناحيةَ عَزاز في جموعهم، فخرج محمُود إليهم في عِدَّةٍ قليلة تناهز ألف فارس، فاندفع الرُّوم بَيْنَ أيديهم، وقصدوا أنطاكية واحتَمَوْا بها في سنة أربع وستّين. وافتتح محمُود قلعـة السِّنّ[2] في تاسع شهر ربيع الآخِر سنة ستّ وستّين.

وفاة محمود

وَمَرِضَ محمودُ بْن نَصر بن صَالح بحلب في جُمادى الأولى من سنة سبع وستّين وأربعمائة. وحدثت بِهِ قُروح في المَعا كانت سَبَبَ مَنيَّتِهِ[3].

وكان محمود في أول مُلكِهِ حسنَ الأخلاق، لَيِّنَ الجـانب، كريم النفس، عفيفاً عن الفُروج والأموال، ثم تنكّر وزادَ عليه حُبّ الدّنيا، وَجمع المالَ فلحقهُ من البُخل ما لا يُوصَف.

(١) في ابن الأثير: «فقال: لو قال بمثل الذي أعطيته لأعطيتهم ذلك وأمر لهم بمثل نصفه».

(٢) السِّنّ: قلعة بالجزيرة قرب سميساط – انظر زبدة الحلب ١/١٠٦ بالحاشية؛ وهونيغمان ١٢٢ بالحاشية حيث يرسمها «Sennum».

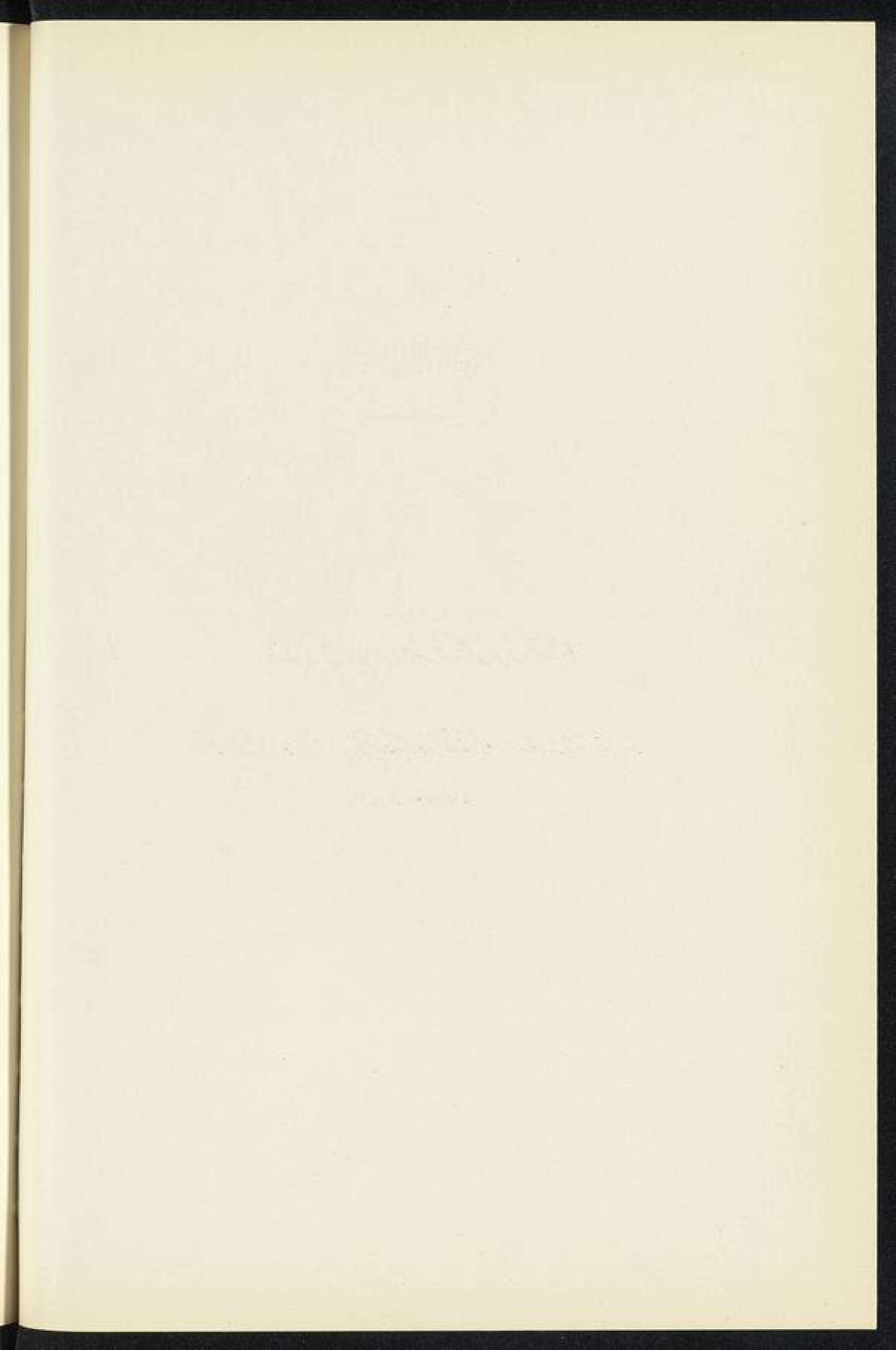
(٣) في المنتظم لابن الجوزي ٨/٣٠٠: «سنة ٤٦٨ هـ – توفي محمود بن نصر بن صالح أمير حلب كان من أحسن الناس نزل بها في سنة سبع وخمسين؛ وقوي على عمه، وكان عطيّة قد ملكها بعد أخيه نصر فحاصره فخرج منها» – وفي النجوم الزاهرة ٥/١٠٠ «وفيها توفي محمود بن نصر بن صالح صاحب حلب ويعرف بابن الروقلية ... وسبب موته أنه عشق جارية لزوجته وكانت تمنعه منها فماتت الجارية فحزن عليها حتى مات بعد يومين».

القسم الخامس عشر

ذكر
حلب في أيام نصر بن محمود بن صالح

حكم نصر في حلب - بين نصر والأتراك - حاشية نصر

٤٦٧ هـ - ٤٦٨ هـ



حكم نصر في حلب

وأوصى بحلب لابنه شَبيب[1] ـ وكان أصغرَ أولادِهِ ـ فلم تنفذ أصحابُه وصيَّتَهُ ؛ ومَلَّكوا حلبَ وَلَده الأميرَ نصرَ بنَ محمود ؛ وجدُّه لأمِّهِ الملك العزيز ابن جَلَال الدّولة بن بويه ؛ وأُحصي ما وُجد في خزائن محمود فكانت قيمتُه من العَيْن والمَتَاعِ والآلات ، والثِّيابِ ، والمراكب ألف ألف وخمسمائة ألف دينار . [٩٤ ظ]

وأَمِنَ الناس في أيام نَصْر . وكانت سيرتُه أصلَح من سِيرَة أبيه ، وأحسن إلى أهل حَلَب ؛ وأطلق مَنْ كان في اعتقالِ أبيهِ منْ أحداثِهم ، وعَمَّ النَّاسَ بجُوده . وكان بحرًا للمكارم إلا أنَّهُ كان لا يستطيع أن يَرى أحدًا يأكل طَعَامَه مع كرمه وجُوده .

ودخل عليه أبو الفِتْيَان بنُ حَيُّوس حين وَلِيَ حَلَب فأنشدهُ القصيدةَ الّتي أوَّلُها[2] : (ابن حيوس)

كَفَى الدِّينَ عِزًّا ما قَضَاه لَكَ الدَّهْرُ   فَمَنْ كانَ ذا نَذْرٍ فقدْ وَجَبَ النَّذْرُ

اعتذر فيها عن تأخُّرِهِ عن سَلَفِهِ فقال :

---

(١) في المنتظم لابن الجوزي ٨/٣٠٤ : « سنة ٤٦٩ هـ – وكان قد توفي محمود بن نصر صاحب حلب ، ووصّى لابنه شبيب بالبلد والقلعة فلم يتم ذلك وأعطيها ولده الأكبر واسمه نصر فسلك طريق أبيه في كرمه » – انظر ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ١٠٨ – وفي النجوم الزاهرة ٥/١٠١ : « وكان يكره نصرًا ويحبّ شبلًا ، والعساكر تحب نصرًا ، فلا زالوا حتى ملك نصر وخلع شبل » ويلاحظ أنه صحّف شبيبًا إلى شبل.

(٢) انظر ديوان ابن حيّوس المطبوع ١/٢٦٢ – ٢٦٩.

تَبَاعَدتُ عنكم حرفةً لا زَهَادَةً وسِرْتُ إليكم حينَ مَسَّني الضُرُّ
فجادَ ابنُ نصرٍ لي بألفٍ تصرَّمَتْ وإنِّي لأرجو أنْ سيُخلِفُها نصرُ[1]

فأطلَقَ له نصرٌ ألفَ دينارٍ، وقال: «وَحياتي، لو قال سيُضعِفُها نَصرٌ لأضعَفْتُها[2]». ولم يزل يُواصل ابنَ حيّوس بالحباء وجزيل العطاء، وأنشده ابن حَيُّوس يومًا بديهًا وقد خرَج ينظر المدَّ في قُوَيق[3] : ٥

أرى الأرضَ تُثني بالنَّباتِ على الحَيا ولو تستطيعُ النُّطقَ خصَّتْكَ بالحَمْدِ[4]
بكَ افترَتِ الأيامُ عن نَاجذِ الغِنَى وغرَّدَ طيرُ العَيْشِ في الزَّمنِ الرَّغدِ
عهِدنا مُدُودَ الأرضِ تأتي بُجودِها[5] ولم نَرَ بحرًا قطُّ سارَ إلى مَدِّ

[٩٥ و] || فأعطاه صلةً جزيلةً.

بين نصر والأتراك

وجهّز نصرٌ عساكره إلى منبج صحبة أحمد شاه، وكانت في أيدي الروم، فحصرها مدةً، وأيس واليها من نجدةٍ تأتيه، فسلّمها في صفر من سنة ثمانٍ وستّين وأربعمائة، فقال في ذلك ابنُ حيُّوس من قصيدةٍ[6] : ١٠

---

(١) في الديوان: «وجاد ابن نصر.. وإني عليم أن سيُخلفها نصر» – وأما رواية المنتظم لابن الجوزي ٨/٣٠٦ فهي كما يلي:

«وكان لمحمود بن نصر سجيّة وغالب ظني أن سيخلفها نصر»

(٢) في تاريخ العظيمي بالورقة ١٨٢ ظ: «فأطلق له ألف دينار وقال له: لو قلت سيضعفها نصر لاضعفتها لك يا أبا الفتيان» – انظر وفيات ٢/١١– والصفحة ٤٣ السابقة.

(٣) قويق هو نهر مدينة حلب، ذكره الشعراء، وخصّه الصنوبريّ بقصائد كثيرة – انظر زبدة الحلب ١/٧٦ بالحاشية.

(٤) انظر ديوان ابن حيّوس المطبوع ١/١٩٧.

(٥) في الديوان: «تأتي بحارها».

(٦) انظر ديوان ابن حيّوس المطبوع ١/٢٠٥ ومطلعها:

وطريدةٍ للدَّهرِ أنتَ رددْتَها قسراً فكُنتَ السَّيفَ يقطعُ مُغمَدا

ووَصل في سنة ثمانٍ وستين وأربعمائة أتسز بن أوق التركي إلى أعمال حلب القبلية ؛ ونزل العاصي على الجلالي ؛ وجفل أهلُ الشّام بين يديه ـ وكان قد سمّى نفسهُ الملك المعظَّم[1] ـ فنَهبَ كُلَّ ما قدر ٥ عليه ، وملَكَ رَفَنِية[2] ، وسلّمها الى أخيه جاولي ، وتردَّدَتْ سراياه في جميع الشّام ، وتمادى فساده .

وتردّدت الرُّسلُ بينه وبين نصر بن محمود صاحب حلب ، فلم يستقرَّ بينهما أمر ، وعاد إلى دمشق فتسلّمها .

واعتمد جاولي مُدّة مقامه برفنيّة إساءة المجاورة ؛ وشنَّ الغارات ١٠ والأذى في الأعمال القبلية من عمل حلب ؛ فجهّز إليه نصر بن محمود عسكر حلب ومقدّمهم أحمد شاه التُّركي ، وذكر أنه شيبانيّ فسار إليه ، والتقَوا بأرض حماة ، فكسره جاولي وغنم عسكره .

وعاد أحمد شاه ونزل مَذْكين[3] وجمع إليه مَن سَلِم من عسكره ، فلما اجتمعوا عوّلوا على العودة إلى حلب ، فقال لهم أحمد شاه : « ما ١٥ بقي لنا وجه إلى حلب بعد هذه الكسرة ، فان راجعتم الحرب وأظفرنا الله بهم كان الأمر لنا بحكم الظَّفَر ، وإنْ أبيتُم ذلك فأنا أسِيرُ إلى

«شرف الملوك عدت معاليك المدى فبقيت محروساً على رغم العِدا»

(١) يسميه ابن الأثير ٨/١٢٦ : الإقسيس وهو أتسز بن أوق كان يلقب بالمعظم وكان من خيار الملوك وأجودهم سيرة وأصحهم سريرة.

(٢) رفنيّة : بلدة صغيرة ذات قلعة قد دثرت ، وهي على مرحلة من غربي حماة – انظر زبدة الحلب ١ / ٢٣٠ بالحاشية.

(٣) مذكين : لم نقع على موقعها فيما بين أيدينا من معجم البلدان.

[٩٥ ظ] بن محمود ؛ وإنما الفُرَات وأَستدعِي أهلي ، فما لي وجه ألقى به نصر أعطى وَمَنح وأكرم لمثل هذا الموقف » .

فأجمعوا أمرهم على معاوَدَة الحرب فَأَسْرى من موضعه إلى عسكر جَاولي ، وكبسه ، فاستثار منهم ؛ ونهب عسكره ، وأسر منهم ما يزيد عن ثلاثمائة نفس ؛ وسيَّرهم في الوثاق إلى حلب مُشاةً ؛ وهرب ٥ جاولي إلى رفنيَّة ؛ وسار بعد ذلك إلى أخيه بدمشق .

حاشية نصر

وكان نصر حين ملك حلب واستقر بها أمر بقتل وزير أبيه أبي الحسن عليّ بن أبي الثريا القائد ، صاحب الدّار التي هي المدرسة العصرونية ؛ فقُتِل وكان راكباً تحت القلعة ، وهو في حَشَمِهِ على بغلتِهِ ، وعُمل في رجله حَبْلٌ وجُذِبَت جُثَّته من تحت القلعة إلى باب أنطاكية ، ١٠ جزاء على ما فعله بأبي بشر ، وصَدقَ فألُ أبي بشرٍ فيه – على ما ذكرناه (١) – وكان نصر قد اتّهمه بأنه أشار على أبيه أن يولّيَ أخاه الأَصغر شبيباً ، وكذلك قتَلَ نصرٌ ناجيةَ بنَ عليّ أحدَ ولاة أبيه .

واستوزر نصرٌ أبا نصر محمد بن الحسن التميميَّ المعروف بابن النحّاس الحلبيّ ، وبقي وزيرًا بعده لسابق أخيه إلى أن اعتقله ، ثمّ ١٥ أطلق . وكان أبو نصر كاتباً لمحمود قبل وِزارَتِهِ .

وفي يوم عيد الفِطْر من سنة ثمان وستّين وأربعمائة ، عَيَّد نصر بن محمود ، وهو في أحسن زِيّ ، وكان الزمان ربيعًا والأرض نضرة ؛

(١) انظر ما سبق بالصفحة ٣٦ .

واحتفل الناس في عيدهم وتجمّلوا بأفخر ملابسهم ؛ ودخل عليه ابنُ حيّوس فأنشده قصيدةً منها(١) :

ضَفَتْ نِعمَتانِ خَصَّتَاكَ وَعَمَّتَا   حَديثُهما حَتّى القِيامَةِ يُؤْثَرُ

موت نصر

[٩٦ و]

|| وَقَبَضَ نَصْرٌ على الأمير أحمد شاه التُركيّ ، واعتقله في القلعة ؛ وَجَلس فَشَرب إلى العَصر ؛ وحَمَلَه السُكْرُ على الخروج إلى الأتراك ، وسكناهم في الحاضر ، وأراد أن ينهبهم ، وحَمَل عليهم ، فرماه تركيّ بسهم في حلقه فقتله ، وتبعه أصحابه فوجدوه قد مات ؛ وذلك يوم الأحد مستهلّ شوال من سنة ثمان وستّين وأربعمائة . وكان نصر أهوج .

---

(١) ارجع الى ديوان ابن حيّوس المطبوع ١ /٢٦٩ ومطلع القصيدة :
« هل العدل إلّا دون ما أنت مُظهرُ   أو الخيرُ إلّا ما تُذيعُ وتُضمرُ »

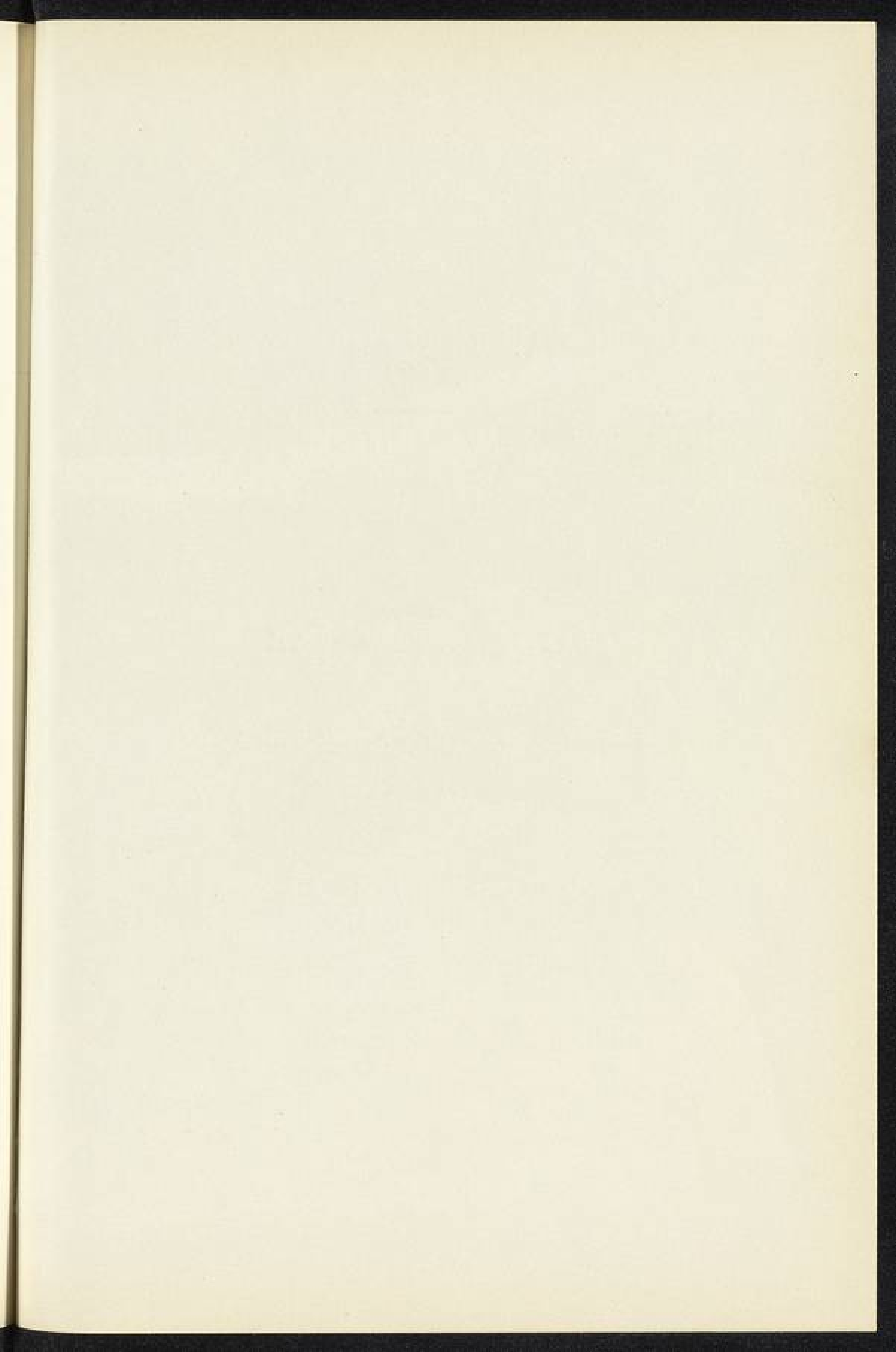
القسم السادس عشر

ذكر

حلب في أيام سابق بن محمود بن صالح

الحرب بين الترك والعرب - حكم ملكشاه - مسلم بن قريش في حلب

٤٦٨ هـ — ٤٧٢ هـ



الحرب بين الترك والعرب

وزحفت الأتراك إلى البلد وكان والي القلعة رجلاً يقال له وَرْد، وعنده الأمير سديد المُلك أبو الحسن بن مُنقذ، وكان قد عاد من طرابلس إلى حلب في أيام نَصر؛ وعندهما جماعة من الخواصّ؛ فلما علموا بذلك استدعَوْا أخاه سابقَ بن محمود.

ملك سابق

٥ وحمل من العَقَبة[1]، وكان ساكناً بها في الدّار التي تُنسب إلى عزيز الدّولة فاتك[2]، ورُفع إلى القلعة بحَبْل من السُّور، وهو سكران، ونادَوْا بِشِعاره، وأطاعه الأجنادُ، وأشاروا عليه باطلاق أحمد شاه فأطلقه في الحال، وخلع عليه.

فنزل أحمد شاه إلى العسكر بالحاضر فسكَّن الثائرة، وأخمد ١٠ الفتنة، واستقرّتْ قاعِدَةُ سابق؛ ولُقِّب عزّ الملك أبو الفضائل، ودخل عليه ابن حَيُّوس فأنشده قصيدة أولها[3]:

عَلَيَّ لَها أَنْ أَحفَظَ ٱلعَهدَ وَٱلوِدّا وَإِنْ لَمْ يُفِدْ إلّا القَطِيعَةَ وَٱلصَدّا[4]

فأطلَقَ له سابق ألف دينار، وجعل له في كل شهر ثلاثين ديناراً، وكان سابق من متخلِّفي بني مرداسٍ.

---

(١) العقبة: حيّ من أحياء حلب القديمة يقع في الغرب منها

(٢) هو عزيز الدولة أبو شجاع فاتك – ر خبره في زبدة الحلب ١ / ٢١٥ وما يليها.

(٣) انظر ديوان ابن حيّوس المطبوع ١ / ١٦٦.

(٤) في الديوان: « إلّا القطيعة والبُعدا ».

ولما مَلَكَ سابقٌ اجتمعتْ بنو كلابٍ إلى أخيه وثّاب ؛ وعوّلوا على معونته عليه وأخذ حلب له من أخيه سابق || وانضاف إلى وثّاب أخوه شَبِيب بن محمود ، ومبارك بن شبل ابن خالهما ، وعامّة بني كلاب .

[٩٦ ظ]

٥ فلمّا تحقق سابقٌ ذلك استدعى أحمد شاه أمير الأتراك ، وكان في ألف فارس وشاوره ، فأنفذ أحمد شاه إلى رجل من الأتراك يعرف بابن دملّاج – واسمه محمّد بن دملّاج – في يوم الأربعاء مستهلّ ذي القعدة ، من سنة ثمان وستِّين .

حرب وثّاب

وتحالَفوا وخَرَجوا إلى وثّاب وبني كلاب ، في يوم الخميس مستهلّ ذي الحجة من سنة ثمان وستين وأربعمائة ، وكان ١٠ بنو كلاب في جمعٍ عظيمٍ ما اجتمعوا قط في مثله . يُقال إنّهم يُقاربون سبعين ألف فارس وراجلٍ ، وكانوا قد عاثُوا في بلد حلب ، وكانوا نزولاً بقنّسرين[1] فعند معاينتهم الأتراك انهزموا من غير قتال وخلّفوا حللَهم وكلّ ما كانوا يملكونه وأهاليهم وأولادهم .

١٥ فغنم أحمد شاه وأصحابُه ومحمّد بن دملّاج وأصحابُه كلّ ما كان لبني كلاب . فيقال : إنهم أخذوا لهم مائة ألف جمل وأربعمائة ألف شاة ، وسَبَوْا من حرمهم الحَرائر جماعةً كبيرة ، ومن إمائهم أكثر ، وكل ما كان في بيوتهم . وعَفَوْا عن قتل عبيدهم المقاتِلة ، وكانوا يزيدون عن عَشرة آلاف عبد مُقاتل فلم يَقتُلوا أحدًا منهم ، وكان

---

(١) قنّسرين : مدينة قديمة ورد اسمها في التوراة ، انظر موقعها في معجم البلدان ١٨٦/٤ ، وارجع إلى زبدة الحلب ١ / ٣٠ بالحاشية .

الذي غنمه التُّركُ من العَرَب في ذلك اليوم مـا لا يُحصى كثرةً ؛ وأسروا جماعة منهم .

وعاد أحمد شاه بالأسرى إلى حلب فتقدّم سابق بن محمود باطلاقهم ، وأنزل أُختَه زوجَة مبارك بن شبل في دارٍ ، وأكرمها || لأنَّها كانت فيمن [٩٧ و] ٥ أُخِذَ ذلك اليوم .

وبعد هذه الهزيمة بثلاثة عشر يومًا دعا محمد بن دملاج التركي أحمد شاه ، فخرج إليه ، وكان نازلًا شمالي حلب ؛ فلما أكلوا وشربوا قبض محمَّد بن دملاج على أحمد شاه وأسره ؛ وكان في نفر قليل فأقام في أسره تسعة أيام .

حكم ملكشاه

١٠ ثمّ إن سابق بن محمود اشترى أحمد شاه من محمَّد بن دملاج بعشرة آلاف دينارٍ وعشرين فرساً ، يوم السَّبت الرابع والعشرين من ذي الحجة من السَّنة .

فعند ذلك سار وثّاب بن محمود ومبـارك بن شبل ، وحامد بن ابن زُغيب ، إلى باب السّلطان أبي الفتح ملك شاه[1] بن ألب أرسلان ؛ ١٥ وحضروا عنده ، وشكَوْا إليه حالهم ، وسألوه أن يعينهم على سابق ، ويكشف عنهم ما نزل بهم منه .

---

(١) يرسم ابن العديم أحيانًا اسم السلطان على كلمتين هكذا «ملك شاه» وكذلك يفعل كثير من المؤرخين ويرسمه حينًا كلمة واحدة «ملكشاه» وقد قبلنـا الوجهين معًا . وملك شاه هو أبو الفتح بن ألب ارسلان بن محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب جلال الدولة ، توفي سنة ٤٨٥هـ . – انظر وفيات الأعيان ٢ / ١٢٥

وأنكر السّلطانُ ذلك ووَعَدهم بما طابَتْ به نفوسهم، ووقع لهم باقطاعهم في الشّام؛ وأقطع الشَّام لأخيه تاج الدولة تُتُش[1]، وأمرهُ بالمسير إلى الشّام في أوائل سنة سبعين وأربعمائة.

وتقدَّم السّلطان ملك شاه إلى أفشين بن بكجى، وصندق التركي، ومحمَّد بن دملاج، وابن طوطو، وابن بريق[2]، وغيرهم، من أمراء ٥ التّرك بالكون مع تاج الدَّولة والمسير في خدمته.

خبر تتش

فسار تاج الدّولة ومعه وثّاب بن محمود ومبارك بن شبل وحامد بنُ زغيب، حتّى وصل إلى ديار بكر، وتواصلَت إليه الأمدَاد مع المذكورين. وكان أحمد شاه قد حضر أنطاكية مُدَّةً ومعه عسكر حلب || واشتدّ الغلاء بها في هذه السّنة، واستقرّتِ الحالُ ١٠ [٩٧ ظ] على خمسة آلاف دينار مُقاطعةً، فأخذها، ورحل عنها إلى حلب.

ولما قرب تاج الدّولة من الشَّام هرب جماعة الأتراك المُقيمين بِحَاضِر حلب مع أحمد شاه إلى حِصْن الجِسْر – وكان ابن مُنقذ جدّد عمارته ليضايق به شَيْزَر[3]، ويقطعَ المادّة عنها من بلد الرّوم؛ وأذن له سابق بن محمود في ذلك، فجدّد في هذه السّنة – فتركوا أموالهم ١٥ وأهاليهم بهذا الحصن، وعادوا إلى خدمتهم بحلب، ولم يأمنوا أهل حلب أن يتركوا حرَمهم عنده لما كانوا فعلوه بابن خان؛ وتغيّر الهواء بالجسر عليهم، فهلك عامّتهم بهذا الموضع.

---

(١) هو تاج الدولة أبو سعيد تتش بن ألب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ابن دقاق السلجوقي، انظر في ترجمته وفيات الأعيان ١ / ٩٦، وابن عساكر ٣ / ٣٦٠.

(٢) لم نقع على تراجم لهؤلاء الأعلام فيما بين أيدينا من مصادر التاريخ.

(٣) شيزر: كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم – انظر زبدة الحلب ١ / ٨١ بالحاشية.

وأما تاج الدولة تتُش فإنه أقام بالمروج الى أن وصلته بنو كلاب بالظُّعن، ونزلوا حلب في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة.

مسلم بن قريش

ووصل شرف الدّولة أبو المكارم مُسلم بن قُريش (١) في عسكر كثير بأمر ملك شاه، ونزل معه على ٥ حلب مُعيناً له، وحصروها ثلاثة أشهر وعشرين يوماً؛ وكان نزوله على حلب لثلاث خلون من ذي القعدة من سنة إحدى وسبعين وأربعمائة. وكان القِتال عليها مُتصلاً.

وقُتل أحمد شاه مقدّم الأتراك بحلب بطعنة أصابته في الحَرب، وكان هوى شرف الدّولة أبي المكارم مع سابق، وكان يسير إليه في ١٠ الباطن بما يقوّي نفسَه، وكان يُنكِرُ على بني كلاب خلْطَتهم بعسكر التُرك.

فاستأذن بنو كلابٍ تاجَ الدّولة في رحيل الظّعون فأذِنَ || لهم فأحسّ [٩٨ و] شرف الدّولة أبو المكارم بتغيّر النيّة فيه، وتحقيق التهمة به من مراسلة سابق وأهل حلب، فاستأذن تاج الدّولة في الرّحيل، ورحل. وجعل ١٥ عُبورَ عسكره على بابِ حلب، وباع أصحابهُ أهل حلب كلّ ما كان في العسكر عصبيةً وتقويةً لهم، وقوّى نفوسهم ونفسَ سابق.

وسار بعد أن قويَ أهل حلب بما ابتاعوه من عسكره بعد الضّعف الشديد إلى بلاده؛ وأشار عَلَى مُبارك ووثّاب وشَبيب بالاحتِياط على أنفسهم أو الهرب إلى حلب.

---

(١) هو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي صاحب الموصل أحبه الحلبيون وأطاعوه، وهو من امراء العرب المغاوير، به خُتم الامراء العرب الذين حكموا حلب، فقد حكمها بعده الأتراك – انظر حاشية الصفحة (٦٩) الآتية.

ولم يكُ بَقِي مع تاج الدَّولة من بني كلاب غيرهم في نفرٍ يسير ، فكاتبهم سابق وتألفهم وقالَ لهم: « إني إنّما أذبُّ وأحامي عن بلادكم وعزّكم ، ولو صار هذا البلد إلى تُتُش لزالَ مُلكُ العَرَب وذلّوا » . وجرت أمور أوحشتهم من الأتراك ؛ فهربوا إلى حلب بعد أن قُتِل أصحابُهم قبل الهزيمة وبعدها ، وصاروا إلى سابق . ٥

شعر ابن النحاس

وكتب سابقٌ إلى الأمير أبي زائدة محمد بن زائدة قصيدةً من شعر وزيره أبي نصر بن النَّحاس ، يعرّفه ما هو فيه من الضّيق ، ويسألُه الإقبالَ عليه والقيامَ بمعونته ؛ ويحذّره من التخلّف عنه ، فيكون ذلك مسبباً لزوال ملك العرب ، ويعتب عَلَيْه في التوقّف عنه فيما كان جرى مع أحمد شاه التركيّ ؛ والقصيدةُ هي: ١٠

دعوتُ لِكَشْفِ الخَطْبِ والخَطْبُ مُعْضِلٌ
فلبَّيْتَني لَمَّا دَعَوْتُ مُجاوِبَا

وَوَفَيتَ بالعَهْدِ الّذي كانَ بيْنَنَا
وفاءَ كريمٍ لَمْ يَخُنْ قَطُّ صَاحِبَا

[٩٨ ظ] وَمَا زِلْتَ فرّاجاً لِكُلِّ مُلِمَّةٍ
إذا المِحْرَبُ الصِّنْديد ضَجَّع هائبا[1]

فَشَمِّرْ لَهَا وَانْهَضْ نُهوضَ مُشَيَّعٍ[2]
لَهُ غَمَراتٌ تَسْتَقِلُّ النَّوائِبا

(١) المِحْرَبُ : صاحب الحروب وقيل الشديد الحرب الشجاع – وضجّع في الأمر: قصّر فيه .

(٢) المُشَيَّعُ : الشجاع ، كأنّه قد شُيّع قلبه بما يركب كل هول .

وَقُلْ لِ« كِلَابٍ » : بَدَّدَ اللهُ شَمْلَكُمْ
أَوَيْحَكُمُ مَا تَتَّقُونَ الْمَعَايِبا !
أَتَسْتَبْدِلونَ الذُّلَّ بالعِزِّ مَلْبَساً
وَتُمْسُونَ أَذْنَاباً وكُنْتُمْ ذَوَائِبا
وَمَا زِلْتُم الآسادَ تَفْتَرِسُ الْعِدَى
فَمَا بَالُكُمْ مَعْ هؤلاءِ ثَعالِبا
ثِبُوا وَثْبَةً تَشْفِي الصُّدورَ مِنَ الصَّدَا
ولا تُخْجِلوا أَحسابَنا والْمَناقِبا
وَلَا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ نُحَكِّمُ بَيْنَنَا
وَبَيْنَ العِدَى فِيهِ القَنا والقَواضِبا
أَرَى الثَّغْرَ رُوحاً أَنْتُمُ جَسَدٌ لَهُ
إِذَا الرُّوحُ زَالَتْ أَصْبَحَ الجِسْمُ عَاطِبا
وَقَدْ ذُدْتُ عَنْهُ طَالِباً حِفْظَ عِزِّكُمْ
إِباءً ولاقَيْتُ الْمَنَايَا السَّوَاغِبا
وَهَا أَنَا لا أَنْفَكُّ أَبْذُلُ ، في حِمَى
حِمَاكُم مُجِدّاً ، مُهْجَتي والرَّغَائِبا [٣]
أَأَدْخَرُ مَالي عَنْكُمُ وذَخائِري
إِذَا بِتُّ عَنْ طُرْقِ الْمَكَارِمِ عَازِبا

(٣) الرَّغائب : نفائس الأموال التي يرغب فيها ، والعطاء الكثير .

شَكَرْتُ صَنيعَ «اْبنِ المُسَيَّبِ» إذْ أتى
يَجُرُّ مَغَاوِيراً تَسُدُّ السَّبَاسِبا [1]

وَمِنْهَا :

أيا راكِباً يَطْوي الفَلاَةَ بِجَسْرَةٍ
هَمَلَّعَةٍ لُقِّيتَ رُشْدَكَ رَاكِبا [2]

ألا اْبلِغْ «أبا الرَّيَّان» عَنّي ألُوكَةً
تُريحُ مِنَ الإيلاَفِ [3] ما كَانَ وَاجِبا

أخاً شَخْصُه لا يَبْرَحُ الدَّهْرَ حَاضِراً
تُمَثِّلُهُ عَيْني وإنْ كَانَ غَائِبا

مَتَى تَجْمَعُ الأيَّامُ بَيْني وَبَيْنَهُ
أشُدّ عَلَيْهِ مَا حَيِيتُ الرَّوَاجِبا [4]

وَأهْدِ إلى «شِبْلٍ» سَلاَمي وقُلْ لَهُ :
لَكَ الْخَيْرُ دَعْ مَا قَدْ تَقَدَّمَ جَانِبا

[٩٩ و] فَتِلْكَ حُقُودٌ لَوْ تَكَلَّمَ صَامِتٌ
لَجَاءَ إليها الدَّهْرُ مِنْهُنَّ تَائِبا

وَقَدْ أمْكَنَتْكُمْ فُرْصَةٌ فَانْهَضُوا لها
عِجَالاً وإلاّ أعْوَزَ الدرّ جَالِبا

---

(١) السباسب : ج سَبْسَب – وهي المفازة أو الأرض المستوية البعيدة .

(٢) الجسر من الابل : العظيم ومؤنثها جَسْرة – والهَمَلَّع : الجمل السريع ومؤنثها الهملّعة .

(٣) ألف إيلافاً : تعوّد ، وأحبّ ، وأنِسَ .

(٤) الرَّوَاجب : واحدها الراجبة ، وهي مفاصل أصول الأصابع .

فإنّي رأيتُ الموتَ أجملَ بالفتى
وأهونَ أنْ يلقى المنايا مُجاوِبا

وكان قد بلغ «سابقًا» أنَّ أميرًا من أمراء خراسان يقال له تركمان التركيّ قد توجّه مُنجدًا لتاج الدولة، ومعه عسكر، فأخرجَ سابقُ منصورَ بن كامل الكلابيَّ – أحدَ أمراء بني كلاب – من حلب ليلًا، وأعطاه كتابَه إلى الأمير أبي زائدة، وفيهِ هذه الأبيات، ومعه بعض أصحاب سابق ومعهم مالٌ.

تركمان التركي

فلمّا وقف الأمير أبو زائدة محمد بن زائدة على هذه الأبيات، اتّفق مع منصور ونائب سابق، وجَمَعُوا ما يزيد عن ألف فارسٍ وخمسمائة راجلٍ من بني نُمَير، وقُشَيرٍ، وكِلابٍ، وعُقَيلٍ، وكلّ ذلك بتدبير الأمير شرف الدّولة أبي المكارم ومَشُورَتِهِ.

ووَفد بهم الأميرُ أبو زائدة، ووَصلوا إلى «وادي بُطنان»[1]. واتّفق وصولُ المعروف بتركمان التُّركيّ في ألف فارس من الغُزّ، ومعه جُملة من العُدَدِ لمُحاصَرة حلب ومعونة تُتُش.

وعبر تُركمان على طريق الفايا[2]، فسار الأمير أبو زائدة بمَن معَهُ من الجمع، ولقوا تركمان في أرض الفايا، فأوْقَعُوا به وكَبَسُوا عسكرَه، وقتلوه، ونَهَبُوا ما كان فيه بأسره وجميعَ ما كان للتجّار الواصلين في صُحْبَتِهِ، واتّصلَ هذا الخبرُ بتاج الدّولة وهو مُنازِلُ حلَبَ، فرَحَل عنها إلى الفُرات، وتوجّه نحو ديار بكر وشتى بها.

(١) وادي بُطنان : بين منبج وحلب – انظر زبدة الحلب ١/٨٨ بالحاشية .
(٢) الفايا : كورة بين منبج وحلب كذلك قرب وادي بطنان – انظر زبدة الحلب ١/٦٨ بالحاشية .

ثم عاد وقطع الفُراتَ ، وتَسلَّم مَنبج وحِصْنَ الفـايا[1] وحِصْنِ الدَّيْر ، وشَحَنَها بالرِّجال ، وسارَ بِالعَسكَر ‖ إلى حِصْن بزاعَا[2] ، وكان [٩٩ ظ] صاحبه شِبل بن جَامِع ؛ وبعض رجال هٰذا الحصن ممَّن كانتْ له النكاية العظيمة في عسكر تُركمان ، فقاتله تاج الدَّولة ، وفَتَحه بالسَّيْف ، وقتل كافَّة مَنْ كان فيه ، ونَهَبه وشَحَنه بالرِّجال. ٥

ورحل إلى عَزاز وقد انضوى إلى قلعتها خلقٌ عظيم ، ومَنَعهم الوالي بها من الصُّعُود إليها فالتجئوا إلى سَندِ القلعةِ بأقمشتهم ، والنَّاسُ عليها ؛ وأساء الوالي بها ــ وكان اسمه عيسى ــ التدبيرَ والسياسة.

فزَحَفَ العسكر إلى القلعة ؛ وقاتلها ؛ وضربها بالنار ، فاحترقَتْ أقمشةُ الناسِ ، وغلَّاتهم ، وحرمُهم ، وأولادُهم ؛ وأشرفَتْ على الأخذ. ١٠ وخرج قومٌ من الحريق إلى عسكر تاج الدَّولة فأمَّنهم ، وتقدَّم اليهم بالعودة إلى ضياعهم.

ورَحل الملك تاج الدولة إلى جبرينَ قُورَسْطَايا[3] ؛ فأخذها وشحنها بالرِّجال ؛ فخرج الأمير أبو زائدة محمد بن زائدة مِن حلب في الليل ؛ ووصل إلى ضَيْعة تعرف بكَرْمِين[4] ، فوجَدَ بِها خَمسين فارساً من ١٥

---

(١) في الاصل : « حصن اليافا » وهو سهو من الناسخ وصحيحه ما أثبتنا تمشياً مع السياق.

(٢) في معجم البلدان لياقوت ١ /٦٠٣ : « بزاعة – سمعتُ من اهل حلب من يقوله بالضمّ والكسر . . . وهي بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب ، بينها وبين كل واحدة منها مرحلة » .

(٣) في معجم البلدان ٢ /١٩ : « جبرين قورَسْطايا : بضم القاف وسكون الواو وفتح الراء وسكون السين المهملة وطاء مهملة وألف وياء وألف – من قرى حلب من ناحية عزاز ويعرف أيضاً بجبرين الشمالي »

(٤) كرمين : هي كفر كرمين الحالية ، الواقعة على طريق حلب بعد قرية خان العسل ، وهي في النصوص السريانية كفر كرما Kafr Kerma كما في دوسو ٣٢٠ .

الغُزّ، فقتَلوا أكثرهم، وغنموا كلّ ما كان معهم، وعادوا إلى حلب سالمين.

فأسرى تاج الدولة في اللّيل من جبرين عندَ ذلك في جميع عسكره، وهم ملبسون مُستعدّون، فصبّحوا حلب صباحاً؛ وأغاروا عليها،

٥ فخرج عسكرُ حلب فالتقوا على الخَنَاقِيَة[1] على باب حلب. ثم إنّ بعض عسكر حلب انهزموا لغير موجب؛ وهزم الله عسكر تُتُش بغير قتال.

وكان الأمير أبو زائدة محمد بن زائدة وابن عمه شبل بن جامع بن زائدة في قَدْر خمسين فارساً مقابلهم، فحملوا عَلَيْه، واتّفقتْ هزيمتُهم،

١٠ فقتلوا من الغُزّ جماعة وغَنِمُوا.

ولو عاد عسكر حلب ‖ في اثرهم ما كان أفلتَ منهم إلّا من سَبَق [١٠٠ و] به فَرَسُه. وشاع لمحمَّد بن زائدة في ذلك اليوم ذِكرٌ جميل.

وتقدّم الأميرُ محمَّد بنُ زائدة إلى الشيخ أبي نصر منصور بن تميم المعروف بابن زَنكل[2] أن يجيب أبا منصور بن تميم

١٥ الفضائل سابقَ بن محمود عن القصيدة التي أنفذها إليه، ويعرّفه ما لبني كِلَابٍ من الأيام المعروفة، ويذكر هذه الوقائع، فعمل:

دَعَوْتَ مُجيباً ناصحاً لَكَ مُخْلِصاً
يَرَى ذاكَ فَرْضاً لَا مَحالة وَاجِبا

(١) الخناقية: من متنزهات حلب يجري تحته نهر قويق، ذكره ابن العديم في زبدة الحلب ١ / ١٣٨ وابن الشحنة ٢٥٦

(٢) مرّ بنا شعر الرجل في بني كلاب – انظر زبدة الحلب ١ / ٢٨١ وعلّقنا عليه حينذاك بأننا لم نقع على ترجمة الشاعر.

فلَبِّيتُ لا مُسْتَنْكِفاً جَزِعاً وَلَا
هِدَاناً[1] إذا خَاضَ الكَرِيهَةَ هَائِبا

ومنها :

ولمّا دعَاني المُدرِكيُّ ابنُ صَالحٍ
شَقَقتُ ، وَلَمْ أرْهَبْ ؛ إلَيهِ الكَرائبا[2]

أسابقُ صَرفَ الدَّهرِ في نَصْرِ « سابِق »
إلى « تُرْكُمانِ » التُّركِ أُزجي النَّجائبا

فلمّا الْتَقَيْناهُمْ غَدَا البَعْضُ سَالِباً
لِأنفُسِهِمْ ، والبَعْضُ لِلمَالِ نَاهِبا

فَيَا لَكَ مِنْ يَوْمٍ سَعِيدٍ بِيُمْنِهِ
عَنِ الثَّغرِ أضحى عَسكَرُ الصَّدِّ هَارِبا[3]

وَكَانَ يَرَى في كَفِّهِ الشَّامَ حَاصِلاً
ويومُ « بُزاعَا » رَدَّ ما ظَنَّ خَائِبا

وَلَيْلَةَ « كَرْمِينٍ » تَرَكْنا كِرَامَهُمْ
كَضَأْنٍ بها لاقَتْ مع القدْرِ قَاصِبا[4]

وَفي يَوْمِ « خُنَاقِيَةٍ » قَدْ خَنَقْتُهُمْ
بِعِثْيَرٍ[5] ذُلٍّ رَدَّ ذَا الشَّرْخِ شَائِبا

(١) الهدان : الأحمق الجافي ، الوخم الثقيل في الحرب . ج : هُدُن .
(٢) الكرائب : ج . كريبة : وهو الداهية الشديدة .
(٣) الصَّدّ : بالفتح والضم : الجبل وناحية الوادي والشعب .
(٤) القاصب : الجزّار .
(٥) العِثْيَر : التراب والعجاج .

عَطَفْتُ لَهُمْ إذْ خَامَ مَنْ خَامَ[١] مِنْهُمُ
بِفِتْيَانَ كَالْعِقْبَانِ شَامَتْ تَوَالِبَا[٢]

فَلِلّـهِ قَوْمِي الصَّادِرُونَ لَوِ انْتَوْا
مَعِي، أَوْ فَرِيقٌ كُنْتُ لِلْجَمْعِ نَاكِبَا

فَوَلَّوْا وَقَضْبَانُ المَخَافَـةِ فِيهِمُ
مُسَابِقَةٌ أَرْمَاحَنَـا وَالْقَوَاضِبَا

فَكَمْ فَارِسٍ مِنْهُمْ تَرَكْنَا مُجَدَّلًا
يُبَاشِرُ تُرْبُ القَاعِ مِنْهُ التَّرَائِبَا

٥ ‖ وَإِذْ أَيْقَنُوا أَنْ لَيْسَ لِلْكَسْرِ جَابِرٌ [١٠٠ظ]
تَوَلَّوْا وَعَنْ «جِبْرِينَ» حَثُّوا الرَّكَائِبَا

وَخَلَّوْا بِهَا كَسْباً حَوَوْهُ، وَأَبْصَرُوا
سَلَامَتَهُمْ مِنَّـا أَجَلَّ مَكَاسِبَا

أعمال تتش

وأما تاج الدولة تُتُش فإنّه رحلَ من جِبْرِين، وسارَ إلى دمشق فملكها؛ وتسلّمها من أتسز بن أوق التركيّ، ثم فسح من عسكره أفشين التركيّ، ومعه أكثر العسكر؛ وعاد شمالًا ونَهَب عسكرُه ضياعاً في أعمال بعلبكّ. ١٠

وَوَصل رفنيّة في اليَوْم العاشر من جُمادى الأولى، وفيها جماعةٌ كثيرةٌ من التّجّار والقوافل متوجّهين إلى طرابلس، فهجَمها بَغْتةً؛ وقتَل ممّن كان بها جَماعةً، واستباحَ أموالَهم وحريمَهم، وأقام بها عَشَرةَ أيام.

(١) خام: نكص وجبن، أو كاد كيدًا فرجع عليه.
(٢) التولب: ولد الحمار. ج: توالب – وانظر جمهرة اللغة ٣/ ٤٩٠

ثم سار فنزل حِصْنَ الجِسر ، فأكرمهُ أبو الحسن بنُ مُنقِذ فأعلمَهُ بما عوّل عليه من نَهب الشام ، فسأله في بلدة كفرطاب ألا يعترِضَها فأجابهُ .

وسار فنزل قَسْطُون[1] فجرى أمرها في النهب والعقُوبة مجرى رفنية ، وأقام بها نيفاً وعشرين يوماً . ثم تنقّل وعسكره بالمنجنيقات على أبراج جَبَل السُّمَّاق[2] وغيرها ؛ حتى لم يبقَ بها موضعٌ ولا برجٌ إلا افتتحه وأهلكه ؛ واستباح حَريمهم وأولادهم ، واستغرق أحوال أهل سرمين[3] والمعرّة بالقطائع ، وطلع إلى جبل بني عُلَيْم[4] فلم يتمّ له بها شيْءٌ .

وسار فنزل ضياع معرّة النُّعمان الشرقية بالمنجنيقات ، ففتح أبراجَها وحُصونَها بالسَّيف ، وأخذ مَا لا يمكن إحصاؤُه ، وغلَب أهلَها فهلك منهم خلقٌ ؛ ونزل تلّ منس[5] ، وقطع عليها خمسة آلاف دينار ، ولم يتمكّن من أخذها .

[١٠١ و] وانتقل إلى عمل معرّة النعمان ففعل مثلَ ذلك ‖ ؛ وسار إلى معرتارح[6] — من بلد كفرطاب — فتحصّن أهلها في أبراجها ؛ وتعذّرت عَلَيْه فأحرقها ، وهلَك جميعُ من كان فيها .

---

(١) في معجم البلدان ٤/٩٧ : « قَسْطُون - حصن كان بالروج من أعمال حلب » ، وهي من قرى جسر الشغور اليوم - انظر دوسو ١٦٩ وما يليها من صفحات .

(٢) جبل السُّمَّاق : جبل عظيم من أعمال حلب الغربية ، في شمالي معرة النعمان - انظر زبدة الحلب ١ /١٦٤ بالحاشية .

(٣) سَرْمين : بلدة من أعمال حلب تقع غربي قنسرين وشمالي معرة النعمان على خمسين كيلومترًا من الجنوب الغربي لحلب - انظر زبدة الحلب ١ /١١٩ بالحاشية .

(٤) جبل بني عليم : هو جبل الزاوية نفسه بل هو جبل اريحا ؛ كما يرى دوسو في كتابه عن طوبوغرافية سورية ص ١٩٩ .

(٥) تلّ مَنَّس : حصن قرب معرة النعمان بالشام - انظر زبدة الحلب ١ / ٩٠ بالحاشية .

(٦) معرتارح : لم نقع على مكانها في معاجم البلدان التي بين أيدينا .

وبلغ تاج الدَّولة ذلك، وهو بدمشق، فأسرع السَّير إلى أن وَصل إلى ظاهر كفرطاب يطلب أرسلان تاش، فوجده قد رَحل إلى بلاد الروم، فعاد إلى دمشق وسكن الناس في طريقه.

وحين رَجع أفشين من الشَّام ولم يبقَ في أعمال حلب ضيعة مسكونة من بلد المعرة إلى حلب، توجه إلى بلد أنطاكية فأخرب ما قدر عليه، ونهب وسبى ما وجده، وحُمل إليه من أنطاكية مالٌ؛ وتوجّه إلى الشرق بعد امتلاء صدره وصدر عسكره من النَّهب.

وجرى من هذا الحادث بالشَّام أمر لم يسمع بمثله، وتلف أهله بعد ذلك بالجوع. ووُجد قومٌ قد قَتلوا قوماً وأكلوا لحومهم؛ وبيعت الحنطة ستة أرطال بدينارٍ وما سوى ذلك بالنسبة.

وجَلا من سلم من الشام إلى بلد شرف الدولة أبي المكارم مُسلم ابن قُرَيش، فأحسن إليهم وتصدّق عليهم؛ وكان ذلك الاحسانُ منه أكبر الأسباب في مملكته حلب[1].

مُسلم بن قُرَيش في حلب

ولمّا جَرى هَذا الحادثُ طَمِعَ شَرفُ الدَّولة في الشَّام؛ وكاتبه سابق ابن محمود يبذل له التَّسليم إليه؛ وَوَفدتْ عليه بنو كلاب بأسرها، فتوجَّه إلى حلب، ونَزل بالس[2] يوم عيد النَّحر من سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة.

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/١٢٧: «سنة ٤٧٢ هـ – في هذه السنة ملك شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي صاحب الموصل مدينة حلب، وسبب ذلك أن تاج الدولة تتش بن الب ارسلان حصرها مرة بعد أخرى فاشتد الحصار بأهلها، وكان شرف الدولة يواصلهم بالغلّات وغيرها.»

(٢) بالس: بلدة بين حلب والرقة – انظر معجم البلدان ١/٤٧٧.

ونزل حلب في السّادس عشر من ذي الحجة، سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة || فغلّقت أبوابها في وجهه[1]، وكان عند سابق أخواه شَبِيب [١٠١ظ] ووثّاب بحلب، فلم يمكّناه من التّسليم، فلم يقاتلها، وأهلها يحرصون على التّسليم إليه لما هم فيه من الجُوع وعَدم القُوت.

وكان مع شرف الدّولة في عسكره غلّة كثيرة وقُوَّة تجوز الحدّ، ٥ وتزيد عن الوصف. وكان الرّئيس بحلب ونقيب الأحداث بها الشريف حسن بن هبة الله الهاشميّ، المعروف بالحتيتي[2]، وكان ولده أبو منصور قد خرج مع عسكر سابق لِقتَال بعض الأتراك المخالفين[3] في بيت لاها[4] فأسروه، وبقي أسيرًا في الموضع مع خطلج أحد أصحاب أحمد شاه. ١٠

فلمّا وَصل شَرفُ الدَّوْلَة إلى حلب وَفَد التُّرك كلُّهم عليه، وتقرّبوا إليه بوَلَدِ الشَّريف الحتيتي.

وقيل: إنّه طلبه منهم فلَمّا حضر عنده خلع عليه، وأطلقه فدخل البلد، وأخذ معه جماعة من أصحابه، وفتح باب حلب، ونادى بِشِعَار شرف الدّولة في اليوم السادس والعشرين من ذي الحجة، من سنة ١٥ اثنتين وسبعين وأربعمائة.

وتسلّمها، وَدَخَل أصحابُه إليها، وقَلَع أبوابها جميعها، وفَتَحَ بابَ

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ١٢٧ : « فلمّا رحل عنها تاج الدّولة استدعى أهلها شرف الدولة ليسلموها إليه فلما قاربها امتنعوا من ذلك ».

(٢) في ابن الأثير : « وكان مقدمهم يعرف بابن الحتيتي العباسي ».

(٣) رواية الكامل لابن الأثير ٨/ ١٢٧ تختلف عن هذا حيث يقول : « فاتفق ان ولده خرج يتصيد بضيعة له فأسره أحد التركمان.

(٤) بيت لاها : هو جبل اللكام – انظر زبدة الحلب ١/ ٩٠ بالحاشية.

أربعين[1] – وكان مسدودًا – وأحسن إلى كافّة أهلها، وخلع على أحداثهم، وتصدّق بمال كثيرٍ وغلّة.

وكان سديد الملك بن منقذ قد وَفَد على شرف الدَّولة ونزل معه على حلب، وكان شرف الدولة قد عزم على الرَّحيل من حلب لما حلَّ بهم من الضجر ومصابرة أهل حلب؛ وغلَتِ الأسعار [١٠٢ و] عندهم حتى صار الخبز ستَّة أرطال بدينار.

وفرَّ سديدُ المُلك أبو الحسن بنُ منقذ مِن سور القلعة، فاطلع إليه صديق له من أهل الأدب، فقال له: «كيف أنتم» فقال: «طُولُ جُبّ» خوفًا من تفسيرِ الكلمة. فعاد ابنُ منقذ وهو يقلِّب هذا الكلام فصحّ له أنّه قصد بكلامه أنّهم قد ضعفوا. وأوجس أنّها كلمتان، وأنَّ قوله: «طول» يريد به: «مَدَا» و«جُبّ» يريد به «بير» فقال «مَدَابير والله». فأعلم شَرَف الدَّولة بذلك فقوّى نفسَهُ فملكها[2].

---

(١) باب أربعين – باب قديم أثري في الشمال الغربيّ من حلب، ثم تهدّم – انظر ما جاء في الدر المنتخب لابن الشحنة ٦٢ حول هذا الباب وتسميته وآثاره لعهده

(٢) في الزبد والضرب، بمخطوطة المدينة، في الورقة ٩٩و، بعد هذا الكلام تعليق أضافه ابن الحنبلي نضعه بين يدي القارئ: «قلتُ: وشرف الدولة هذا هو مسلم بن قريش بن بدر مقلد بن المسيب صاحب الموصل. وقد كان ملكه حلب بعد ان حاصرها سنة واستنزل من قلعتها سابقًا ووثابًا ولدي محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابيّ. وأقرّه على ذلك السلطان ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق السلجوقي.

وما كان من قصّة ابن منقذ مع صاحبه فأظنها منشأ ما عمله الزين بن عمر الوردي من الأحجية في «مدابير» حيث قال:

يا مَنْ أحاجيهِ تُغني   عن فطنة المتنبي
يا فاقد المثل فينا   مثّل طولَ جُبِّ

وهي من جملة أحاج جمعها على حروف الهجاء فيما وجدته بخطّه، والله سبحانه وتعالى أعلم اهـ.» – ر بعض ترجمة مسلم في حاشية الصفحة ٥٧.

ولمّا فُتحت المدينة انحاز سابقٌ إلى القلعة، وأخواه شَبيب ووثّاب في القصر، لضيق القلعة؛ وشرف الدّولة محاصرٌ للقلعة بالمنجنيقات والعساكر. ولم يبقَ بالشّام وحصون جَبل بَهْرَا[1]، وحِمْص، وفَامية شيزر[2] ومن لم يَفِد على السّلطان إلّا وَفَد عليه.

٥ ودبّر شَبيبٌ ووثّاب، وهما في القصر على سابقٍ وقفزا في القلعة، وصاح الأجناد بها: «شبيب يا منصور». وقبض سابق وحُبس؛ وتسلّم شبيبٌ ما كان بها من مالٍ وسلاحٍ.

نهاية آل مرداس

ثم وقعت السِّفارة بينهم وبين شرف الدّولة على أن أقطع شبيباً ووثّاباً قلعتي عزاز والأثارب وعدّة ضياع. وأقطع سابق بن محمود مواضع أخر في أعمال الرّحبه، وأن ١٠ يتزوج منيعة بنت محمود أخت سابق، وكان السَّفير بينهم في ذلك الأمير سديد الملك عليّ بن منقذ؛ وبتدبيره جرى ذلك.

ووافق ذلك أنْ غار الماء في قلعة حلب؛ ونزل منها أولاد محمود. وانقَضَتْ دَوْلَةُ آلِ مِرْدَاس[3].

١٥ وكان الوزير لسابقِ بْنِ محمود الشَّيْخَ أبا نصر محمد بن الحسن بن النّحّاس وعَزَله، واعتقله || [١٠٢ظ] مُدّةً ثُمَّ أطلَقَهُ.

وولّى وزارته أبا مَنْصُور عيسى بن بُطرس النَّصرانيّ فامتنع؛ فأُلزِمَ بها؛ ووَزَر له في النّصف من شوّال سنة تسع وستّين وأربعمائة.

(١) جَبَل بَهْرا – يقع في الشمال من مدينة رفنية، ويدعى كذلك الحصن الشرقي – انظر تفصيل الامر عنه في دوسو ١٤٦ وما يليها.

(٢) فامية: ويسميها بعضهم أفامية، وهي في نواحي حمص – انظر الصفحة ١٣ السابقة.

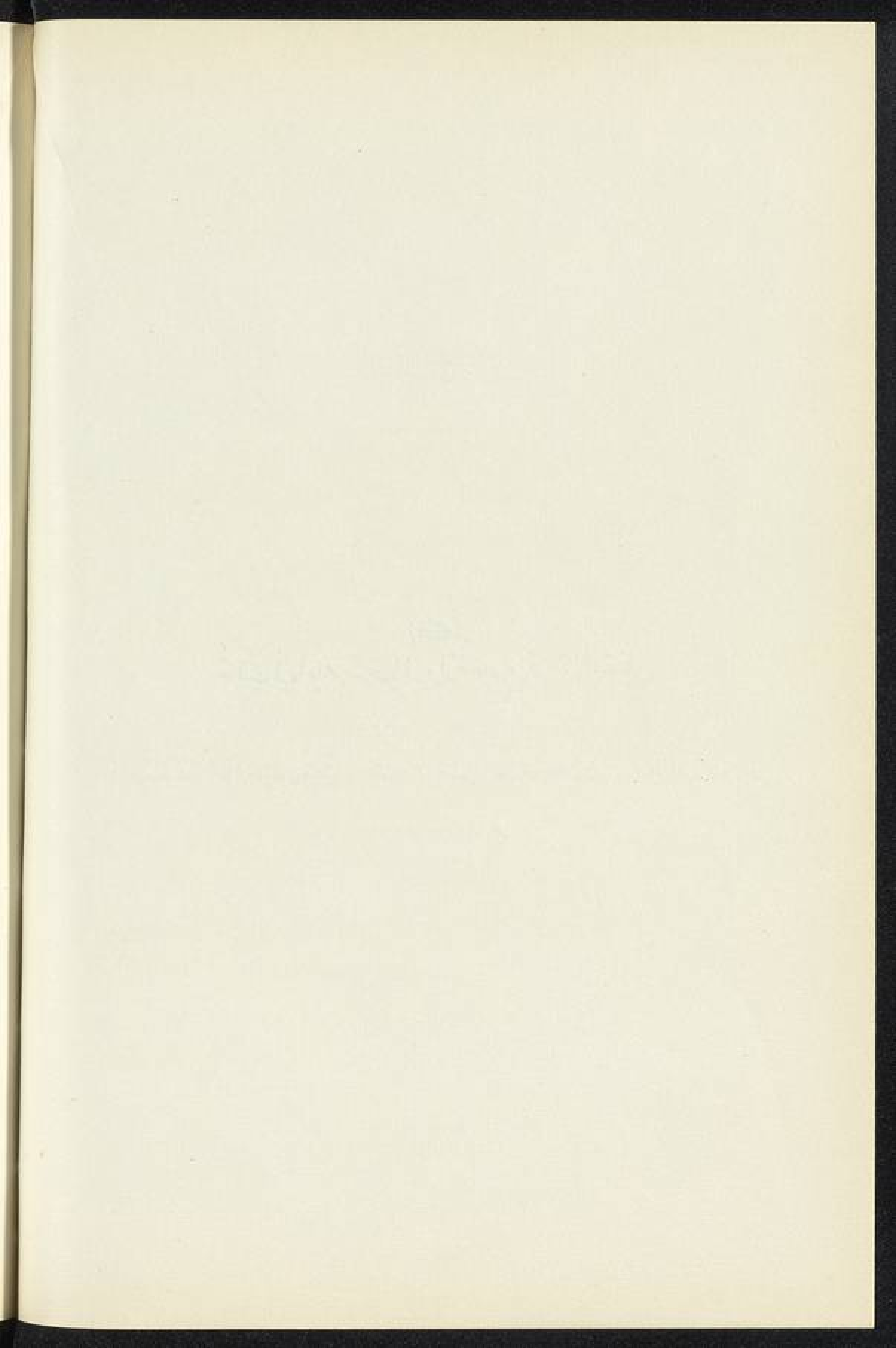
(٣) هنا ينتهي ما ترجمه المستشرق مولر إلى اللاتينية من تاريخ المرداسيين وقد جعله من سنة ٣٩٢ هـ – ٤٧٢ هـ (انظر الجزء الأول من زبدة الحلب ١٩٥)

القسم السابع عشر

ذكر
حلب في أيام شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي

خبر ابن منقذ - أعمال مسلم بن قريش - حصار دمشق - خبر ملكشاه - سليمان والروم

٤٧٣هـ - ٤٧٨هـ



خبر ابن منقذ

دخول حلب

وتسلمها أبو المكارم في شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ، بعد حصار أربعة أشهر للقلعة . وقال ابن أبي حصينة يهنئ شرف الدولة بفتح القلعة :

لَقَدْ أَطَاعَكَ فِيهَا كُلُّ مُمْتَنِعٍ
خَوْفَ انْتِقَامِكَ حَتَّى غَارَتِ الْقُلُبُ

٥

ولما ملك شرفُ الدولة حلبَ أحسن إلى أهلها ، وخفف عنهم أثقالًا كثيرة ، وصفح عن كُلَفٍ كانت عليهم في أيام بني مرداس . ونُقِلَتِ الغلاتُ إلى حلب ، فرخصت الأسعار بعد الغلاء الشديد[1] .

وفي يوم تسلُّمه القلعة ودخوله إليها دخل زوجته منيعة أخت سابق ، في اليوم والساعة ، وهو اتفاق لم يُسمع بمثله ، ففتح حصنين . ١٠

وقال في ذلك أبو نصر بن الزنكل[2] يمدح شرف الدولة :

فرعتَ أمنع حصن وافترعتَ به
نعم الحَصانُ ضُحىً من قبل يعتدل[3]
وحزتَ بدرَ الدجى شمسَ الضحى فعلى
مثليكما شرفاً لم تُسْدَلِ الكلل

(١) في تاريخ ابن القلانسي ١١٣ : « وفيها رخصت الأسعار في الشام بأمره » .

(٢) هو أبو نصر منصور بن تميم بن زنكل السرميني وقد مرّ بنا في الصفحة ٦٣

(٣) افترع البكر : أزال بكارتها – والحَصان : المرأة العفيفة .

ومدحه ابنُ حَيُّوس بالقصيدة الّتي أوّلها[1] :

مَا أدرَكَ الطَّلَبَاتِ مِثلُ مُتَمِّمِ
إنْ أقدَمَتْ أعداؤه لم يُحجِمِ[2]

فلما وصل إلى قوله :

[١٠٣و] أنتَ الّذي نَفقَ الثَّنَاءُ بِسُوقِهِ
وَجرى النّدَى بِعُروقِهِ قَبلَ الدَّمِ[3]

اهتزّ شرفُ الدّولة وأمره بالجلوس ، فأتمّها جالساً وأجازه بألفي ٥ دينار وقريةٍ .

موت ابن حيوس

وقيل : انّه لما مدحه ابنُ حيوس قال له أبو العزّ بن صدقة البغدادي وزيرُ شرفُ الدّولة : « هذا رجلٌ كبير السنّ ولم يبقَ من عمره إلّا القليل ، فأرى أن تعظم له الجائزة فيحصل على الذّكر الجميل » ؛ فأقطعه الموصل جائزة له . ١٠

فمات في هذه السنة قبل أن يصل إليها وترك مالًا جزيلًا فقيل لشرف الدولة : « هذا لا وارث له إلّا بيت المال » . فقال : « والله لا يدخل خزانتي مالٌ قد جمعه من صِلات الملوك انظروا له قرابة » . فسألوا عن ذلك فوجدوا له من ذوي الأرحام بنت أخٍ[4] فأعطاها

---

(١) في ديوان ابن حيّوس ج ٢ ص ٥٦٩ : « قال أيضاً يمدح الأمير شرف الدولة أبا المكارم مسلم بن قريش لما فتح حلب في سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة »

(٢) في طبعة الديوان : « مثل مصمّمِ » – وكذلك في النجوم الزاهرة ١١٩/٥ .

(٣) وقع هذا البيت في ديوان ابن حيوس ٥٧٥/٢ .

(٤) جاء في المصادر التاريخية أنّ زوجها أحمد والد أبي غانم .

ماله جميعه وهي بنتُ أخيه أبي المكارم محمّد بن سلطان بن حيّوس .

ولما سَفَرَ ابن منقذ(١) في تسليم حلب وتسلّمها شرف الدّولة وعد ابن منقذ وعودًا جميلة ، ومنّاه أماني حسنَة وأكرمه غاية الاكرام .

الرخاء في حلب

ونقل شرف الدّولة إلى الشّام من الغلال ما ملأ الأهراء ، ٥ وعاد بالرِّفق على الناس ؛ وكذلك نقل إليها من سائر الحبوب ومن البقر والغنم والمعز والدجاج شيء كثير .

وعاش الناس في أيّامه ورخصت الأسعار بحسن تدبيره . وتسلّم حصن عزاز من واليها عيسى . وتسلّم حصن الأثارب بعد حصار وحرب ؛ وكذلك الحصُون الّتي كانت في أيدي أصحاب تاج الدّولة ١٠ من أعمال حلب التي افتتحها .

وَصَفَتْ له جميع أعمال ‖ حلب ، وقال لسديد الملك : « امض في [١٠٣ظ] دَعَةِ الله فأنا سائر إلى بلادي . ويجبُ أن تصلح حالك فأنا أصِلُ وأبلغك كل ما تُؤثِرُهُ » . ورجع إلى بلاده ، وجعل أخاه عليّ بن قريش بحلب مع قطعة من عسكره بحلب .

١٥ وكاتبَ السّلطان أبا الفتح ملك شاه يعلمه بما جَرى ، ويسأله في تقرير شيء يحمله من الشّام فأجيب إلى ذلك .

ووصل أبو العزّ بن صَدَقة البغدادي وزير شرف الدّولة إلى حلب لجمع أموالها في سنة أربع وسبعين وأربعمائة ؛ وعدل عما كان ابتدأ به من العَدْل والاحسان ، وصادر جماعةً ، وضاعف الخراج .

(١) هو أبو الحسن عليّ بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الملقب سديد الملك ، أول من ملك قلعة شيزر – انظر ابن خلكان ١/٣٦٧ .

وكان شرف الدَّولة بالقادسيَّة[1] فدخل الحمام وهي ملاصقة لداره، فوثب عليه مملوك كان برسم خِدمته، فجعلا في حلقه أنشوطة[2] ليخنقاه، وانتظرا صاحباً لهما يدخل بسكّين؛ فصَاح شرفُ الدَّولة، فسمعت صياحَهُ زوجته خاتون أخت السُّلطان ألب أرسلان، فخرجتْ إليه فانهزما عنه. ومرض من ذلك أياماً، وأُخذا وقُتِلا.

ولمّا بلغ ذلك أبا العز بن صدقة البغدادي عاد من حلب إلى القادسيَّة. وكان سديد الملك ابن منقذ قد عمر قلعة الجسر[3]، وقصد مضايقة شيزر[4] وبها أسقف البَاره[5] وضَيَّق عليه إلى أن راسله واشتراها مِنه، واستحلفه على أشياء اشترطها عليه[6].

(١) القادسيّة: بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً، وبها كان يوم القادسية بين سعد بن أبي وقاص والمسلمين والفرس في أيام عمر بن الخطاب سنة ١٦ للهجرة – انظر معجم البلدان لياقوت ٧/٤.

(٢) الأُنشوطة: عقدة يسهل انحلالها إذا أخذ بأحد طرفيها انفتحت كعقدة التكة. ج. : أناشيط.

(٣) في ابن خلكان ٣٦٧/١: «كان نازلاً مجاوراً لقلعة بقرب الجسر المعروف بجسر بني منقذ» – وفي بغية الطلب ٢٢٣/١ أنها إلى جانب شيزر.

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٣٥٣/٣: «شيزر: بتقديم الزاي على الراء وفتح أوله – قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم في وسطها نهر الأرند عليه قنطرة في وسط المدينة» – انظر دوسو بالصفحة ١٤٥ وما يليها – وقلعة شيزر اليوم على مسافة خمسة عشر كيلومتراً من الشمال الغربي لحماة – انظر كتاب أسامة بن منقذ للاستاذ محمد أحمد حسين ص ٢ – وفي بغية الطلب ٢٢٣/١ مثل هذا الكلام.

(٥) في معجم البلدان ٤٦٥/١: «البارة: بليدة وكورة من نواحي حلب وفيها حصن، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة» – وقد بقيت الى اليوم من هذه المدينة خرابات وآثار قديمة.

(٦) انظر ما ذكره سبط ابن الجوزي، في حاشية ابن القلانسي ١١٣ – وفي بغية الطلب ٢٢٣/١: «وقصد بذلك التضييق على الاسقف الذي كان بشيزر فحصل لابن منقذ ما قصده وضاق بالاسقف الأمر، وكره بلده، فاشترى شيزر من الاسقف بمال بذله وتسلّم منه البلد وتزله».

ولم يزل ابن منقذ يعده الجميل ويتلطّف له إلى أن سلم إليه حصن شَيْزَر ليلة الأحـد النصف من شهر رجب من سنة أربع وسبعين وأربعمائة.

ووفى له ابن منقذ بكلّ ما عاهده عليه، فثقل ذلك على شرف الدّولة وحسد || ابن منقذ على شيزر فسار عسكر حلب مع مؤيّد [١٠٤و] الدّولة عليّ بن قريش إلى شيزر، ونزلوا عليها في يوم الجمعة خامس ذي الحجة سنة أربع وسبعين وأربعمائة، بعد مراسلاتٍ جَرَتْ فلم يجب ابن منقذ إلى ما التمس منه.

وكان عليّ بن قريش قد أخذ في طريقه حِصناً لابن منقذ يقال له أسفُونا[1] غربيّ كفرطاب، وكان ابن منقذ قد تأهب للحصار، وحمل من الجسر إلى شيزر ما يكفي لمن فيه مدة طويلة من سائر الأشياء.

وحصره عليّ بن قريش مدة إلى أن وصل شرف الدّولة بنفسه، فنزل على شيزر يوم الأربعـاء سلخ المحرم من سنة خمس وسبعين وأربعمائة.

ثم رحل عنها إلى حمص يوم السبت ثالث صفر، وأقام عسكره على شيزر، فتطارح ابن منقذ عَلَيه، وسيّر إبنه أبا العساكِر وامرأته منصورة بنت المطوع وأُختَه رفيعة بنت منقـذ إلى حمص؛ فَدَخلوا عليه، وحملوا إليه مالاً، فأنفذ إلى عسكره، ورحّله عن شيزر في الثامن والعشرين من صفر من السنة.

(١) اسفونا: حصن كان قرب معرّة النعمان - انظر ياقوت ١/٢٦٩.

أعمال مسلم بن قريش

ولما وصل شرف الدولة إلى حماة قبض على جميع الأتراك الذين بالشام وأخذ منهم الحصون التي كانت في أيديهم، وهي بَيت لاها[١]، وتل اغدي، وهاب[٢]، وكفرنبل. وقبض على وثّاب وشبيب ابني محمود، وأخذ منها قلعة عزاز والأثارب، وأطلقها بعد ذلك، وحمل الأتراك، وحبسهم في الرحبة فداموا بها إلى أن قُتِل. ٥

وقبض شرف الدولة على أكثر أقطاع بني كلاب بالشام؛ وعاد إلى حلب؛ وقبض على حسن بن وثّاب النميري أمير بني نمير، وكان قد حصره بسروج[٣] في العام || الخالي فسلّمها إليه بعد أن عوّضه عنها بنصيبين فاعتقله بحلب مدة وقتله. [١٠١ظ]

وفي نزوله على شيزر، وقتاله حصن الجسر، وفعل وزيره أبي العز ابن صدقة من المصادرة، يقول أبو المعافى سالم بن المهذّب المعرّي[٤]: ١٠

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ١/٧٧٩: «بيت لاها – حصن عال بين أنطاكية وحلب على جبل ليلون».

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٤/٩٦٥: «هاب – قلعة عظيمة من العواصم» – ولم يتبين رسم الاسم التالي فلم نقع عليه في المصادر التي بين ايدينا ولعله كفرنُبُل.

(٣) في الاعلاق الخطيرة لابن شداد، مخطوطة الجزيرة بالورقة ٣١ ظ: «سروج: عن شمالي حران إلى جسر منبج حسنة حصينة كثيرة الأشجار والمياه والفواكه والزبيب».

(٤) وردت ترجمة الرجل في بغية الطلب ٩/١٩٠ و – وهو سالم بن عبد الجبّار بن محمد ابن المهذب بن محمد بن همام بن عامر ... أبو المعافى التنوخي المعرّي من أكابر بيوت معرة النعمان، وله شعر جيّد وكان بينه وبين سديد الملك مودة، وقد توفي سالم في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة أو بعدها. وقد جاءت الأبيات في البغية وعليها فوائد وتعاليق.

أَمُسْلِمُ لَا سامَتَ مِنْ حَادِثِ الرَّدَى
وَزَرْتَ وَزِيرًا ما شَدَدْتَ بِـهِ أَزْرا

رَبِحتَ ولم تَخسر بِحَرْبِ ابْنِ مُنْقِـذٍ
مِنَ اللهِ والنَّاسِ المَذَمَّـةَ وَالوِزْرا

ثُمَّتْ كَمَدًا « فالجسرُ » لستَ بِجَاسِرٍ
عَلَيْهِ ؛ وَعَايِنْ شَيْزَرًا أَبَدًا شَزْرا

فبلغت الأبيات شرف الدَّولة ، فقال : « من يقولُ هذا فينا ؟ »
٥ قالوا : « رجل من أهل المعرّة يقال له ابن المهذّب » . قال : « ما لنا وله اكتبوا إلى الوالي بالمعرّة يكفّ عنه ، ويُحسنُ إليه فربّما يكون قد جار عليهِ وأحوجه إلى أن قال ما قال » .

وعاد شرف الدّولة إلى الجزيرة ، وقد جَرَتْ منه هذه الحوادث ، وأجحف ببني كلاب ، فأجمع رأي وَثّاب وشبيب ابني محمود ، وخَلف
١٠ ابن ملاعب الأشهبي صاحب حمص ، وأبي الحسن بن مُنقذ ، ومنصور بن الدّوح على مكاتبة الملك تاج الدّولة بدمشق ، وشكَوْا أحوالهم ، وعرضوا عليه خدمتهم ، وأطمعوه في الشّام .

فسار من دمشق إلى الشام وقصد ناحية أنطاكية وأقام عليها مُدَّةً[1] ، واتّصل به خبر شرف الدّولة وما هو عليه من الجمع والتّأهّب ،

---

(١) في ابن الأثير ١٣٢/٨ : « في هذه السنة جمع تاج الدولة تتش جمعًا كثيرًا ، وسار عن بغداد ، وقصد بلاد الروم انطاكية وما جاورها » – وفي ابن القلانسي ١١٦ : « سنة خمس وسبعين وأربعمائة – فيها توجه السلطان تاج الدولة إلى ناحية الشام من دمشق ومعه في خدمته الأمير وثاب بن محمود بن صالح ومنصور بن كامل وقصد ناحية الروم ، وأقام هناك مدة . »

واجتماع العَرب اليه من بني نمير، وعقيل، والأكراد، والمولدة، وبني شيبان، للنزول على دمشق، والمضايقة لها والطمع في تملّك دمشق؛ فعاد تاج الدّولة إلى دمشق[١]. وخرج عسكر [حلب][٢] ‖ مع بعض [١٠٥و] أصحاب شرف الدّولة إلى أعمالها، ورتّبوا ولاتهم ‹فيها›[٣] وساروا إلى حماة، وبها وثّاب بن محمود، فلقي عسكر شرف الدولة ‹ وكبسه ٥ وقتل منه ›[٤] جماعةً، وعاد من سلم منهم إلى حلب.

فنزل وثّاب بن محمود ومنصور بن كامل بن الدّوح وابن ملاعب[٥] وابن منقذ على معرّة النّعمان، وقطعوا كثيراً من شجرها، ورعوا زرعها بالظعون، وقَلبوه بالفدن، وقاتلوها أيّاماً، ولم يمكنهم أهلها من فتحها خوفاً منهم. ١٠

وبلغ شرف الدّولة ذلك كله، فسار ومعه أكثر بني كلاب وبني نمير، وبعض بني عقيل؛ ووصله بعض بني طيّء وكلْب وعُليم؛ ونزل في بالس في محرّم سنة ستّ وسبعين.

---

(١) في ابن القلانسي ١١٦ : « واتصل به خبر شرف الدولة مسلم بن قريش وما هو عليه من الجمع والاحتشاد والتأهب والاستعداد واجتماع العرب اليه من بني نمير وعقيل والأكراد والمولدة وبني شيبان للنزول على دمشق والمضايقة لها، والطمع في تملكها، فعاد منكفئاً إلى دمشق لما عرف هذا العزم ووصل إليها في أوائل المحرم سنة ٤٧٦ ».

(٢) هذه الكلمة ناقصة في الأصل يقتضيها السياق – وفي ابن الأثير ٨/١٣٢ توضيح بعض ما غمض هنا.

(٣) هذه الكلمة مطموسة استنبطناها من النصّ.

(٤) هذه الجملة مطموسة كذلك فوضعنا بين حاصرتين ما يقرب من معنى الكلام

(٥) هو خلف بن مُلاعب – انظر ابن القلانسي ١١٥.

حصار دمشق

وسار إلى دمشق وحاصرها، وقاتل دمشق في بعض الأيام وخرج إليه عسكر دمشق، وحمل عليه حملةً صادقة فانكشف عسكره وتضعضع، وعاد كلّ فريق إلى مكانه[١].

وعاد عسكر دمشق بحملةٍ أخرى، فانهزمت العَرَبُ، وثبت شرف الدّولة مكانه، وأشرفَ على الأسر، وتراجع إليه أصحابه؛ وكان قد ظَنَّ أنَّ العسكر المصريّ ينجده فخَاف أمير الجيوش من مَيْل العَرب إليهِ فتثاقل عنه[٢].

أخذهم اه

وورد عليه من حرّان خبر أزعجه[٣]؛ وذلك أنّه كان قد تسلّمها من يحيى بن الشّاطر أحد عبيد ابن وَثّاب النُّميري، وكان يليها لعليّ بن وَثّاب الطفل[٤]، وكان وثّاب يعدل فيهم ويرفق

---

(١) جاء في ابن القلانسي ١١٦ نصّ الجملة كما في ابن العديم مع اختلاف يسير في بعض الكلمات؛ وفي ابن الأثير ١٣٢/٨ عبارة قريبة جدًا من النصّ الذي بين أيدينا مع شيء من الاختصار.

(٢) في ابن القلانسي ١١٦: «وكان شرف الدولة قد اعتمد على معونة عسكر المصريين على دمشق ومعاضدته بالعسكر المصري على أخذها، فوقع التقاتل عليه بالانجاد والتقاعد عنه بالاسعاد، إشفاقًا من ميل الناس إليه وعظم شأنه بتواصلهم ووفودهم عليه».

(٣) في ابن الأثير ١٣٢/٨: «وأتاه عن بلاده الخبر أن أهل حرّان عصوا عليه فرحل عن دمشق إلى بلاده» – في ابن القلانسي ١١٥: «وورد عليه من أعماله ما شغل خاطره في تدبيره وأعماله، وتواترت الأخبار بما أزعجه وأقلقه، رأى أن رحيله عن دمشق إلى بلاده وعوده إلى ولايته لتسديد أحوالها واصلاح اختلالها أصوب من مقامه على دمشق وأوفق من شأنه».

(٤) في حاشية ابن القلانسي ١١٦ عن سبط ابن الجوزي: «فوجد قاضيها ابن جلبة الحنبلي قد استغوى اهلها وأدخل إليها جماعة من بني نمير مع ولد صغير لمنيع بن وثاب».

بهم ، فولّى فيها جعفر العُقَيلي ، فعدَل عمّا كان وثاب يسلكه من العَدل ،
[١٠٠ظ] وأظهر مذهب التّشيّع والاعلان بهِ ؛ وكان || يتولى الحكم بها القاضي
ابن جلبة ، فاتّفق مع أهل حرّان على العصيان على شرف الدّولة ،
وكاتبوا يحيي بن الشّاطِر الّذي تسلّمها منه مسلمٌ فوصل إليهم ، ومعه
٥ ابن عطيّة النُّميري وجماعة ؛ ووثبوا على أصحاب شرف الدّولة فهربوا
إلى الحصن ، وقاتلهم ابن جلبة ومن انضم إليه .

فسيّر الوالي جماعة إلى شرف الدّولة يعلمه بالحال ، فبعضُهم أخذ
بالقرب من حَرّان ، وبعضهم أخذه أصحاب تاج الدّولة ؛ فعرف تاج
الدّولة الخبر قبل معرفة شرف الدولة فقويت نفسه .

١٠ وعرف شرف الدّولة ذلك واستضر عسكره بتواصل الغارات
عليه عندما قويت نفس تاج الدّولة ، وكان ذا مكرٍ وخديعة ، فرحل
إلى مرج الصّفر[١] ، وأوهم أنه يسير مقتبلًا لأمر عزم عليه ، وقلق
أهل دمشق لذلك[٢] .

ثم رحل مشرِّقاً في البرّيّة على وادي بني حصين ونزل شرقيّ
١٥ حماة ، وراسل ابن ملاعب ، وطيّب نفسه إلى أن نزل فخلع عليه ؛

---

(١) مرج الصُّفر : سهل واسع ممتد في شمالي دمشق على بعد ٣٣ كيلومترًا منها – انظر دوسو ٣١٧ .

(٢) في ابن الأثير ٨/١٣٢ : « فرحل عن دمشق إلى بلاده ، وأظهر أنه يريد البلاد بفلسطين فرحل أولًا إلى مرج الصفر فارتاع أهل دمشق وتتش واضطربوا ، ثم انه رحل من مرج الصفر مشرقًا في البرية ، وجدّ في مسيره » – وفي ابن القلانسي ١١٥ : « فأوهم أنه سائر مقتبلًا لأمر مهمّ عليه وأرب مطلوب نحد إليه ، فرحل عن دمشق ونزل مرج الصفر ، وعَرف من بدمشق ذلك فقلقوا لذلك واضطربوا ؛ ثم رحل مشرّقًا في البريّة وجلّا ، وجدّ في سيره مجفلًا » .

وقرّر معه أن يكون بينه وبين تاج الدّولة ردءاً يمنع من الأذية في بلاده[١] ، فأجابه إلى ذلك ؛ وخلع عليه شرف الدولة وأكرمه وطيّب نفسه .

وسار شرف الدّولة إلى حرّان بعد أن أشرف الحصن على الأخذ ، فقاتل حرّان ، ونقب نقوباً في سورها وثلم ثلمتين ، وأقام عليها شهرين ؛ ومضى أبو بكر ابن القاضي ابن جلبة ويحيى بن الشّاطر .

واستنجد بجماعةٍ من الأتراك فسيّر ابن عمّه ثروان بن وُهيب فكسرهم وأسر منهم خلقاً عبر بهم على ‖ حرّان وسيّرهم إلى بلاده . [١٠٦ و]

وهجم حرّان بالسّيف من الثلمتين[٢] وهم يقاتلون ولم تسكن الحرب حتى أعطى لؤلؤ الخادم الأمان ، وأمن أبا بكر ابن القاضي وكان قد عاد إلى البلد ، فحينئذٍ تفرّق النّاس .

ونهب عسكر شرف الدّولة البلد ، وقطع عليهم ألف دينار ، وقبض على خلق منهم ، وقتل ابن جلبة وولديه وثلاثة وتسعين رجلاً صبراً ، وصلبهم ، وصلب ابن جلبة أمامهم[٣] ، ولم يفِ له بعهده ، وذلك كله في سنة ستّ وسبعين .

---

(١) في ابن القلانسي ١١٥ : « فأنفذ وزيره أبا العزّ بن صدقة إلى خلف بن مُلاعب المقيم بحمص ليجعله بين الشام وبين السلطان تاج الدولة لما يعلمه من نكايته في الأتراك وفتكه بمن يظفر به من أبطالهم الفتاك » – في تاريخ العظيمي بالورقة ١٨٤ ظ : « وعبر أبو العز صدقه في العساكر إلى الشام لدفع تاج الدولة عنه »

(٢) انظر تفصيل الموقعة في حاشية ابن القلانسي ١١٧ ، نقلاً عن سبط ابن الجوزي .

(٣) في سبط ابن الجوزي ، بحاشية ابن القلانسي : « ثم طلب القاضي فوجد في كندوج فيه قطن ، فأخذ وولداه فقبض على أعيان أهل حران ، ونهب البلد إلى آخر النهار ، ثم رفع النهب ، وصلب القاضي وولديه وأعيان الحرانيين على السور وقتل خلقاً من العوام ، وعاد إلى منازله بأرض الموصل » – انظر ابن الأثير ١٣٣/٨ .

خبر ملكشاه

وَوَصل ابن جهير وزير القائم ليتسلّم ديار بكر[١] ومعه عسكر من ملك شاه. وكان ابن جهير قد وزر مرّةً لثمال بن صالح، ثمّ وزر لابن مروان، ثمّ للقائم ـ فوصل ابن مروان إلى شرف الدّولة، واستنجده عليه فأنجده[٢]، فالتقوا على آمد، فكسرهم ابن جهير، وأخذ أموال شرف الدّولة، وأسر أصحابه[٣]، وأطلقَ من أسر مِن بني عقيل[٤]. ٥

انكسار شرف الدولة

ثم إنّ ابن جهير بثّ سراياه في أعمال شَرف الدّولة فعاثتْ في بلاده، ونَهبت؛ وذلك في سنة سبع وسبعين.

ووصله مالٌ من حلب فتقوّى به؛ وسار[٥] إلى الرَّحبة وسيّر عمه ١٠

---

(١) في ابن الأثير ٨/١٣٣ : « وعقد السلطان لفخر الدولة بن جهير على ديار بكر وخلع عليه وأعطاه الكوسات وسيّر معه العساكر، وأمره أن يقصدها ويأخذها من بني مروان ».

(٢) في ابن الأثير ٨/١٣٤ : « وكان ابن مروان قد مضى إلى شرف الدولة، وسأله نصرته على ان يسلّم إليه آمد، وحلف كل واحد لصاحبه، وكل منهما يرى أن صاحبه كاذب لما كان بينهما من العداوة المستحكمة، واجتمعا على حرب فخر الدولة وسارا إلى آمد ».

(٣) في ابن الأثير ٨/١٣٥ : « وغنم التركمان حلـل العرب ودوابهم، وانهزم شرف الدولة، وحمى نفسه حتى وصل إلى فصيل آمد، وحصره فخر الدولة ومن معه، فلما رأى شرف الدولة أنه محصور خاف على نفسه فراسل الأمير أرتق ».

(٤) في ابن الأثير، بالصفحة نفسها : « وافتكّ أسرى بني عقيل ونساءهم وأولادهم وجهزهم جميعهم وردّهم إلى بلادهم ففعل أمرًا عظيماً وأسدى مكرمة شريفة ».

(٥) أي شرف الدولة، وهو مسلم بن قريش بن بدران الامير أبو البركات شرف الدولة أمير بني عُقيل صاحب الموصل والجزيرة وحلب – انظر النجوم الزاهرة ٥/١١٩ .

مقبل بن بدران رسولاً إلى مصر يطلب معونتهم، ويبذل لهم الطاعة، وكاتب السّلطان ملك شاه يذكّره بخدمته وطاعته ويذكر ما فعله ابن جهير.

فلما عرف ملك شاه ذلك وانفاذه عمّه إلى مصر سار إلى الموصل ومعه نظام الملك؛ _ وكان نظام الملك يميل إلى شرف الدّولة، ويشير بالإحسان إليه والصفح || عنه _ وكاتب الوزيرُ نظامُ الملك | شرفَ [١٠٦ظ] الدّولة يُشير عليه بالوفود على السّلطان، ووعده بما طابَت به نفسه، فسار من الرّحبة إليه، ولقيه نظام الملك على مراحل مِن الموصل[١].

فترجّل شرفُ الدّولة وقبّل يده؛ وكان في محفّة لمرض مَنَعَهُ من الرّكوب، فأمره بالرّكوب[٢]، وقال له: « ذَهَبَ خوفُك وشُرِحَ صَدْرُكَ، وحُقّق أملُك». وكان قد استصحب معه كلّ ما قدر عليه من بقايا ذخائره وأمواله وخيله عقيب هذه النّكبة العظيمة.

ودَخَل على السّلطان فأكرمه وأحسن إليه، وأجابه إلى كلّ ما طلبه؛ وسامحه بما كان بقي عليه من مقاطعة الشّام؛ وجَدّد له التّوقيع بالبلاد الشّامية والجَزَرية وكلّ ما كان في يده؛ وقرّر معه مسير ولده

(١) في ابن الأثير ١٣٥/٨ : « فأرسل مؤيد الملك بن نظام الملك إلى شرف الدولة وهو مقابل الرحبة فأعطاه العهود والمواثيق، وأحضره عند السلطان وهو بالبوازيج، فخلع عليه آخر رجب، وكانت أمواله قد ذهبت، فاقترض ما خدم به، وحمل للسلطان خيلاً رائقة من جملتها فرسه بشار – وهو فرسه المشهور الذي نجا عليه من المعركة ومن آمد أيضاً وكان سابقاً لا يجارى–» .

(٢) في ابن القلانسي ١١٧ : « وفي رجب منها : توجه شرف الدولة مسلم بن قريش إلى دركاه السلطان العادل ملك شاه بن الب ارسلان، ودخل عليه ووطئ بساطه، فأكرمه واحترمه وخلع عليه، وقرر أمره على ما يجوى من إصلاح أحواله والاقرار على أعماله، وازالة ما كان يخشاه، وعاد مسروراً بما لقي، ومحبوراً بنيل مبتغاه» .

محمد وأن يكون في عسكره ، وكاتب أخاه تاج الدّولة أن لا يعرض لبلاده ، وكان قد توجّه إليها ، وسار أبو العزّ بن صدقة إلى حلب لانجادها عليه ، وبلغه خروج عسكر من مصر فرجع من لطمين[1] .

سليمان والرّوم

وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، شرع سليمان بن قطلمش[2] في العمل على أنطاكية والاجتهاد في أخذها إلى أنْ تمّ له ما أراد[3] .

فأسرى من نيقيه[4] في عسكره ، وعبر الدّروب وأوهم أن الفلاردوس[5] استدعاه ، وأسرع السّير إلى أن وصل أنطاكية ليلاً ، فقتل أهل ضيعة تعرف بالعمرانيّة[6] جميعهم لئلا ينذروا به ، وعلقوا حبالاً في شرفات السّور بالرّماح ، وطلعوا مما يلي باب فارس ؛ وحين

(١) لَطمين : كورة بحمص ، قريبة من أفامية وهي قديمة – انظر دوسو ٢٠٧ ، وزبدة الحلب ٢٥١/١ بالحاشية .

(٢) تختلف المصادر التاريخية في رسم هذا الاسم فبعضها يكتبه بالطاء وبعضها يكتبه بالتاء – وفي النجوم الزاهرة ١١٩/٥ : «سليمان بن قُتُلْمِش» – في ابن القلانسي ١١٧ ؛ وفي ابن الأثير ١١٣/٨ : « سليمان بن قتلمش» – وفي ابن العديم ، والعظيمي ١٨٥ ظ : « سليمان بن قطلمش » .

(٣) في ابن القلانسي ١١٧ عبارة مماثلة : « في هذه السنة شرع سليمان بن قتلمش في العمل على مدينة أنطاكية ، والتدبير لأمرها ، والاجتهاد في أخذها ، والتملك لها ، ولم يزل على هذه القضية إلى أن تمّ له ما أراده فيها وملكها سرقة » .

(٤) نيقية – بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر القاف وياء خفيفة : من اعمال استانبول على البر الشرقي ، وهي المدينة التي اجتمع بها آباء الملة المسيحية – انظر معجم البلدان لياقوت ٨٦١/٤ .

(٥) رسم الناسخ هذا الاسم على وجهين فجعله في ص ٨٦، ٨٧ : « الفلاددرس » ثم رسمه ص ١٠١ : « الفلاردوس » وهذا أقرب إلى لفظه الأعجمي فصوّبناه ووحّدنا رسمه – في العظيمي وفي ابن الأثير ١٣٦/٨ : « الفردوس الرومي » – وهو في الأعجمية : *Philaretos Brachamios* – انظر هونيغمان ١٢٣ .

(٦) في الأصل : « لئلا يبدروا به » – وفي ابن الشحنة ٢١١ : « وقتل أهل العمرانية جميعاً حتى لا ينذروا به » .

صار منهم ‖ على السّور جماعة نزلوا إلى باب فارس وفتحوه . [١٠٧و]

ودخل هو وعسكره من الباب وأغلقوه ، وكانوا مائتين وثمانين رجلًا ، وذلك يوم الأحد العاشر من شعبان ؛ وقيل يوم الجمعة الثامن ، ولم يشعر بهم أهل البلد إلى الصَّباح.

٥ وصاح الأتراك صيحةً واحدة فتوهَّم أهل أنطاكية أنه عسكر الفلاردوس [١] حتى قاتلوهم فانهزموا وعلموا أن البلد قد هُجم فبعضهم هرب إلى القلعة وبعضهم رمى بنفسه من السُّور فنجا .

واستقلّ سليمان عسكره فوصل اليه ابن منجاك في ثلاثمائة فارس ، ولم يزل عسكره يتواصل حتى قوي ، فأمن النَّاس وردَّهم إلى دورهم ، ١٠ وردّ أكثر السَّبي وصلّى المسلمون يوم الجمعة خامس عشر شعبان في القسيان [٢] ، وأذّن فيه ذلك اليوم مائة وعشرة من المؤذنين وخلق كثير من أهل الشّام.

وكان يوم فتحها أوّل يوم من كانون الأول ؛ وكان فتحُ الرُّوم لها أول ليلة من كانون الثاني لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة ١٥ من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة .

ووُجد خطّ بعض المنجمين وهو ابن أخت الصَّابي على ظهر كتاب عند القاضي أبي الفضل بن أبي جرادة يقول : « ذكر المخبر عن أخذ مدينة أنطاكيّة أنّ دخول العدو ـ يعني الرّوم ـ إليها في وقت كذا وكذا من اللّيل ؛ فان صحّ قولُ المخبر فإنها تثبت في أيدي الرّوم مائة ٢٠ وتسع عشرة سنة ».

(١) في الأصل : « الفلادرس » — انظر هامش الصفحة السابقة .
(٢) في ابن الأثير ١٣٦/٨ « وتسلم القلعة المعروفة بالقسيان »

وكان قد وقف على هذا الخطّ محمود بن نصر بن صالح ؛ وقد ذكر في مجلسه ، وأظنّ ذلك حين نزل الأفشين التركيّ على أنطاكية ، وخاف محمود من أن يملك [١٠٧ظ] || أنطاكية فلم يتفق فتحها حينئذ ، وكان الأمر كما ذكر المنجّم ، ففتحها سليمان بن قطلمش عند تمام المدّة .

وأقام سليمان بن قطلمش يُحاصر قلعة أنطاكية إلى الثاني عشر من شهر رمضان من السنة وفتحها بالأمان ليقيها من القتل والسبي . ونهب التُرك من أنطاكية ما يفوت الاحصاء ويزيد عن الوصف[١] .

وسكنها سليمان بعسكره وفتح الحصون المجاورة لها ، بعضها عن طوع وبعضها عن استدراج .

وصار لسليمان من نيقية إلى طرابلس ، وملكَ الثغور الشامية ، وكان حسن السيرة في جنده وعسكره جوادًا بماله ، فمال إليه الناس لذلك . ولما فتح أنطاكية أهدى إلى شرف الدّولة من الغنيمة هديّة حسنة .

ولما استقرّ حال شرف الدّولة مع ملك شاه واطمأن عاد إلى القادسيّة ، وناصف الجُند في أرزاقهم ، ونقصها عَليهم ، فصار أكثرهم إلى سليمان ، وتركوه فأقطعهم ؛ وأحسن إليهم وسبّب لهم أرزاقاً تكفيهم .

وكان جماعة من أصحاب بني مرداس يخافون شرف الدّولة وهم متفرقون في الشّام فصاروا إليه .

---

(١) في ابن الأثير ١٣٦/٨ : « وأخذ من الأموال ما يجاوز الإحصاء ، وأحسن إلى الرعيّة ، وعدل فيهم » .

وكان من ضياع أنطاكية وأعمالها مواضع عـدة تغلّب محمود والأتراك عليها، وقبضوها من الرّوم لضعفهم، وصارت في أعمال حلب، فقبضها سليمان وأقطعها وغيرها مما يجاور أعمال أنطاكية.

وكان الشريف حسن الحتيتي رئيس حلب وغيره من أصحاب شرف الدّولة خافوا منه لمّا استقر حاله مع السّلطان أن يتمّ له الصلح مع ابن قطلمش فيتفرغ لهم ويقبضهم، ‖ ويستأصل أموالهم؛ فتوصّلوا إلى المفاسدة بينهما بمن صار في حلّته من أهـل الشام ليشتغل عنهم شرف الدولة. [١٠٨و]

وكان لأبي المكارم قطعة على أنطاكية يحملها الروم إليه فطمع بها من سليمان فلم يجبه إلى ذلك وقال: «تلك جزية كانت على الروم لتمسك عن جهادهم، وقد قمتُ أنا بفريضة الجهاد، وصارت أنطاكية للمسلمين فكيف أؤدي عنها إليك جزية؟». ففسد ما بينهما لذلك[1].

وسار شبيب بن محمود ومنصور بن الدوح وجماعة من بني كلاب إلى أنطاكية، وحضروا عند سليمان، ووعدهم ووعدوه بما لم يقبح من بعضهم لبعض؛ وأخذوا قطعة من عسكره؛ وخرجوا فعاثوا في بلاد شرف الدّولة، ثم إنّهم خافوا منه فهربوا إلى أسفُونا.

---

(١) في ابن الأثير ١٣٧/٨ تفصيل الأمر: «فلما ملكها – اي سليمان بن قتلمش – أرسل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش يطلب منه ما كان يحمله إليه الفردوس من المال، ويخوفه معصية السلطان. فأجابه: أما طاعة السلطان فهي شعاري ودثاري والخطبة له والسكة في بلادي، وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعادته من هذا البلد وأعمال الكفار. وأما المال الذي كان يحمله صاحب أنطاكية قبلي فهو كان كافراً، وكان يحمل جزية رأسه وأصحابه، وأنا بحمد الله مؤمن ولا أحمل شيئاً».

الغارات على مسلم

وتواصلت غاراته على بلد حلب وسَرْمين[1] وبزاعا[2] وقبض شرف الدّولة على وزيره أبي العزّ بن صدقة وصادره وحبَسه ، وسيّر ابن الحزون إلى حلب ليدبّر أمرها ؛ فوصل إلى حلب ، وراسل سليمان في الصّلح .

٥ وقبض على عليّ بن قريش بأمر أخيه شرف الدّولة ، وصادره على عشرة آلاف دينار ، وأخذ منه منبج لأنها كانت أقطاعه ، فعند ذلك ازدادت وحشة الشّريف وغيره لما شاهدوه من فعله بأخيه . وكذا كانت سيرته في أصحابه . وبهذا الطريق فسد حاله؛ وأما رعيّته فكانوا معه على أجمل حال وأحسنه .

١٠ وحيث تحقّق شرف الدّولة احتلال حلب ونواحيها بغارات سليمان جمع عسكره وانضاف إليه بعض الأتراك، ووصل إلى عَزاز || [١٠٨ظ] في صفر من سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

وأشير عليه بالنّزول على حَلَب ومراسلة سليمان في الصُّلح ، فامتنع واستدعى بني كلابٍ فوَصَلَه منهم جماعةٌ من أعيانهم وفرسانهم، وسار

---

(١) سَرْمين : تقع غربيّ قنسرين وفي الشمال من معرة النعمان ، على خمسين كيلومترًا من الجنوب الغربيّ لحلب – انظر دوسو ٢١٦ ، وزبدة الحلب ١١٩/١ بالحاشية – وفي بغية الطلب ٢٢٠/١ أنها بطرف جبل السمّاق .

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٦٠٣/١ : « بزاعة : سمعتُ من أهل حلب من يقوله بالضم والكسر ومنهم يقول بزاعى بالقصر– . . وهي بلدة من أعمال حلب في وادي بُطنان بين منبج وحلب ، بينها وبين كل واحدة منها مرحلة » – وفي مخطوطة بغية الطلب ٣٣٩/١ لا نجد تفصيلًا للموقع وإنما لما في القرية من بساتين وثمار – وتقع بزاعا في الشمال الشرقي من الباب .

فنزل على نهر عفرين[١] بموضع يقال له قُرزَاحل[٢].

ووَصل سُليمان من أنطاكية في أربعة آلاف فارس، وكان شرف الدّولة في عدّةٍ تزيدُ عن ستة آلاف ليس فيهم مناصح؛ وجاء شرف الدّولة بطيخ فنزل هو وبعض بني عمه وأكلوا، فقال ابن عمه:

كُلوا أكلةً مَنْ عاشَ يُخبِرُ أهلَـهُ
وَمَنْ مـاتَ يَلقى اللهَ وَهوَ بَطِينُ

فقال شرف الدّولة: «قَتلتَنا فأُلكَ يا ابنَ العَمّ».

مقتل شرف الدولة

والتقوا في آخر نهـار السَّبت، لستّ بقين من صفر سنة ثمان وسبعين[٣] وأربعمائة، والشَّمس في وجوه عسكر شرف الدولة؛ وكان اللقاء بغتة في غير وقت يظن فيه؛ فانهزم عسكر شرف الدّولة، وجاءته طعنةٌ فقُتل. ولمـا طُعِنَ

(١) في ابن القلانسي ١١٨: «على نهر سفيان» – ونهر عفرين كما في معجم البلدان لياقوت ٦٨٩/٣: «بكسر أوله وسكون ثانيه وراء بلفظ الجمع الصحيح – اسم نهر في نواحي المصيصه يخرج إلى أعمال نواحي حلب، له ذكر في الأخبار».

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٥٦/٤: «قُرزاحل: بالضم ثم السكون وزاي وألف وحاء مهملة ولام – من نواحي حلب ثم من نواحي العمق، قُتل بها مسلم بن قريش العُقيلي أمير الشام قتله سليمان بن قتلمش في سنة ٤٧٨ هـ».

(٣) في ابن الأثير ١٣٧/٨: «ثم ان شرف الدولة جمع الجموع من العرب والتركمان وكان ممن معه جبق أمير التركمان في أصحابه. وسار إلى أنطاكية ليحصرها، فلما سمع سليمان الخبر جمع عساكره، وسار إليه فالتقيا في الرابع والعشرين من صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة في طرف من أعمال أنطاكية، فاقتتلوا، فمال تركمان جبق إلى سليمان، فانهزمت العرب، وتبعهم شرف الدّولة منهزماً، فقتل بعد أن صبر، وقتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب، وكان قتله يوم الرابع والعشرين من صفر سنة ثمان وسبعين» – وهكذا نرى اختلاف التاريخ في مقتله بين ابن الأثير وابن العديم. واما ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ١١٩/٥ فقد جعل مقتله سنة ٤٧٧ هـ، وقال بعدها: «وكان شجاعاً جواداً ذا همة وعزم، احتاج إليه الخلفاء والملوك والوزراء وخُطب له على المنابر من بغداد إلى العواصم والشام، وأقام حاكماً على البلاد نيفاً وعشرين سنة.» – ويمدحه ابن الأثير كذلك فيقول

قَالَ : «يا شام الشؤم[1]» وأتهم بعض أصحابه بقتله . وكان القتل بين الفريقين قليلاً لأن أصحاب شرف الدولة لم يثبتوا معه لقبح رأيهم فيه . ورحل سليمان ونزل بظاهر حلب ، وحمل شرف الدولة ، وطرحه على باب حلب فدُفِنَ هناك .

٥ وانفرد الشريف أبو علي الحسن بن هبـة الله الهاشمي المعروف بالحتيتي بتدبير حلب وسالم بن مالك العقيلي بالقلعة .

وكان القاضي بحلب في أيام شرف الدولة القاضي كسرى بن عبد الكريم بن كسرى وتولى قضاء حلب في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة || ومات [١٠٩ و] في أيام أبي المكارم مُسلم بن قُريش ؛ فولي قضاءها أبو الفضل هبة الله بن أحمد بن أبي جرادة ــ وهو ابن بنت كسرى المذكور[2] ، وابن القاضي ١٠ أبي الحسن المتقدم قبل كسرى ــ وكان أبو المكارم شرف الدولة يخاطبه بابن العمّ لكونه عقيلياً ؛ والقاضي عقيلي . ومن شعر أبي المكارم بن قُريش :

إذا قرعتْ رِجلي الرّكاب تَزَعْزَعَتْ لَهَا الشمّ واهتزّ الصعيدُ إلى مصر

ومن شعره أيضاً :

١٥ الدّهرُ يَوْمَانِ ذَا أَمنٌ وَذَا خَطَرٌ وَالْمَاءُ صِنْفَانِ ذَا صَافٍ وَذَا كَدِرُ

فيه : « وكان عادلاً حسن السيرة ؛ والأمن في بلاده عام ، والرخص شامل ، وكان يسوس بلاده سياسة عظيمة بحيث يسير الراكب والراكبان فلا يخافان شيئاً ، وكان له في كل بلد وقرية عامل وقاض وصاحب خبر ، بحيث لا يتعدى أحد على أحد » .

(١) في مخطوطة الزبد والضرب ، بالورقة ١٠ ظ : « انها مشتقة من الشوم كما هو أحد الوجهين في اشتقاقها والوجه الآخر أنها مأخوذة من اليد الشوماء ، وهي اليسرى علي ما نقله ابن شداد في تاريخه عن أبي بكر محمد بن الأنباري وكلاهما خلاف مقتضى حديث (الشام شامة الله في أرضه) والله أعلم » .

(٢) هو جدّ جدّ كمال الدين بن العديم المؤلف وقـد ذكره في كتابه الانصاف والتحري — انظر تعريف القدماء بآثار أبي العلاء — السفر الأول ص ٥١٨

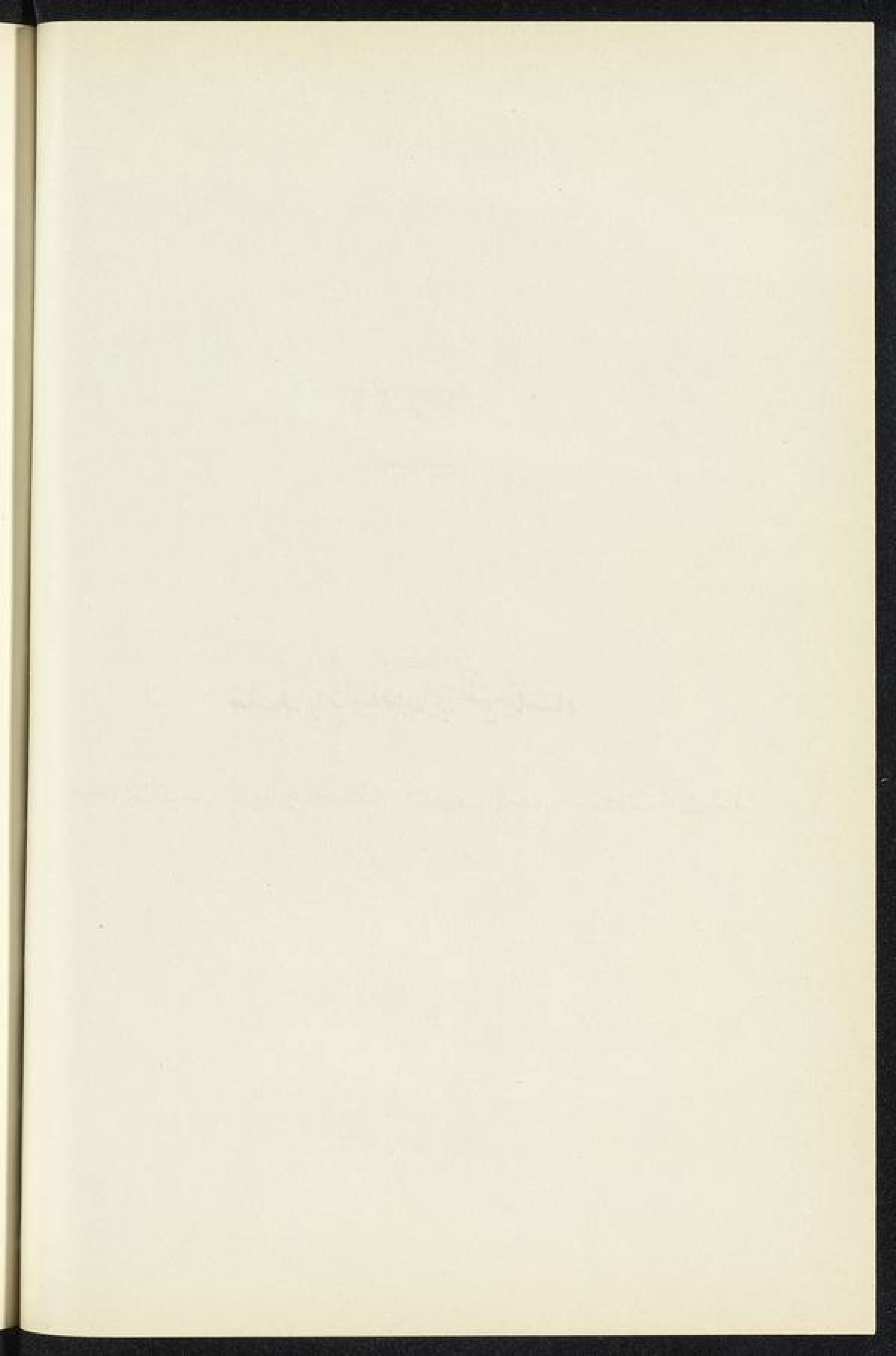
القسم الثامن عشر

ذكر

حلب في أيام السلطان أبي الفتح ملكشاه

خبر سليمان بن قطلمش - خبر تاج الدولة تتش - ملكشاه في حلب - قسيم الدولة آق سنقر

٤٧٨ هـ - ٤٨٦ هـ



خبر سليمان بن قطلمش

وأما سليمان بن قطلمش فإنّه حاصر حلب مدّة، ثم تردّدت الرّسل إلى أهل حلب في التّسليم، فاستقرّت الحالُ بينهم على موادعةٍ مدّةً.

وسيّر سليمان بن قُطلمش قطعةً من عسكره لاتباع العرب الذين كانوا مع شرف الدّولة، فهربوا، ولحقهم شدّة عظيمة من دخول البرّية في حزيران.

٥ وتوجّه سليمان إلى معرّة النعمان و كفرطاب، وتسلّمها، ثمّ سار إلى شيزر، فقاتلها وقرّر أمرها على مال يحمل إليه، وأخذ لطمين، وشحنها بالرّجال، وعدل أصحابه بالشام عما عرف من سيرة العرب.

وجرت بالمعرّة أسباب وصل لأجلها حسن بن طاهر وزير سليمان، في النصف من جُمادى الأولى، يطلب أصحابه فثارت فتنة بالبلد،

١٠ وأخرجوه منه فخرج لوقته، وأصبح قاتل البلد، وقتلَ جماعةً من أهله في الحرب، وأمنِ الناحية الغربية، وأمن الباقي || ‹منها وجعل› [1] [١٠٩ظ] على أهل البلد عشرة آلاف دينار.

وأما بلاد شرف الدّولة فملكها ‹بعده أخوه› [1] ابراهيم، ما خلا حلب؛ وكاتب مَنْ بحَلَب في تسليمِها إليه فلم ‹يرده الخبر› [1].

١٥ الشريف الحتيتي — وأما الشّريف حسن الحتيتي فإنّه كان متقدم الأحداث [2] ورئيسهم، فعمر لنفسه في صفر من

(١) وضعنا هذه الاشارات للدلالة على الطمس الواقع في الورقة – كما بينا في باب الرموز – وقد وضعنا داخلها كلمات لإكمال السياق كما دل عليه المعنى المراد.

(٢) في ابن الأثير ١٦٠/٨ : «ابن الحتيتي العباسي مقدم أهل حلب».

سنة ثمان وسبعين قلعة الشَّريف المنسوبة إليه، وبنى عليها سورًا دائرًا، وفصل بينها وبين المدينة بسور وخندق خوفًا على نفسه أن يسلمه أهل حلب، وكانوا يبغضونه، ويكرهون ولايته عليهم[1].

واتّفق الشَّريف وسالم بن مالك صاحب القلعة الكبيرة على أن كاتبا السّلطان ملك شاه يبذلان له تسليم حلب إليه، ويحثّانه على الوصول ٥ أو وصول نجدة تدفع سليمان بن قطلمش.

وعمر سليمان بن قطلمش قلعة قنّسرين وتحول إليها وتزوّج منيعة بنت محمود بن صالح زوجة مسلم بن قريش.

ونزل على حلب وطال انتظار الشَّريف حسن لنجدة تصله من السّلطان، فاجتمع بمبارك بن شبل أمير بني كلاب، واتفقا على أن ١٠ سار مبارك بن شبل إلى تاج الدّولة تتش يستدعيه إلى حلب ليتسلّمها.

وعرفه ما استقرّ بينه وبين الشريف الحتيتي عن تسليمه حلب، ورغبة الكافة في مملكته. ففرح بذلك وجمع العسكر، وخرج من دمشق في المحرّم من سنة تسع وسبعين وأربعمائة إلى حلب، فحصر حصن سليمان بن قطلمش في قنّسرين. ١٥

[١١٠و] || ووصل إلى تاج الدّولة جماعة من بني كلاب، ورحل إلى النّاعورة وعوّل على مراسلة الشريف حسن فان سلم إليه تغلّب وإلّا عادَ <لحربه>[2] فبادر سليمان وهو نازل في عسكره على حلب، وعارضه

(١) في ابن القلانسي ١١٨ : « سنة ٤٧٨ ﻫ – وفيها شرع في عمارة القلعة الشريف بحلب وترميم ما كان هدم منها، واعادتها إلى ما كانت عليه في حال عمارتها ».

(٢) الكلمة مطموسة في الأصل فجعلنا مكانها ما ترى متابعة للسياق.

في طريقه على عَيْن ‹سَيلم›[1] وتراءى العسكران، فدبّر أرتق[2] عسكر تاج الدّولة أحسن تدبير، والتقوا فانهزم عسكر سليمان.

خبر تاج الدّولة تُتُش

مقتل سليمان

وقتل سليمان، وأسر وزيره الحسن بن طاهر وخلق من عسكره في يوم الأربعاء الثّامن عشر من صفر، فأطلق تاج الدّولة الوزير ومن أسر، وغنم عسكرُه والعرب الذين معه جميع ما كان في العسكر.

واختلف في قتل سليمان، فقيل: عارضه فارس من فرسان تاج الدّولة فرماه في صدغه بسهم فقتله.

وقيل: بأنه لما يئس من النّصرة نزل عن فرسه، وقتَلَ نفسَهُ بسكّين خفّه[3]. وقيل: إنّ المصامدة تتبّعتْ أسلاب القتلى فظفروا بدرع مرصّع بالياقوت والعقيان النفيس.

ونمي الخبر إلى تاج الدولة، فأحضره فقال: «هذا يشبه سلب الملوك». وسار إلى الموضع وإذا به مختلط بدمه فقال: «يشبه أن يكون هذا». وقد كان قال لهم: «لا تبيّنوه لي حتى أريكموه من بين القتلى». فقيل له: «ومن أين علمت ذلك؟» فقال: «قدمه تشبه قدمي وأقدام بني سلجوق تتشابه».

---

(١) هذه الكلمة مطموسة كذلك، وهي في ابن القلانسي ١١٩: «في موضع يعرف بعين سلم» وهو تصحيف؛ وصحيحها في العظيمي ١٨٥ ظ: «عين سيلم». وعين سيلم على ثلاثة أميال من حلب — انظر معجم البلدان ٧٦٢/٣.

(٢) هو الأمير أرتق بن أكسب؛ كما في ابن الأثير ١٤٠/٨.

(٣) في ابن الأثير، بالصفحة المذكورة: «فانهزم أصحاب سليمان، وثبت وهو في القلب

ثم قال بلسانه : « ظلمناكم ، وأبعدناكم ونقتلكم ! » ثم مسح عينيه واغتمّ لقتله . وترحّم عليه ، وأحضر أكفانًا نفيسة فكفّنه ، وصلّى عليه ، وحمله إلى حلب فدفنه إلى جانب مُسلم بن قريش قبل أن ينقل مسلم إلى سرّ من رأى[1] . وقيل : دفن معه في قبرٍ واحد .

[١١٠ظ] ولما جرى ما جرى من قتل سليمان || وسار تاج الدّولة إلى حلب ٥ عدل الشّريف حسن الحتيتي عما كان اتّفق عليه مع مباركِ بن شبل ، وامتنع من تسليم حلب إلى تاج الدّولة ، واحتجّ بأنْ كُتُبَ ملك شاه وَصَلَتْه بتجهيز العساكر إليه .

فأقطع تاج الدّولة بلد حلب وأعمالها لعسكره إلّا ما كان لبعض العرب الّذين وفدوا عليه ، فانّه أقرّه في أيديهم ؛ ثم رحل إلى مَرْج ١٠ دابق[2] وأقام أيامًا .

ثم عاد ونازل حلب ؛ فعمد رجل من تجار حلب يعرف بابن البرعوني[3] الحلبيّ ، وراسل تاج الدّولة في تسليم حلب إليه ؛ ورفع بعض أصحابه بحبال إلى بعض أبراج السور ، وساعده قومٌ من الأحداث ونادوا بشعار تاج الدّولة في ذلك الموضع . وتسامع الناسُ فنادَوْا بشعاره في البلد جميعه[4] . وذلك ١٥

فلما رأى انهزام عساكره أخرج سكينًا معه فقتل نفسه ، وقيل بل قتل في المعركة » .

(١) في معجم البلدان لياقوت ٨٢/٣ : « سرّ من رأى – قال الزجاجي : قالوا كان اسمها قديمًا سامِيرا ، سمّيت بسامير بن نوح كان ينزلها لان اباه أقطعه إياها ، فلما استحدثها المعتصم سمّاها سرّ من رأى ؛ وقد بسط القول فيها بسامرّاء فأغنى » .

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٥١٣/٢ : «دابق : بكسر الباء وقد روي بفتحها وآخره قاف – قرية قرب حلب من أعمال عزازبينها وبين حلب أربعة فراسخ عندها مرج معشب نزه» .

(٣) في ابن الأثير ١٦٠/٨ : « ابن الرعوي » – وفي ابن القلانسي ١١٩ : « ابن البرعوني الحلبيّ » – وفي العظيمي بالورقة ١٨٦ و : « ابن البرعوي » .

(٤) جاء خبر ذلك مفصلًا في ابن الأثير ١٦٠/٨ : « وكان ابن الحتيتي قد سلم كل برج من أبراجها إلى رجل من أعيان البلد ليحفظه ، وسلم برجًا فيها إلى انسان يعرف بابن

في ليلة السَّبت السَّادس والعشرين من شهر ربيع الأوّل من السَّنة.

فانهزم هبة الله أبو الشريف حسن من قلعة ابنه إلى القلعة الكبيرة إلى سالم بن مالك، وبقي الشَّريف حسن في قلعته المجدّدة، ومعه فيها رجال من أحداث حلب، فخافوا على أهلهم بحلب، فخرجوا منها ٥ وبقي الشريف حسن في قلعته في نفر قليل، فطلب الأمان فأمّنه تاج الدّولة بوساطة ظهير الدّين أرتق.

وخرج أرتق وصار عنده بماله وأهله، وسلّم القلعة إلى تاج الدّولة تتش وسيره أرتق إلى بيت المقدس بماله فأقام به.

وعصي سالم بن مالك[1] بالقلعة الكبيرة، وكان شرف الدّولة بن ١٠ قريش لما ولّاه فيها أوصاه أن لا يسلّمها إلّا إلى السلطان ملكشاه، فالتزم بوصيّته، وامتنع أن يسلّمها إلى تتش.

[١١١ و] ‖ وأقام تتش بمدينة حلب إلى اليوم السَّابع والعشرين من شهر ربيع الآخر[2]، وأحسن إلى أهلها، وخلع على أحداثها، فوصله الخبر أنَّ السّلطان ملك شاه وصلت عساكره إلى نهر الجوز قاصدين مدينة ١٥ حلب، فسار تاج الدّولة إلى دمشق، وترك بعض أصحابه بقلعة الشريف ومعه عدّة في اليوم المذكور، ومعه قوم من بياض حلب، فأقام نائبه أيامًا يسيرة، ثم سار ولحقه في دمشق.

الرعوي، ثم ان ابن الحتيتي أوحشه بكلام أغلظ له فيه وكان هذا الرجل شديد القوة، ورأى ما الناس فيه من الشدة فدعاه ذلك إلى أن أرسل الى تتش يستدعيه وواعده ليلة برفع الرجال إلى السور في الحبال، فأتى تتش للميعاد الذي ذكره فأصعد الرجال في الحبال والسلالم وملك تتش المدينة».

(١) في ابن الأثير: «سالم بن مالك بن بدران وهو ابن عم شرف الدولة مسلم بن قريش».

(٢) في ابن الأثير ٨/١٦٠: «فأقام تتش يحصر القلعة سبعة عشر يومًا».

ملكشاه في حلب

ووصلت عساكر ملك شاه حلب مع برسق واياز وبوزان[(١)]
وغيرهم، ونزل بعضهم إلى بلد الرّوم، وامتدوا فيما بينها وبين أنطاكية؛
ووصل بعضهم إلى حلب، وسارع أهل حلب وسالم بن مالك ومبارك
ابن شبل إلى طاعة الواصل وخدمته.

ثم إنّ السّلطان وصل بعدهم إلى الرّها فسلّمها إليه الفلاردوس[(٢)] ٥
وأسلم على يده، وسار منها إلى قلعة دوسر – وهي المعروفة بجعبر[(٣)] –
فتسلّمها في طريقه من جعبر بن سابق القُشيري، وقتله لما بلغه عنه من
الفساد وقطع الطَّريق.

وسار حتى وصل حلب في الثّالث والعشرين من شعبان من سنة
تسع وسبعين وأربعمائة. ١٠

---

(١) في ابن الأثير: «بوزان» بالواو قبل الزاي، وهو عماد الدولة بوزان صاحب أنطاكية، كما نرى فيما بعد؛ ورسمه الناسخ عندنا كذلك بالواو في مواضع أخرى.

(٢) وقع في نسختنا سطران زائدان حشرا بعد هذه الكلمة، وقد كانا من غير شك في هامش مسوّدة ابن العديم فجعلها الناسخ في صلب الكلام، ووجودهما يجعل العبارة مضطربة لوقوعهما في غير موقعهما، وهما في الأصل شرح لاسم دوسر نقله الناسخ عن عبارة وجدناها عند ابن خلكان في وفيات الأعيان. وهذان السطران هما: [ودوسر غلام كان للنعمان بن المنذر، وتركه على أفواه الشام، والنعمان بالحيرة، فبنى هذه القلعة فنسبت إليه]– ونورد هنا عبارة ابن خلكان في وفيات الأعيان ١/١١٦ للمقابلة والتثبت إن كان ثمّة بقية من شك: «ويقال لهذه القلعة الدوسرية، وهي منسوبة إلى دوسر غلام النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وكان قد تركه على أفواه الشام، فبنى هذه القلعة فنسبت إليه. والجعبر في اللغة القصير الغليظ».

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٢/٨٦: «قلعة جعبر – على الفرات بين بالس والرقة قرب صفّين، وكانت قديماً تسمى دوسر، فملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جعبر بن مالك، وكان يخيف السبيل ويلتجئ إليها، ولما قصد السلطان جلال الدين ملكشاه بن ارسلان ديار ربيعة ومضر نازلها وأخذها من جعبر، ونفى عنها بنو قشير».

وتسلّم حلب وقلعتها وسائر قلاع الشّام، وعوّض سالم بن مالك عن قلعة حلب بقلعة دوسر، وأقطعه معها الرّقّة وعدّة ضياع.

[١١١ظ] وتوجّه السّلطان إلى أنطاكية فتسلّمها من الحسن بن طاهر || وزير سليمان بن قطلمش، ورتب بأنطاكية يغي سيان[1] بن ألب في عسكر واستخدم حسن بن طاهر في ديوانها، وتمّ إلى السّويديّة[2]، وصلّى على البحر، وحمد الله على ما أنعم عليه ممّا تملكه من بحر المشرق إلى بحر المغرب[3].

٥

---

(١) ورد هذا الاسم في مخطوطتنا بسائر المواقع والصفحات: «يغي سغان» بالغين المعجمة بعد السين – وجاء كذلك في تاريخ ابن القلانسي بسائر الصفحات والمواضع: «يغي سغان» ولكن الناشر آمدروز جعله «يغي سيان» بالياء المنقوطة باثنتين بعد السين. واما ابن الأثير فيورد اسمه ١٦٧/٨: «باغي سيان». ورأينا مجموعة المؤرخين للحروب الصليبية في الجزء الثالث حين يقتطف الناشر من تاريخ ابن العديم يروي ما تورده النسخة بين قوسين ثم يصحّحه كذلك كما فعل زميله المستشرق آمدروز، ويترجمه الى الفرنسية YAGHI SIAN – انظر: *Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux*, tome III. Paris, 1884. P. 577. وارجع إلى فهرس الكتاب تجد الناشر يشير إلى أن العرب كانوا يدعونه حيناً: «يغي شغبان»، وحيناً آخر «يغي شعبان» وأما العظيمي فيروى اسمه: «بعسان» من غير نقط، بالورقة ١٨٧ و – وابن العديم ينقل غالباً عن العظيمي، لذلك أصلحنا الاسم متابعة للمنقول عنه وتمشياً مع ابن الأثير فجعلناه «يغي سيان» بالرغم من انه في الزبدة وفي البغية بالمواضع جميعاً «يغي سغان».

(٢) السويدية: ذكرها ابن الشحنة عن ابن شدّاد فقال ص ٢٢١: «سميت سلوكية بالسويدية لما غلب عليها اسم النهر والجبل» – والجبل المذكور هو قره طاغ أي الجبل الأسود، وهو في الجنوب من اسكندرون. – انظر دوسو ٤٣١. ويسمى الجبل الآن قزل طاغ؛ وتفسير ابن الشحنة لاسم السويدية طريف استحسنه دوسو وعلق عليه.

(٣) ورد مثل هذه العبارة عند العظيمي بالورقة ١٨٦ و: «ففتحها من يد حسن وزير سليمان وتمّ إلى السويدية فصلى على ساحل البحر شكراً لله تعالى على أن ملكه من بحر المشرق الى بحر المغرب، وعاد إلى حلب وعيّد».

قسيم الدولة آق سنقر

وعاد إلى حلب ، ورتّب بها الأمير قسيم الدّولة أق سنقر [١] ومعه عسكر ، واستخدم بها تاج الرّؤساء ابن الخلال في جمع الأموال .

ووصل إليه الشَّريف حسن الحتيتي وهو بحلب يلتمس العودة إلى حلب ، ويذكر خدمته وما جرى عليه ، فتظلّم منه أهل حلب فلم يأذن له السّلطان فيما التمسه .

وكان هذا السُّلطان من أعظم الناس هيبة وأكثر الملوك عدلًا حتى أنّ أحدًا لا يقول: إنّ أحدًا من ذلك العالم العظيم من عسكره – وحزره أربعمائة ألفٍ – أخذ لأحدٍ من الرّعايا قسرًا وظلماً ما يساوي درهماً واحدًا ؛ حتى أنّ البازيار الّذي له اقتنص طائرين من الدّجاج من الأثارب [٢] طعماً للبزاة في الطَّريق ، فعلم بذلك فعظم عليه حين رآه وهدّده حتى أعادها إلى صاحبها بعد عوده من أنطاكية .

وخرج هذا السّلطان إلى ضياع معرّة النُّعمان يتصيّد ، وبات بضيعة بينها وبين المعرّة ثلاثة فراسخ ، فابتاع منها أصحابه ما احتاجوه بأوفى ثمن ؛ ووضع السّلطانُ في هذه السَّنة المكوس من جميع بلاده ، ولم يبقَ من يستخرجُ مكساً في مملكته .

---

(١) وردت ترجمة الرجل مفصلة في بغية الطلب لابن العديم ٢٦٧/٤ ظ – ٢٧٢ ظ وفيها أنه «آق سنقر بن عبدالله المعروف بقسيم الدولة مملوك السلطان أبي الفتح ملكشاه» – وجاءت ترجمته كذلك في وفيات الأعيان ٧٩/١ : « أبو سعيد اق سنقر بن عبدالله الملقب قسيم الدولة المعروف بالحاجب جد البيت الأتابكي أصحاب الموصل وهو والد عماد الدين زنكي ابن آق سنقر » – وفي ابن الأثير وغيره من التواريخ يكتبه : « أقسنقر » .

(٢) الأثارب : تبعد عن حلب ٢٥ كيلومترًا وهي على طريق أنطاكية – انظر زبدة الحلب ١٣٣/١ بالحاشية .

وأقام السّلطان بحلب إلى أن عَيَّد بها عيد الفطر، وعاد منكفئاً إلى الجزيرة، وقد قرّر ولاية حلب، وولّى بقلعتها نوحاً التركي[1]، وبلغه عصيان تكش[2] بترمذ[3] فسار ‖ السّلطان، وقطع ما بين حلب [١١٢ و] ونيسابور في عشرة أيّام، وعاد منكفئاً إلى الجزيرة وقد قرّر ولاية حلب لقسيم الدّولة أق سنقر التركي في سنة تسع وسبعين وأربعمائة، ٥ وجعل معه أربعة آلاف فارس ومكّنه فيها.

وقيل إنّه مملوك لملكشاه، وقيل إنّه لصيق وانّ اسم أبيه النّعمان[4]، وولّى على جمع المال بحلب في الديوان تاج الرؤساء أبا منصور ابن الخلّال الرحبيّ. وقال شاعر حلبيّ فيه وفي الوزير ابن النّحاس:

١٠ قَدْ زنجرَ[5] العَيْشُ على النَّـاسِ
مَا بَيْنَ «خَلَّالٍ» وَ«نحّاسِ»

فأحسن قسيم الدولة في حلب السِّيرة وأجمل السِّياسة وأقام الهيبة،

---

(١) في العظيمي، بالورقة ١٨٦ ظ: «سنة ٤٨٠ هـ – ولّى السلطان قلعة حلب نوح التركي والقصر والشحنكية قسيم الدولة اق سنقر» – ويلاحظ أن العبارة هنا مكررة فسيرد مثلها في مثل معناها بعد سطرين وسبب ذلك أنّ ابن العديم يورد آراء المؤرخين ونصوصهم بحروفها.

(٢) في الأصل: «نكس» بالسين المهملة – ولعلها كما في ابن الأثير ١٧٣/٨: «تكش عم السلطان بركيارق».

(٣) في معجم البلدان ٨٤٣/١: «ترمذ – مدينة مشهورة من أمهات المدن راكبة على نهر جيحون».

(٤) في بغية الطلب: «وقيل انه لصيق له وقيل اسم أبيه ال ترغان من قبيلة سابيو. نقلتُ ذلك من خط أبي عبد الله محمد بن عليّ العظيمي».

(٥) الزنجير: بالفارسية السلسلة، ويبنون منه فعلاً فيقولون زنجره فتزنجر أي قيّده بالزنجير فتقيد، والزنجير كذلك عند أهل الشام الصدأ يصيب الحديد.

وأفنى قطّاع الطريق، وتتبع الذُّعّار في كلّ موضع فاستأصل شأفتهم[١].

وعمرت حلب في أيامه بسبب ذلك لورود التجار والجلّابين إليها من كل مكان[٢].

وحكى لي والدي — رحمه الله — : أنّه استأصل أرباب الفساد إلى حدّ بلغ به أن نادى في قرى حلب وضياعها أن لا يغلق أحدٌ بابه، ٥
وأن يتركوا آلاتهم الّتي للحرث في البقاع في الّليل والنّهار.

فخرج متصيّدًا فمرّ على فلّاح وقد فرغ من عمله، وأخذ آلة الحرث معه إلى منزله، فانفرد من عسكره وقال له: «ألم تسمع مناداة[٣] قسيم الدولة بأن لا يرفع أحدٌ من أهل القرى شيئاً من آلة الحرث؟»
فقال: «بلى والله — حفظ الله قسيم الدّولة — والله لقد أمنّا في أيّامه ١٠
من كل ذاعرٍ ومفسدٍ، وما رفعتُ هذا خوفاً عليها ممّن يأخذُها؛ وإنّما هنا دويبة يقال لها ابن آوى[٤] إذا تركنا هذه العدّة هنا جاءت
[١١٢ظ] وأكلت || هذه الجلود الّتي عليها».

فلما عاد قسيمُ الدّولة أمر بالصيّادين وبثّهم في أقطار بلد حلب لصيد

---

(١) في بغية الطلب: «وأقام الهيبة وجمع الدُّعّار وأفنى قطاع الطريق ومخيفي السُّبُل وتتبع اللصوص والحراميّة في كل موضع فاستأصل شأفتهم».

(٢) وردت هذه العبارة كذلك في تاريخه الكبير بغية الطلب.

(٣) في بغية الطلب ٢٦٨/٤ و: «سمعتُ والدي القاضي أبا الحسن — رحمه الله — يقول لي فيما يأثره عن أسلافه أنّ قسيم الدولة آق سنقر كان قد نادى في بلد حلب بأنْ لا يرفع أحد متاعه ولا يحفظه في طريق لما حصل من الأمن في بلاده؛ فخرج يوماً يتصيّد فمر على قرية من قرى حلب فوجد بعض الفلاحين قد فرغ من عمل الفدان وطرح عن البقر النير ورفعه على دابة لتحمله إلى القرية فقال له ألم تسمع مناداة . . . . . ».

(٤) في بغية الطلب: «دابة يقال لها ابن آوى».

بنات آوى حتى أفنوها من ضواحي حلب . وكان ذلك سبباً لِقِلّتها في بلد حلب إلى يومنا هذا ، دُون غيرها من البلاد .

وفي أيام قسيم الدولة جدّد عمارة منارة حلب الموجودة في زماننا هذا ؛ وجددت في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة[١] .

٥ وجرى خُلف بَيْن أهل لَطمِين وبين نَصر بن علي بن منقذ في سنة إحدى وثمانين ، فخرج أق سنقر إلى شيزر ، وقاتلها ، وقَتل مِن أهلها مائة وثلاثين رجلاً ، وعاد إلى حلب بعد أن نَهب رَبضَها ، واستقرت الموادعة بينه وبين نصر صاحب شَيْزر .

وكان أق سُنقُر قد تزوج خاتون دايَة السّلطان ملك شاه[٢] ، ١٠ وكانت جالسةً معه في بعض الأيام في داره بحلب ، وفي يده سكّين فأومأ بها إليها على سبيل المداعبة والمُزاح ، فوقعتْ في قلبها للقضاء المحتوم غير متعمّدٍ لها ؛ فماتتْ وَحَزِن عليها حزناً شديداً[٣] ؛ وتأسّف لفقدِها ، وحملها في تابوت لتُدفن في مقابر لها بالشَّرق ؛ وخرج من حلب لتوديع تابوتِها في مستهلّ جُمادى الآخرة .

١٥ وتسلّم أق سُنقر حصن برزوَيه[٤] ، في شعبان سنة اثنتين وثمانين

(١) في بغية الطلب : « وفي أيامه جدّدت منارة حلب بالجامع في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة واسمه منقوش عليها إلى اليوم » .

(٢) في بغية الطلب ، ٢٦٧/٤ ظ : « وتزوج أق سنقر داية السلطان ادريس بن طغان شاه » – ثم قال في المصدر نفسه ، بالورقة ٢٧٣ و : « زوجته خاتون داية السلطان أبي الفتح » .

(٣) في بغية الطلب ، ٢٧٢/٤ و : « وقيل انه جلس وفي يده سكين فأومأ بها إليها فوقعت في مقتل وهو غير متعمد لها فماتت في الحال فوضعها في تابوت وحملت إلى الشرق وخرج لوداعها يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة » .

(٤) حصن برزويه : قلعة بزنطية في شمالي أفامية – انظر زبدة الحلب ١٢٠/١ بالحاشية .

وأربعمائة ، من الأرمن ــ وهو آخر ما كان قد بقي في أيدي الكفّار من أعمال أنطاكية ــ وأقام في يده تسعة أشهر ، وهدَمه في ربيع الأوّل من سنة ثلاث وثمانين .

[١١٣ و] وكتب ولاةُ الشّام إلى السّلطان ملك شاه يشكون ما || يلقونه من خَلف بن مُلاعب بحمص من قطع الطّريق وإخافة السَّبيل ، ٥ فكتبَ إلى قسيم الدّولة وتاج الدّولة ويغي سيان وبوزان صاحب الرُّها ، فساروا في عساكرهم ، فحاصروها وضايقوها ففتحوها ؛ وأعطاها السّلطان تاج الدّولة تتش .

ونَزَل قسيم الدّولة على أفامية ، فأخذها من خلف بن مُلاعب وسلّمها إلى نصر بن منقذ . ١٠

ثمّ إنّ السّلطان أمر بحمل ابن ملاعبٍ في قفص حديدٍ الى أصبهان ، فحبسه إلى أن مات ملك شاه ؛ وتوجّه إلى مصر وعاد إلى الشّام ، واحتال حتى ملك أفامية بالحيلة بعد ذلك .

ولما فتحت حمص تسلّمها قسيم الدّولة إلى أن ورد عليه أمرُ السّلطان بتسليمها إلى تتش . ١٥

موت ملك شاه

ومات السّلطان ملك شاه ببغداد في اللّيلة السّادسة عشر من شوّال سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وكان أق سُنقر قد خرج من حلب وافِدًا عليه ، فلما بلغه الخبر عاد إلى حلب ، وخطب لابنه محمود مدّةً يسيرةً[١] ، ثم إنّه خطب بعد ذلك لتاج الدّولة تتش ــ على ما يُذكر ــ . ٢٠

(١) في ابن الأثير ١٦٤/٨ : « لما مات ملكشاه كتمت زوجته تركان خاتون موته

ولما عاد إلى حَلب قَبَض على شبل بن جامع أمير بني كلاب وعلى ولده مبارك ، واعتقلهما بالقلعة. وراسل تاجُ الدّولة قسيمَ الدّولة ويغي سيان وبوزان وجذبهم إلى طاعته ، والكونِ في جُملته ليسيروا معه إلى بلاد أخيه ليفتحها ، ويأخذ المملكة فأجابوهُ إلى ذلك ، وخطبوا له في أعمالهم(١).

٥

فسار في أوّل سنة ستّ وثمانين ، وسار إليـه قسيمُ الدّولة ويغي سيان وبوزان ، ووثق به أق سُنقر ، وفَتَح ‖ تاجُ الدّولة الرّحبـة ونصيبين(٢) ، فجمع ابراهيم بن قريش وتأهّب للقاء تاج الدّولة. [١١٣ظ]

والتقى العسكران على دارا(٣) ، وعاد كُلّ فريق إلى موضعه ، فركب الأميرُ قسيم الدّولة في خلقٍ من العسكر ، وحمل حتّى توسّط ١٠

كما ذكرناه وأرسلت إلى الأمراء سرّاً فأرضتهم واستحلفتهم لولدها محمود وعمره أربع سنين وشهور ، وأرسلت إلى الخليفة المقتدي في الخطبة لولدها أيضاً فأجابها ».

(١) في ابن الأثير ١٦٦/٨ : « فرأى قسيم الدولة اختلاف اولاد صاحبه ملكشاه وصغرهم فعلم أنه لا يطيق دفع تتش فصالحه وصار معه ، وأرسل إلى باغي سيان صاحب أنطاكية وإلى بوزان صاحب الرها وحران يشير عليهما بطاعة تاج الدولة تتش حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه ففعلوا وصاروا معه وخطبوا له في بلادهم ».

(٢) في ابن الأثير ١٦٧/٨ :« ثم ساروا إلى نصيبين فحصروها ، فسبّ أهلها تاج الدولة ففتحها عنوة وقهراً ، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ، ونهبت الأموال وفعل فيها الأفعال القبيحة » – ونصيبين : تقع قرب جبل ماردين ، وهي مدينة في مستوٍ من الأرض – انظر الأعلاق لابن شداد قسم الجزيرة ، مخطوطتها بالورقة ٣٩ و – وقال ياقوت في معجم البلدان ٧٨٧/٦ :«وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام... بينها وبين الموصل ستة أيام ».

(٣) دارا : ذكرها ابن شدّاد في الأعلاق الخطيرة قسم الجزيرة ، مخطوطة ، بالورقة ٦٥ و ، وقال انها كانت مضافة إلى نصيبين ، وقد بناها دارا – وقال ياقوت في معجم البلدان ٥١٦/٢ : « هي بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين ».

عسكر ابراهيم فلم يثبت العرب ، وتبعه باقي العسكر ، فقتل منهم ما يقارب عشرة آلاف[١] .

وأسر ابراهيم بن قريش وعمه مقبل وغيرهم . فقتلهم تاج الدّولة صبرًا وسُبيَتِ الحُرم ، وقَتل جماعةٌ من نساء العرب نفوسَهن[٢] .

وأمر تاج الدّولة بعد ذلك بجمع الأسرى وَوَهَبهم من محمَّد بن شرف الدّولة ـ وكان قد صار في جُملتـه قبل الحرب ـ وأقطعه نصيبين . ٥

عودة تتش

وعظمت هيبة تاج الدّولة بعد هذه الوقعَة ، وراسلتـه زوجةُ أخيه تحثّه على الوُصول ؛ واستقرَّ الحال على أن تتزوَّجه ؛ فسار عند ذلك بعد أن تسلَّم من ابن جهير آمد وجزيرة ابن عمر[٣] ، حتى وصل إلى تبريز[٤] ، ففسخ عنه قسيم الدّولة أق سُنقر ١٠

---

(١) في ابن الأثير ١٦٧/٨ : «فلما ملك تتش نصيبين أرسل إليه يأمره أن يخطب له بالسلطنة ، ويعطيه طريقاً إلى بغداد لينحدر ويطلب الخطبة بالسلطنة ، فامتنع ابراهيم من ذلك فسار تتش إليه ، وتقدم ابراهيم أيضاً نحوه ، فالتقوا بالمضيع من أعمال الموصل ، في ربيع الاول ، وكان ابراهيم في ثلاثين ألفاً وكان تتش في عشرة آلاف وكان أقسنقر على ميمنته وبوزان على ميسرته ، فحمل العرب على بوزان فانهزم ، وحمل أقسنقر على العرب فهزمهم وتمت الهزيمة على ابراهيم والعرب» .

(٢) في ابن الأثير ، بالصفحة نفسها : «وأخذ ابراهيم أسيرًا وجماعة من أمراء العرب فقتلوا صبرًا ، ونهبت أموال العرب وما معهم من الابل والغنم والخيل وغير ذلك . وقتل كثير من نساء العرب أنفسهن خوفاً من السبي والفضيحة» .

(٣) في معجم البلدان ٧٩/٢ : «جزيرة ابن عُمر : بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام ولها رستاق مخصب واسع الخيرات ، وأحسب أن أول من عمّرها الحسن بن عمر بن خطّاب التغلبي ، وكانت له امرأة بالجزيرة ، وذكر قرابة سنة ٢٥٠ ، وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة إلّا من ناحية واحدة شبه الهلال» .

(٤) في معجم البلدان ٨٢٢/١ : «تبريز : بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر الراء وياء ساكنة وزاي – كذا ضبطه أبو سعد – وهو أشهر مدن أذربيجان ، وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة بالآجرّ والجصّ» .

صاحب حلب وعماد الدولة بوزان وسارا إلى بركيارق[1] ليكونا في خِدمته – وكان بالقرب من الريّ[2] –

وكان سبب نفار قسيم الدَّولة وبوزان تقريب تاج الدَّولة يغي سيان وميلهِ إليه؛ وقيل: لأنّه لم يُولها شيئاً من البلاد الّتي افتتحها، ٥ فرجع تاج الدَّولة إلى ديار بكر، وشحنها بالرّجال، وسار منها إلى سروج[3] فأخَذَها وولّى فيها بعضَ ثقاته.

ووصله الخبر بوصول أق سنقر وبوزان إلى باب السُّلطان بركيارُق، وإكرامه لهما، وأنّهما وجدا خاله مستوليًا على أمرِه، فقتلاه وبعض الأمراء.

١٠ فانبسطتْ يدُ ‖ بركيارُق، واستقامت أحواله، وخاطبه أق سنقر [١١٤ و] وبوزان أن يسير معهما إلى بلادهما حلب والرّها وحرّان، لئلا يجري عليهما حادثٌ من تاج الدَّولة عند عودته، وضمنا له أن يكونا بينه وبين تاج الدَّولة؛ فسار معهما إلى الرّحبة، وعقد بينهما وبين عليّ بن شرف الدَّولة حِلفاً.

---

(١) ركن الدين بركيارق ابن أخي تاج الدولة تتش وكنيته أبو المظفر وهو ابن السلطان ملكشاه بن ألب ارسلان، ومولده سنة ٤٧٤ هـ – وبركياروق بفتح الباء الموحدة وسكون الراء والكاف وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف راء مضمومة وواو ساكنة وقاف – كما في ابن خلكان وفيات الأعيان ٨٨/١، وأما ابن العديم فيرسمها بغير واو بين الراء والقاف.

(٢) الريّ: هي محطّ الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً – انظر معجم البلدان لياقوت ٨٩٢/٢.

(٣) سَرُوج: بلدة قريبة من حرّان من ديار مضر – انظر معجم البلدان لياقوت ٨٥/٣، ومعجم ما استعجم للبكري ٧٣٧/٣ – وفي الأعلاق الخطيرة لابن شداد قسم الجزيرة، بالورقة ٣١ ظ: «وهي عن شمالي حرّان إلى جسر منبج حسنة حصينة».

بركيارق في حلب

وسار عليّ بن قريش ، ومعه جماعة من بني عقيل وقطعة من عسكر السّلطان بركيارق مع قسيم الدّولة ؛ فأوصلوه إلى حلب ، فدخلها في شوّال من سنة ستّ وثمانين وأربعمائة .

٥ وسار بوزان إلى بلاده ، وعاد مَنْ كان معهما إلى السّلطان .

وأما تتش فانّه قطع الفراتَ وتوجّه إلى أنطاكية ، وأقام بها مع يغي سيان مدّة ، فغلتْ بها الأسعار . فسار إلى دمشق في ذي القعدة من هذه السّنة .

وكان وثّاب بن محمود مع نفرٍ يسيرٍ من بني كلابٍ ، فأنفذ أق سنقر ١٠ بعد مسير تتش إلى دمشق مَنْ أَحرَق حصن أسفُونا وحصن القبّة ، وقبض أقطاع وثّاب .

وفي سنة سبع وثمانين ، قبض على الوزير أبي نصر محمّد بن الحسن ابن النحاس بسعاية المجنّ بركات الفُوعي به إلى قسيم الدّولة . ولم يزل به إلى أن أمره بخنقه ، وهو معتقل عنده ، فخنقه في هذه السّنة .

١٥ وفي شهر ربيع الأوّل من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، خرج تاج الدّولة تتش من دمشق ، ومعه خلقٌ عظيمٌ من العرب ، ولقيه يغي سيان بعسكر أنطاكية بالقرب من حماة وأقاموا هناك أياماً ؛ وزوّج ولده الملك رضوان من ابنة يغي سيان ، وسيّره عائدًا إلى دمشق .

[١١٤ظ] وسار تاج الدّولة بعساكره فنزل تلمنس [1] ، وأقام || بها أياماً ،

---

(١) تلمنس أو تلّ منّس : حصن قرب معرة النعمان بالشام – انظر زبدة الحلب ٩٠/١ بالحاشية .

فوصلهُ الخبرُ بوصول كربوقا[١] صاحب الموصل وبوزان صاحب الرّها، ويوسف بن أبق صاحب الرّحبة، في ألفين وخمسمائة فارس إلى حلب، لنجدة أق سنقر، فعدل تاج الدّولة إلى الحانوتة، ورحل إلى النّاعورة، وعوّل على قصد الوادي[٢]، وأن يسير منه إلى أعمال أنطاكية؛ وأخذَ
٥ العسكرُ دوابَّ النقرة وبعضَ زرعها.

بين تتش وأق سنقر

فخرج أق سنقر ومَنْ وصله من النَّجدة وجماعة كثيرة مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل من بني كلاب – وكان قد أطلقهما من الاعتقال في هذه السَّنة – ومحمَّد بن زائدة في جماعته وجماعة من أحداث حلب والدَّيلم والخراسانيّة؛
١٠ وعدّة عسكره تزيد عن ستّة آلاف فارسٍ وراجل، في أحسن أهبة وأكمل عدّة[٣].

وقصد عسكر الملك تاج الدَّولة، يوم السبت تاسع جمادى الأولى من السَّنة، والتقوا على «سَبْعين»، وكان أوّل من قطع السواقي التي كانت بين العسكرين وبرز للحرب أق سنقر، ورتّب مصاف
١٥ عسكره[٤].

(١) في الأصل عندنا: «كربغا» – وفي ابن الأثير وابن القلانسي وبغية الطلب: «كربوقا» فتابعنا رسم ابن العديم لها في تاريخه الكبير الذي كتبه بخطه، ورمينا بخطأ الناسخ وأوهامه تمشياً مع المؤرخين العرب في رسم الامم.

(٢) جاءت هذه العبارة بحروفها في بغية الطلب ٢٦٩/٤ ظ، وزاد فيها تعريف الوادي فقال: «وادى بزاعا».

(٣) وردت هذه العبارة نفسها في بغية الطلب وختمها: «في أحسن زي وأكمل عدّة».

(٤) في بغية الطلب: «ولم يثق أق سنقر بمن كان معه من العرب ونقلهم من الميمنة إلى الميسرة في وقت المصاف ثم نقلهم إلى القلب فلم يغنوا شيئاً» – انظر ابن القلانسي ١٢٦.

وبقي عسكر بوزان وكربوقا لم يتمكن من قطع السواقي، فيختلطون بالعسكر، ولم يستنصح أق سنقر العرب الذين معه؛ وخاف ميلهم إلى تاج الدولة، وكان عسكر تاج الدولة في مثل هذه العدة من العرب والرجالة، وكان الترك معه في قلة لأن أصحابه وخواصه كانوا متفرقين في البلاد التي افتتحها. ٥

وحمل عسكر تاج الدولة على عسكر أق سنقر فلم يثبت لحظة واحدة، وانهزمت العرب وبوزان وكربوقا[1] نحو حلب فدخلاها، واستأمن || يوسف بن أبق إلى تاج الدولة. [١١٥ و]

مقتل أق سنقر

وأسر أق سنقر وجماعة من خواصه ووزيره أبو القاسم بن بديع، وأحضر بين يدي تاج الدولة أسيرا، ١٠ فقتله صبرا، وقال له تاج الدولة: «لو ظفرت بي ما كنت صنعت؟» قال: «كنت أقتلك» فقال له: «فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم علي» فقتله[2].

وحكى وثاب بن محمود قال: «جلس تاج الدولة، وطلب قسيم الدولة، فأحضر مكشوف الرأس، مكتوفا، فقام تاج الدولة، ١٥ وكلمه كلاما كثيرا، فلم يرد عليه جوابا، فضربه بيده أطار رأسه[3]».

---

(١) في بغية الطلب: «وانهزمت العرب وعسكر كربوقا وبزان – وكربوقا وبزان معهم – إلى حلب ووقع فيهم القتل».

(٢) وردت العبارة نفسها في بغية الطلب.

(٣) في بغية الطلب: «فسحبوه وكلموه فما رد جوابا ولا تحرك فقام إليه تاج الدولة فكلمه فلم يرد له جوابا مرتين أو ثلثة فضرب رقبته بيده وقطع رأسه فطيف به البلاد وحملت جثته فدفنت عند مشهد قرنبيا»

وحمل رأسه إلى حلب والي دمشق، ودفن جسده في القبة التي على سطح جبل قرنيا، غربي المشهد الذي ابتناه بقرنيا؛ ثم نقله ابنه زنكي لما فتح حلب[1] إلى مدرسة الزجاجين، ووقف شامر – قرية من بلد حلب – على من يقرأ على قبره[2].

٥ واختار قسيم الدولة وقتاً للخروج إلى اللقاء، وهو وقت قران زحل للمريخ في برج الأسد[3] – وهو طالع بيت السلطان بحلب – وكان موقناً بالظفر، فخرج وأمرهم أن يلحقوه بالجبال لكتافهم بها، وكان تاج الدولة قد عزم على ما ذكرناه؛ ولم يكن مؤثراً لقاءه؛ فنصره الله تعالى كما شاء وأراد؛ لا رادّ لأمره، ولا معقّب لحكمه،

١٠ ولا تأثير لشيء في ملكوته.

وأسر شبل بن جامع أمير بني كلاب فوهبه تاج الدولة لابن أخيه وثاب بن محمود.

---

(١) في بغية الطلب ٢٧١/٦ ظ: «لما قتل دفن إلى جانب مشهد قرنيا بالقبة الصغيرة المبنية بالحجارة من غربيّ المشهد، وكان قسيم الدولة بنى مشهد قرنيا لمنام رآه بعض أهل زمانه ووقف عليه وقفاً فدفن إلى جنبه وعمر على قبره. فلما ملك زنكي حلب آثر أن يبني لأبيه مكاناً ينقله إليه وكانت المدرسة بالزجاجين لم تتم» – وآق سنقر هو جدّ الملك العادل نورالدين محمود المعروف بالشهيد.

(٢) في بغية الطلب: «القرية المعروفة بشامر وهي جارية إلى الآن».

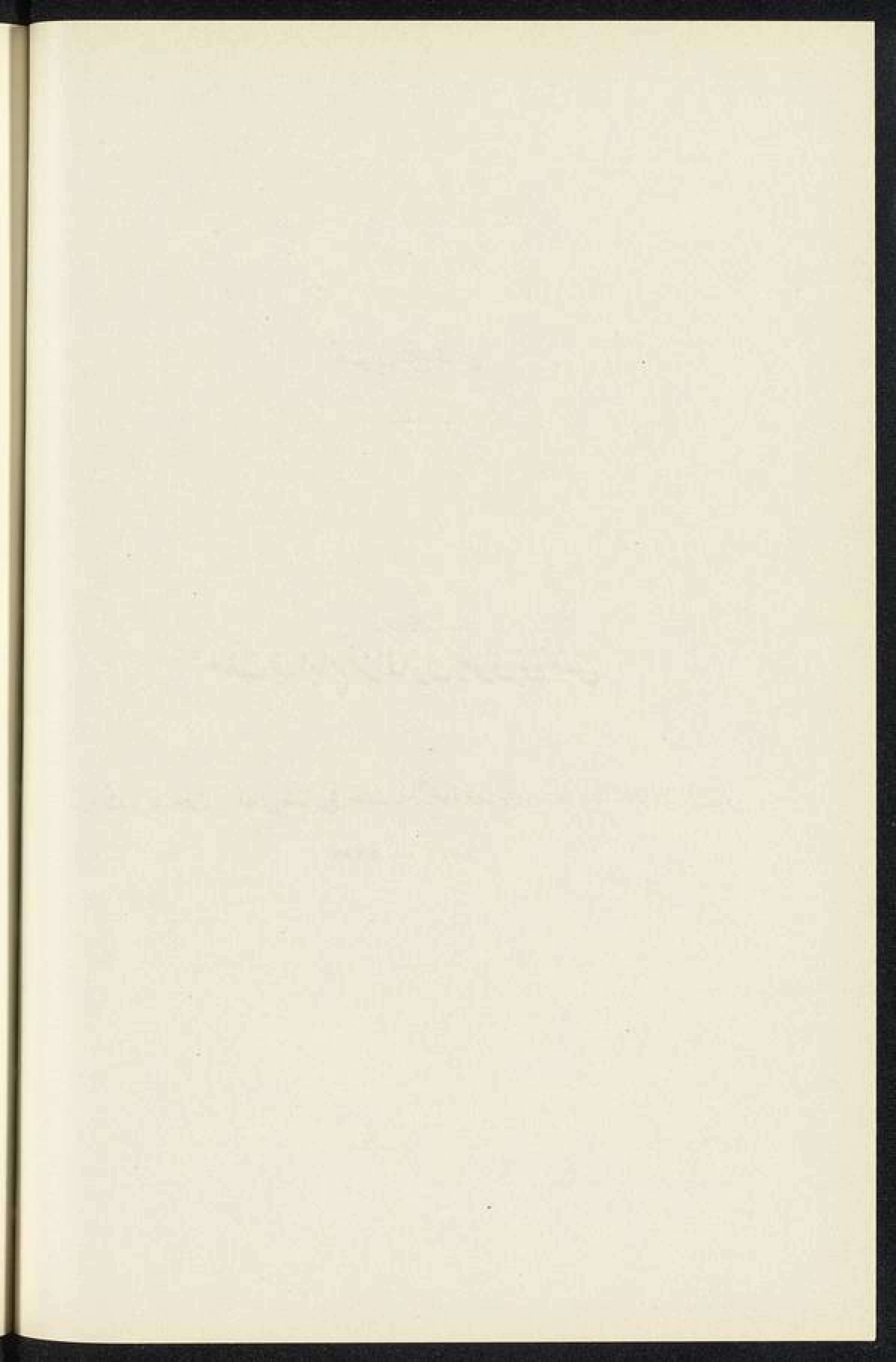
(٣) في ابن القلانسي ١٣٦: «والتقى الفريقان غداة يوم السبت تاليه عقيب اقتران المريخ وزحل في برج الأسد» – انظر النجوم الزاهرة ١٣٤/٥

القسم التاسع عشر

ذكر
حلب في أيام فخر الملوك رضوان بن تتش

ملك تتش في حلب - ملك رضوان في حلب - الدعوة للمصريين - خروج الفرنج الى الشام

٤٨٧ هـ - ٥٠٧ هـ



مُلكُ تُتُش في حَلَب

وعوّل بُوزان وكربوقا على الاعتصام بحلب، وانتِظارِ النَّجدة من بركيارُق؛ لأنَّ كتابَ الطائر وصل إلى حلبَ يُخبِرُ بوصول النَّجدةِ إلى المَوْصل، وقرّروا مع الأَحْداثِ ذَلِكَ[1].

فوصل تاجُ الدَّولة بعسكره إلى ‖ حلب، وتحيَّر أهلها فيما يفعلونه، [١١٥ظ]
٥ فبادر قومٌ من الأحداثِ ممَّنْ لَا يعرف وَلَا يذكر ففتحوا بابَ أنطاكية[2].

ودخل وثّاب بنُ محمود في مُقدّمة أصحاب تاج الدَّولة إلى حلب، وسكن البلد، فنزل الوالي بِقَلْعَة الشَّريف، وسلّمها إلى تاج الدَّولة فدخلها، وباتَ بها، فراسلَهُ نُوحُ والي القلعة الكبيرة، وسلّمها إليه
١٠ بعد أن تَوَثَّق منه. وطلع تَاجُ الدَّوْلة إليها في الحادي عشر من جمادَى الأُولى من السَّنة[3].

---

(١) في ابن القلانسي: «واجتمعوا بأهل البلد والأحداث وتقرر بينهم الاعتصام بحلب والاستنجاد بالسلطان بركيارق».

(٢) في ابن القلانسي ١٣٦: «وقد اختلفت الآراء فيما بينهم، وحاروا فيما يعملون عليه فوثب جماعة منهم لم يؤبه لهم وكسروا باب البلد ونادوا بشعار تاج الدولة».

(٣) في ابن القلانسي ١٣٧: «فدخل الأمير وثاب بن محمود بن صالح البلد في مقدميه وبادر إلى المقيم بقلعة الشريف التي قبلي حلب بالظهور إلى تاج الدولة، ومن باب منها دخل تاج الدولة ونزل إليه رسول الأمير نوح صاحب قلعة حلب وزوجته وتوثقا منه وأخذا الأمان له من تاج الدولة، وعادا إليه وأعلماه بما كان من تقرير الحال وأخذ الأمان، فسلمها اليه وحصل بها في يوم الاثنين الحادي عشر من جمادى الأولى، وسلمت جميع الحصون إليه من الشام».

قتل بوزان

وقبضَ تاجُ الدّولة على بُوزان فضَرَب رقبتَه صبرًا ، وأخذَ كربوقا واعتقَله بحمص (١) ، وأقطع الشّام لِعَسكرِه ، وأقطع معرّةَ النّعمان واللّاذقية ليغي سِيان ، ورتّب أبا القاسم بنَ بديع وزيرًا بحلب .

وأقامَ ثلاثةَ أيام ثمَّ توجّهَ فقطع الفُراتَ ، وتسلّم حرّان ، وسار إلى الرُّها فتسلّمها ، وقيل : بأنَّ واليها امتنع مِنْ تسليمها إلّا بعلامةٍ مِنْ بُوزان ، وأنَّ بوزان كان مَحْبُوساً بحلب ، فأنفذ إليه مَنْ قَطعَ رأسهُ ورَمَاهُم به ، فسلّموا الرُّها إليهِ ، وتسلّم ديارَ بكر .

وسارَ إلى ميّافارقينَ فقتَلَ بَني جَهيرٍ بعد أن قطع رُؤُوس أوْلادِهم وعلّقَها في رقابِهم .

وعَدلَ عَن المَوْصِلِ ، وسار لِلِقَاء زَوْجة أخيهِ خاتون الجلاليّة لإتمام ما كان استقرَّ بينها فماتتْ في الطّريق (٢) .

وتوجّه تاجُ الدّولة الى الرّيّ ، فوصله خلقٌ كثيرٌ مِن التركمان وعساكِر أخيه ، وملَكَ كُلَّ بلدةٍ مَرَّ بها ، وخطبَ له على منابر الإسلام : الشّام والفرات ، وبَغداد .

سفر رضوان

وعِندَ وُصولِهِ إلى همذان كتب إلى ولَدِهِ الملك رضوان يَستَدْعيهِ مِنْ دمشقَ فتوجّهَ إليهِ ومَعَهُ بقيّة مَنْ تخلّف

---

(١) في ابن القلانسي ١٢٧ : « وكان بوزان صاحب الرها في جملة من أسر في الوقعة ، فتقدم تاج الدولة بقتله فضربت عنقه صبرًا ، وكذلك الامير كربوقا صاحب الموصل كان قد أسر في الوقعة فاعتقل بحلب الى أن تقرر أمر حلب » .

(٢) في ابن القلانسي : « وعدل عن طريق السلطان بركيارق لانه كان نازلًا بأرض الموصل طالبًا لخاتون زوج السلطان ملك شاه والدة أخيه محمود ، وكانت مستولية على أصفهان » – انظر ص ١٠٨ من كتابنا هذا .

مِنْ أصحابه بالشَّام[١].

[١١٦ و] || ودخل تاجُ الدَّولة الرَّيَّ وملكها[٢] في المحرَّم سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وخَرَج بركيارق من أصبهان، والتقوا على خمسة فراسخ[٣] من الرَّيّ في يوم الأحد السَّابع عشَر مِنْ صفر. فانهزم عسكرُ تاج ٥ الدَّولة تتش واستبيح ونُهب، وقُتِلَ ذلكَ اليوم تاجُ الدَّوْلَة وخواصُّهُ في الحرب[٤].

مقتل تتش

وقَتَل تاجَ الدَّولة بعضُ أصحاب قسيم الدَّولة بعد أن اصطنعَهُ وقرَّبه، ضَرَبه بنُشَّابَة في ترقوتِهِ اليُسرى فوقع؛ وقُطِع رأْسه وطيف به العسكر، ثُمَّ حُمِل إلى بَغْدَاد فَطِيف به[٥]، ١٠ وتفرَّق مَنْ سَلِم منهم إلى مواضعهم.

مُلكُ رضوانَ في حَلَب

ووَصَلَ الخبرُ إلى ولده الملك رضْوان، وهو نازلٌ على الفُرات

(١) في ابن القلانسي: فوصل إلى همذان وكاتب ولده فخر الملوك رضوان بدمشق يأمره بالمسير اليه في من بقي من الاجناد في الشام، فسار إلى حلب ومن حلب إلى العراق».

(٢) في ابن القلانسي ١٢٨: « فانه تمَّ في رحيله إلى مدينة الريّ فنزل عليها وضايقها وملكها ».

(٣) في ابن القلانسي ١٢٩: « وبرز السلطان بركيارق من أصفهان في العسكر، وقصد جهة عمّه السلطان تاج الدولة، وخاف تاج الدولة من أهل الريّ أن يخامروا عليه ان أقام، فرحل عنها، ونزل في منزل على أربعة فراسخ منها ».

(٤) في ابن القلانسي: « فانفلّ عسكر السلطان تاج الدّولة، وتفرق، ونهب سواده وأثقاله، وأسر أكثره، وقتل منه الخلق الكثير ».

(٥) في ابن القلانسي: « واستشهد تاج الدولة – رحمه الله – وقتله بعضُ أصحاب قسيم الدولة أق سنقر صاحب حلب بعد اصطناعه إيّاه، وتقريبه له وحُمل رأسه وطيف به في العسكر، ثم حمل إلى بغداد وطيف به فيها » – انظر ابن الأثير ١٧٥/٨

بِعانة[١] متوجهاً إلى والده ، فقَلِق وخاف مِنْ وُصول مَنْ يطلبُه فحطّ خِيمَهُ في الحال[٢] .

ورَحل مُجدًّا حتى وصل حلبَ في جماعةٍ من غلمانه وحاشِيته؛ وترك باقي عسكره مِنْ ورائه ، فسلّم وزيرُ أبيه أبو القاسم بنُ بديع إليهِ المدينةَ والقلعةَ ؛ وصعد إليها ؛ وأخذوا الأهبةَ لِمَنْ يَقْصِدُها[٣] . ٥

دقاق بن تتش

ووصل إليه إلى حلب من الفَلّ أخوه أبو نَصْرٍ دقاق[٤] وجناح الدَّوْلة حُسَيْن ، فاستولى جناح الدَّوْلة على تدبير مُلْكِ الملك رضوان ؛ وكان تاج الدَّوْلة قد جعله مدبّرًا لَهُ ، وهو أتابكه في حياته ، وجَعَل دُقاق مع أتابك ظهير الدّين .

ولمّا افتتح ديار بكر سلّمها إلى ظهير الدّين ، وشمس المُلوك دقاق معه ، ولم يَزَلْ بها إلى أن سارَ إلى الرَّيِّ فسارَا معه. ١٠

وعاد دُقاق إلى حلب فأقـام بها مدّةً يسيرة ، وراسَلَهُ الأمير

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٥٩٤/٣ : « وعانة : بلد مشهور بين الرقة وهيت يعدُّ في أعمال الجزيرة. . . وهي مشرفة على الفرات قرب حديثة النورة وبها قلعة حصينة ».

(٢) في ابن القلانسي ١٣٠ : «سنة ٤٨٨هـ فيها ورد الخبر إلى الملك فخر الملوك رضوان ابن تاج الدّولة باستشهاد أبيه تاج الدولة وانفلال عسكره ، وهو نازل في عانة على الفرات في عسكره يريد الاقام إلى بغداد ، ثم المصير إلى أبيه تاج الدولة حين استدعاه إلى الوصول إليه ، فاضطرب لذلك وقلق وخاف من وصول من يطلبه فحطّ مضاربه في الحال ».

(٣) وردت هذه العبارة نفسها في ابن القلانسي ثم قال : « وفتح الوزير أبو القاسم ، النائب في القلعة ، أبوابها ؛ وأصعده إليها ، وأخذوا الأهبة لمن يقصدها ».

(٤) ينقل ابن العديم هنا عن المصدر الذي استقى منه ابن القلانسي معلوماته ، فيتفقان في ايراد العبارة والمعنى ، بل لعله نقل عنه مباشرة — ويورد ابن القلانسي : « ووصل إليه من الفلّ أخوه شمس الملوك دُقاق ابن السلطان تاج الدّولة من ناحيـة ديار بكر وجماعة من خواصّ عسكره المفلول » — وفي الحاشية ينقل ما يلي : « قلتُ دقاق كنيته أبو نصر ويقال فيه تُقاق أيضاً بالتاء ».

ساوتكين الخادم(١) ـ وكان نائب تاج الدّولة بدمشق في حفظ القلعة
والبلد ـ < وقرّر >(٢) لدقاق مملكة دمشق سرًا. وخاف من أخيه [١١٦ظ]
رضوان، فخرج من حلب وهرب إلى دمشق من غير أن يعلم به أحد.
وجدّ في السّير، وتبعه رضوان، وأنفذ خلفه عدّة من الخيل ففاتهم،
٥ فدخل دمشق فسارع ساوتكين إلى طاعته، وصارت دمشق وبلادها
بحكمه(٣).

وقتل رضوان أخويه أبا طالب وبهرام ابني تتش، وكان أتابك
طغتكين(٤) معتقلًا عند السّلطان بركيارق، وقبض في الوقعة فطلبوا منه
كربوقا والجماعة الّذين معه، وكانوا في يد رضوان فاتّفق رأيهم أن يسيّروا
١٠ عضب الدّولة أبق بن عبد الرّزّاق(٥) إلى رضوان لاستخلاص كربوقا.

(١) في ابن العديم ١٧٦/٨ : « وسار به إلى حلب وأقام عند أخيه الملك رضوان فراسله الأمير ساوتكين الخادم الوالي بقلعة دمشق سرًا يدعوه ليملكه دمشق » - وفي ابن القلانسي ١٣٠ : « وأقام بحلب مدة يسيرة وراسله الأمير ساوتكين الخادم المستناب في القلعة والبلد. وقرّر له مملكة دمشق سرًا ».

(٢) كلمة مطموسة في الأصل أخذناها عن ابن الاثير وابن القلانسي كما مرّ في السطر السابق.

(٣) في ابن القلانسي : « فخرج في الحال من حلب من غير ان يعلم به أحد. وجدّ في سيره ليله ونهاره. فلما عرف الملك فخر الملوك خبره انهض عدّة من الخيل في أثره، ففاتهم، ولم يعرفوا له خبرًا، ولا وجدوا له أثرًا. ووصل إلى دمشق وحصل بها وأجلسه ساوتكين في منصب ابيه السلطان تاج الدولة، وأخذ له العهد على الأجناد والعسكرية » — وفي ابن الأثير : « فهرب من حلب سرًا وجدّ في السير، فأرسل أخوه رضوان عدة من الخيالة فلم يدركوه، فلما وصل إلى دمشق فرح به الخادم وأظهر الاستبشار ».

(٤) في ابن القلانسي ١٣٠ : « وفي هذه السنة — وردت الأخبار بخلاص الأمير ظهير الدين طغتكين أتابك من اعتقاله عقيب الكسرة التاجية » — وابن الأثير يرسم « طغدكين » هكذا بالدال بعد الغين فيقول : « معتمد الدولة طغدكين ».

(٥) هو الأمير أبق بن عبد الرزاق أحد مقدّمي أمراء دمشق، توفي سنة ٥٠٢ هـ — انظر ابن القلانسي ١٦٤

وكان أبق أيضاً مِنْ جملة مَنْ قُبض عليه من الجماعة الذين كانوا مع تتش فخاطَبُوا السُّلطَان في إطلاقه وتَسْيِيره فأجابهم إلى ذلك، وسيَّره إلى حلب، فلما وصله أكْرَمَهُ رضوان وأطلق كربوقا في شعبان وسيَّره مكرماً.

فأطلق بركيارق أتابكَ طغتكين وجميع من كان في اعتقاله من خواصّ تاج الدَّولة، ووصل دمشق فابتهج دقاق بوصوله وقويت نفسه؛ وألقى تدبير أموره إليهِ، فقام فيها أحسنَ قيامٍ[1].

فاستأذن عضبُ الدَّولة الملك رضوان في الوصول إليهِ فأذن له، وقرَّر معه قرب العودة إلى حلب وترك اقطاعه بحلبَ على حاله، فوصل دمشق واختار المقام بها، وكتب إلى أصحَابهِ بعَزَاز يأمرهم بتسليمها إلى رضوان فسلّموها.

الاسماعيلية. ولمَّا وصلتْ هذه الأخبارُ وثب أهل أفامية على حِصْنها فأخذُوهُ من الأتراك، وقتلوا بَعْضَهم، وكان تاجُ الدَّولة قد أخذه من ابن منقذ، وسار ‖ [١١٧و] جماعةٌ مِنْ أهلها إلى مصر يستدعون والياً من قِبلهم <ليلهم>[2] إلى الإسماعيلية ونُفورهم من التُّرك.

ووصل خلَف بنْ مُلاعب في سنة تسع وثمانين وأربعمائةٍ وتسلَّمها، وعاد إلى الفساد وقَطْع الطريق، وقتل خَلقاً من أفامية.

وأمَّا الملكُ رضوان فإنّه خَرج في سنة ثمان وثمانين من حلب، ومعه

---

(١) في ابن القلانسي ١٣١: «فتلقاه الملك شمس الدولة دقاق وعسكره وأرباب دولته وبولغ في اكرامه واحترامه، وردّ اليه النظر في الاسفهسلارية، واعتمد عليه في تدبير المملكة».

(٢) كلمة مطموسة في الأصل جعلنا مكانها هذه اللفظة متابعة للسّياق.

جناحُ الدَّولة حسين[١] . ووصله يغي سيان ويوسف بن أبق مِنْ أنطاكية بعسكرهما ، وتوجّهوا إلى الرُّها، ومعهم رهائن أهلها ليتسلّمها الملك رضوان من المُقيمين فيها من أصحاب والده .

فلمّا نزلوا الرّها أراد يغي سيَان ويوسف أن يقبضا جناحَ الدَّولة ويتفرّدا بتدبير رضوان ، فهرب منهما ، وقطعَ الفُرات، ووَصل حلبَ، وتبعه رضوان ، فدخل حلبَ ، وهرب رهائن الرّها من العسكر ودخلوها . وعاد يغي سيان ويوسف بن أبق ، وقد استوحش رضوان منهما .

سكمان بن أرتق

وكتب رضوان إلى سكمان[٢] واقطاعه سروج[٣] يستدعيه إلى حلب لمعونته ، فسار وقطَع الفُرَات فلقيه يوسف بن أبق في عدّةٍ وافرةٍ فخافه سكمان ، فأظهر موافقته وصار معه .

وخاف جناحُ الدَّولةِ من اجتماعهم ، وكان عقيب وُصول رضوان من الرُّها قد سَيَّر جماعةً من عسكر حلب إلى معرّة النُّعمان مع عضب الدَّولةِ لأخذها من يغي سِيان .

وكاتب وثّاب بن محمود فوصل ببني كلابٍ لمساعدَتِهِ على أخذ المعرّة ، فأخرجوا ابن يغي سيان وأصحابه منها ، وتسلّموها .

وعاد عضبُ الدَّولة ووثّاب ، فلمّا وصلا حلبَ حدث ما ذكرناه

---

(١) جناح الدولة حسين أتابك الملك فخر الملوك رضوان - انظر ابن القلانسي ١٣٣

(٢) في ابن الأثير ٨/١٧٦ : « الأمير سقان بن ارتق »

(٣) في ابن الأثير ٨/١٨٤ : « فأرسل رضوان رسولاً إلى سقان بن أرتق وهو بسروج يستنجده فأتاه خلق كثير ».

[١١٧ظ] ‖ من أمر سكمان ويوسف بن أبق ، فخرج جناح الدّولة بالعسكر ، فلقيه يوسف بالقرب من مَرْج دابق فهَرَب يُوسف ونهبوا عسكره ، وأعانهم على ذلك سكمان ، ودخل يوسف أنطاكية . وعاد جَناح الدّولة وسكمان ووثّاب وأبق إلى حلب .

٥ وأقطع الملك رضوان معرّة النُّعمان سكمان بن أرتق وأعمالها ، ثم سار رضوان وسكمان لقصدِ دمشق وانتزاعها من أخيه دقاق ، وترك جناح الدولة بحلب .

فلمَّا نزلا دمشق وَصل إليهما أن دُقاق قبض على نجم الدّين إيلغازي ابن أرتق [١] ، واعتقله لتهمة وقعتْ به ، فعاد الملك رضوان إلى حلب ، ١٠ وسار سكمان إلى بَيْتِ المقدس وتسلّمها من نُوّاب أخيه وأقام بها .

ورَاسَلَ يوسف بن أبق الملكَ رضوان واستأذنه في الوصول إلى خدمته فأذن له ، ووصل حلب وسكنها .

مقتل يوسف بن أبق

ثُمّ خافَ رضوان وحسين منه فتقدّما إلى بركات ابن فارس رئيس حلب المعروف بالمجن [٢] [٣] بقتله ، ١٥ فهجم عليه وأصحابه فقتلوه ونهبُوا دارَه وأخذوا رأسه [٢] ، وسيّروه إلى بزاعَا ومَنْبج ، فتسلّموها من أصحابه ، وقبضوا على اقطاع أخيه

(١) في ابن القلانسي ١٢٧ : « الأمير نجم الدين إيل غازي بن أرتق » – وفي بغية الطلب ٨/٨٨ ظ : « إيلغازي » موصولة .

(٢) في ابن الأثير ٨/١٧٩ : « وهو رئيس الأحداث بحلب » .

(٣) في ابن الأثير ، بالصفحة المذكورة : « فقصد المجن الدار التي بها يوسف فكبسها من الباب والسطح ، وأخذ يوسف فقتله ونهب كل ما في داره وبقي بحلب حاكماً » . – وفي العظيمي بالورقة ١٨٩ و : « سنة ٤٨٩ – قتل الأمير يوسف بن أرتق ونهبت داره » . – انظر ابن القلانسي ١٣٥

وأصحابها؛ وهربوا من حلب. وكان الملك قد تَوَهَّم منه الارتداد عن الاسلام.

ثمّ انّ رضوان وجناحَ الدّولة خرجا في سنة تسع وثمانين إلى تلّ باشر[1]؛ وشيح الدّير[2]، وفتحاها بالسّيف من أصحاب يغي سِيان، وأغارا على أعمال أنطاكية، وعادا إلى حلب، وسارا في أول شهر رمضان منها إلى دمشق.

بين رضوان ودقاق

فسار يغي سيان مُنجدًا لدقاق فضعفَت نَفس رضوان ‖ ولم يتمكّنْ مِن ٱلعَودة، فسار إلى بيت [١١٨ و] المقدس، فتبعه دقاق وطغتكين ويغي سيان وأقاموا متحابسين مدة.

واشرف عسكر رضوان على التّلف[3] فانفَصَلَ عنه جناحُ الدّولة، وهرب على طريق البرية إلى حلب، وتبعه الملك رضوان بعد مدّة، وحَصَلا بجميع العساكر بحلب.

وَعادَ دُقاق وطغتكين إلى دمشق ويغي سيان إلى أنطاكية. وعاد سكمان بن أرتق من القدس على البرّية حتّى وصل حلب على البرية في المحرّم من سنة تسعين وأربعمائة.

واجتمع بجناح الدّولة واتفقا على قصد بلاد يغي سيان فخرج

(١) في معجم البلدان لياقوت ٨٦٤/٢ : «تلّ باشر : بالشين المعجمة – قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينها وبين حلب يومان، وأهلها نصارى أرمن، ولها ربض وأسواق، وهي عامرة آهلة» – انظر دوسو ٤٦٨

(٢) شيح الدّير : وردت في بعض المصادر شيخ الدير بالخاء المعجمة وهي البلدة الكردية الآن : شادر Šadir – انظر هونيغان ١٠٩ بالحاشية والمصادر التي يسردها .

(٣) في ابن الأثير ١٨٤/٨ : «فرحل إلى نابلس وسار إلى القدس ليأخذه فلم يمكنه، وانقطعت العساكر عنه».

دقاق وطغتكين ، فوصلا حَماة وعاثَ العسكرُ في بلدها ووصلهما يغي سيان ، وساروا إلى كفرطاب في الثّاني من ربيع الأوّل ، فقاتلوها ، ونهبوها ، وقرّروا على أهلها مالاً .

وهرب أصحاب سكمان من المعرّة فتسلّمها يغي سيان وقرّر عليها مالاً . وتنقّل العسكر في الجَزْر وغيرها من أعمال حلب ، فاستنجد ٥ رضوان بسليمان بن إيلغازي صاحب سُمَيْسَاط فوصل بعسكرٍ كثيرٍ إلى حلب .

وجمع رضوان مَنْ قَدَرَ عليهِ من التُّرك والعرب وأحداث حلب ، ونزل عسكر دقاق بقِنّسرين .

١٠ ونزل عسكرُ حلب بحاضر قِنّسرين فاتّفق الأمر على أن يجتمعوا على نَهر قُوَيق ويتحدّثوا ، فاجتمعوا وتحدّثوا ، والنهر بينهم ؛ فلم يتّفق الصُّلحُ ، فقال يغي سيان لسكمان : « هؤلاء الملوك يقتتلون على ملكهم ، أنتَ يا بيّاع اللّبن دخولُك معهم لأيّ صِفة ؟ » قال : « غداً تُبصر ايشْ أنا » .

١٥ فأصبحُوا والتقَوْا يوم الاثنين خامس ‖ [١١٨ظ] شهر ربيع الآخر من سنة تِسعين وأربعمائة فأبلى سكمان بَلاءً حسناً .

ولم تزل الحرب بَينهم إلى آخر النهـار ، فانهزم يغي سيان إلى أنطاكية ، ودقاق وطغتكين إلى دمشق ؛ وأسر في الحرب اصباوه [١] ، فاعتقل بحلب ثم أطلق ، فهرب إلى دمشق ولم يقتل من العسكر إلّا ٢٠ القليل .

---

(١) جاء في ابن الأثير ٢٢٨/٨ : « أصبهذ صباوو » في الحديث عن الصلح بين رضوان والفرنج ، وأن هذا الرجل منع رضوان من الصلح .

وَقَتَل الفلّاحون في الطَّريق وقتَ الهزيمة مِنَ الأرمن الّذين كانوا مع يغي سيان جماعةً كثيرةً ، وتغيّرت نيّة الملك رضوان على جَناح الدّولة حسين فَهَرب من حلب إلى حمص ، وخرج من حلب ليلًا ومعه زوجته أمّ الملك رضوان ؛ وأقام بحمصَ لأنها كانت في يده وحَصَّنها [1] .

٥ ووصل يغي سيان إلى حلب عقيب ذلك ، وخدم رضوان ، ودبّر أمره ، وتزوّج رضوان ابنة يغي سيان خاتون جنجك [2] .

الدعوة للمصريين

المستعلي

وعوّل رضوان على قصد جناح الدّولة بحمص ، وقصد دقاق بدمشق ، ووَصَلَهُ رسولُ الأفضل [3] من مِصْر يدعوه إلى طاعة المُسْتَعْلي [4] وإقامة الدّعوة له ، وعلى يده هديّة سنيّة من مصر ، ووَعَدَه بأن يُمِدَّه بالعساكر والأموال [5] .

١٠

(١) في ابن القلانسي ١٣٣ : « وفي شعبان منها – ورد الخبر بأن الأمير جناح الدولة حسين أتابك الملك فخر الملوك رضوان بحلب استوحش من الملك استيحاشاً خاف معه على نفسه ، وكان زوج والدته ، ففصل عن حلب متنكرًا لما تمّ في أمره ، وكان أمر التدبير إليه والمعتمد في الحل والعقد فيها عليه ، ووصل إلى حمص في عسكره وخواصه ، وكان قراجة نائبه فيها ، فسلّمها اليه ، وحصل بها ، وشرع في تحصينها » .

(٢) في بغية الطلب المخطوطة ٨/٩٠ و : « خاتون جحل » من غير نقط فلم نعرف الضبط فيها – وفي العظيمي بالورقة ١٩٠ و : « حجل » من غير نقط كذلك .

(٣) هو الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش أبو القاسم ابن أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني وزير مصر وكان القائم بأمر المستعلي بالله خليفة مصر – انظر النجوم الزاهرة ١٤٢/٥

(٤) المستعلي بالله خليفة مصر واسمه أحمد وكنيته أبو القاسم بن المستنصر بالله مَعَدّ بن الظاهر بالله عليّ بن الحاكم بأمر الله منصور ، السادس من خلفاء مصر الفاطميين بني عُبيد ، بويع بالخلافة بعد موت أبيه المستنصر معدّ في يوم الغدير سنة ٤٨٧ هـ – انظر النجوم الزاهرة ١٤٢/٥ حيث ينقل ترجمته عن ابن خلكان .

(٥) في ابن القلانسي ١٣٣ : « وفي هذه السنة ورد على فخر الملوك رضوان كتاب

فتقدم بالدّعوة للمصريين على سائر منابر الشّام الّتي في يده، ودعا الخطيبُ أبو تراب حيدرة بن أبي أسامة[١] بحلب للمُستَعلي ثمّ للأفضل ثمّ لرضوان، في يوم الجمعة السّابع عشر من شهر رمضان من هذه السّنة.

وكان قد ولّي الخطابة أبا تُراب وعَزَل جدَّ أبي أبا غانم محمَّد بن هبة الله بن أبي جرادة عن القضاء والخطابة بحلب[٢]، لأنّ توليته كانت على قاعدة أبيه من بغداد في سَنة ثمان وثمانين وأربعمائة. ٥

[١١٩ و] || وكان أبوه القاضي أبو الفضل هبة الله قد مات في هذه السَّنة المذكورة، وهو على القضاء والإمامة بحلب.

وولّى رضوان قضاء حلب في سنة تسعين القاضي فضلَ الله الزّوزني العَجمي الحنفيّ، وسَيَّرهُ رسولا إلى مصر[٣]، وناب عنه في القضاء حال غيبته أبو الفضل أحمد بن أبي أسامة الحلبي. ودامت الدّعوة بحلَب إلى رجب من سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة. وقيل: لم تَدُم أكثر من أربع جمع[٤]. ١٠

المستعلي بالله صاحب مصر مع رسوله يلتمس منه الدخول في طاعته واقامة الدعوة لدولته وكذلك كتاب الأفضل يتضمن مثل هذه الحال فأجابها إلى ما التمساه».

(١) جاءت ترجمة الرجل في بغية الطلب المخطوطة ٦/٣٣٣ و: «حيدرة بن الحسن ابن أحمد بن عليّ بن عبيدالله بن محمد بن عبدالله بن محمد بن جلول الحلبي أبو تراب العدل الخطيب ابن أبي أسامة ... وكان إمامي المذهب».

(٢) في بغية الطلب: «وعزل جد أبي القاضي أبا غانم عن القضاء والخطابة في سنة تسعين وأربعمائة. وقيل ان أبا تراب لم يعش بعد ذلك إلّا مدة يسيرة ومات وكان قد أسنّ».

(٣) في العظيمي بالورقة ١٩٠ و: «وتولّى قضاء حلب القاضي الزوزني العجمّي وسار رسولًا إلى مصر واستناب موضعه».

(٤) في تاريخ العظيمي: «وخطب للمصريين شهرًا وعادت الخطبة للعباسيين».

وأعادها رضوان للإمام المستظهر ثم للسلطان بركيارق ثم لنفسه، ولم يَصحّ له مما التمسه من المصريّين شيء.

وأعاد القضاء والخطابة إلى جدّ أبي أبي غانم على قاعدته الأولى، في سنة خمس وتسعين وأربعمائة، حين قُتل الزَّوْزَنيّ، وكان خرج من ٥ بين يدي رضوان، فقُتل في بعض الدُّروب؛ وكان أزرى على البَاطِنيّة وعلى معتقدهم فقيل إنّهم قتلوه.

خروج الفرنج الى الشام

ولما سار[1] رضوان ويغي سيان وصلا إلى شيزر متوجّهَيْن إلى حمص لقصد حمص[2]، فتواصلت الأخبارُ بوصول خَلق من الفرنج قاصدين أنطاكية، فقال يغي سيان: «عودُنا إلى أنطاكية ولقاء الفرنج ١٠ أولى». وقال سكمان: «مسيرُنا إلى ديار بكر وأخذها من المتغلّبين عليها ونتقوّى بها، وأزِل أهلي بها ونعود إلى حمص أولى»؛ واختلفوا[3].

فسار الملك رضوان نحو حلب حفلا وكان معه وزيره أبو النّجم بن بديع أخو وزير أبيه تتش أبي القاسم، وكان قد ولّاه وزارته حين ملك

(١) هذا القسم وما يليه من أقسام خاصة بالصليبيّين [أي من سنة ٤٩٠ – ٥٦١ هـ] نشرها المستشرق باربيه ده مينار في جملة النصوص التاريخية المتعلقة بالحروب الصليبية مع ترجمتها إلى الفرنسية من غير تحقيق أو تعليق على عادة المجموعة – انظر:
Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, Paris 1884, tome III, pp. 577-690

(٢) في ابن القلانسي ١٣٣: «وبرز الملك رضوان وياغي سيان من حلب في العسكر إلى ناحية شيزر، عازماً على الاحتشاد والتأهب والاستعداد لمعاودة النزول على دمشق».

(٣) في ابن القلانسي، بالصفحة نفسها: «فأقاموا على شيزر تقدير شهر، ووقع الخلف بين مقدمي العسكر، فتفرّقوا وعاد كل منهم إلى مكانه؛ وعاد الملك إلى حلب».

حلب ، فاتّهماه أنه هو الّذي يُفْسِدُ حالَ رضوان ، فطلع إلى حصن شيزر ، وأقام به عند ‖ ابن منقذ خشية من يغي سيان وسكمان ، فلمّا سارا عن شيزر سار إلى حلب ولحق بالملك رضوان بها . [١١٩ظ]

ولما عاد رضوان مُغاضِباً ليغي سيان وسكمان عادَ والأمراء من شيزر إلى أنطاكية[١] ، وبلغهم نزول الفرنج البلّانة[٢] ونهبها . ٥

ولما دخل يغي سيان أنطاكية أخرج ولديه شمس الدّولة ومحمدًا ، فسار أحدهما إلى دقاق وطغتكين يستنجدهما ، وبثّ كتبه إلى جناح الدّولة ووثّاب بن محمود وبني كلاب ، وسار محمّد ابنه إلى التركمان وكربوقا وأمراء الشرق وملوكه ، وسارتْ كتبه إلى جميع أمراء المسلمين[٣] . ١٠

هجوم الفرنج

وفي ثامن شهر رمضان ، وصل من قبرس[٤] إلى ميناء اللّاذقية اثنتان وعشرون قطعة في البحر ، فهجموه وأخذوا منه جميع ما كان للتجّار ، ونهبوا اللّاذقية ، وعادوا . ووَصَلت الفرنج إلى الشّام ، واعتبروا عسكرهم فكانوا ثلاثمائة ألف وعشرين

(١) في ابن القلانسي ١٣٦ : « وفي النّصف من شعبان توجّه الأمير ياغيسيان صاحب أنطاكية والأمير سكمان بن أرتق والأمير كربوقا في العسكر الى أنطاكية ، وقد وردت الأخبار بقرب الأفرنج منها ونزولهم البلانة » .

(٢) بلّانة – ذكر الجغرافيون العرب أنها قرب المرقب وسمّوها «بلنياس» وضبطوها على اختلاف فيما بينهم – انظر معجم البلدان لياقوت ١/٧٢٩ ؛ وتقويم البلدان لأبي الفداء ٢٥٤ – وارجع إلى دوسو ١٢٨ وما يليها من صفحات .

(٣) في ابن القلانسي ١٣٦ : « وخف ياغي سيان إلى أنطاكية ، وسيّر ولده إلى دمشق إلى الملك دقاق وإلى جناح الدولة بحمص ، والى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجاد والبعث على الحفوف إلى الجهاد ، وقصد تحصين أنطاكية واخراج النصارى منها » .

(٤) قبرس : جزيرة في بحر الروم – انظر زبدة الحلب ١/٧١ بالحاشية .

ألف إنسان ، لأنهم وصلوا من جهة الشمال .

وفي اليوم الثاني من شوّال[١] نزلت عساكر الفرنج على بغراس وأغاروا على أعمال أنطاكية ، فعند ذلك عَصى مَنْ كان في الحصون والمعاقل المجاورة لأنطاكية، وقتلوا مَنْ كان بها، وهرب مَنْ هَرَب منها.

٥ وفعل أهل أرتاح[٢] مثل ذلك واستدعَوْا المدد من الفرنج. وهذا كله لقُبْح سيرة يغي سيان وظلمه في بلاده .

ونزل الفرنج على أنطاكية لليلتين بقيتا من شوّال من سنة تسعين وأربعمائة .

وخرج في المحرّم من سنة إحدى وتسعين وأربعمائة نحو ثلاثين ١٠ ألفاً[٣] من الفرنج إلى أعمال المسلمين ببلد حلب ، فأفسدوا ونهبوا || وقَتَلوا مَنْ وَجَدُوا . [١٢٠ و]

وكان قد وَصل الملك دقاق وأتابك ومعهما جناح الدّولة ، ونزلوا أرض شيزر ، ومعهم ابن يغي سيان وهم سائرون لانجاد أبيه ، فبلغهم خبر هذه السريّة ، فساروا إليها بقطعة من العسكر، فلقوهم في أرض ١٥ البارة[٤] فقتلوا منهم جماعة[٥] .

---

(١) وقعت هذه العبارة نفسها من غير نقص أو زيادة عند ابن القلانسي ١٣٦ ، ويبدو أن ابن العديم ينقل عنه حرفياً في كثير من المواقع وخاصة هنا .

(٢) أرتاح: حصن من أعمال حلب – انظر زبدة الحلب ١٦٩/١ بالحاشية وهذه العبارة من ابن القلانسي ، لكن الحكم على سيرة يغي سيان يبدو من أسلوب ابن العديم .

(٣) في ابن القلانسي ١٣٦ : « وفي شعبان ظهر الكوكب ذو الذؤابة . . . وكان قد نهض من عسكر الافرنج فريق وافر يناهز ثلاثين ألفاً فعاثوا في الأطراف » .

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٤٦٥/١ : « البارة – بليدة وكورة من نواحي حلب وفيه حصن وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة »

(٥) في ابن القلانسي ١٣٦ : « ووصلوا إلى البارة وفتكوا فيها تقدير خمسين رجلاً

وعاد الفرنج إلى الرّوج ، وعرجوا منه إلى معرّة مصرين ، فقتَلوا مَنْ وجدوا و كسروا مِنبرها، وحين عاد العسكر الدمشقيّ من البارة فارقهم ابن يغي سيان ووصل إلى حلب يستنجد بالملك رضوان ، فأخذ عسكر حلب وسكمان، ودخل بهما إلى أنطاكية فلقيهم من الفرنج دون عدّتهم ، فانهزم عسكر المسلمين إلى حارم[1] وذلك في آخر صفر، ٥ وتبعهم عسكر الفرنج إلى حارم فانهزموا إلى حلب، وغلب أهل حارم من الأرمن عليها .

وفي شهر ربيع الأول من السَّنة وصل خلقٌ من الأرمن إلى تلّ قبّاسين[2] بناحية الوادي فقتَلوا مَن فيه، وخرج المسلمون الّذين بالوادي وجماعة من الأتراك تبعوهم وقتلوا منهم جماعة ، والتجأ الباقون إلى ١٠ بعض الحصون الخربة، فأدركهم عسكر حلب فقاتلهم يومين ، وأخذوهم فقتلوا بعضهم ، وحمل الباقي أسرى إلى حلب فقُتِلوا ، وكانوا يزيدون عن ألف وخمسمائة .

الفرنج في أنطاكية

ولما نَزَلَ الفرنجُ ـ لَعَنَهُم اللهُ ـ بأنطاكية جعلوا بينهم وبين البَلَد خَندَقًا لأجل غارات عسكر ١٥ أنطاكية عليهم و كثرة الظَّفر بهم ، ولا يكاد يخرج عسكر أنطاكية

وكان عسكر دمشق وصل إلى ناحية شيزر لانجاد ياغي سيان . فلما نزلت هذه الفرقة المذكورة على البارة نهضوا نحوهم وتطاردوا وقتل منهم جماعة ».

(١) في معجم البلدان لياقوت ١٨٦/٢ : «حارم : بكسر الراء – حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية، وهي الآن من أعمال حلب، وفيها أشجار كثيرة ومياه وهي لذلك وبئة».

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٨٦٩/١ : « تلّ قبّاسين : بفتح القاف وتشديد الباء الموحّدة والسين مكسورة مهملة وياء ساكنة ونون – قرية من قرى العواصم من أعمال حلب».

ويعود إلّا ظافرًا[١].

وجعل يغي سيان النّاس على البُعد والقُرب. وكان حسن التّدبير في سياسة العسكر[٢].

وجمع كربوقا صاحب المَوْصل عسكرًا عظيماً، وقطع به الفرات[٣].

٥ ووصل || دقاق وطغتكين وجناح الدّولة، ووصل سكمان بن أرتق[٤]، [١٢٠ظ] وفارق رضوان وسار مع دقاق.

ووصل وثّاب بن محمود ومعه جماعة مِن العرب ووصلوا تلّ منس وقاتلوها لأنه بلغهم أنهم كاتبوا الفرنج وأطمعوهم في الشّام، وقرّر عليهم دقاق مالًا أخذ بعضَه ورهائن على الباقي، وسيّرهم إلى دمشق.

١٠ وسار دقاق بالعساكر إلى مرج دابق، واجتمع بكربوقا فيه في آخر جُمادى الآخرة، ورحلوا منه نحو أنطاكية.

خيانة الزرّاد

فلما كان ليلة الخميس أوّل ليلة من رجب واطأ رجلٌ يُعرَف بالزّرّاد من أهل أنطاكية[٥] وغلمان له على برج

(١) في ابن القلانسي: «وجعل الافرنج بينهم وبين أنطاكية خندقاً لكثرة الغارات عليهم من عسكر أنطاكية».

(٢) في ابن الأثير ١٨٦/٨: «وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره فهلك أكثر الفرنج موتاً، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الاسلام».

(٣) في ابن الأثير ١٨٦/٨: «لما سمع قوام الدولة كربوقا بحال الفرنج وملكهم أنطاكية جمع العساكر وسار إلى الشام وأقام بمرج دابق».

(٤) في ابن الأثير ١٨٧/٨: «فاجتمع معه دقاق بن تتش وطغتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حمص وارسلان تاش صاحب سنجار وسليمان (!) بن أرتق وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم».

(٥) في ابن الأثير ١٨٦/٨: «فلما طال مقام الفرنج على أنطاكية راسلوا أحد المستحفظين

كانوا يتولّون حفظه؛ وذلك أن يغي سيان كان قد صادَر هذا الزرّاد وأخذ مالَه وغَلَّته، فحمله الحنقُ على أن كاتب بيمند[١] وقال له: «أنا في البُرج الفُلاني، وأنا أُسلِمُ إليكَ أنطاكية إنْ أمَّنتني وأعطَيْتَني كذا وكذا». فبذل له ما طلب[٢]، وكتم أمرَهُ عن باقي الفرنج.

٥ وكان بعسكر الفرنج تسعة قوامِص مقدّمين عليهم كندفري، وأخوه القمص، وبيمند، وابنُ اخته طنكريد وصَنجيل وبَغدوين وغيرهم[٣]. فجمعهم بيمندُ وقالَ لهم: «هذه أنطاكية إنْ فتحناها لِمَنْ تكُونُ؟» فاختلفوا، وكُلٌّ طلبها لنفسه، فقال: «الصَّوابُ أنْ يحاصرها كُلُّ رجلٍ مِنّا جُمعة؛ فمَن فُتِحَتْ في جُمعته فهي له». فرضوا بذلك.

١٠ فلما كانت نوبتُه دلّى لهم الزرّاد – لعَنَه اللهُ – حَبلاً، فطلعوا من السُّور، وتكاثروا، ورفَع بعضُهم بَعْضاً وجاءوا إلى الحرّاس، فقتلوهم[٤]،

للابراج، وهو زرّاد يعرف بروزبه» – وفي ابن القلانسي ١٣٥: «في آخر جمادى الأولى ورد الخبر بأن قوماً من أهل أنطاكية من جملة الأمير ياغي سيان من الزرّادين عملوا على أنطاكية وواطئوا الأفرنج على تسليمها إليهم لاساءة تقدّمت منه في حقهم ومصادرتهم» – ويسميه بعد ذلك: «فيروز، وهو رجل أرمني».

(١) في الأصل المخطوط: «ميمند» – وهو تصحيف صحيحه: «بيمند» – وفي الأعجمية: «Boémond».

(٢) في ابن الأثير: «وبذلوا له مالاً واقطاعاً وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي وهو مبني على شباك في الوادي» – في ابن القلانسي: «ووجدوا الفرصة في برج من ابراج البلد مما يلي الجبل باعوه للافرنج».

(٣) في ابن الأثير ٨/١٨٧: «وكان معهم من الملوك بردويل وصنجيل وكندفري والقمص صاحب الرها وبيمنت صاحب أنطاكية وهو المقدم عليهم» – وسنورد ترجمة المستشرق دهمينار، تقريباً للأسماء الأعجمية ممن يحب الرجوع الى المصادر الغربية:

Leur armée était commandée par neuf comtes, entre autres Godefroi, son frère le comte (Baudouin), Boémond, Tancrède, fils d'une sœur de Boémond, Saint-Giles, Baudouin (du Bourg)

(٤) في ابن الأثير ٨/١٨٦: «فلما تقرر الأمر بينهم وبين هذا الملعون الزراد جاءوا إلى الشباك ففتحوه، ودخلوا منه، وصعد جماعة كثيرة بالحبال».

وتَسلّمه بيمند بن الانبرت[١].

[١٢١ و]

مقتل يغي سيان

وطَلَع الفرنج في سحرة ‖ هذه اللّيلة إلى البلد وصاح الصَّائح من ناحية الجبل ، فتوهَّم يغي سيان أنَّ القلعة قد أخِذَتْ فخرج من البلد في جماعة منهزمين فلم يسلم منهم أحد[٢].

٥ ولمّا حَصَل بالقرب من أرمناز ومعه خادم من غلمانه وقع عن ظهر فرسه ، فحمله الخادم الّذي كان معه ، وأركبه ، فلم يثبت على ظهر الفرس ، وعاد فسقط ، وأدركه الأرمن ؛ فهرب الخادم عنه ، وقَتَله الأرمن وحملوا رأسه إلى الفرنج[٣].

قتلى المسلمين

واستشهد في ذلك اليوم بأنطاكية ما يفوتُ الإحصاء ويجاوزُ العَدَد ، ونُهِبت الأموالُ والآلات والسّلاح ؛

١٠ وسُبي مَنْ كان بأنطاكية . ووَصَل هذا الخبرُ إلى عِمّ وانّب[٤] ، فهَرَب مَنْ كان بها من المسلمين وتسلّمها الأرمن .

---

(١) في الأصل المخطوط عندنا : « ميمند بن الانبرت » – وقد قرأه المستشرق : « بيمند بن الاسكرت » وترجمه : « Boémond, fils de Guiscard » .

(٢) في ابن الأثير : « فلما زادت عدتهم على خمسمائة ضربوا البوق وذلك عند السحر وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة فاستيقظ باغيسيان فسأل عن الحال فقيل إنَّ هذا البوق من القلعة ، ولا شك أنها قد ملكت ، ولم يكن من القلعة، وانما كان من ذلك البرج فدخله الرعب وفتح باب البلد وخرج هارباً في ثلاثين غلاماً على وجهه » – في ابن القلانسي : « فانهزم ياغي سيان ، وخرج في خلق عظيم فلم يسلم منهم شخص » .

(٣) تتفق رواية ابن العديم وما جاء في ابن القلانسي ١٣٥ : « ولما حصل بالقرب من أرمناز – ضيعة بقرب من معرة مصرين – سقط عن فرسه على الأرض ، فحمله بعض أصحابه وأركبه فلم يثبت على ظهر الفرس ، وعاود سقط فمات رحمه الله » – وفي تاريخ العظيمي : « وانهزم صاحبها يغي سغان منها فمات في الطريق من العطش » – وفي ابن الأثير : « واجتاز به انسان أرمني كان يقطع الحطب وهو بآخر رمق فقتله وأخذ رأسه وحمله الى الفرنج بأنطاكية » .

(٤) عِمّ : هو حصن مشهور ، على بعد ٤١ كيلومتراً من بلدة ارتاح – انظر زبـدة

وبلغَ الخبرُ إلى دُقاق وكربوقا ومَن كان معهما، فرحلوا إلى أرتاح، وسار بعضهم إلى جسر الحديد[١] وقتلوا مَنْ كان فيه من الفرنج، وتوجّهوا نحو أنطاكية، فعرفوا أنَّ قلعتها باقية في أيدي المسلمين، فأعلموا العساكر الإسلاميةَ بذلك، فوصلوا إلى أنطاكية سحرة يوم الثلاثاء سادس رجب، فانهزم مَنْ كان بظاهر البلد من الفرنج إليها. ٥

ونزل المسلمون بظاهرها مِمّا يلي الجبلَ، ودخلوا البلد من ناحية القلعة، وقاتلوا الفرنج في جبلِ المدينة، وأشرفَ الفرنجُ على التَّلف فبَنَوا سُوراً على بعض الجبل يَمْنَعُ المسلمين من النزول إليهم، وأقاموا أياماً، وعدم القوت عندهم[٢].

واحتوى كربوقا على كثير ممّا كان في قلعة أنطاكية، وولّى فيها ١٠ أحمدَ بن مروان، وترادفتْ رُسُل الملك رضوان في أثناء ذلك إلى كربوقا، فَتوهَّم || دُقاق من ذلك، وخافَ جناح الدَّوْلة من أصحاب [١٢١ظ] يوسف بن أبق وأخيهِ.

وَجَرَت بين الأتراك والعرب الذين مع وثّاب منافرةٌ عادوا لأجلها، وتَفَرّق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته. ١٥

وتخيّل بعضُ الأمراء مِنْ بعض ثم اجتمع رأيهم على التحوّل إلى

الحلب ١٨٧/١ بالحاشية – وأما إنّب فهي كما يقول أحد مؤرخي الصليبيين الأجانب تقارب « NEPA » – انظر ترجمة المستشرق ٥٨٢/٣ بالحاشية.

(١) جسر الحديد: يقع في الشمال الشرقي من أنطاكية على مسافة نصف يوم سيراً على الأقدام بين أنطاكية وحارم – انظر زبدة الحلب ١٨٧/١ بالحاشية.

(٢) في ابن القلانسي ١٣٦: « فحصروهم حتى عدم القوت عندهم حتى أكلوا الميتة » – وفي ابن الأثير ١٨٧/٨: « ليس لهم ما يأكلونه، وتقوت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر ».

المنازلة في السَّهل بظاهر أنطاكية، فنزلوا باب البحر، وجعَل المسلمون بينهم وبين البلد خندقاً.

وأكل الفرنج بأنطاكية الميتات والدّواب، فخرجوا من أنطاكية يوم الاثنين السَّادس والعشرين من شهر رجب.

٥ فأشار وثّاب بن محمود أن يمنعوا من الخروج، وأشار بعض الأمراء[1] أن لا يمكنوا من الخروج بأجمعهم ويُقتلوا أوّلاً فأوّلاً، فلم يعرّج المسلمون على شيء من ذلك لأنهم أيقنوا بالظَّفر بالفرنج، وخَرجُوا بأجمعهم في خلقٍ عظيم.

وعاثَ التّركمان في العسكر فانهزم، وتوهّمَ الفرنج أن ذلك ١٠ مكيدة[2] فتوقفوا عن تبعهم، فكان ذلك سبباً لسلامة من أراد الله سَلَامَتَهُ؛ ولم يَبقَ غير كربوقا ومعه أكثر عسكره، فأحرق سرادقه وخيامَه وانهزم نحو حلب.

وقُتل من المطوّعة والغِلمان والسُّوقة خلقٌ كثير[3]، ولم يُقتل مذكورٌ، ونُهب من المسلمين من الآلات والخيام والكراع والغَلّات ١٥ ما لا يُحصى؛ ومَن انقطع من العسكر نَهَبَهُ الأرمن.

قلعة أنطاكية

وعَادَ الفرنج إلى قلعة انطاكية، وبها أحمد بن مروان، فراسَلَهُ الفرنج وأمّنوه، ومَن كان معه، وسَلّمها إليهم

(١) في ابن الأثير ٨/١٨٧: «فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج فان أمرهم الآن وهم متفرقون سهل».

(٢) في ابن الأثير: «فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة إذ لم يجر قتال ينهزم من مثله وخافوا أن يتبعوهم».

(٣) في ابن القلانسي ١٣٦: «ووقع السيف في الرجال المتطوعين والمجاهدين والمغالبين في الرغبة في الجهاد وحماية المسلمين».

يومَ الأحد الثاني من شعبان من السنة، وأنزلوهُ في دارٍ بأنطاكية، وأطلقوا || أصحابَهُ وسيَّروا معهم مَنْ يُوصِلهم إلى أعمال حلب، فخرج الأرمنُ فأخذوا بعضَهم وقتلوا بعضَهم، ولم يَسْلَمْ منهم إلّا القليل. [١٢٢ و]

ولمّا وصل كربوقا إلى حلب خرج إليه الملك رضوان، وحمل له خياماً وغيرها، ورحل عنها. وعاد عسكرُ دمشق إليها وتفرّقت العساكر. ٥

وبعد أيام مِن هذه الوَقْعَة خرج جماعةٌ من الفرنج في شعبانَ، وزَحفوا مع أهل تلمنس وجميع نَصارى بلد المعرّة على المعرّة وقاتلوها، فوصلتْ قِطعةٌ من عسكر حلب إليهم، فالتَقَوْا بَيْنَ تل منس والمعرّة، فانهزم الفرنج وبقي الرَّجالةُ منهم، فقُتِلَ منهم زائداً عن ألفِ رجل، وحُمِلَتْ رؤوسهم إلى معرّة النُّعمان. ١٠

ابن الموصول

وفي هذه السَّنة – وهي سنة إحدى وتسعين – في جُمادى الأولى عَزل الملك رضوان وزيره أبا النجم هبة الله بن محمد بن بديع، وولّى وزارته أبا الفضل هبة الله بن عبد القاهر بن الموصول. وكان أبو الفضل حسَن السِّيرة جواداً كثير المعروف والصَّدقات. ووافق ذلك شدة الغلاء والجوع بحلب، حتّى أكلوا الميتات، فأخرج غلّة كثيرة، وتصدّق بها على النّاس. ١٥

وقيل: إنّه كان يخرج في كل سنة صدقة وبِرّاً ثلاثة آلاف مكوك غلّة سوى ما يُطلقه لمن يسأله معونته من الوفودِ والضّيوف، وغير ما يُطلقه من العَيْن والوَرِق وغير ما كان يعتمدُ مِن افتكاك الأسرى من المسلمين.

خبر المجن

وفيها قتل الملكُ رضوان رئيسَ حلب بركات بن فارس الفوعي المعروف بالمجنّ، وكان هذا المجن أوّلاً من جُملة ٢٠

اللّصوص الشُّطّار ‖ وَقُطّاع الطّريق الدُّعّـار فاستتابه قسيمُ الدّولة [١٢٢ظ]
أق سنقر ، وولّاه رئاسة حلب لشهامته و كفايته ومعرفته بالمفسدين ،
وكان في حال اللّصوصية يُصَلّي العشاء الآخرة بالفُوعة[1] ، ويَسري
إلى حلبَ ويسرق منها شيئاً ويخرج ، وَيُصَلّي الفجرَ بالفُوعة فاذا اتهم
٥ بالسّرقة أحضر مَنْ يَشهَدُ له أنّه صَلّى العِشاء بالفُوعة والصُبح فيبرئونه .

واستمرّ على رئاسة حلب في أيام قَسِيم الدّولة وأيام تاج الدّولة
وبعده في أيام رضوان ، وامتدّتْ يَدُه وحكم على القُضاة والوزراء
ومَنْ دُونَهم ، وهو الّذي قتل الوزير أبا نصر بن النّحاس في أيام قَسِيم
الدّولة .

١٠ وبلغني أنه حنق عليه بسَبَبِ حُضرٍ أراد شراءها فاشتراها المجنّ ،
فشقّ على أبي نصرٍ ، فَسَيّرها المجنّ إليه ، فردّها عليه أبو نصر ، وتكلّم
في حقّه بكلامٍ قبيحٍ فحنق بسببها على ابن النّحاس ، فاعتقله بعد
ذَلك عندَه وخَنَقَهُ .

وكانَ كثيرَ السِّعاية في قَتْل النُّفوسِ وسَفْكِ الدِماء وَأخذ الأموال
١٥ وارتكاب الظُّلم ، فمَضَى عَلى الملك رضوان ، ثم ضعف واختفى بعد أن
حصر رضوان في قلعة حلب في سنة تسعين وأربعمائة .

قتل المجن

فأمر رضوان منادياً نادى بالقلعة بأن الملك قد ولّى
رئاسة حلب صاعد بن بَديع فانقلب الأحداث عنـه

[1] في معجم البلدان ٩٣٣/٣ : « وهي قرية كبيرة من نواحي حلب واليها ينسب دير الفوعة » – وفي تقويم البلـدان لأبي الفداء ٢٣١ : « وهي وسرمين ومعرة مصرين في بقعة واحدة من أعمال حلب في جهة الجنوب على مرحلة منها » .

لبغضهم إيّاه ، ومضَوا إلى صاعِدٍ فاختفى المجنّ ، ثم ظهر عليه فعجل الله المكافأة له على قبيح فعله .

وسلّط عليهِ الملك رضوان فسَجَنه في ذي القعدة من سنة تسعين وعذّبه ‖ عذاباً شديدًا بأنواعٍ شتّى ، وأراد بذلك أن يستصفيَ ماله . [١٢٣ و]
فمّا عذّبه به أنه أحمى الطسْتَ حتّى صار كالنّار ، ووضعه على رأسه ، ٥
ونَفَخ في دُبره بكير الحدّاد ، وثُقبت كعابه ، وضَرب فيها الرُّزز والحلَق .

ولمّا وضع النّجار المثقّب على كعبه قطَع الجلد واللّحم ولم يَدُر المِثقب ، فلطَمه المجنُّ وقال : « ويلَك لا تعرف ! أحضر خشبةً وضَعْها علِى الكعب » . فأحضَر خشبةً ووضعَها على كعبه ، فدار المثقبُ ونزل ١٠
ونَزَل ، وثقب الكعب .

فلما فرغ قِيل له : « كيفَ تَجد طعمَ الْحديد ؟ » فقال : « قُولوا للحديد كيف يَجِدُ طَعْمي » . ولم يُقرّ المجنّ مع هذا كلّه بدرهمٍ واحدٍ ، ولم يحصل للملك رضوان من ماله إلّا ما أقرّ به غلامٌ أوْ جارية ؛ وذلك شيء يسير . واستغنى جماعة من أهل حلب من ماله . ١٥

ولما طال الأمر على رضوان أشِير عليه بقتْله ، فأخرج إلى ظاهر باب الفرج من نحو الشّرق ، ومعه ابنان له شابان مقتبلا الشباب ، فقُتِلا قبله [1] ؛ وهو ينظر إليهما ولا يتكلّم .

---

(١) ينفرد ابن العديم بتفصيل حكاية المجن الفوعي – وفي ابن القلانسي ١٣٥ : «سنة ٤٩٠ هـ – وفي هذه السنة وردت الأخبار من ناحية حلب بفساد حال رئيسها والمعروف بالمجن لما كان عليه من التمكن والغلبة على الأمر وارتكاب الظلم بحيث قُبض عليه ونهبت داره ، وقتل مع من قتل من أولاده ، واستؤصلت شأفته . وذلك مجازاة الساعي في قتـل النفوس

ثم قُتل بعد ذلك في سنة إحدى وتسعين. وسلِّمت رئاسة حلب إلى صاعد بن بديع. ولما قُدم المجنَ للقَتْل صاحَ بصَوتٍ عالٍ: «يا معْشَر أهل حلب، مَنْ كان لي عنده مالٌ، فهُوَ في حِلٍّ منه».

وكان ابنُ بديع من أولاد الدَّيلَم الَّذين كانوا في أيام سَيف الدَّولة، وولد أبوه بحلب. ٥

هروب صنجيل

وفي سنة إحدى وتسعين وأربعمائة عَصَى عُمر والي عَزاز على الملك رضوان فخَرَج عسكر حلب وحَصَره، فاستنجد بالفرنج، فوصل صَنجيل بعسكرٍ كبيرٍ، فعادَ عَسكَرُ ‖ حلب فنهب صنجيل ما قَدر عليه وعَاد إلى أنطاكية، وأخذ ابنَ عُمَرَ [١٢٣ظ] رهينةً، فمات عنده؛ فوقع الملك رضوان على عُمر إلى أن أَخَذَه من ١٠ تلّ هرَاق[1] فسلَّم إليه عزاز وأقام عنده بحلب مدَّةً، ثم قتله.

وخرج صنجيل في ذي الحجَّة، وحصر البارة فقلّ الماء فأخذها بالأمان، وغَدَر بأهلها، وعاقب الرِّجال والنِّساء، واستصفى أموالهم وسبَى بعضاً وقتل بعضاً، ثم خرج بقيَّة الفرنج من أنطاكية والأرمن الَّذين في طاعتهم والنَّصارى، وانضموا إليه، ووصلوا إلى معرَّة النُّعمان ١٥ لليلتين بقيتا من ذي الحجة في مائة ألف.

وسفك الدماء.» – ويحسن أن نوازنها بما جاء في بغية الطلب عن العظيمي ٩٣/٨ و، في أثناء ترجمته لرضوان بن تتش قال: «أنبأنا المؤيد بن محمد بن عليّ الطوسي عن أبي عبدالله محمد ابن عليّ العظيمي قال: وفيها يعني سنة تسعين وأربعمائة عصى المجن الموفّق على الملك رضوان وتعصّب معه الحلبيون ثم تخاذلوا عنه، واختفى فقبض عليه الملك رضوان وعلى ذويه وبنيه واستصفى أمواله في ذي القعدة وعذّبهم بأنواع العذاب ثم قتله بعد ذلك وقتلهم حوله».

(١) في معجم البلدان لياقوت ٨٧٢/١: «تلّ هرَاق – من حصون حلب الغربية».

معرة النعمان

وحصروا معرّة النُّعمان في سنة اثنتين وتسعين، وقطعوا الأشجار، واستغاث أهلها بالملك رضوان وجناح الدولة فلم ينجدهم أحد.

وعمل الفرنج بُرجاً من خشبٍ يحكم على السّور وزحفوا إلى البلد، وقاتلوه من جميع نواحيه حتى لصق البُرج بالسّور فكشفوه وأسندوا السّلالم إلى السّور وثبتَ النّاسُ في الحرب من الفجر إلى صلاة المغرب، وقُتِل على السُّور وتحته خلقٌ كثير، ودخلوا البلد بعد المغرب ليلة الأحد الرّابع والعشرين من محرّم سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة[1].

٥

ودخل عسكر الفرنج جميعُه إلى البلد، وانهزم بعضُ الناس إلى دورٍ حصينةٍ، وطلبوا الأمان من الفرنج فأمّنوهم، وقَطَعوا على كل دار قطيعة[2]، واقتسموا الدُّورَ، وهجموها وناموا فيها، وجعلوا يهدّئون النّاس حتّى أصبح الصبحُ، فاخترطوا سيوفَهم، ومالوا على النّاس، وقتلُوا منهم خلقاً، وسبوا النّساء والصّبيان.

١٠

وقُتل فيها أكثر من عشرين ألف رجل وامرأةٍ وصبي[3]، ولم

---

(١) في ابن القلانسي ١٣٦ : « في المحرم منها زحف الافرنج الى سور معرة النعمان من الناحية الشرقية والشمالية، وأسندوا البرج إلى سورها وهو أعلى منه فكشفوا المسلمين عن السور. ولم يزل الحرب عليه إلى وقت المغرب من اليوم الرابع عشر من محرّم، وصعدوا السور، وانكشف أهل البلد عنه ». – انظر رواية ابن الأثير ٨/١٨٧

(٢) في ابن القلانسي : « وانهزم الناس إلى دور المعرّة للاحتماء بها، فأمنهم الافرنج وغدروا بهم، ورفعوا الصلبان فوق البلد، وقطعوا على أهل البلد القطائع ولم يفوا بشيء مما قرروه، ونهبوا ما وجدوه، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به ».

(٣) في ابن الأثير ٨/١٨٧ : « فقتلوا ما يزيد على مائة ألف، وسبوا السبي الكثير وملكوه، وأقاموا أربعين يوماً ».

يسلم || إلّا القليل مِمّن كان في شَيْزَر وغيرها من بني سُليمان وبني أبي [١٢٤ و]
حُصين وغيرهم ، وقتلوا تحت العُقوبة جمعاً كثيراً ، فاستخرجوا ذخائرَ
النّاس ، ومنعوا النّاس مِن الماء ، وباعوه مِنهم فهلك أكثر النّاس مِن
العطَش ، وملكوها ثلاثةً وثلاثين يوماً بعد الهجمةِ ، ولم يُبقوا ذخيرةً
٥ بها إلّا استخرجُوها .

وهدَمُوا سورَ البَلَد وأحرقوا مساجدَه ودُورَه وكسروا المَنابِرَ .

وعاد بيمند إلى أنطاكية وقمص الرّها إليها . وفي هذه السّنة فَتحوا
بيتَ المقدس وفعلوا فيها كما فعلوا بالمعرّة[1] .

نهاية مبارك

وفي سنة ثلاث وتسعين ، وَصَل مُبارك بن شبل
١٠ أمير بَني كلاب في جمع كثير مِن العرب فحالف
الملك رضوان ، وَرَعوا زرع المعرّة ، وكفرطاب ، وحماة ، وشيزر ،
والجسر ، وغيرَ ذلك .

وخَلَتِ البلادُ ، ووقع الغَلاء في بلد حلب ، ولم يزرع شيء في
بلدها ، وسلّط الله الوباء على العَرب ، فماتَ شبلٌ ومُبارك ولده ؛
١٥ واضمحلت دولة العرب .

حصار حلب

وتوجّه الملك رضوان في سَلخ رجب من هذه السّنة إلى
الأثارب وأقام عليها أيّاماً ، وتوجّه إلى « كلّا »[2] في

(١) في ابن القلانسي ١٣٦ : « ثم قصدوا بعد ذلك ناحية بيت المقدس آخر رجب من السنة ، وأجفل الناس منهم من أماكنهم ، ونزلوا أولاً على الرملة فملكوها عند ادراك الغلة ، وانتقلوا إلى بيت المقدس فقاتلوا أهله وضيقوا عليهم ونصبوا عليه البرج واسندوا إلى السور » – انظر تفصيل الخبر في ابن الأثير ٨/١٨٩

(٢) كلّا – لم نقع على تحديد لموقعها .

الخامس والعشرين من شعبان لإخراج الفرنج منها ، فاجتمع من كان في الجزر[١] وزردنا[٢] وسرمين من الفرنج والتقوا ، فانهزم رضوان[٣] ، واستبيح عسكره ، وقتل خلق كثير وأسر قريب من خمسمائة نفس وفيهم بعض الأمراء .

وعاد الفرنج إلى الجزر وأخذوا برج كفرطاب[٤] وبرج الحاضر ، وصار لهم من كفرطاب إلى الحاضر ، ومن حلب غرباً سوى تل منس فإنّ أصحاب جناح الدولة كانوا بها . ٥

[١٢٤ظ] وسار رضوان عقيب هذه النكبة إلى ‖ حمص مستنجداً بجناح الدولة فأجابه ، وعاد إلى حلب ومعه جناح الدولة ، وقد عاد الفرنج إلى أنطاكية ، فأقام جناح الدولة بظاهر حلب أياماً ، فلم يلتفت إليه رضوان فعاد عنه إلى حمص . ١٠

وتجمع الفرنج بالجزر وسرمين وأعمال حلب وجمعوا العدد والغلال لحصار حلب ، وعولوا على حصارها في سنة خمس وتسعين ، وقيل قبلها .

ووصل بيمند وطنكريد إلى قرب حلب فنزلوا المشرفة — من الجانب القبلي على نهر قويق — لما بلغهم من ضعف رضوان وتمزيق عسكره ، وعزموا أن يبنوا مشهد الجف ، ومشهد الدكة ، ومشهد قرنبيا حصوناً ، وأن يقيموا على حلب ويستغلوا بلدها . ١٥

(١) الجزر — كورة من كور حلب — انظر معجم البلدان لياقوت ٧١/٢

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٩٢٦/٢ : « زَرْدنا — بليدة من نواحي حلب الغربية » .

(٣) في تاريخ العظيمي ١٩١ و : « كسرت الفرنج الملك رضوان على كلّا في شعبان » .

(٤) في الأصل : « كفر حلب » ، وهي مصحفة عن « كفرطاب » كما يدل السياق على ذلك .

فأقاموا في تَدبير ذَلك يوماً أو يَومَين فبلغه خروج أنوشتكين الدَّانشمند، وأنه قد نازل بَعضَ معاقل الفرنج، وهي ملطية[1] فعادوا للدَّفع عنها.

خيبة الفرنج

فخرج الدَّانشمند فلقي بيمند وجَمعاً من الفرنج بأرض مَرعش[2] فأسره، وقتل عسكره، ولم يُفلت منهم أحدٌ، ٥ فخيَّب الله ظَنَّ الفرنج، وهربوا من أعمال حلب، وتركوا جميع ما كانوا أعدّوه، فخرج رضوان وأخذ الغلال التي جمعوها، ونزل سرمين.

وسار جناح الدَّولة إلى أسفونا وبه جماعةٌ من الفرنج فهجمه وقَتَل جميع مَنْ فيه، وسار إلى سَرمين فكبس عسكر الملك رضوان ونهبه؛ ١٠ وانهزم رضوان وأكثر عسكره وأسر الوزير أبا الفضل بْنَ الموصول وجماعةً وحملهم إلى حمص.

الباطنية

وطلب الحكيم المنجِّم الباطنيَّ فلم يظفر به، وكان هذا الحكيم قد أفسد ما بَينَهُ وَبين رضوان || [١٢٥ و] واستمال رضوان إلى الباطنية جدًّا، وظهر مذهبهم[3] في حلب، وشايعهم رضوان وحفظ جانِبَهم، ١٥ وصار لهم بحلب الجاهُ العظيم والقُدرة الزَّائدة، وصارت لهم دارُ الدَّعوة بحلب في أيامه، وكاتَبه المُلوكُ في أمرهم، فلم يلتفتْ ولم يرجع عنهم؛ فوصل هذا الحكيمُ حلبَ سالماً في جملة من سَلم في هذه الوَقعَة.

(١) ملطية – تقع غربي الفرات، على سبعة أيام من الشمال الشرقي لحلب – انظر معجم البلدان لياقوت ٤/٦٣٣ وهي بالأعجمية: «Mélitène».

(٢) مرعش: مدينة بالثغور بين الشام والبلاد الرومية – انظر ابن الشحنة ١٩١ وما يرويه من تفصيل عن بنائها.

(٣) انظر في تفصيل أخبار الباطنية ابن الأثير ٨ / ٢٠٠–٢٠٦

واستغلَّ جناحُ الدَّولة سرمينَ ومعرَّة النُّعمان وكفرطاب وحماة، وفدى الوزير ابن الموصول نفسَهُ مِنْ جناح الدَّولة بأربعة آلاف دينار، وفدى أصحاب الملك نُفوسَهم أيضاً بمالٍ حملوهُ إليه.

ولم يبقَ في أيدي المُسلمين في سنة خمس وتسعين إلَّا حصن بَسَرْفُوث[١] — من عمل بني عليم —.

وتسلَّم دُقاق الرَّحبة في سنة ستَّ وتسعين وأربعمائة، وكان المُقيم بها زوج آمنة بنت قياز[٢]، وكان قياز من أصحاب كربوقا فمات، وكانت الرَّحبة له. وكان جناح الدَّولة قد خرج إليها فوجد الأمر قد فات، فعاد ونزل النَّقرة وخرج إليه رضوان إلى النَّقرة واصطلحا، وأخذه معه إلى ظاهر حلب، وضرب له خياماً، وأقام في ضيافته عشرة أيام، ولم يصفُ قلب أحدٍ منهما لصاحبه.

مقتل جناح الدولة

وسار جناح الدَّولة إلى حمص فسيَّر الحكيم المنجِّم الباطنيّ ثلاثة أعجام من البَاطِنِيَّة فاغتالوه، وقد نزل[٢] يوم الجمعة الثَّاني والعشرين من شهر رجب، لصلاة الجمعة فقتلوه، وقتلوا بعضَ أصحابه وقُتلوا. وقيل: إنَّ ذلك كان بأمر رضوان ورضاه.

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٦٢١/١: «بَسَرْفُوث: حصن من أعمال حلب في جبال بني عُليم، له ذكر في فتوح الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وقد خرب. وهو الآن قرية؛ وهو بالتحريك وسكون الراء وضم الفاء وسكون الواو والثاء المثلثة».

(٢) قاياز من مماليك ألب أرسلان – انظر ابن الأثير ٢١٨/٨

(٣) في ابن القلانسي ١٤٣: «نزل من القلعة إلى الجامع لصلاة الجمعة وحوله خواص أصحابه بالسلاح التام، فلما حصل بموضع مصلّاه على رسمه، وثب عليه ثلاثة نفر عجم من الباطنية ومعهم شيخ يدعون له ويسمعونه في زيّ الزهاد، فوعدهم فضربوه بسكاكينهم وقتلوه، وقتلوا معه جماعة من أصحابه، وكان في الجامع عشرة نفر من متصوفة العجم وغيرهم فاتهموا، وقتلوا جبرًا مظلومين في الوقت عن آخرهم».

وبقي المنجِّم الباطنيّ بعده أربعة وعشرين يوماً[١] ومات . وقام بَعْدَهُ بأمرِ الدَّعوة || الباطنيَّة بحلب رفيقه أبو طاهر الصَّائغ العجميّ .   [١٢٥ظ]

ووَصل صنجيل الفرنجي وتَرَك حمص بَعْد قتل جناح الدَّولـة بثلاثة أيام[٢] ، فَسيَّرت زَوجتُه خاتون أمّ الملك رضوان تستدعيه لتسلّم إليه حمص ويدفع الفرنج ، فَكَرِهَ المقدَّمون ذَلك ، وخافوا منه لسُوء رأيه فيهم ، وسيَّروا إلى بَوّاب دُقاق إلى دمشق ، وكان دُقاق بالرَّحبة فسار أيتكين الحلبي من دمشق ودخلها وطلع القَلعة .

ووصل رضوان إلى القُبَّة فبلغه الخَبَر وعاد ورَحل صنجيل عَنها بعد أن قرَّر عليهم مالًا ، ووصل دُقاق فتسلّم حمص وأحسَن إلى أهلها وَنَقل أهل جناح الدَّولة وأولاده إلى دمشق ، وسلم حمص إلى طغتكين .

دخول حلب

وسارَ والي عَزاز وأغار على الجُومة[٣] ـ وهي من عَمل أنطاكية ـ فخرج عسكر أنطاكية وعسكر الرُّها فنزلوا المسلميّة[٤] ، وقتلوا بعضَ أهلها ، وقطعوا على عدّة مواضع قطائع أخذوها ، وأقامُوا ببلَد حلب أياماً ، وراسلوا الملكَ رضوان .

(١) في ابن القلانسي ١٤٢ : « وهو الذي ندب الثلاثة النفر لقتل جناح الدولة بحمص، وورد الخبر بهلاكه بعد الحادثة بأربعة عشر يوماً » .

(٢) في ابن القلانسي ١٤٢ : « ووافق ذلك وصول الافرنج إليها ، ونزولهم على الرستن لمضايقتها ومنازلتها ، فحين عرفوا ذلك أحجموا عن القرب إليها والدنوّ منها ورحلوا عنها » .

(٣) الجومة - بالضم - من نواحي حلب بالقرب من العمق - انظر معجم البلدان ٢/١٥٩ ، وارجع الى دوسو ٢٢٣ ، وكانار ٦٢ حيث يُحدد أنها في منطقة نهر عفرين أحد فروع نهر العاصي وهي تمتد حتى سهل العمق من الشمال الغربي لأنطاكية .

(٤) قرية على طريق حلب تبعد عنها أحد عشر كيلومتراً .

واستقرّ الحال على سَبعةِ آلاف دينارٍ وعشرة رُؤوسٍ من الخَيل ، ويُطلقون الأسرى ما خلا مَنْ أسَرُوه على المسلمية من الأمراء، وذلك في سنة ستّ وتسعين .

ثم خرج الفرنج من تلّ باشِر[1] ، وأغاروا على بلد حلب الشمالي والشّرقي ، وأحرقوه ، وتكرّر ذلك منهم ، ونزلوا على حصن بَسَرْفُوث ، وفتحوه بالأمان ، ووصلوا إلى كفرلاثا[2] ، فكبسهم بنو عُلَيم فانهزموا إلى بَسَرْفُوث .

ووقع بين الفرنج وبين سكمان وجكرمش[3] وقعة [١٢٦ و] عظيمة استظهر فيها المسلمون ، وهلك الفرنج ، وأسر القُمص ، وغنم المسلمون غنيمةً عظيمةً .

نصر رضوان

وكان الملكُ رضوان قد سار إلى الفُرات ينتظر ما يكون من خبر الفرنج ، فلما وصله الخبر أنفذ الى الجزر وغيره من أعمال حلب التي في أيدي الفرنج ، فأمرهم بالقبض على مَن عندهم من الفرنج ، فوثب أهل الفُوعة[4] وسَرْمين ، ومعرّة مصرين وغيرها ، ففعلوا ذلك .

(١) في معجم البلدان لياقوت ١/ ٨٦٤ : « تلّ باشِر – الشين معجمة – قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينها وبين حلب يومان ، وأهلها نصارى أرمن ، ولها ربض وأسواق ، وهي عامرة آهلة . »

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٤/ ٢٩١ : « كَفَرْلاثا – بالثاء المثلثة والقصر : بلدة ذات جامع ومنبر في سفح جبل عاملة من نواحي حلب بينها يوم واحد وهي ذات بساتين ومياه جارية نزهة طيبة وأهلها اسماعيلية »– وهي في جبل أريحا ما تزال قريتها قائمة إلى اليوم وكانت مدينة حصينة .

(٣) هو شمس الدولة جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر – انظر ابن الأثير ٨/ ٢١٠ ؛ وأما سكمان فهو معين الدولة بن أرتق .

(٤) الفوعة : قرية كبيرة من نواحي حلب واليها ينسب دير الفوعة – انظر معجم

وطلب بَعض الفرنج الأمان مِنْ رضوان فأمّنهم من القتل، وحملهم أسرى، ولَمْ يبقَ بأيدي الفرنج غير الجبل و«هَاب»[(١)]، وحُصون المعرّة، وكفرطاب، وَصوران[(٢)].

فوصل شمسُ الخَواصّ وفتح صورَان، فهرب مَن كان بلَطْمِين وكفرطَاب وبلد المعرّة والبارة إلى أنطاكية، وسلّموها إلى رضوان وأصحابه ما خلَا «هَاب».

واسترجَع رضوان بالسَ والفايا ممّن كان بها مِن أصحاب جناح الدَولة وَجَرَى بحماة خُلفٌ، وخافوا من شمس الخَواص، فكاتبُوا رضوَان، وسَلّموها إليه وسَلمية، فأمنتْ أعمالُ حلب وتَراجعَ أهلُها إليها وَقَوِيَ جأشُ رضوان.

واتّصلتْ غارات عسكر حَلَب إلى بلد أنطاكية، وَعَرف بيمند[(٣)] ضعفَه عن حفظ البلد، وانّه لَم يُفلِتْ مِنْ وقعة سكمان إلّا في نفر قليل، وخاف من المسلمين[(٤)] فصَار إلى بلادِهِ في البحر يستنجد بمن يخرج بهم إلى البلاد، واستخلفَ ابنَ أختـه[(٥)] طنكريد يُدبّر أمرَ أنطاكية والرّها.

البلدان لياقوت ٣/ ٩٢٣؛ وذكرها أبو الفداء في تقويم البلدان ٢٣١: «وهي وسرمين ومعرة مصرين في بقعة واحدة من أعمال حلب في جهة الجنوب على مرحلة منها، ولهذه البقعة الأشجار الكثيرة من الزيتون والتين وغير ذلك».

(١) في معجم البلدان لياقوت ٤/ ٩٤٥: «هاب: قلعة عظيمة من العواصم».

(٢) صَورَان – ذكرها ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٤٣٣، وضبطها بالفتح ثم بالتشديد وقال إنّها علم مرتجل فوصفها مرة في كورة حمص وقال انها جبل وقال مرة أخرى إنها قرب دابق.

(٣) في الأصل: «ميمند» وهو بيمند – انظر الصفحات السابقة Boémond.

(٤) انظر خبر هذه المعركة في ابن الأثير ٨/ ٢٢٢

(٥) في الأصل: «ابن أخيه» – وصحيحها: «ابن أخته».

موت دقاق

وَمَاتَ الملكُ دُقاق سَنة سَبْع وتسعين في رَمضان، وأوصى بالملك لولدٍ له صغير[١] اسمه تُتُش، وجعل التدبير إلى أتابك ‖ طغتكين، فتوجّه الملكُ رضوان نحوَ دمشق، وَحَاصرها، وقرّر له الخُطبَة والسكّة، فلم تستتبّ أموره وعاد إلى حلب.

[١٢٦ظ]

حرب الفرنج والمسلمين

ثم إنّه خرج في شهر رجب من سنة ثمان وتسعين، وجمع خَلقًا كثيرًا، وعزم على قَصْد طرابلس مَعُونةً لفخر المُلك بن عمّار على الفرنج النّازلينَ عليه. ٥

وكان الأرمن الّذين في حصن أرتاح قد سَلّموه إلى الملك رضوان لجوْرِ الأفرنج[٢]، فخرج طنكريد من أنطاكية لاستعادة أرتاح، وَخَرَج جميعُ مَنْ في أعماله من الفرنج مَعَه، ونزل عليها، فتوجّه نحوه رضوان في عساكره وجموعه وجميع من أمكنه من عمل حلب والأحداث. ١٠

فَلَمَّا تَقاربا نشبَتِ الحربُ بَيْنَ الفَريقين فثبت راجلُ المُسلمين وانهزمتِ الخَيل، ووقعَ القَتْل في الرجالةِ فلم يسلم منهم إلّا من كتب

(١) في ابن الأثير ٨ / ٢٢٢: «في هذه السنة في شهر رمضان، توفي الملك دقاق بن تتش ابن ألب أرسلان صاحب دمشق، وخطب أتابكُ طغتكين لولد له صغير له سنة واحدة وجعل اسم المملكة فيه» – وفي مرآة الزمان ٨ / ١١: «وتوفي اليوم الثاني والعشرين من رمضان، ودفن على الشرف الشمالي بدمشق بالخانكاه التي يقال لها قبة الطواويس» – وفي ابن القلانسي ١١٤: «وتوفي إلى رحمة الله في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان من السنة».

(٢) في ابن القلانسي ١٤٨، ما يقرب من هذا اللفظ نثبت نصّه هنا للموازنة بينهما: «وفي رجب خرج فخر الملوك رضوان صاحب حلب وجمع خلقاً كثيرًا وعزم على قصد طرابلس لمعونة فخر الملك ابن عمّار على الافرنج النازلين عليه، وكان الأرمن الذين في حصن أرتاح قد سلموا إليه الحصن لما شملهم من جور الافرنج وترايد ظلمهم ...» وهكذا نجد أن ابن العديم قد أخذ من ابن القلانسي أو أنهما استقيا من مصدر واحد؛ فهما يتفقان في هذا الخبر كله حتى نهايته.

الله سلامته ، ووصل الفَلُّ إلى حلب ، وقتلَ من المسلمين مقدار ثلاثة آلاف ما بين فارس وراجل ، وهرب من بأرتاح من المسلمين[١] .

وقصد الفرنج بلد حلب فأجفل أهله ، ونهب من نهب وسبي من سبي ، وذلك في الثالث من شعبان .

٥ واضطربت أحوال بلد حلب من لَيْلُون إلى شَيْزر[٢] ، وتبدّل الخوف بَعْد الأمنِ والسّكون ، وهَرَبَ أهلُ الجزر ولَيْلون إلى حلب ، فأدركهم خيلُ الفرنج فسبوا أكثرهم ، وقتلوا جماعة .

وكانتْ هذه النَّكبَةُ على أعمال حلب أعظمَ من النَّكبَةِ الأولى على كلًّا .

١٠ ونَزَل طنكريد على تلّ اغدي – مِنْ عمل لَيْلُون – وأخذه وأَخَذَ بقيّة الحصون الّتي في عمل حلب .

[١٢٧ و] ‖ ولم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية إلّا حماة ومِن الغربيّة إلّا الأثارب ، والشَّرقية والشّالية في يده ، وهي غير آمنة .

الصائغ الباطني

وسيّر أبو طاهر الصّائغ الباطني[٣] جماعةً من الباطنيّة

١٥ من أهل سَرمين إلى خَلَف بْنِ مُلَاعِب بتدبير رجلٍ يُعرف بأبي الفتح السَّرميني[٤] ، من دعاة الاسماعيلية ، فقتلوه

---

(١) في ابن القلانسي ، بالصفحة نفسها : « وأحصي المفقود من الخيل والرجل فكان تقدير ثلاثة آلاف نفس » .

(٢) في ابن القلانسي : « واضطربت أحوال من بالشام بعد الأمن والسكون » .

(٣) في ابن القلانسي ١٤٩ : « المعروف بأبي طاهر الصائغ العجمي من حلب ، وهو الذي قام للباطنية مقام الحكيم المنجّم الباطنيّ بعد هلاكه » .

(٤) في ابن القلانسي ، بالصفحة نفسها : « بموافقة رجل من دعاتهم يعرف بأبي الفتح السرميني كان مقيماً بأفامية » .

ووافقهم جماعة من أهل أفامية، ونقبوا سورَ الحصن، ودخلوا منه، وطَلَع بعضهم إلى القلّة فأحسَّ بهم، فَخَرجَ فَطَعَنَهُ أحدهُم بخشت[١] فَرَمى بِنَفسِهِ، فطِعنَ أُخرى فَمات، ونادَوْا بِشِعار الملك رضوان.

ووصل أبو طاهر الصَّائغ إلى الحصن عقيب ذلك وأقام به، وسار طنكريد[٢] إلى أفامية، فقطع عليها مالًا أخذه، وعاد فوصله مصبح ابن خَلَف بن ملاعب وبعض أصحابه، فأطمعوه في أفامية، فعاد وَنَزَلها، وحاصرها فتسلّمها في الثَّالث عشر مِنْ مُحرّم من سنة خمسمائة بالأمان[٣].

وقَتَل أبا الفتح السَّرميني بالعقوبة، ولَمْ يَفِ لأبي طاهر الصَّائغ بالأمان، وحمله معه أسيرًا فاشترى نفسه بمال، ودخل حلب[٤].

وفي سَنَةِ إحدى وخمسمائة، عصى ختلع[٥] بقلعةِ عَزاز، واستقرَّ

(١) في المصدر السابق: « فوثب اليه بعضهم فطعنه في جوفه فرمى بنفسه في القلّة يريد بعض دور أهله فطعنه آخر طعنة ثانية فعاش ساعة ومات، وصاح الصائغ على القلّة، ونادوا بشعار الملك رضوان ».

(٢) في المصدر عينه: « ووصل طنكري إلى أفامية عقيب هذه الكائنة طامعًا فيها ومعه أخ كان لأبي الفتح الداعي السرميني كان مأسورًا في يده فقرر له شيئًا دفعه إليه فرحل عنه » — انظر تفصيل الخبر في ابن الصائغ عند ابن الأثير ٨ / ٢٣٦

(٣) في ابن القلانسي: « فنهض اليها ونزل عليها وضايقها إلى أن تسلّمها بالأمان في الثالث عشر من المحرم سنة ٥٠٠ ».

(٤) في المصدر نفسه: « فلما حصل أبو الفتح السرميني الباطني في يده قتله بالعقوبة، وحمل أبا طاهر الصائغ معه وأصحابه أسرى، ولم يف لهم بما بذل من الأمان وكان القوت قد نفد من أفامية ولم تزل الأسرى في يده إلى أن فدوا نفوسهم بمال بذلوه لهم فأطلقهم ووصلوا إلى حلب ».

(٥) في الأصل: « ختلع » ومعناها في اللغة التركية السّعيد، ولعلّها « خطلغ » فليس في التركية إلّا « قطلغ » وهي قريبة مما رسمناه.

أن يُسلِّمها إلى طنكريد، ويعوِّضهُ عنها موضعاً غيرها، فسار رضوان إليها فتسلم عَزاز منهُ.

وَبَلَغَ رضوان، في سنة إحدى وخمسمائة، ما ذُكر بِهِ من مشايعة الباطنيَّة، وأنه لُعِن بذلك في مجلس السُّلطان مُحمَّد بنِ ملكشاه، فأمر أبا الغَنائم ابن أخي أبي الفتح الباطنيّ الّذي || عَمِل في قتلِ ابن ملّاعب ما دبّر الخروج من حلب فيمن معه، فانسلّ وخرج بجماعة من أصحابه بعد أن قُتل أفرادٌ منهم. [١٢٧ظ]

وفي سنة إحدى – وقيل: اثنتين – وخمسمائة اجتمع جَاولي سقّاوه[١] وجوسلين الفرنجي، على حرب طنكريد صاحب أنطاكية؛ واستنجد طنكريد بالملك رضوان، فأمدّه بعسكر حلب[٢] والتقوا، فقُتِلَ من الفرنج جماعَة.

وَوَصل إلى جَاولي مَنْ أخبره أنّ الفرنج يريدون الاجتماع عليه فمال على أصحابه من الفرنج وقتل فيهم، وهرب[٣] بعد أن قتلهم عن آخرهم وهلك جميع رجّالة طنكريد وأكثر خيله.

موت بيمند

وعاد إلى أنطاكية وعاد عسكر حلب إلى رضوان، فتسلّم بالس من أصحاب جاوَلي، وخرج بيمند من بلاده ومعه

(١) ابن الأثير يرسمه: «جاولي سقاوو»

(٢) في ابن الأثير ٨ / ٢٥٥: «فأرسل إليه رضوان ستمائة فارس».

(٣) في ابن الأثير، بالصفحة نفسها: «وحملت ميسرة جاولي على رجالة صاحب أنطاكية فقتلت منهم خلقاً كثيراً، ولم يبق غير هزيمة صاحب أنطاكية فحينئذ عمد أصحاب جاولي إلى جنائب القمص وجوسلين وغيرهما من الفرنج فركبوها وانهزموا، فمضى جاولي وراءهم فلم يرجعوا، وكانت طاعته قد زالت عنهم حين أخذت الموصل منه، فلما رأى أنهم لا يعودون معه أهمه نفسه وخاف من المقام فانهزم وانهزم باقي عسكره».

خلقٌ عظيمٌ، ثُمَّ عاد وتُوفِّي سنة أربع وخمسمائة، وكُفي المُسلمون شَرَّه.

وفي سنة ثلاث وخمسمائة، كاتب السُّلطانُ الأميرَ سكمان القطبي[١] صاحب أرمينية ومودود صاحب الموصل، يأمرهما بالمسير إلى جهاد الفرنج، فجمعا وسارا، ووصل إليهما نجمُ الدِّين إيلغازي بن ٥ أرتق في خلق كثيرٍ من التركمان، فرحلوا إلى الرّها فنزلوا عليها[٢] وأحدقوا بها في شوّال من هذه السَّنة.

فاتّفق الفرنج كلّهم، وأزالوا ما كان بينهم من الشَّحناء، وكان المسلمون في جمعٍ عظيمٍ، فتصافى طنكريد وبغدوين وابن صنجيل بعد النّفار[٣]، وقصدوا إنجادَ مَنْ بها مِن الفرنج، وأحجموا ١٠ عن العبور إلى الجانب الجَزري لكثرة مَن به مِنْ عساكر المسلمين[٤].

فاندفع المُسلمون عن الرّها إلى حرّان ليعبر الفرنج ويتمكنوا

---

(١) في ابن القلانسي ١٦٩ : « وفيها كاتب السلطان غياث الدنيا والدين الأمير سكمان القطبيّ صاحب أرمينية وميافارقين وشرف الدين مودود صاحب الموصل يأمرهما بالمسير في العساكر إلى جهاد الافرنج وحماية بلاد الموصل ».

(٢) في الأصل : « فنزلوا على الرها فنزلوا بها » وقد رأينا في الجملة اضطراباً لم نعهده في أسلوب ابن العديم ، فهو لا يكرر كلمة قريبة على هذا الوجه، لذلك جعلناها : « فرحلوا إلى الرها فنزلوا عليها »– وقد تابعنا ابن القلانسي ١٦٩ حين يقول : « فرحلوا بأسرهم ونزلوا عليها في العشر الثاني من شوّال وأحاطوا بها من جهاتها كالنطاق » – ولا علينا حين نفعل ذلك لأن ابن العديم ينقل عن ابن القلانسي ، ولا شك في أن ما وقع تحريف من الناسخ.

(٣) في ابن القلانسي ١٦٩ : « واجتمع طنكري صاحب أنطاكية وابن صنجيل صاحب طرابلس والملك بغدوين مقدّمو وُلاة الأعمال من الافرنج وتعاهدوا وتعاقدوا على الثبات في الحرب والمصابرة والثّبات . »

(٤) في ابن القلانسي ، بالصفحة المذكورة : « قد أحجموا عن العبور لتفرّق سرايا العساكر الاسلامية وطلائعهم في سائر الجهات والمسالك إلى الفرات » .

منهم[1]، || وَوَصلهم عَسكر دمشق . [١٢٨ و]

هزيمة الفرنج

فحين عبر الفرنج وَبَلَغَهم خَبَرُ المُسلِمينَ عادوا ناكصين على الأَعْقَاب إلى شاطئ الفُرات ، فنهض المُسلمون في أثرهم ، وأدركتهم خيول الإسلام ، وقد عبر الأجلادُ مِنهم[2] ،
٥ فغنم المُسلمون جُلَّ سَوَادِهِم وأكثرَ أثقالهم ، واستباحوهم قتلاً وأسراً وتغريقاً في الماء ، وأقام المُسلمون بإزائهم على الفرات .

ولما عَرَف الملكُ رضوان هزيمة الفرنج عن الرّها خرج ليتسلّم أعمالَ حلب الّتي كانت في أيدي الفرنج ، وقَاتَل ما امتنعَ عَلَيْهِ منها ، وأغار على بلد أنطاكية وغَنِم منها ما يجلّ قَدْرُه ، وكان بينه وبينهم
١٠ مهادنةٌ نَقَضَها .

وكاتب الفرنجُ رضوان يُوهِنُونَ رأيه في نقضِ الهُدنة ، فلما تحقّق سلامة طنكريد وعَوْدَهُ رَجع إلى حلب[3] .

وعاد الفرنجُ مِنَ الفُرات فقصدوا بلد حلب من شرقيّها ، فقتلوا مَنْ وَجَدُوا ، وسَبَوْا أهل النّقرة ، وأخذوا ما قدروا عليه من المواشي .
١٥ وهَرَبَ النَّاسُ نحو بالس ، وعاد طنكريد ، فنزل على الأثارب ، وطيَّب قلوبَ الفلّاحين مِن المسلمين ، وأمّنهم ، ونَصَبَ على الأثارب

(١) في المصدر المذكور : « ليتمكنوا من لقائهم في الفضاء من شرقي الفرات ، ورحلوا عن الرّها في آخر ذي الحجة منها ونزلوا أرض حرّان على سبيل الخديعة والمكر » .

(٢) في ابن القلانسي ١٧٠ : « وفطن الافرنج لهذا التدبير والاتفاق عليه ، فخافوا واستشعروا الهلاك والخذلان وأجفلوا ناكصين على الأعقاب إلى شاطئ الفرات ، وبلغ المسلمين خبرهم فنهضوا في إثرهم وأدركهم سرعات الخيل وقد قطع الفرات بعضهم من مقدّميهم » .

(٣) انظر خبر ذلك في ابن القلانسي ١٧٠

المناجيق و كبشاً عظيماً ينطح به شرفات الأسوار فيلقيَها ، فخرب أسوارها وكان يسمع نطحه مِنْ مَسيرة نِصف فرسخ .

صلح رضوان

وبذل رضوانُ لطنكريد في الموضع عشرين ألف دينار على أن يَرْحل[1] فامتنع ، وقال : « قد خسرتُ ثلاثين ألف دينار ، فان دفعتموها إليَّ وأطلقتم كلَّ عبد بجاب منذ ملكت أنطاكية فأنا أرحل » . فاستعظم ذلك واتّكل على الحوادث .

[١٢٨ظ] وكان الّذي بقي في القلعة مقدار مائة دينار ، وأخذها || الخازنُ على وَسطِهِ ، وهَرَب إلى الفرنج ، وهرب جماعةٌ أخر من المُسلمين إليهم فكتبوا إلى الملك رضوان كتاباً على جناح طائرٍ يُخبرونه بما تجدّد من قُوّة الحصار وقلّة النفقة وقَتْلِ الرّجال . وأَرْسَلوا الطّائرَ فسقط في عسكر الفرنج ، فَرَمَاهُ أَحدُهم بنُشَّابَةٍ فقتَلَهُ .

وحُمِلَ الكِتابُ إلى طنكريد ، ففرح وقويتْ نفسه ، وَبَذل رضوان المَال المطلوب له على أن يكون أقساطاً ويضع عليه رَهائنَ فلَمْ يَفعَل ، ويَئِسَ مَنْ في الأثارب من نجدةٍ تصل إليهم فسلّموها إلى طنكريد في جمادى الآخرة منها ، وأمن أهلها وخرجوا منها.

ثم صالح رضوان على عشرين ألف دينار وعشرة رؤوس من الخيل ، وقبضها وعاد إلى أنطاكية[2] .

---

١) جاء في ابن الأثير ٨/٣٦١ في حوادث سنة ٥٠٤ : «فشرع اصحاب البلاد الاسلامية بالشام في الهدنة معهم فامتنع الفرنج من الاجابة إلّا على قطيعة يأخذونها إلى مدة يسيرة فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين الف دينار وغيرها من الخيول والثياب . »

(٢) في ابن القلانسي ١٧١ : «واستقرّت الموادعة بعد ذلك بين الملك فخر الملوك رضوان وبين طنكري على أن يحمل إليه الملك من مال حلب في كل سنة عشرين ألف دينار مقاطعة وعشرة أرؤس خيلاً وفكاك الأسرى واستقرّت على هذه القضية»-انظر ابن الأثير ٨ / ٣٦١

ثم عاد وخرج إلى الأثارب، وقد أدركتِ الغلّة، وضعفتْ حلب بأخذِ الأثاربِ ضَعفاً عظيماً، وطلب من حلب المقاطعة التي قررها على حلب وأسرى من الأرمن كان رضوان أخذهم وقت إغارته على بلد أنطاكية، والفرنج على الفرات، فأعادهم إليه. وطلب بعضَ خيل ٥ الملك رضوان فأعطاه، وطلب حُرم الفلّاحين المسلمين من الأثارب، وكانوا وقت نزول طنكريد على الأثارب حصلوا بحرمهم في حلب فأخرجهنّ إليه.

طلب النجدة

وضاق الأمرُ بأهل حلب، ومضى بعضهم إلى بغداد واستغاثوا في أيام الجمع، ومنعوا الخطباء من الخطبة ١٠ مستصرخين بالعساكر الإسلامية على الفرنج[1].

وقلّت المغلّات في بلد حلب، فباع الملك رضوان في يوم واحد ستّين خربةً من بلد حلب لأهلها بالثمن البخس، وطلب بذلك استمالتهم، وأن يلتزموا بالمقام بها بسبب أملاكهم، وهي ستّون خربة [١٢٩ و] معروفة في دواوين حلب إلى يومنا هذا، غير ما باعه في غير ذلك اليوم ١٥ من الأملاك.

ولذلك يقال ان بَيْع الملك من أصحّ أملاك الحلبيين لأنّ المصلحة في بيعها كانت ظاهرةً لاحتياج بيتِ المال إلى ثمنها، ولعمارة حلب ببقاء أهلها فيها بسبب أملاكهم.

(١) في ابن الأثير ٨/ ٣٦١: «فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد مستنفرين على الفرنج، فلما وردوا بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم فقصدوا جامع السلطان واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر» – انظر ابن القلانسي ١٧٣

خبر مودود

ولما استصرخ الحلبيّون العساكرَ الاسلامية ببغداد وكسروا المنابر، جهّز السّلطانُ العساكرَ للذبِّ عنهم، فكان أول مَنْ وصل مَوْدُود صاحب المَوْصل [١] بعسكره إلى شَبَخْتَان [٢]، ففتح تَلّ قُرَاد [٣] وعدّة حُصون.

ووصل أحمديل الكُرديّ في عسكرٍ ضخم وسكمان القُطبي [٤]، ٥ وعبروا إلى الشّام فنزلوا تلّ باشر [٥]، وحصروها حتى أشرفت على الأخذ، وكان طنكريد قد أخذ حصن بِكِسْرَائيل [٦]، وتوجّه مُغيراً على بلد شَيْزَر ونازلها.

وشرع في عمارة تلّ ابن مَعْشر [٧] وضرَب اللّبِن وحَفَرَ الجِبَاب ليُوعي

(١) في ابن الأثير ٨/٣٦١: «فأرسل الخليفة الى السلطان في المعنى يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه، فتقدم حينئذ إلى من معه من الأمراء بالمسير إلى بلادهم والتجهيز للجهاد وسيّر ولده الملك مسعوداً مع الأمير مودود صاحب الموصل» – ابن القلانسي ١٧٤: «وكان أول من نهض منهم إلى أعمال الافرنج الأمير الاسفهسلار شرف الدين مودود صاحب الموصل في عسكره».

(٢) في الأصل: «سختان» – وفي ابن القلانسي ١٧٤: «سنجتان» – وفي معجم البلدان لياقوت ١/٨٦٤، ٨٦٩: «شَبَخْتَان» وهو يضعها في بلاد الأرمن من نواحي ديار ربيعة.

(٣) في ابن القلانسي ١٧٤: «تلّ مراد» – وفي معجم البلدان لياقوت ١/٨٦٩: «تَلّ قُراد: حصن مشهور في بلاد الأرمن من نواحي شَبَخْتَان».

(٤) في ابن القلانسي ١٧٤: «ووصل إليه الأمير أحمديل في عسكر كثيف الجمع، وكذلك تلاه الأمير قطب الدين سكمان القطبي من بلاد أرمينية وديار بكر، فاجتمعوا في أرض حران».

(٥) في معجم البلدان ١/٨٦٤: «تلّ باشر: – قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب بينها وبين حلب يومان، وأهلها نصارى أرمن، ولها ربض وأسواق، وهي عامرة آهلة».

(٦) في معجم البلدان ١/٧٠٦: «بكسرائيل: بكسر أوله وثانيه وسكون السين وراء وألف وهمزة وياء – حصن من سواحل حمص مقابل جبلة في الجبل».

(٧) في ابن القلانسي ١٧٤: «تل ابن معشر في مقابلة شيزر».

بها الغلّة، فلما بلغه نزول عساكر السُّلطان محمَّد على تلّ باشر رحل عنها.
وأمّا العساكر الإسلاميّة النازلة على تلّ باشر فانّ سكمان مات عليها
– وقيل : بَعْدَ الرَّحيل عنها – وأشرف المسلمون على أخذها فتطارح
جوسلين الفرنجي صاحِبُها على أحمديل الكردي وحَمَل إليه مالاً [1]،
٥ وطلب منه رحيل العسكر عنه فأجابه إلى ذلك.

وكتبَ الملكُ رضوان إلى مودود وأحمديل وغيرهما : « إنني قد
تلفتُ وأريدُ الخُروج مِنْ حلب. فبادِرُوا إلى الرَّحيل »، فَحَسَّنَ لهم
أحمديل الرَّحيل عنها || بعد أن أشرَفُوا على أخذها، ورحلوا إلى [١٢٩ظ]
حلب، فأغلق رضوان أبوابَ حلب في وجوههم، وأخذَ إلى القلعة
١٠ رهائنَ عنده من أهلها لئلّا يسلموها [2].

ورتّب قوماً من الجند والباطنيّة الّذين في خدمتهِ لِحفْظِ السُّور
ومَنع الحلبيين من الصّعود إليه، وبقيَتْ أبوابُ حلب مُغْلَقَةً سَبْعَ
عشرة ليلة.

وأقام النّاسُ ثلاث ليالٍ ما يجدون شيئاً يقتاتون به، فكثرت
١٥ اللّصوص مِن الضّعفاء، وخافَ الأعْيانُ على أنفسهم.

وساء تدبيرُ الملك رضوان فأطلق العوامّ ألسنتهم بالسبّ له

(١) في ابن القلانسي ١٧٥ : « فأنفذ جوسلين صاحب تلّ باشر إلى الأمير أحمديل الكردي يلاطفه بمال وهديّة، ويبذل له الكون معه والميل إليه فأجابه الى ذلك على كراهية من باقي الأمراء ».

(٢) في ابن القلانسي ١٧٥ : « وأغلق أبواب حلب وأخذ رهائن أهلها إلى القلعة، ورتّب الجند وأحداث الباطنية والطائفين لحفظ الأسوار ومنع الحلبيين من الصعود إلى السور» – في ابن الأثير ٨ / ٢٦٣ : « فأغلق الملك رضوان أبواب البلد ولم يجتمع بهم ».

وتعييبه، وتحدثوا بذلك فيما بينهم، فاشتدّ خوفُه من الرَّعيَّة أن يُسلِموا البلدَ؛ وتَرَكَ الرُّكوبَ بينهم.

وصفر انسانٌ من السُّور فأمر به فضُرِبَتْ عُنقه. ونَزَعَ رَجلٌ ثوبَهُ ورَماهُ إلى آخر فأمر به فأُلقي مِن السّور إلى أسفل، فعاثَ العسكر فيما بقي سالماً ببلد حلب بعد نهب الفرنج له وسَبيهم أهله. ٥

وبَثَّ رضوان الحراميّة يتخطّف مَن ينفرِدُ مِنَ العساكر فيأخذونه[١]، فرحلوا إلى معرّة النّعمان في آخر صَفَر من سنة خمس وخمسمائة[٢]، وأقاموا عليها أياماً ووَجَدُوا حولها ما ملأ صدورهم ممّا يحتاجون إليهِ من الغَلّات وما عجزوا عن حمله.

وكان أتابك طغتكين قد حَصَل معهم[٣]، فراسل رضوان بعضَهم ١٠ حتى أفسد ما بينه وبينهم، فظهر لأتابك منهم الوحشة، فصار في جملة مَوْدود صَاحب الموصل، وثَبَتَ له مَوْدُود، ووَفى له.

[١٣٠ و] وحَمل لهم أتابك هَدايا وتُحفاً من مَتاع ‖ مصر[٤]، وعَرَض عليهم المسير إلى طرابلس والمعونة لهم بالأموال، فلم يعرجوا[٥]؛ وسار

(١) في ابن القلانسي، بالصفحة نفسها: «وأطلق الحرامية في أخذ من يظفرون به من أطراف العسكر».

(٢) في ابن الأثير ٨/٢٦٣: «لما غلق الملك رضوان أبواب حلب، ولم يجتمع بالعساكر السلطانية رحلوا إلى معرة النعمان» — انظر ابن القلانسي ١٧٧

(٣) في ابن الأثير، بالصفحة نفسها: «واجتمع بهم طغتكين صاحب دمشق، ونزل على الأمير مودود».

(٤) في ابن القلانسي ١٧٧: «وحمل إلى بقية الأمراء ما كان جمعه من الهدايا لهم والتحف والحصُن العربية السُّبَّق والأعلاق المصرية».

(٥) في المصدر نفسه: «وجعل أتابك يحرّضهم على قصد طرابلس ويعدهم حمل ما يحتاجون اليه من المير من دمشق وعملها، وان أدركهم الشتاء أنزلهم في بلاده فلم يفعلوا وتفرقوا أيدي سبا».

أحمديل وبرسق بن برسق وعسكر سكمان نحو الفُرات، وبقي مودود مع أتابك ، فرحلا[1] من المعرّة إلى العاصي فنزلا على الجَلالي .

فنزَل الفرنج أفامية : بغدوين وطنكريد وابن صنجيل ؛ وساروا لِقَصد المسلمين[2] ، فخرج أبو العساكر بنُ منقذ من شيزر بعسكره وأهله ؛ واجتمعُوا بمودود وأتابك وساروا إليهم .

ونَزَلوا قبليَّ شَيْزر والفرنج شماليَّ تلّ ابن معشر، ودارت خيولُ المسلمين[3] حولهم ومنعوهم الماء ، والأتراك حول الشرائع بالقسيّ تمنعهم الوِرد ، فأصبحُوا هاربين سائرين ، يحمي بعضهم بعضاً[4] .

أبو حرب الخجندي

ووصل إلى حلب في هذه السّنة في شهر ربيع الأوّل من سنة خمس وخمسمائة ، رجل فقيهٌ تاجر كبير يقال له أبوحرب عيسى بن زيد بن محمد الخُجَندي[5] ، ومعه خمسمائة

(١) في المصدر نفسه : « وعاد برسق بن برسق واحمديل وتبعوا عسكر سكمان القطبي ، وتخلّف منهم الأمير مودود مع أتابك فرحلا عن المعرة ونزلا على العاصي » – انظر ابن الأثير ٨/ ٢٦٣

(٢) في ابن القلانسي ١٧٧ : « ولما عرف الفرنج رحيل العساكر وتفرقهم اجتمعوا ونزلوا أفامية بأسرهم بغدوين وطنكري وابن صنجيل بعد التباين والمنافرة والخلف وصاروا يداً واحدة وكلمة متفقة على الاسلام وأهله ، وساروا لقصدهم ، فخرج سلطان بن منقذ من شيزر بنفسه وجماعته واجتمع مع أتابك ومودود وحرّضهما على الجهاد وهوّن عليهما أمر الافرنج» – انظر ابن الأثير ٨/ ٢٦٣

(٣) في المصدر نفسه : « وثبت الخيل من جميع جهاتهم تطرق حولهم وتجول عليهم وتمنع من الوصول إليهم ، وضيقوا عليهم وجلوهم عن الماء وذادوهم عن العاصي لكثرة الرماة على شطوطه وجوانبه ».

(٤) في مجموعة الحروب الصليبية نقص من هذا النصّ ما يقرب من صفحة فقد وقف عند هذه الكلمة ، ثم بدأ السطر التالي بعبارة : « ثم ان رضوان حين ضعف أمره» بالصفحة ١٦٠ ظ ؛ وذلك لأن البحث لا يلمّ بالحروب الصليبية .

(٥) الخُجَنْدي : بضم الخاء وفتح الجيم وسكون النون : نسبة إلى خُجَنْدة ، بلدة على طرف سيحون – انظر الانساب للسمعاني بالورقة ١٨٩ظ ، واللباب لابن الاثير ١/ ٣٦٨

حمل عليها أصناف التجارات، وكان شديداً على الباطنيّة أنفق أموالاً جليلة على من يقاتلهم، وكان قد صحبه من خراسان باطنيّ يُقال له أحمد بن نصر الرّازي وكان أخوه قد قتله رجال الحُجَندي.

فدخل أحمد إلى حلب، ومضى إلى أبي طاهر الصّائغ العجميّ رئيس الباطنيّة بحلب، وكان متمكّناً من رضوان، فصعد إلى رضوان، وأطمَعَهُ في مال الفقيه أبي حرب، وأراه أنّه بريءٌ من التهمة في بابه[1]، إذ هُوَ معروف بعداوة الباطنيّة.

فطمع رضوان في ماله وطار فرحاً، وبعث غلماناً له يتوكّلون به، وسيّر أبو طاهر [١٣٠ظ] الباطنيّ معه جماعة من أصحابه، فبينا أبو حرب الحُجَندي في غلمان له يستعرض أحمالَهُ وحوله جماعةٌ من مماليكه وخدَمِهِ إذ هجم عليه أحمد بن نصر الرّازي في جماعةٍ من أصحاب أبي طاهر الباطنيّ، فقال لغلمانه: «أليس هذا رفيقنا؟» فقالوا: «هُوَ هُوَ». فوقعوا عليه فقتلوه.

وقُتِلَ الجماعةُ الّذين معه من أصحاب أبي طاهر الباطنيّ العجميّ بأسرهم، ثم قال أبو حرب: «الغِياث بالله من هذا الباطنيّ الغادر، أمنّا المخاوفَ ورآنا إلى أن جئنا إلى الأمنة، فبعث علينا من يقتلنا».

فأخبر رضوان بذلك فأبلس، وصار السنّة والشّيعة إلى هذا الرجل، وأظهروا إنكار ما تمّ عليه. وعبث أحداثهم بجماعة من أحداث الباطنيّة فقتلوهم، ولم يتجاسر رضوان على إنكار ذلك.

---

(١) وردت كذا في الأصل من غير نقط فلم نهتد إلى تصويبها، ولعلها: «في شأنه».

وكاتَبَ الفقيه أبو حرب أتابكَ طغتكين وغيره من ملوك الاسلام فتوافت رسلهم إلى رضوان يُنكرون عليه ، فأنكر وحَلَف أنه لم يكن له في هذا الرجل نيّة .

وخرج الرّجل عن حلب مع الرّسل فعاد إلى بلده ، ومكث الناس يتحدّثون بما جرى على الرجل ونقص في أعين الناس ، فتوثّبوا على الباطنيّة من ذلك اليوم .

ضعف رضوان

ثم إنّ رضوان حين ضعف أمره بحلب رأى أن يستميل طغتكين أتابك إليه ويستصلحه ، فاستدعاه إلى حلب عندما أراد أن ينزل طنكريد على قلعة عزاز ، وبذل له رضوان مقاطعة حلب عشرين ألف دينار وخيلاً وغير ذلك ، فامتنع طنكريد من ذلك ، فوصل طغتكين أتابك ، وتعاهدا على مساعدة || كلّ منهما [١٣١و] لصاحبه بالمال والرّجال .

واستقرّ الأمر على أن أقام طغتكين الدّعوة والسكّة لرضوان بدمشق ، فلم يظهر منه بعد ذلك الوفاء بما تعاهدا عليه .

ومات طنكريد في سنة ستّ وخمسمائة ، واستخلف ابن اخته روجار[١] وأدّى إليه رضوان ما كان يأخذه منه طنكريد وهو عشرة آلاف دينار .

ووصل مودود إلى الشّام ، واتفق مع طغتكين على الجهاد ، وطلب نجدة من الملك رضوان فتأخرت إلى أن اتّفق للمسلمين وقعة استظهروا فيها على الفرنج ، ووصل عقيبها نجدة للمسلمين من رضوان ، دون

(١) مات طنكريد سنة ٥٠٦ / ١١١٢ ، وخلفه ابن أخته روجار «Roger» .

المائة فارس، وخالف فيما كان قرّره ووَعد به[١]، فأنكرَ أتابك ذلك، وتقدّم بابطال الدّعوة والسكّة باسم رضوان من دمشق في أول ربيع الأوّل من سنة سبع وخمسمائة.

وكان رضوان يحب المال، ولا تسمح نفسه باخراجه حتّى كان أمراؤه وكتّابه ينبزونَهُ بأبي حبّة، وهو الّذي أفسد أحواله وأضعف أمره. ٥

وفاة رضوان

ومَرِضَ رضوان بحلب[٢] مرضًا حادًّا وتوفّي في الثّامن والعشرين من جُمادى الآخرة سنة سبع وخمسمائة.ودُفِن بمشهد الملك، فاضطرب أمرُ حلب لوفاته وتأسّف أصحابهُ لفقده، وقيل: إنّه خلّف في خزانتهِ[٣] من العين والآلات والعُروض والأواني ١٠ ما يبلغ مقداره ستّمائة ألف دينار.

(١) في ابن القلانسي ١٨٦ : « وعقيب هذه النوبة وصل من حلب من عسكر الملك فخر الملوك رضوان مائة فارس على سبيل المعونة خلاف ما كان قرره وبذله ، فأنكر ظهير الدين أتابك وشرف الدين مودود ذلك منه ، وأبطلا العمل بما كانا عزما عليه من الميل إليه واقامة الخطبة له في أول شهر ربيع الأول سنة ٥٠٧ » .

(٢) في ابن القلانسي ١٨٩ : « وفي جمادى الآخرة وردت الأخبار من ناحية حلب بمرض عرض للملك فخر الملوك رضوان صاحبها ، وأنه أقام به واشتد عليه وتوفي – رحمه الله – في الثامن والعشرين من الشهر » .

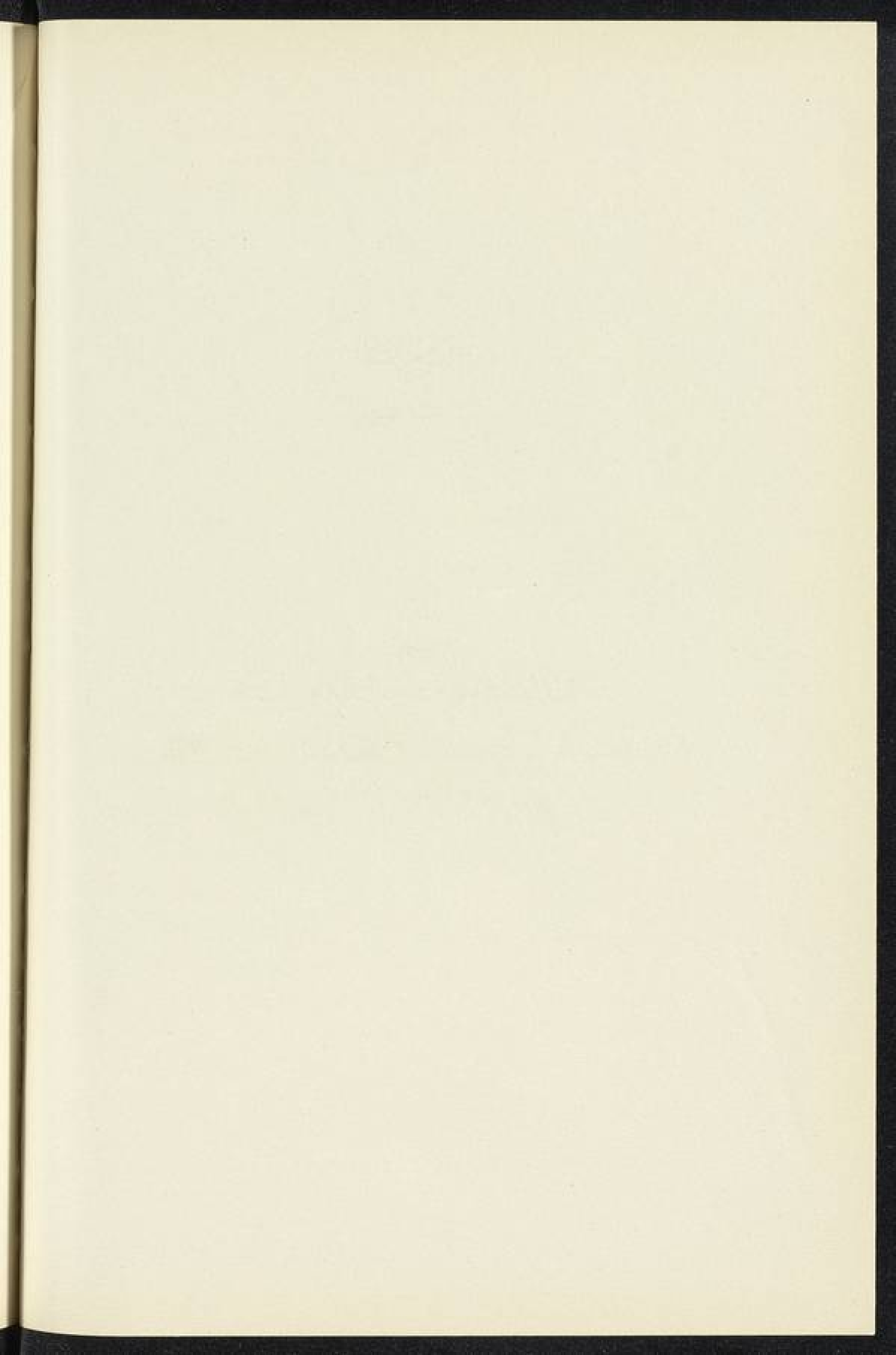
(٣) في المصدر نفسه : « وقيل انه خلف في خزانته من العين والعروض والآلات والأواني . . . » كما جاء في ابن العديم .

القسم العشرون

ذكر
حلب في أيام ألب أرسلان وسلطان شاه ابني رضوان

مُلك ألب أرسلان - أتابك طغتكين - مُلك سلطان شاه - خبر إيلغازي بن أرتق

٥٠٧ هـ - ٥١١ هـ



مُلكُ ألب أرسلان

ومَلكَ حلب بعده ابنُهُ ألب أرسلان ، ويُعْرَفُ بالأخرس ، وعمرُهُ ستَّ عشرة سنة . وأُمُّه بِنْتُ يَغي سيان صاحب أنطاكية ، وكان في كلامِهِ حَبْسَةٌ وتمتمةٌ فلذلك عُرِف بالأخْرَس ، وكان مُتَهوِّرًا قليل العقل ، ووضع عن أهل حلب [١٣١ظ] ما كان والده جدّده عليهم من الرّسوم والمُكوس .

٥

وقبضَ على أَخَوَيْهِ مَلك شاه ومُبارك ، وكان مُبارك من جاريةٍ وملك شاه من أمّه ، فقتَلَها . وكذلك فعل أبوه رضوان بأخويه[١] ؛ فانظرْ إلى هذه المُقَابلة العجيبة . وقبضَ جماعةً من خواصّ والدِهِ فقَتَلَ بَعضَهم ، وأخذ أموال الآخرين[٢] .

١٠ وكان المتولّي لتدبير أُموره خادمٌ لأبيهِ يقال له لولوٌ اليايا[٣] ، وهو الّذي أنشأ خانكاه البلاط بحلَب . وكان قبل وصوله إلى رضوان

---

(١) في ابن القلانسي ١٨٩ : « وقبض على أخويه ملك شاه من أمه وأبيه ، ومبارك من أبيه وجارية ، وقتلها . وقد كان أبوه الملك رضوان في مبدأ أمره فعل مثله بقتل أخويه من تاج الدولة أبي طالب وبهرام شاه ، وكانا على غاية من حسن الصورة ، فلما توفي كان ما فُعل بولديه مكافأة عما اعتمده في أخويه . » – انظر ما يقرب من هذا اللفظ عند ابن الأثير ٨/ ٢٦٧

(٢) في المصدر نفسه : « وقبض على جماعة من خواصّ أبيه ، فقتل بعضاً وأخذ مال بعض ودبّر الأمر معه خادم أبيه لؤلؤ » .

(٣) في ابن القلانسي ١٩١ : « بابا المعروف بلؤلؤ الخادم » – وعندنا ياءين ، وقد ترجمه المستشرق في كتابه عن الحروب الصليبية ٦٠٣ : El-Yaya (le piéton ou fantassin) .

خادماً لتاج الرؤساء ابن الخلال، فدبر أسوأ تدبير مع سوء تدبيره في نفسه.

وكان أمرُ الباطنيَّة قد قَوِي بحلب في أيام أبيه، وتابعهم خلقٌ كثيرٌ على مَذْهبِهم طلباً لجاهِهِم، وصار كلُّ مَنْ أراد أن يحمي نفسهُ من قَتْلٍ أو ضَيْمٍ التجأ[1] إليهم.

وكان حسام الدّين بن دملاج وَقْتَ وَفاة رضوان بحلب، فصاروا مَعَهُ، وصار ابراهيم العجميّ الدّاعي من نُوّابه في حفظ القُلَيْعة[2] بظاهر بالس.

محاربة الباطنية

فكتب السُّلطان مُحَمَّد بن ملك شاه إلى ألب أرسلان وقال له: «كان والدُك يُخالفني في الباطنيَّة، وأنتَ وَلَدِي فَأُحِبُّ أن تَقْتُلَهم».

وشرع الرّئيس ابنُ بديع متقدّم الأحداث في الحديث مع ألب أرسلان[3] في أمرهم، وقرّر الأمر معه على الإيقاع بهم، والنكاية فيهم، فساعده على ذلك.

فقبض على أبي طاهر الصائغ وقتله، وقتل اسماعيلَ الدّاعي

---

(١) في ابن القلانسي ١٨٩ : «وخاف ابن بديع رئيس الأحداث وأعيان البلد منهم لكثرتهم، وشدّ بعضهم من بعض، وحماية من يلجأ منهم لكثرتهم».

(٢) جاءت هذه اللفظة مصغّرة في بعض المصادر وأوردها بعضهم بلفظ «القلعة» – وهما واحد في المعنى – انظر مقالة ده فرامري : *Defrémery* J A., 1854, 393.

(٣) في ابن القلانسي: «فشرع ابن بديع رئيس حلب في الحديث مع الملك الب ارسلان بن رضوان في أمرهم، وقرر الأمر معه على الايقاع بهم والنكاية فيهم، فقبض على أبي طاهر الصائغ وعلى كل من دخل هذا المذهب وهو زهاء مئتي نفس».

وأخا الحكيم المنجِّم والأعيانَ من أهل هذا المذهب بحلب، وقبضَ على زُهاء مائتي نفسٍ منهم.

وحَبَسَ بعضَهم واستصفى أموالهم، وشفع في || بعضهم فمنهم مَن [١٣٢و] أطلق ومنهم مَنْ رُمي من أعلى القلعة، ومنهم من قُتِل. وأفلَت جماعةٌ منهم فتفرّقوا في البلاد[1]، وهرب إبراهيم الدّاعي من القليعة ٥ إلى شيزر، وخرج حسام الدولة بن دملاج عند القبض عليهم فمات في الرقة.

وطلب الفرنج من ألب أرسلان المقاطعة التي لهم بحلب، فدفعها إليهم من ماله، ولم يكلّف أحدًا من أهل حلب شيئًا منها.

أتابك طغتكين

١٠ ثمّ إنّ ألب أرسلان رأى أن المملكة تحتاج إلى مَن يدبّرها أحسن تدبير، وأشار خدمُه وأصحابُه عليهِ بأنْ كاتَب أتابكَ طغتكين أمير دمشق[2]، ورغب في استعطافِه، وسأله الوُصولَ إليهِ ليدبّر حلب والعسكرَ، وينظُر في مصالح دَولتِهِ. فأجابه إلى ذلك، ورأى موافقتَهُ لكونهِ صبيًا لا يخافه الكفّار ولا رأي له، فدعا له على منبر دمشق ١٥ بعد الدّعوة للسّلطان وضُربت السّكة باسمِهِ، وذلك في شهر رمضان.

وأوجبت الصُّورةُ أن خرج ألب أرسلان بنفسِه في خواصّه،

---

(١) وردت العبارة نفسها في ابن القلانسي ١٩٠

(٢) في ابن القلانسي: «فوقع اختياره على ظهير الدين أتابك صاحب دمشق فراسله في ذلك وألقى مقاليده إليه، واعتمد في صلاح أحواله عليه، وسأله الوصول إلى حلب والنظر في مصالحها».

وقصد أتابك إلى دمشق ليجتمع معه، ويؤكد الأمر بينه وبينه[١]، فلقيه أتابك على مرحلتين، وأكرمه ووصل معه وأنزله بقلعة دمشق.

وبالغ في إكرامه وخدمته والوقوف على رأسه[٢]. وحمل إليه دست ذهب وطيرا مرصعاً وعدة قطع ثمينة، وعدة من الخيل، وأكرم من كان في صحبته. ٥

وأقام بدمشق أياماً وسار في أول شوال عائدا إلى حلب، ومعه أتابك[٣] وعسكره، فأقام عنده أياماً واستخلص كمشتكين البعلبكي مقدم عسكره، وكان قد أشار عليه بعض أصحابه بقبضه، [١٣٢ظ] || وقبض جماعة من أعيان عسكره[٤] وقبض الوزير أبي الفضل بن الموصول، ففعل ذلك؛ فاستوهب أتابك منه كمشتكين فوهبه إياه. ١٠

وقبض على رئيس حلب صاعد بن بديع، وكان وجيها عند أبيه رضوان، فصادره بعد التضييق عليه حتى ضرب نفسه في السجن بسكين ليقتل نفسه، ثم أطلقه بعد أن قرر عليه مالا، وأخرجه وأهله من حلب، فتوجه إلى مالك بن سالم إلى قلعة جعبر.

---

(١) وردت هذه العبارة نفسها عند ابن القلانسي.

(٢) في ابن القلانسي ١٩٠: «فوصل إليه في النصف من شهر رمضان من السنة، فلقيه أتابك بما يجب لمثله من تعظيم مقدمه واجلال محله وأدخله إلى قلعة دمشق وأجلسه في دست عمه شمس الملوك دقاق بن تاج الدولة.»

(٣) العبارة نفسها في ابن القلانسي.

(٤) في ابن القلانسي ١٩٠: «وأشار عليه قوم من أصحابه بالقبض على جماعة من أعيان عسكره وعلى وزيره أبي الفضل بن الموصول – وكان حميد الطريقة مشهورا بفعل الخير وتجنب الشر – ففعل ذلك، واستخلص ظهير الدين أتابك من جملتهم الأمير كمشتكين البعلبكي مقدم عسكره».

ابن الفراتي

وسلّم رئاسة حلب إلى ابراهيم الفراتي فتمكّن ولُقِّب ونُوِّه باسمه، وإليه تُنسَب عرصة ابْنِ الفُراتي بالقُرب من باب العراق بحلب. ثمّ رأى أتابك من سوء السِّيرة وفساد التَّدبير مع التقصير في حقِّه والاعراض عن مَشُورته ما أنكره، فعاد من حلب إلى دمشق [١]، وخرجت معه أمّ الملك رضوان هرباً منه.

٥

وساءت سيرةُ ألب أرسلان، وانهمك في المعاصي واغتِصاب الحُرَم والقتل. وبَلَغَنا أنّهُ خرج يوماً إلى عين المباركة متنزهاً، وأخذ معه أربعين جارية، ونَصَب خيمةً، ووطئهنّ كلّهن [٢].

لؤلؤ البابا

واستولى لؤلؤ اليايا على الأمر، فصادر جماعة من المتصرّفين، وأعاد الوزارة إلى أبي الفضل بن الموصول. وجمع ألب أرسلان جماعةً من الأمراء، وأدخلهم إلى موضع بالقلعة شبيهٍ بالسِّرداب لينظروه، فلمّا دخلوا إليه قال لهم: «ايش تقولون في مَنْ يضرب رقابكم كلكم ههنا؟» فقالوا: «نحن مماليكك وَبِحكمك». وأخذوا ذلك منه بطريق المزاح، وتضرّعوا له حتى أخرجهم [٣].

١٠

وكان فيهم مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر [٤] فلمّا نزل سار عن

١٥

(١) في المصدر نفسه: «فحين شاهد الأمر على غير السداد والصواب، وبان له فساد التدبير واختلاف التقدير رأى أن الانكفاء إلى دمشق اصوب ما قُصد، وأحسن ما اعتمد، وفي صحبته والدة الملك رضوان لرغبتها في ذلك وايثارًا لها».

(٢) في بغية الطلب، مخطوطة طوپقپوسراي، ٦/ ٢٨٩ظ: «قال لي بدران بن حسين ابن مالك: بلغني أن تاج الدولة الأخرس خرج يوماً إلى عين المباركة ونصب بها خيمة، وأخذ معه أربعين جارية ووطئهن كلهن في ذلك اليوم».

(٣) وردت هذه الحكاية في بغية الطلب المخطوطة ٦/ ٢٨٩ و، وهو يزيد على الجملة: «حتى أخرجهم، ثم إنهم خافوا على أنفسهم منه فأجمعوا على قتله فقتلوه».

(٤) في بغية الطلب، المخطوطة: «وقال لي الأمير بدران بن جناح الدولة حسين بن

[١٣٣و] حلب || وتركها خوفًا على نفسه .

مقتل ألب ارسلان

وخاف منه لؤلؤ اليايا فقتله بفراشه بالمركز بقلعة حلب ، في شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسمائة[1] ، وساعده على ذلك قراجا التركي[2] وغيره .

ملك سلطان شاه

٥ ولزم لؤلؤ اليايا قلعة حلب وشمس الخواص في العسكر ، ونصب لؤلؤ أخًا له صغيرًا عمره ست سنين ، واسمه سلطان شاه بن رضوان ؛ وتولى لؤلؤ تدبير مملكته ، وجرى على قاعدته في سوء التدبير .

اعمال لؤلؤ

وكاتب لؤلؤ ومقدمو حلب أتابك طغتكين وغيره
١٠ يستدعونهم إلى حلب لدفع الفرنج عنها فلم يجب أحد منهم إلى ذلك .

ومن العجائب أن يخطب الملوك لحلب فلا يوجد من يرغبُ فيها ،

مالك بن سالم كان جدّي مالك من جملة الأمراء الذين فعل بهم ذلك ، فلما نزل من القلعة سار عن حلب إلى قلعة جعبر » .

(١) في بغية الطلب ، مخطوطة ٤ / ٢٨٩ ظ : « فاغتاله خادم كان خصيصًا به اسمه لؤلؤ في رجب سنة ثمان وخمس مائة وكان ملكه بحلب سنة واحدة » – ثم يورد تاريخًا آخر لقتله نقلًا عن غيره من المؤرخين على عادته فيقول : « وخانه لؤلؤ اليايا فقتله بقلعة حلب في الثاني من ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسمائة » . – وفي ابن القلانسي ١٩١ : « وثبوا عليه فقتلوه في داره بقلعة حلب ، واضطرب الأمر بعده ، وقد كان تدبيره لنفسه وعسكريته ورعيته سيئًا فاسدًا لا يُرجى له صلاح ولا إصلاح ، فمضى لسبيله غير مأسوف عليه ولا محزون لفقده » – انظر النجوم الزاهرة ٥ / ٢٠٨

(٢) في ابن القلانسي : « خيرخان بن قراجا التركي » كما سيرد اسمه كاملًا في ذيل الصفحة ١٧٦ .

ولا يمكنه ذبّ الفرنج عنها ، وكان السبب في ذلك أنّ المقدّمين كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هُم فيه .

وقلّ الربيع ببلد حلب لاستيلاء الفرنج على أكثر بلدها والخوف على باقيه ، وقلّتِ الأموالُ واحتيج إليها لصرفها إلى الجُند ، فباع لؤلؤ قرىً كثيرةً من بلدِ حلب ، وكان المتولّي بيعها القاضي أبا غانم محمّد بن هبة الله بن أبي جرادة قاضي حلب ، ولؤلؤ يتولّى صرف أثمانها في مصالحِ القلعة والجندِ والبَلَد .

وقَبض لؤلؤ على الوزير أبي الفضل بْن الموصول ، واستأصلَ ما لَه ، وسار إلى القلعة فأقام عند مالك بن سالم ، واستوزَر أبا الرَّجاء ابن السَّرطان الرحبي مدّة ، ثم صادره وضَربه ، وطلب أبا الفضل بْنَ الموصول فأعاده إلى الوزارة بحلب .

وجاءت زلزلة عظيمة ليلةَ الأحد ثامن وعشرين من جُمادى الآخرة من سنة ثمان || بحلب وحرّان وأنطاكية ومرعش والثغور [١٣٣ظ] الشامية ، وسقط برجُ بابِ أنطاكيـة الشمالي وبعضُ دُور العَقَبة وقتلَت جماعةً .

وخربت قلعة عَزاز ، وهرب وَاليها إلى حلب ، وكان بينه وبين لؤلؤ مواحشَةٌ ، فحين وَصل إلى حلب قَتله وأنفذ إليها مَنْ تدار كها بالعمارة والترميم ، وخرب شيءٌ يسيرٌ في قلعة حلب ، وخرب أكثر قلعة الأثارب وزَرْدنا .

وقيل : إنّ مؤذن مسجد عَزاز كان حارساً بالقلعة ، فحرس ونَام على بُرج المسجد بالقلعة ، فلما جاءت الزَّلزَلةُ ألقته على كتف الخندق

وهو نائمٌ لم يعلم بها ، فاجتاز به جماعةٌ فظنّوه ميّتاً ، فأخذوا عنه اللّحاف فانتبه وسألهم فأخبروه بما جرى .

وصار شمسُ الخواصّ مقدَّمَ عسكر حلب ، ومتولّيَ أقطاع الجند ، وكانت سيرتُه إذ ذاك صالحةً ؛ وكان لؤلؤ في أوّل أمره مقيماً بقلعة حلب لا ينزلُ منها ويدبّر الأمور ، فكتب إلى السّلطان على سبيل المُغالطة يبذل له تَسْليم حلب والخزائن التي خلّفها رضوان وولده ألب أرسلان ، ويطلب إنفاذ العساكِر إليه .

فوصل برسق بن برسق مقـدّم الجيوش وبكربسن[1] وغيرهم من أمراء السّلطان في سنة تسع وخمسمائة ، فتغيّرت نيّة لؤلؤ الخادم عمّا كان كتب بـه إلى السّلطان ، وكتب إلى أتابك طغتكين يستصرخه ويستنجده ، ووَعَده تسليم حلب إليـه ، وأن يعوّضه طغتكين من أعمال دمشق ، فبادر الى ذلك .

ووصل حلب ، والعساكر السّلطانيّة ببالس متوجّهين إلى حلب فرحلوا منها إلى المعرّة ، ووصلهم الخبر ‖ [١٣٤ و] أنّ ذلك اليوم وصل أتابك إلى حلب فأعرضوا عن حلب ، وساروا إلى حماة فتسلّموها .

وتسلّموا رفنية من أولاد علي كرد[2] ، وسلّموها إلى خير خان بن قراجا ، فخاف طغتكين من عساكر السلطان أن يَقصِدَ دمشق ، فأخذ عسكر حلب ، وشمس الخواص ، وايلغازي بن أرتق ، واستنجد بصاحب أنطاكية روجار وغيره مِنْ مُلوك الفرنج ونزلوا أجمعين أفامية[3] .

(١) لم نستطع معرفة هذا الاسم ، ولم نقع على مثل رسمه في المصادر ولا شك في انه مصحّف .
(٢) في ابن الأثير : « علي الكردي صاحب حماة » .
(٣) في ابن الأثير ٨ / ٢٧٢ : « وكان قد سار ايلغازي وطغتكين وشمس الخواص إلى

خبر الفرنج

ونزلت العساكر السّلطانية أرض شيزر ، وجعل أتابك يريّث الفرنج عن اللّقاء خوفاً من الفرنج أن يكسروا العساكر السّلطانية فيأخذوا الشّام جميعه ، أو ينكسروا فتستولي العساكر السّلطانية على ما في يده.

٥ وخاف الفرنج وضاقتْ صدورُ أمراء عسكر السّلطان من المصابرة ، فرحلوا ونزلوا حصن الأكراد وأشرف على الأخذ ، فاتّفق أتابك والفرنج على عَوْدِ كلّ قوم إلى بلادهم[1] ، ففعلوا ذلك .

شمس الخواص

وتوجّه أتابك إلى دمشق ، وعاد عسكر حلب وشمس الخواصّ إلى حلب ، فقبض عليه لؤلؤ الخادم

١٠ واعتقله فعادت عساكر السّلطان حينئذٍ عن حصن الأكراد ، وساروا إلى كفرطاب ، وحصروا حصناً كان الفرنج عمروه بجامعها وأحكموه ، فأخذوه وقتلوا مَنْ فيه ، ورحلوا إلى معرّة النّعمان[2] .

وأمن الترك وانتَشَرُوا في أعمال المعرّة واشتغلوا بالشُّرْب والنّهب وَوَقَع التّحاسُدُ فيما بينهم ، ووصل رسول من بزاعا مِن جِهَة شمس الخواص

١٥ يستدعيهم لتسليم بزاعا ، ويقول إنّ شمس الخواص مقبوض عليه

أنطاكية ، واستجاروا بصاحبها روجيل ، وسألوه ان يساعدهم على حفظ مدينة حماة ، فلما بلغهم فتحها ووصل إليهم بأنطاكية بغدوين صاحب القدس وصاحب طرابلس وغيرهما من شياطين الفرنج اتفق رأيهم على ترك اللقاء لكثرة المسلمين . وقالوا انهم عند هجوم الشتاء يتفرقون ، واجتمعوا بقلعة أفامية ».

(١) في المصدر نفسه : « فلما انتصف أيلول ورأوا عزم المسلمين على المقام تفرقوا فعاد ايلغازي إلى ماردين ، وطغتكين إلى دمشق ، والفرنج إلى بلادها » .

(٢) في المصدر نفسه : « وساروا إلى قلعة أفامية فرأوها حصينة ، فعادوا عنها إلى المعرة وهي للفرنج أيضاً » .

[١٣٤ظ] عند لؤلؤ الخادم ، ولؤلؤ يكشف أخبار العساكر ويطالع بها الفرنج.
ورحل برسق وجامدار صاحب الرّحبة نحو دانيث[١] يطلبون حلب ،
فنزل جامدار في بعض الضّياع .

انكسار المسلمين

ووصل برسق بالعسكر إلى دانيث بكرة الثلاثاء
٥ العشرين من شهر ربيع الآخر ، والفرنج يعرفون
أخبارهم ساعةً فساعة ؛ فوَصَلهم الفرنج ؛ وقصدوا العسكر من ناحية
جبل السّماق ، والعسكر على الحال التي ذكرناها من الانتشار
والتفرُّق ، فلم يكن لهم بالفرنج طاقة ، فانهزموا من دانيث إلى تلّ
السّلطان .

١٠ واستتر قوم في الضّياع مِن العسكر فنَهبهم الفلّاحون وأطاقوهم ،
وغنم أهل الضّياع مِما طرحوه وقتَ هزيمتهم ما يفوتُ الإحصاء ،
وأخذ الكفار مِنْ هذا ما يفوتُ الوصف ، وغَنموا من الكراع
والسّلاح والخيام والدّوابّ وأصناف الآلات والأمتعة ما لا يحصى ،
ولم يقتل مُقدَّمٌ ولا مذكورٌ .

١٥ وقُتِل منَ المُسلمين نحو خمسمائة وأُسر نحوها واجتمع العَسكر
على تلّ السّلطان ، ورحلوا إلى النّقرة مخذولين مختلفين ، ونزلوا النّقرة ؛
وكان أونبا[٢] قد طلع أصحابه إلى حصن بزاعا ، وكان قد تقدّم
العسكر إليها ، فلمّا بَلَغَهم ذلك نَزَلوا ووصلوا إلى العسكر .

وتوجّهت العساكر إلى السّلطان وإلى بلادهم ، ووَصل طغتكين

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٢/ ٥٤٠ : « دانيث : بلد من أعمال حلب بين حلب وكفرطاب ».

(٢) لم نقع على هذا الاسم في المصادر التي بين أيدينا

مِنْ دمشق فتسلم رفنية[1] ممّن كانوا بها ، وأطلق لؤلؤ شمسَ الخواصّ من الاعتقال ، وسلّم إليه ما كان أقطعه من بزاعا وغيرها ، فوصل إلى طغتكين فردّ عليه رفنية ، وعاد إلى دمشق واستصحبه معه .

مقتل لؤلؤ

وأما لؤلؤ الخادم فإنه صار بعد مُلازمة القلعة يَنْزِلُ منها في الأحيان || ويركبُ ، فاتّفق أنّه خرج في سنة عشر وخمسمائة بعسكر حلب والكِتاب إلى بالس ، وهو في صورة متصيّد ، فلمّا وصل إلى تحت قلعة نادر قتله الجُند[2] . [١٣٥و]

آق سنقر

واختلفَ في خُروجه ، فقيل : إنّه كان حَمَل مالاً إلى قلعة دَوْسر ، وأودعه عند ابن مالك فيها ، وأراد ارتجاعه منه والعَوْد إلى حلب ، وكان السُّلطان قد أقطع حلبَ والرّحبة آق سنقر البرسقيّ[3] ، فواطأ جماعة من أصحابه على أن أظهروا مفارقته ، وخدموا لؤلؤاً وصاروا من خواصِّهِ ، وواطأهم على قتل لؤلؤ ، وأمّل أنهم إذا قتلوه تصحّ له أقطاع حلب فقتلوه .

وسار بعضُهم إلى الرّحبة فأعلمه ، فأسرع آق سنقر البرسقي المسير إلى حلب من الرّحبة ، وانضاف بعض عسكره إلى بقيّة القوم الّذين قتلوه ، وطمعوا في أخذ حلب لأنفسهم ، وساروا إليها فسبقهم ياروقطاش الخادم[4] ـ أحد خدم الملك رضوان ـ ودَخَل حلب .

(١) انظر خبر ذلك في ابن الأثير ٨ / ٢٧٢

(٢) في ابن القلانسي ١٩٨ : « وفيها وردت الأخبار من ناحية حلب بقتل لؤلؤ الخادم الذي كان غلب أمره فيها ؛ وعمل على قتل مولاه الملك ألبا رسلان بن رضوان في ذي الحجة منها بأمر دبره عليه أصحاب الملك المذكور » .

(٣) سترد ترجمته وتفصيل أمره عند الحديث عن تملكه حلب في فصل خاص آت ، بالصفحة ٢٢٧

(٤) في ابن القلانسي ١٩٩ : « الاصفهسلار يارقتاش الخادم متولّي اصفهسلارية حلب »

وقيل[1] : إنّ لؤلؤاً كان قد خاف فَأَخذ أمواله، وخرج طالباً بلاد الشّرق للنجاة بأمواله، فلمّا وصل إلى قلعة نادر قال سنقر الجكرمشيّ : « تتركونه يقتل تاج الدّولة ويأخذُ الأموال ويمضي ! » وصاح بالتّركية : « أرنب أرنب » فضرَبوه بالسّهام فقتلوه .

ولمّا خَرَج عن حلب أقامت القلعة في يد آمنة خاتون بنت رضوان يوْمَيْن[2] إلى أن وَصَل ياروقتاش الخادم مُبادراً فدخل حلب وَنَزَل بالقَصْر، وأخرجَ بَعْض عسكر حلب، وأوقع بالّذين قَتَلوا لؤلؤاً، وارتجع ما كان أخذوه من عسكر حلب[3]. [١٣٥ظ] وانهزَمَ بعضُ مَنْ كان في النّوبة فالتقَوا أقْ سنقر في بالس في أوّل محرّم سنة إحدى عشرة وخمسمائة .

ياروقتاش

٥

١٠

ولم يتسهَّل للبرسقي ما أمّلَ وراسل أهل حلب ومَنْ بها في التّسليم إليه فلم يجيبوه إلى ذلك .

– والناسخ يرسمها هنا على وجهين هما : ياروقطاش، وبعد سطور رسمها : ياروقتاش، مما يدل على ان ابن العديم نقل من مصدرين مختلفين ما ورد حرفياً . – في العظيمي : «يارقتاش» – وفي ابن الأثير ٨ / ٢٧٩ : «شمس الخواص ياروقتاش» .

(١) في بغية الطلب، مخطوط طوبقبو سراي، ٤ / ٢٨٩ و : « قال : ثم إن لؤلؤاً خاف فأخذ الأموال من قلعة حلب وسار طالباً بلاد الشرق، فلما وصل الى دير حافر قال سنقر الجكرمشي : تتركونه يقتل تاج الدولة ويأخذ الأموال ويمضي، فصاح بالتركية يعني : الأرنب الارنب، فضربوه بالسّهام فقتلوه » – ويلاحظ أنه أبدل « قلعة نادر » بذكر « دير حافر » – وفي ابن الأثير ٨ / ٢٧٩ : « فلما كان عند قلعة نادر نزل يريد الماء، فقصده جماعة من أصحابه الأتراك، وصاحوا : أرنب أرنب وأوهموا أنهم يتصيّدون ورموه بالنشاب فقتل » – وفي العظيمي بالورقة ١٩٦ ظ : « خرج لؤلؤ الخادم لزيارة صفّين فقتلته الوشاقية عند قلعة نادر » .

(٢) وردت العبارة نفسها في بغية الطّلب المخطوطة بالموقع المذكور قبل قليل .

(٣) تكررت هذه العبارة في الأصل فحذفنا المكرر واكتفينا بالاشارة هنا .

وكاتب ياروقتاش الخادم نجم الدين إيلغازي بن أُرتُق [1] لِيَصِلَ مِنْ ماردين ويدفع أق سنقر، وكاتب روجار صاحب أنطاكية أيضاً فوصل إلى بلد حلب، وأخذ ما قدر عليه من أعمال الشَّرقية، فحينئذٍ أيس البرسقيّ من حلب، وانصرف من أرض بالس إلى حمص ٥ فأكرَمَه خيرخان صاحبُها، وسار معه إلى طغتكين إلى دمشق فأكرمه، ووعده بانجاده على حلب.

وَهادَنَ ياروقتاش صاحبَ أنطاكية روجار، وحمل إليه مالا وسلّم إليه حصن القُبّة، ورتّب مسيرَ القوافل من حلب إلى القبلة عليه، وأن يؤخذ المكس منهم له.

١٠ ثم إنّ ياروقتاش طلع إلى قلعة حلب، وعزم على أن يعمل حيلةً يوقعها بالمقدّمين ويملكها مثل لؤلؤ، فقبض عليه مقدّمو القلعة بأمر بنات رضوان بعد تمام شهر [2] من ولايته، وأخرجوه من حلب وَوَلّوا في القلعة خادماً من خدم رضوان.

وردَّ أمر سلطان شاه وتقدمة العسكر وتدبير الأمور إلى عارض ١٥ الجَيْش العميد أبي المعالي المحسن بن الملحّى [3]، فدبّر الأمور وساسها؛ وضعفت حلب وَقَلَّ ارتفاعُها وخربت أعمالُها.

---

(١) أُرتُق: بضمّ الهمزة وسكون الراء، وضم التاء المثناة من فوقها وبعدها قاف - انظر وفيات الأعيان ١/٦١

(٢) في تاريخ العظيمي بالورقة ١٩٦ ظ: «وتسلّم أتابكية حلب يارقتاش الخادم شهوراً وعزل».

(٣) في ابن القلانسي ١٩٩: «إلى الأمير أبي المعالي المحسّن بن الملحمي العارض الدمشقي» - وفي تاريخ العظيمي: «وولي الأتابكية أبو المعالي بن الملحّى الدمشقي السُّلَمي» - وفي ابن الأثير ٨/٢٧٩: «وولي بعده أبو المعالي بن الملحى الدمشقي ثم عزلوه».

خبر ايلغازي بن أرتق

[١٣٦ و] ووصل إيلغازي بن أرتق إلى حلب فأنزلوه في قلعة || الشَّريف، ومنعوه من القلعة الكبيرة، واستولى على تدبير الأمور وتربية سلطان شاه في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وسلَّموا إليه بالس والقليعة.

وقبض على أبي المعالي بن الملحّى، وقصر ارتفاع حلب عما يحتاج إليه ايلغازي والتركمان الّذين معه، ولم ينتظم له حال. واستوحش من ٥ أهل حلب وجُندِها فخرج عنها إلى ماردين[١]. وبقيت بالس والقُليعة في يده، وأخرج ابن الملحّى من الاعتقال وأعيد إلى تدبير الأمور.

وأفسد الجُند الّذين ببالس في أعمال حلب فاستدعوا الفرنج، وخرجَ بعضُ عسكر حلب ومعهم قطعةٌ من الفرنج وحصروها، فوصل إيلغازي في جمع من التركمان إليها، فعاد عسكر حلب ١٠ والفرنج عن بالس وباعها لابن مالك، وعاد إلى ماردين، وبقي تمرتاش ولدُه رهينةً في حلب[٢].

ووصل في هذه السَّنة أتابك طغتكين وأق سنقر البرسقي إلى حلب، وراسلَ أهلها في تسليمها فامتنعوا من إجابته، وقالوا: «ما

---

(١) في ابن الأثير ٨/٢٧٩: «فلما تسلّمه لم يجد فيه مالًا ولا ذخيرة، لأن الخادم كان قد فرق الجميع . . . فلما رأى ايلغازي خلو البلد من الأموال صادر جماعة من الخدم بمال صانع به الفرنج وهادنهم مدة يسيرة».

(٢) في المصدر المذكور: «واستخلف بحلب ابنه حسام الدين تمرتاش» – وفي ابن القلانسي ١٩٩: «وفسد عليه ما أرادوه، فخرج منها وبقي ولده حسام الدين تمرتاش» – وفي العظيمي، بالورقة ١٩٧ و: «فخرج منها ورهن ولده تمرتاش» – انظر ابن الأثير ٨/٢٨٤

نُريد أحدًا من الشَّرق» وأنفَذوا واستدعَوا الفرنج من أنطاكية لدفعه عنهم ، فعاد أق سنقر إلى الرَّحبة وأتابك إلى دمشق .

ابن قراجا

واشتدَّ الغلاء بأنطاكية وحلب ، لأن الزَّرع عَرِقَ ولحِقَهُ هَوَاءٌ عند إدراكه أتلفَهُ ، وهَرَب الفلّاحون للخَوف ، ٥ واستدعى أهلُ حلب ابنَ قراجا من حمص ، فرتَّب الأمور بها ، وحصَّنها ، وسار إلى حلب ، ونزل في القَصر خوفاً من إيلغازي لِمَا كان بينهما .

وخَرَجَ أتابك إلى حمص ، ونهب أعمالها وشَعَّثها ، وأقام عليها مُدَّةً ، وعاد إلى دمشق لحركة الفرنج . وخرجت قافلةٌ من حلب إلى دمشق ١٠ فيها تجار وغيرهم ، وحملوا ذَخائرهم وأموالهم لما قد أشرفَ عليه [١٣٦ظ] أهلُ حلب . فلمّا وصلوا إلى القبّة نزل الفرنج إليهم ، وأخذوا منهم المكس ، ثم عادوا وقبضوهم وما مَعَهم بأسرهم ، ورفعوهم إلى القبّة ، وحملوا الرجال والنساء بعد ذلك إلى أفامية ، ومَعرّة النّعمان ، وحبسوهم ليقرّوا عليهم مالًا .

١٥ فراسلهم أبو المعالي بن الملحي ورغّبهم في البقاء على الهدنة وأن لا ينقضوا العهد ، وحمل إلى صاحب أنطاكية مالًا وهديّة ، فردّ عليهم الأحمال والأثقال وغير ذلك ، ولم يعدم منه شيء .

غارات الفرنج

وقوي طمعُ الفرنج في حلب لعدم النجد وضَعفها ، وغدروا ونقضوا الهدنة ، وأغاروا على بلد حلب ، ٢٠ وأخذوا مالًا لا يُحصيه إلّا الله ، فراسل أهل حلب أتابك طغتكين ، فوعدهم بالإنجاد ، فكسره جوسلين وعساكر الفرنج ، وراسلوا

صاحب الموصل وكان أمرُه مضطرباً بعد عوده من بغداد.

ونزل الفرنج بعد عودهم من كسرة أتابك على عزاز، وضايقوها، وأشرفت على الأخذ، وانقطعت قلوبُ أهل حلب إذ لم يكن بقي لحلب معونة إلَّا من عزاز وبلدها؛ وبقيّةُ بلد حلب في أيدي الفرنج، والشرقيّ خراب مُجدب، والقوتُ في حلب قليلٌ جدًّا، ومكوك الحنطة بدينار، وكان إذ ذاك لا يبلغ نصف مكوك بمكّوك حلب الآن، وما سوى ذلك مناسب له. ٥

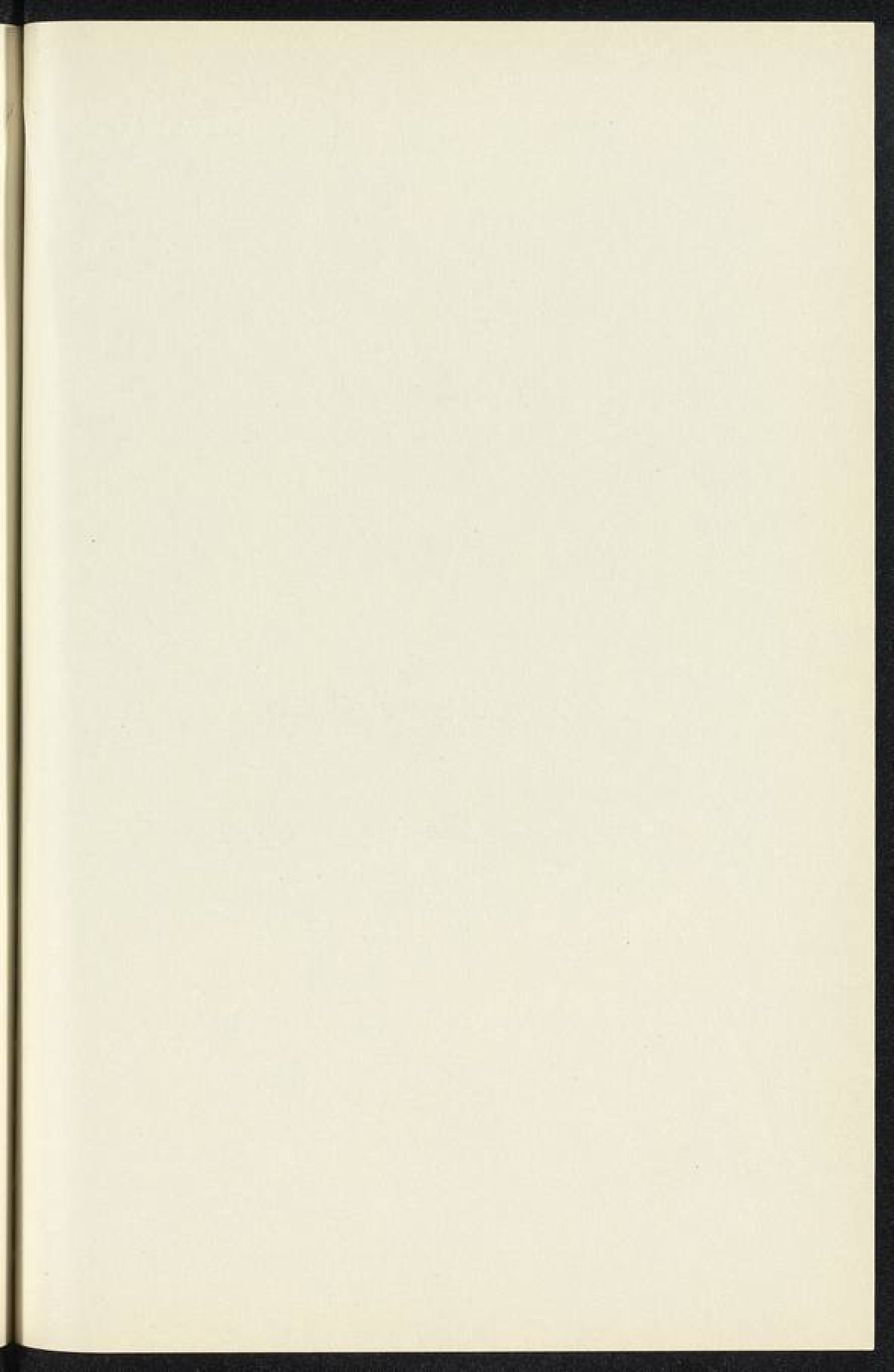
القسم الحادي والعشرون

ذكر

حلب في أيام نجم الدين إيلغازي بن أرتق

ملك إيلغازي في حلب - خبر سليمان بن إيلغازي - خبر بلك بن بهرام - نهاية إيلغازي

٥١١ هـ - ٥١٦ هـ



تملك إيلغازي في حلب

ويئس أهل حلب من نجدةٍ تصلهم من أحد من الملوك، فاتّفق رأيهم على أن سيّروا الأعيانَ والمقدّمين إلى إيلغازي بن أُرْتُق[1]، واستدعوه ليدفع الفرنج عنهم ‖ وظنّوا أنّه يصل في عسكر يفرّج [١٣٧ و] به عنهم، وضمنوا له مالًا يقسطونه على حلب يصرفه إلى العساكر.

٥ فوصل في جندٍ يسير والمدبّر لحلب جماعةٌ من الخدم؛ والقاضي أبو الفضل بن الخشّاب هو المرجوع إليه في حفظ المدينة والنظر في مصالحها؛ فامتنع عليه البلد، واختلفت الآراء في دخوله، فعاد فلحقه القاضي أبو الفضل بن الخشّاب[2] وجماعة من المقدّمين، وتلطّفوا به ولم يزالوا به حتّى رجع.

١٠ تسلم القلعة. ووصل إلى حلب، ودخلها، وتسلّم القلعة، وأخرج منها سائرَ الجند وأصحابَ رضوان وأنزل سلطان شاه بن رضوان وبنات رضوان في دار مِنْ دُورِ حلب.

وقبض على جماعةٍ ممّن كان يتعلّق بالخدم ويخدمهم، وأخذ منهم

---

(١) في ابن الأثير ٨/٢٨٨: «فأرسل أهل البلد إلى بغداد يستغيثون ويطلبون النجدة فلم يغاثوا وكان الأمير إيلغازى صاحب حلب ببلد ماردين يجمع العساكر والمتطوعة لغزاة، فاجتمع عليه نحو عشرين ألفاً».

(٢) في تاريخ العظيمي، بالورقة ١٩٧ ظ: «ونادى الناس بشعار نجم الدين بن أرتق، وشرّق إليه ابن الخشّاب وعاد صحبة العساكر الأرتقية ونزلوا قبليّ حلب في سنة ثلث عشرة».

ما كان صار إليهم من مال رضوان ومال الخدم الّذين استولَوْا على حلب بعده .

وراسل الفرنج في مالٍ يحمله عن عَزاز ليرحلوا عنها ، فلم يلتفتوا لقوّة أطماعهم في أمرِ الاسلام ؛ وكان إيلغازي يعجز بحلب عن قُوتِ الدّواب ، وحلب على حدّ التّلف . ٥

فلما عرف مَنْ بِعزَاز ذلك ويئسوا من دفع الفرنج سلّموها إلى الفرنج ، وراسلهم مَنْ بحلب في صُلحٍ يستأنفونـه معهم ، فأجابوا إلى ذلك لطفاً مِنَ الله بهم ، على أن يسلّموا إلى الفرنج تلّ هراق ويُؤَدُّون القطيعة المستقرّة على حلب عن أربعـة أشهر ، وهي ألف دينار ، ويكون لهم من حلب شمالاً وغرباً . ١٠

وزرعوا أعمال عَزاز وقوّوا فلاحها وعـادوا إلى أنطاكية وصار يدخل إلى حلب ما يتبلّغون به من القُوت .

[١٣٧ظ] وسار إيلغازي إلى الشّرق || ليجمع العساكرَ ويعودَ بها إلى حلب ، فسار إليه أتابك طغتكين ، والتقاه بقلعة دوسر ، ووافقه على ذلك ؛ وسارت الرّسل إلى ملوك الشّرق والتّركمان يستنجدونهم . ١٥

مقتل ابن بديع

وكان ابنُ بديع رئيس حلب عند ابن مالك بقلعـة دَوْسر ، فنزل إلى إيلغازي ليطلب منه العود إلى حلب ، فلمّا صار عند الزّورق ليقطع الماء إلى العسكر وَثَب عليه اثنان من الباطنيّة فضرباه عدّة سكاكين ، ووَقع ولداه عليهما فقتلاهما ، وقتل ابن بديع وأحد ولديه وجرح الآخر[١] . وحمل إلى القلعة فوثب آخر ٢٠

(١) في تاريخ العظيمي بالورقة ١٩٧ ظ : «وقُتل صاعد بن بديع وولداه بقلعةدوسر» .

من الباطنيّة وقتله ، وحمل الباطني ليقتل فرمى بنفسِه في الماء وغرق .

هجوم على الفرنج

وتوجّه إيلغازي إلى ماردين ومعه أتابك ، وراسلا مَنْ بَعُد وقَرُب من عساكر المسلمين والتركمان ، فجمعا عسكرًا عظيماً ، وتوجّه إيلغازي في عسكر يزيد عن أربعين ألفاً في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وقطع الفُرات مِنْ عَبْرِ بَدايا وسنجة[1] .

٥

وامتدّت عساكرُه في أرض تلّ باشر وتلّ خالد وما يقاربها ، يقتل وينهب ويأسر ، وغنموا كلّ ما قدروا عليه . ووصل مِنْ رُسُل حلب مَنْ يستحثّه على الوصول لتواصُل غارات الفرنج من جهة الأثارب وإياس أهلها من أنفسهم ، فسار إلى مرج دابق ثمّ إلى المسلمية، ثمّ إلى قنّسرين في أواخر صفر من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة.

١٠

وسارت سراياه[2] في أعمال الرّوج والفرنج يقتلون ويأسرون ، وأخذوا حصن || قسطون[3] في الرُّوج ، وجمع سرجال[4] صاحب أنطاكية الفرنج والأرمن وغيرهم ، وخرج إلى جسر الحديد ، ثمّ

[١٣٨ و]

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٣ / ١٦٢ : « سنجة : بفتح أوله وسكون ثانيه ثم جيم – قال الأديبي : هو نهر عظيم لا يتهيّأ خوضه لأن قراره رملٌ سيّال كلما وطئه الإنسان برجله سال به فغرّقه، وهو يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مضر – بالضاد المعجمة – » .

(٢) في المخطوطة جملة مكررة : «وقطع الفرات من عبر . . . وسارت» ولا محل لوجودها، وقد كتب فوق الجملة بخط دقيق « من لا . . . إلى » وهي دلالة الحذف ، وبدونها تستقيم الجملة ، على أن نبدل الكلمة في الأصل وهي «سراياهم» فنرسمها «سراياه» متابعة للسّياق .

(٣) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ٦٦ ، ومعجم البلدان لياقوت ٤ / ٩٧

(٤) سرجال هو : سير روجير « Sir Roger » ملك أنطاكية . – وفي ابن القلانسي ٢٠٠ : «ووردت الأخبار ببروز روجير صاحب أنطاكية منها فيمن جمعه وحشده من طوائف الافرنج ورجالة الأرمن » – في ابن الأثير ٨ / ٢٨٩ : « سيرجال » .

رحلوا ونزلوا بالبلاط بين جبلين ، ممـا يلي درب سرمدا[١] ، شمالي الأثارب ، وذلك في يوم الجمعة التّاسع من شهر ربيع الأول .

وضجر الأمراء من طُول المقام، وإيلغازي ينتظر أتابك طغتكين ليصل إليه ويتفقا على ما يفعلانه ، فـاجتمعوا وحثّوا إيلغازي على مُناجزة العدوّ فجدّد إيل غازي[٢] الأيمان على الأمراء والمقدّمين أن ٥ يُناصِحُوا في حربهم ، ويصابروا في قتال العـدوّ ، وأنهم لا ينكلون ويبذلون مُهَجهم في الجهاد ، فحلفوا على ذلك بنفوسٍ طيبةٍ .

وسار المُسلمون جرايد ، وخلّفوا الخيام بقنّسرين ، وذلك في يوم الجمعة السّادس عشر من شهر ربيع الأوّل ، فباتوا قريباً من الفرنج وقد شرعوا في عمارة حصن مطلّ على تل عفرين[٣] والفرنج يتوهّمون ١٠ أن المسلمين ينازلون الأثارب أو زَرْدَنا ، فما شعروا عنـد الصبح إلا ورايات المسلمين[٤] قد أقبلتْ ، وأحاطوا بهم من كل جانب .

وأقبل القاضي أبو الفضل بن الخشّاب يُحرِّض النّاس على القتال، وهو راكب على حَجَرٍ وبيده رمحٌ ؛ فرآه بعض العسكر فازدراه

(١) في ابن القلانسي ٢٠١ : « قد نزلوا في الموضع المعروف بِسَرمدا وقيل دانيث البقل بين أنطاكية وحلب » – وفي معجم البلدان لياقوت ٣/٨٣ : « سَرْمَدٌ : بلفظ السرْمَد ، الدائم ، موضع من أعمال حلب » – وفي دوسو ٢٢١ أنها منذ الحروب المصرية القديمة وتسمى Sarmad أو Sarmeda وهي عند المؤرخين الفرنجة Sarmit .

(٢) وردت منفصلة في الأصل فتركناها كذلك كما في ابن القلانسي وغيره من المؤرخين .

(٣) في الأصل : « تلّ عقبرين » ، ولكننا لم نقع عليها في الأماكن والمواقع ، فتابعنا رواية ابن الأثير حيث يقول ٨ / ٢٨٨ : « تل عفرين » – وكذلك رواية العظيمي ١٩٨و .

(٤) في ابن الأثير ٨ / ٢٨٨ : « ولم تعتقد الفرنج أن أحدًا يقدم عليهم لصعوبة المسلك إليهم ، فلم يشعروا إلّا وأوائل المسلمين قد غشيهم » .

وقال: «إنّما جئنا من بلادنا تبعاً لهذا المعمّم!» فأقبل على الناس، وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم، واسترهف هممهم بين الصفّين، فأبكى النّاس وعَظُم في أعينهم.

نصر المسلمين

ودار طغان أرسلان بن دملاج مِن ورائهم ونزل في خيامهم، وقَتَل من فيها ونهبها، وألقى || الله النصر على [١٣٨ظ] ٥ المسلمين، وصار من انهزم من الفرنج وقصد الخيام قُتل.

وحَمل التُّرك بأسرهم حملةً واحدةً من جميع الجهات صدقوهم فيها، وكانت السّهام كالجراد، ولكثرة ما وقع في الخيل والسَّواد من السّهام عادت منهزمةً وغُلِبَتْ فُرسانها، وطُحِنَت الرَّجالةُ والأتباع ١٠ والغلمان بالسّهام، وأخذوهم بأسرهم أسرى.

وقُتِل سرجال في الحرب[١]، وفقد من المسلمين عشرون نفراً منهم سليمان بن مبارك بن شبل، وسلم من الفرنج مقدار عشرين نفراً لا غير[٢]، وانهزم جماعة من أعيانهم.

وقُتِل في المعركة ما يقارب خمسة عشر ألفاً من الفرنج، وكانت ١٥ الوقعة يوم السبت وقت الظهر[٣]، فوَصَل البشير إلى حلب بالنّصر والمصافّ قائم، والنّاس يصلّون صلاة الظهر بجامع حلب، سمعوا صيحةً عظيمةً بذلك من نحو الغرب، ولم يصل أحدٌ من العسكر إلى

(١) في ابن الأثير ٨ / ٢٨٩: «وأما سيرجال صاحب أنطاكية فانه قتل وحمل رأسه» – في ابن القلانسي ٢٠١: «ووجد مقدمهم روجير صريعاً بين القتلى».

(٢) في العظيمي ١٩٨ و: «فلم يفلت من الفرنج دون العشرة مجرحين فلما وصلوا أنطاكية ماتوا ولم يقتل من المسلمين إلّا دون العشرة».

(٣) في ابن الأثير، بالصفحة المذكورة: «وكانت الوقعة منتصف شهر ربيع الأول».

نحو صلاة العصر.

وأحرق أهلُ القرى القتلى من الفرنج، فوجد في رماد فارس واحدٍ أربعون نصل نشّاب، ونزل إيلغازي في خيمة سرجال، وحمل إليه المسلمون ما غَنِموه، فلم يأخذ منهم إلّا سلاحًا يُهديه لملوك الإسلام، وردَّ عليهم ما حملوه بأسره. ٥

ولمّا حضر الأسرى بين يدي إيلغازي، كان فيهم رجلٌ عظيم الخلقة مشتهرًا بالقوّة، وأسره رجلٌ ضعيفٌ قصيرٌ قليلُ السّلاح، فلمّا حضر بين يدي إيلغازي قال له التركمان: «أما تستحي يأسرك مثل هذا الضّعيف وعليك مثل هذا الحديد؟» فقال: «والله ما أخذني هذا، ولا هو مولاي ‖ وإنّما أخذني رجلٌ عظيمٌ أعظم مني وأقوى، وسلّمني إلى هذا؛ وكان عليه ثوب أخضر وتحته فرس أخضر». [١٣٩ و] ١٠

وتفرّقت عساكر المسلمين في بلد أنطاكية والسويدية وغيرهما يقتلون ويأسرون وينهبون، وكانت البلاد مطمئنّة لم يبلغهم خبر هذه الوقعة، فأخذ المسلمون من السّبي والغنائم والدّواب ما يفوتُ الاحصاء. ولم يبقَ أحد من التّرك إلّا امتلأ صدره ويداه بالغنائم والسّبي. ١٥

دخول أنطاكية

ولقي بعضُ السّرايا بَغدوين الرويس[1] وابنَ صنجيل في خيلهما بالقرب من جبلة، وقد توجها لنصرة سرجال صاحب أنطاكية، فأوقع بهم التّرك، وقتلوا جماعةً وغَنموا ما قدروا عليه، وانهزم بغدوين وابنُ صنجيل، وتعلّقوا بالجبال.

(١) في الأصل: «الرولس» — باللّام قبل السين — وقد رأينا صحيحه عند ابن القلانسي وفي بغية الطلب ٧/٣٠٥ ظ: «الملك بغدوين الرّويس الفرنجي» وهو ملك القدس Baudouin.

ورحل إيلغازي إلى أرتاح ، وبادر بغدوين فدخل أنطاكية ، وسلّمت إليه أختُه زوجةُ سرجال خزائنَه وأمواله ، وقبض على أموال القتلى ودورِهم ، وأخذها وزوّج نِساء القتلى بمن بقي ، وأثبتَ الخيلَ وجَمعَ وحَشَد واستولى على أنطاكية ، ولو سبقه إيلغازي إلى أنطاكية ٥ لما امتنعت عليه .

ووصل أتابك إلى نجم الدين بأرتاح ، فعاد ونزل الأثارب ، وهجم الرَّبَض ونهبه ، وقتل مَنْ قدر عليه ، وخرج أحداثٌ مِنْ حلب ونهبوا حصنها فطلبوا الأمان فأمّنهم بعد أن استأخذت ، وسيّرهم إلى مأمنهم .

ورحل منها إلى زَرْدَنا وكانوا قد حصّنوها وأحكموا عمارتها ، ١٠ وقاتلها فطلبوا الأمانَ فأمّنهم ، وسيّرهم إلى أنطاكية || فلقيهم بعضُ [١٣٩ظ] التّركمان ، فنهبوهم وقتلوا بعضهم ومَضَوا إلى أهلهم .

وكان صاحبُ زَرْدَنا لمّا بلغه منازلتها حَمَل بغدوين والفرنج على الخُروج لاستنقاذها ، وقد عرفوا تفرّق التّركمان بالغنائم وعودهم إلى أهليهم ، وأنّ إيلغازي في عِدّةٍ قليلةٍ ، فبلغه ذلك فجدّ في قتالها حتى ١٥ أخذها – كما ذكرناه – ورتّب أصحابَه بها ، وتوجّه بمن بقي معه واستصحب معه عسكر أتابك وطغان أرسلان بن دملاج جرايد إلى دَانيث بعد أن ردَّ الأثقال والخيام إلى قنّسرين .

ووصل إلى دانيث في يومه ، فوجد الفرنج قد نَزلوها يوم فتحِهِ زَرْدَنا في مائتي خيمة وراجلٍ كثير ، وقيل إنهم كانوا يزيدون على ٢٠ أربعمائة فارس سوى الرَّجالة ، وذلك في رابع جُمادى الأولى ، والتقَوْا فحمل صاحب زَردنا وأكثرُ خيل الفرنج على عسكر دمشق وحمص

وبعض التركمان، فكشفوهم وانهزموا بين أيديهم، وسار ليتدارك أمر زَردنا، ويكبس الأثقال والخيامَ فعرف أخذها وتسيير الأثقال إلى قنّسرين فعاد.

نصر ايلغازي

وحمل بقيّة المسلمين على بغدوين ومَنْ كان معه، فقتلوهم وردّوهم على أعقابهم، فحينئذ حمل إيلغازي وطغتكين وطغان أرسلان فيمن بقي من الخواصّ على الفرنج، فكسروهم وقتلوا أكثر الرّجالة وبعض الخيّالة، وتبعوهم إلى أن دخلوا إلى حصن هاب[1]، وغنموا أكثر ما كان معهم. ٥

وعاد نجم الدّين وطغتكين وطغان أرسلان إلى دانيث، فوجدوا صاحب زَردنا والفرنج قد عادُوا بعد أن هزَموا ‖ مَنْ كان بين أيديهم من المسلمين ومعرفة أخذ المسلمين زَردنا، فلقوهم وقتلوا منهم جماعةً كثيرةً، وانهزم الباقون إلى هاب، وعاد التّرك بالظّفر والغنيمة. [١٤٠ و] ١٠

وحين بلغ مَن بقنّسرين مع الأثقال هزيمة مَن كان في مقابلة صاحب زَردنا رحلوا إلى حلب، وانزعج أهلُ حلب غاية الانزعاج، فوصلهُم البشيرُ بعد ساعتَيْن بما بَدّل غمهم سروراً وهمّهم حبوراً. ١٥

وكان البشيرُ مِن الفرنج قد مضى إلى بلادهم وأخبر بكسرة صاحب زَردنا للمسلمين، فزيّنوا بلادهم، وأظهروا فيها الجذل والمسرّة فوصل ابنُ صنجيل مِن الكسرة بعد ذلك، فانقلب سرورُهم حزناً وراحتهم تعباً وعناء.

وكان صاحب زَردنا، وهو القومص الأبرص واسمُه روبارد[2]، قد ٢٠

(١) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ٧٨ وارجع الى معجم البلدان ٤/٩٦٥ .

(٢) هو الكونت الأبرص روبير « Robert » .

سقط عن فرسه، فأدركه قومٌ من أهل جبل السمّاق من أهل مَرْيمين[١]، فقبضوه وحملوه إلى إيلغازي بظاهر حلب، فأنفذه إلى أتابك طغتكين، فقتله صبرًا.

ثم دخل إيلغازي إلى حلب، وأحضر الأسرى فأفرد[٢] أصحاب القِلاع والمقدَّمين وابنَ بيمند صاحب أنطاكية ورسول ملك الروم ونفرًا يسيرًا مِمّن كان معه مال فأخذه وأطلقهم، وبقي من الأسرى نيّف وثلاثون رجلًا بذلوا من المال ما رَغب عنه، فقتلهم بأسرهم.

وتوجّه من حلب إلى ماردين في جُمادى الأولى من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، ليجمع من التركمان مَن يعود به إلى بلد حلب؛ وكانت حلب ضعيفةً عن مقامه فيها، فخرج الفرنج إلى بلد المعرّة، فسبوا جماعةً، وأدركهم ‖ جماعة من الترك فرجعوا. [١٤٠ظ]

ثمّ خرج بغدوين من أنطاكية في عسكره ونزل على زور[٣]، غربيّ البارة ـ وهو حصن كان لابن منقذ وسلّمه إليهم ـ ولما جرَت الوقعة الأولى على البلاط عاد وأخذه، فقاتله بغدوين، وأخذه في جُمادى الأولى، وأطلق مَنْ كان فيه.

هروب بغدوين

ورحل إلى كفر روما[٤] فأخَذَ حصنها بالسَّيف، وقتل جميع من

(١) في الأصل: « مربمن » – ولم نقع على مثلها في معاجم الأماكن، ولعلّها «مريمين»، وقد ذكر ياقوت في معجمه ٥١٦/٤: « ومريمين أيضًا من قرى حلب مشهورة » فتكون كما صوّبنا بل لعلّها في رسمها قريبة من كلمة مرّين، انظر الصفحة ٢٤٨ الآتية.

(٢) في الأصل: « فافرد » – وفي طبعة المستشرق: «فرّد» – وقد حافظنا على الأصل.

(٣) في الأصل: « علا زور ».

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٢٨٨/٤: « كَفَرْ روما: قرية من قرى معرة النعمان،

كان فيه ، ووصلوا إلى كفرطاب ، وقد أحرق ابن منقذ حصنها، وأخذ رجاله منه خوفاً منهم ، فرمّوه ، ورتّبوا رحالهم فيه ، وساروا إلى سرمين ومعرّة مصرين فتسلّموها بالأمان ، ثم نزلوا زَردنا ، ورحلوا عنها إلى أنطاكية .

ومع هذا فغارات عسكر حلب متواصلة على ما يقرب منهم ، وتعود بالظَّفر والغنيمة .

جوسلين

ووصل جوسلين إلى بغدوين خاله وَقْت أخذه سَرمين، فأقطعه الرّها وتلّ باشر ، وسيّره إليها ، فأسرى إلى وادي بطنان[1] دفعتين ، وَإلى ما يلي الفُرات من جهة الشّام ، وقتل وسَبى ما يقارب ألف نفس . وأغار جوسلين على منبج والنّقرة وأعمال حلب الشرقية ، وأخذ كلّ ما وجده من < دواب >[2] ، وأسر رجالاً ونساء ، وأسرى إلى الرّاوندان[3] يتبع طائفةً من التّركمان كانت قطعت الفُرات ، فاقتتلوا فانهزم الفرنجُ وقُتل منهم جماعةٌ .

وفي صفر من سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وقعت مشاحنة بين والي الأثارب بلاق بن اسحاق صاحب نجم الدين إيلغازي وبين الفرنج فأسرى ومعه جماعة من عسكر حلب إلى أنطاكية ، فلقيهم عسكر

وكان حصناً مشهوراً خرّبه لؤلؤ السَّيفي المعروف بالجرّاحي المتغلّب على حلب بعد أبي الفضائل بن سعد الدولة بن سيف الدولة في سنة ٣٩٣ » .

(١) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ٦١ .

(٢) طمست في الأصل أخذناها عن طبعة المستشرق فقد رآها قبل أن يصيبها البلل .

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٢/٧٦١ : « الرّاوندان : قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة من نواحي حلب » .

أنطاكية فكسرهم ، وعاد فتبعه الفرنج || والتقوا ما بين تُرمانين[1]
وتلّ اغدي ، من فرضة لَيْلُون . [١٤١و]

ووصل في هذه السَّنة إيلغازي بجمعٍ كثير من التركمان ، وقطع
الفرات في الخامس والعِشرين من صفر ، وتوجّـه إلى تلّ باشر ، وأقام
٥ أياماً ولم يقاتلها ، ورحل إلى عَزاز يريد أخذهـا ، ولم يمـكّن أحداً من
التركمان من تشعيث ضياعها ، ورحل إلى أنطاكية وأقـام عليها يوماً
واحداً ، وأقام في أعمال الرّوم[2] أياماً يسيرة .

ثم خرج إلى قِنّسرين فتشوّشت قلوب التركمـان لأنهم أمّلوا
من الغنائم مثل السَّنة الخاليـة ، ولم يُقاتِل بهم حصناً ، ولا غنموا
١٠ شيئاً ، وباع الأسرى الّذين أسرهم في الوقعـة الأولى ، فعادوا إلى
بلادهم ، وبالغوا في التشفّي من المسلمين والقتل والسَّبي .

وجرى مِنْ نجم الدين إساءةٌ إلى بعض التركمان على شيء أنكره
عليهم ، فبالغ في هوانهم وحَلَق لحى بعضهم ، وقَطَع أعصابَهم ، فتفرّق
عسكره وبقي نفر يسيرٌ متفرّقين في أعمال حلب .

١٥ فطمع الفرنج وخرجوا إلى دانيث ، فوصل طغتكين وعسكرُ
دمشق ، واجتمعوا مع إيلغازي في عسكر يُقـاوم الفرنج ، فساروا
إلى الفرنج ، وهم في ألف فارس وراجل كثير ، فـدار التّرك حولهم
فلم يخرج منهم أحدٌ ، وكرهوا أن يعودوا على أعقابهم فتكون هزيمة ،

(١) في معجم البلدان لياقوت ٥/١٥ : « تُرمانين : بضم أوله وثانيه وفتح ثالثه ثم ألف ثم نونين بينهما تحتانية – قرية من أعمال الحليه لجنب ، وربما قيل فيها تلّ ترمانين » . وهي اليوم قرية عامرة من أعمال حلب فكلمة الحلية مصحّفة في السطر السابق .

(٢) يقترح المستشرق في كتابه عن الحروب الصليبية أن تكون الكلمة هنا : « أعمال الرّوج » .

فساروا نحو معرّة مصرين لا ينفرد منهم فارسٌ ولا راجل.

وأشرف الترك على أخذهم، ومَن خرج منهم قُتل، ومن وقفت دابّته تركها وأخذت، ولا يقدرون على الماء وهم على حالة الهلاك، وإيلغازي وطغتكين يردّان الناس || عنهم بالعصا، فنزلوا بقرب معرّة [١٤١ظ] مصرين، وعاد الترك عنهم إلى حلب، وعادوا إلى أنطاكية. ٥

وصالحهم إيلغازي إلى آخر سنة أربع عشرة، على أنّ لهم المعرّة وكفرطاب والجبل والبارة، وضِياعاً من جَبَل السُّمّاق برسم هاب، وضياعاً من ليلون برسم تل اغدي، وضياعاً من بلد عَزاز برسم عزاز.

وسار نجم الدّين إيلغازي إلى ماردين ليجمع العساكر. وهَدَم إيلغازي زَردنا في شهر ربيع الأوّل. وكان أهل حلب قد شكَوْا إليه ١٠ تجديدَ رسوم جدّدت عليهم في أيام رِضوان، لم تجر بها عادة في دولة العرب ولا دولة المصريّين ولا في أيام أق سنقر، فأمر بكشفِ مقدارها، فأخبر أنّها مبلغ اثني عشر ألف دينار في كلّ سنة، فرَسم بحذفها، ووَقّع لهم بذلك، وكتب لوحاً بذلك، وسَمّره على باب الجامع وذلك في هذه السّنة. ١٥

غدر الفرنج

وخرج الفرنج فقبضوا على الفلّاحين الّذين تحتَ أيديهم في هذه الأعمال من المسلمين وعاقبُوهم وصادروهم، وأخذوا منهم من الأموال والغلّات ما تقوَّوْا به، وكانت الضِّياع الّتي في أيدي المسلمين قد عمرت، واطمأنّوا بالصّلح، فغدر اللّعين جوسلين، وخَرَج فأغار على النّقرة[1] والأحص، واحتجّ بأنه أسرله والي ٢٠

(١) في الأصل: «المنقرة» وصحيحها ما أثبتنا فهي ترد صحيحة بعد سطرين.

منبج أسيرًا[١]، وأنه كاتب في ذلك فلم ينصف، وذلك في شوّال، وقتل
وسبى وأحرق كل ما في النّقرة والأحصّ؛ ونزل الوادي وعاثَ فيه.

ثم سار إلى تلّ باشر، ثمّ عاد وحشد وخرج وعمل كفعله الأول،
وأخذ في غارته الأولى المشايخ والعجايز والضعفاء، فنزع || عنهم ثيابهم [١٤٢و]
٥ وتركهم في البرد عُراةً، فهلكوا بأجمعهم.

فأنفذ والي حلب إلى بَغدوين في ذلك، وقال: «إنّ نجم الدّين لم
يترك هذه البلادَ خاليةً من العساكر إلّا ثقةً بالصلح» فقال: «ما لي
على جوسلين يد». وتتابعت من جوسلين غاراتٌ متعددة.

ثم خرج الفرنج من أنطاكية عقيب ذلك، وأغاروا على بلد شَيْزر
١٠ وأخذوا ما لا يُحصى، وأسروا جمعاً، وطلبوا المقاطعة الّتي جرَت عادتُهم
قبل الوقعة بأخذها، فبذل لهم ابنُ منقذ ذلك على أن يردّوا ما أخذوه،
فلم يجيبوه إلى ذلك، فجعل لهم مالاً[٢] حمله، وصالحهم إلى آخر السَّنة.

وهرب ملكُ العرب دبيس بن صدقة الأسديّ من المسترشد
والسلطان محمود، فوصل إلى قلعة جَعْبَر، فأكرمه نجم الدّولة مالك[٣]،
١٥ وأضافَه، ثمّ سار إلى إيلغازي إلى ماردين، وتزوّج ابنَته[٤] فاستدّ به

(١) في الأصل: «أسيرًا الى منبج» وقد سقطت الواو، فرددناها وأخرنا كلمة «أسيرًا» ليستقيم المعنى.

(٢) في الأصل: «فحمل إليهم مالًا حمله» — وهي مصحّفة صوبناها كما ترى.

(٣) في ابن القلانسي ٢٠٢: «وانهزم دبيس إلى قلعة جعبر مستجيرًا بصاحبها الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك فأجاره وأكرمه واحترمه. وقيل انه انعقد بينهما صهر».

(٤) في ابن الأثير ٢٩١/٨: «وفيها أرسل دبيس بن صدقة القاضي أبا جعفر عبد الواحد ابن أحمد الثقفي قاضي الكوفة إلى ايلغازي بن أرتق بماردين يخطب ابنته، فزوجها منه ايلغازي وحملها الثقفي معه إلى الحلة واجتاز بالموصل» — انظر خبر لجوئه إلى ايلغازي في ابن الأثير ٢٩٣/٨.

وأجاره ، ووصل معه الأموال العظيمة والنّعمة الوافرة ، وحمل إليه إيلغازي ما يفوتُ الإحصاء .

خراب حلب

فاشتغل إيلغازي بدبيس عن العبور إلى الشّام ، فخرب بلد حلب ، واستولى الفرنج على معظمه ، وأغار جوسلين إلى صِفِّين ، وسبى العربَ والتركمانَ ، ونزل بزاعا وقاتلها ، وأحرق ٥ بعضَ جدارها ، وصونع على شيّ ، ودخل بلده .

ثمّ هجم الفرنج ، في صفر من سنة خمس عشرة وخمسمائة ، الأثاربَ ، وقتلوا جماعةً وأحرقوها وأسروا من لم يعتصم بالقلعة .

ثمّ إنّهم في ربيع الآخر من السّنة ، نزلوا نواز[1] ، وزحفوا إلى الأثارب ثانيةً ، وأحرقوا الدُّور والغلّة . وسار ‖ بغدوين ، وأغار على [١٤٢ظ] ١٠ حلب ، وأخذ الناس والدوابّ من حاضر حلب ومن الفنادق[2] ، وأخذ ما يجلّ قدرُه من الماشية ، وأسر نحوًا من خمسين أسيرًا .

وصاح الصائحُ فخرج نفرٌ يسيرٌ من العسكر فظفروا بالفرنج وخلّصوا المواشي ، وعاد الفرنج إلى أعمالهم .

خبر سليمان بن إيلغازي

١٥ وكان النائب بحلب شمس الدّولة سليمان بن نجم الدين إيلغازي . وكان إيلغازي قد ولّى رئاسةَ حلب ، في سنة أربع عشرة في رجب ،

(١) في معجم البلدان لياقوت ٤/٨١٦ : « نَوَاز : بالفتح ثم التخفيف وآخره زاي – قرية كبيرة فيها تفاح كبير مليح اللون أحمر في جبل السمّاق من أعمال حلب » .

(٢) كذا في الأصل ، ولعلها : « الفنيدق » وهو موقع بظاهر حلب ؛ ولكننا لا نستطيع أن نقطع بالأمر لأننا لم نقع على مثل ذلك في المصادر الأخرى .

مكيّ بن قرناص[١] الحمويّ ، وجعله بين يديه ، فكتب إلى ولده ونوّابه يأمرهم بصُلح الفرنج على ما يريدون ، فصالحوهم على سرمين والجزر ولَيلون وأعمال الشمال على أنها للفرنج ، وما حول حلب للفرنج منه النّصف ، حتى أنّهم ناصفوهم في رحى العربية[٢] ، وعلى أن يهدم تلّ هراق بحيث لا يبقى للفئتين فيه حكم ، وطلبوا الأثارب فأجاب إيلغازي إلى ذلك ، فامتنع مَن كان فيها من التّسليم فبقيت في أيدي المسلمين .

وكان الـذي تولّى الصلح جوسلين وجفري ، وكان بَغدوين في القدس ، فلما وصل رضي بذلك ، وشرع في عمارة دَيْر خراب قديم ، بالقرب من سرمدا[٣] ، وحصّنه ثمّ أطلقه لصاحب الأثارب سير ألان دمسخين[٤] .

وأمر إيلغازي ولدَه باخراب قلعة الشَّريف المجدّدة بحاب وإخراج مَنْ كان فيها من جُند رضوان ، فأخرجهم شمس الدّولة وابن قرناص بعُذْر الإغارة على أعمال الفرنج ، وأغلقت أبواب حلب في وجوههم ، وتولّى الرئيس مكيّ بن قرناص خَرابها في جُمادى الآخرة .

واستنجد الملك طغرل بإيلغازي بن أُرتق على الكرج وملكهم

(١) في ابن الأثير ٨/٢٠٣ : «انسان من أهل حماة من بيت قرناص كان قد قدمه إيلغازي على أهل حلب وجعل إليه الرياسة» .

(٢) يذكر المؤرخون أن الرّحا كانت بظاهر باب الجنان ، وقد ترجم المستشرق هذه العبارة إلى الفرنسية فقال :

« La moitié du moulin de la femme arabe »

(٣) انظر دوسو ٢٢١ وحاشية الصفحة ١٨٨ السابقة .

(٤) هذه الكلمة غير منقوطة في الأصل ، والاسم قريب في الرسم من « Meschin » وهو « Alain Seigneur de Cerez » وقد ترجمه المستشرق برسم : «Sir AlanDe...» – انظر حاشية الصفحة ٢١٠ .

[١٤٣ و] داود، فسار || إليه في عالم عظيم، ومعه دُبَيس بنُ صدقة، فكسرهم المسلمون، ودخلوا وراءهم في الدَّرب، فكرَّ الكرج عليهم في الدَّرب، فانهزم المسلمون وتبعهم الكرج قتلًا وأسرًا. ونُهب لِدُبَيس ما مقداره ثلاثمائة ألف دينار، ووصل مع نجم الدين إيلغازي إلى ماردين سالمًا. ٥

عصيان سليمان

وأنفذ إيلغازي إلى ابنه سليمان بحلب يلتمس منه أشياء، فقَبَّحَ ذلك عنده، وقيل له أشياء أوجبت عصيانه على والده، فعصى وأخرج الملوك سلطان شاه وابراهيم وغيرهما من حلب، فمضوا إلى قلعة جعبر، ومدَّ يده في مصادرة أهل حلب وظلمهم والفساد.

وقيل: إن دُبَيس بن صدقة لما سار مع إيلغازي إلى الكرج ١٠ سأل إيلغازي في الطَّريق أن يَهَب له حلب وأن يحمل إليه دُبيس مائة ألف دينار يجمع بها التركمان ويعاضده حتى يفتح أنطاكية، فأجابه إيلغازي إلى ذلك، وأخذ يده على ذلك.

فلما وقعت كسرة الكرج بدا له من ذلك، فأنفذ إلى ولده سليمان وكان خفيفًا[١]، وقال له: «أظهر أنك قد عصيتَ عليَّ حتى ١٥ يبطل ما بيني وبين دُبيس». فحمله الجهلُ على أن عصى ونابذ أباه، ووافقه مكي بن قرناص والحاجب ناصر، وهو شحنة[٢] حلب وغيرها.

وقبض سليمان حجّاب أبيه فصفعهم وحلق لحاهم، ومدّ يده إلى أموال النّاس وظلمهم، فطمع الفرنج وقرّبهم سليمان، فنزلوا زردنا

(١) انظر خبر عصيان سليمان بن ايلغازي في ابن الأثير ٨/٣٠٣

(٢) الشِّحنة والشِّحنكيَّة: حاكم البلد أو صاحب الشرطة أو الأمير المشرف على حراسة المدينة، على ما يرد في تواريخنا القديمة – انظر معجم دوزي ١/٧٣٣.

وعمروها لابن صاحبها كليام بن الأبرص .

ثم سار الفرنج إلى باب حلب ، فكبسوا في طريقهم حاضرَ طَيّ وغيرها ، فخرج إليهم الحاجب ناصر والعسكر ‖ فكسروهم وقتلوا منهم جماعة . [١٤٣ظ]

٥ وخرج بغدوين في جمادى الآخرة ، فنازل خناصرة ، وأخذها وخرّبها ، وحمل باب حصنها إلى أنطاكية ، ونزل برج سينا ففعل به كذلك ، وكذلك فعل بغيرها من حصون النّقرة والأحصّ ، وسبى وأحرق ونهب .

وعاد فنزل صِلدع – على نهر قُوَيْق – ، وخرج إليه اترد[1] بن تُرك

١٠ طالباً منه الصّلح مع سليمان ، فقال : « على شرط أن يعطيني سليمان الأثارب حتى أحفظه ، وأنا أذبّ عنه وأقاتل دونه » . فقال له : « ما يجوز أن نسلّم ثغرًا من ثغور حلب في بدوّ مملكته ، بل التمسْ غير هذا مما يمكن ليوافقك عليه » فقال له : « الأثارب لا يقدر صاحب حلب على حفظها ، فإني قد عمرتُ عليها الحصون بما دارت ، وأنا

١٥ أعلمكم أنها اليوم تشبه فرساً لفارس قد عطبت يداها ، وللفارس هُرْيِ[2] شعير يعلفها رجاء أن تبرأ ويكسب عليها ، فنفد هُري الشّعير ، وعطبت الفرس ، وفاته الكسب » . ثمّ رحل نحوها ، فحصرها ثلاثة أيام ، واتّصل به ما أوجب رحيله إلى أنطاكية .

استسلام سليمان

ولما بلغ إيلغازي إصرار ولده على العصيان ضاقت عليه

٢٠ الأرض ، وأعمل في الوصول إليه وأخذ حلب منه ،

---

(١) لعله اتسز بن ترك .

(٢) الهُرْي : بالضم – بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان ج أهراء .

فكاتبه أقوام وعرّفوه أنْ ما بحلب من يدفعه عنها ، فسار حتى وصل إلى قلعة جعبر فضعفت نفس ابنه سليمان عن العصيان على أَبيه ، فأنفذ إليه من استحلفه على الصّفح عنه والاحسان إليه وإلى من حَسَّنَ لـه العصيان مثل ابن قرناص وناصر الحاجب ، وأكّد الأيمانَ على ذلك[١] .

[١٤٤ و] ودَخل حلب في أول شهر رمضان ‖ فخرج الناس للقائه ، ودخل إلى القصر ، وأحسن إلى أهل حلب ، وسامحهم بشيء من المكوس ، وصَرَف الشّحنة الّذي كان يؤذي الناس في البلد . ٥

وقبض على الرّئيس مكي بن قرناص وعلى أهـله ، وشقّ لسانه وكحله[٢] وأخذ ما وُجد له ، وسلّم أخاه إلى من يعذّبه ويستصفي ماله . ١٠

وكحل ناصر الحاجب[٣] ، فعني بـه مَنْ تولّى أمره فسملت[٤] إحدى عينيه ، وعرقب[٥] طاهر بن الزائر ، وكان من أعوان الرئيس مكي .

وأعاد الملوكَ أولاد رضوان من قلعـة جعبر إلى حلب ، وخطب

(١) في ابن الأثير ٨/٣٠٣ : « فلم يشعر به سليمان حتى هجم عليه ، فخرج إليه معتذرًا ، فأمسك عنه » .

(٢) في ابن الأثير ٨/٣٠٦ : « وقطع يديه ورجليه وسمل عينيه فمات وأحضر ولده وهو سكران فأراد قتله فمنعه رقة الوالد فاستبقاه فهرب إلى دمشق » .

(٣) في ابن الأثير ٨/٣٠٣ : «وقبض على من كان أشار عليه بذلك ، منهم أمير كان قد التقطه أرتق والد ايلغازي ورباه اسمه ناصر ، فقلع عينيه وقطع لسانه » .

(٤) في الأصل : « فسلمت » بتقديم اللام على الميم ؛ وهو تصحيف صوابه كما أثبتنا ، وسَمَلَ عين فلان : فقأها بحديدة محماة وقلعها .

(٥) عَرْقَب الدابّة : قطع عرقوبها . والعُرْقوب : كجُمْهُور : عصب غليظ موتّر فوق عقب الانسان .

بنت الملك رضوان ، وتزوّج بها ، ودخل بها بحلب . وولّى رئاسة حلب سلمان بن عبد الرزّاق العجلاني البالسي ، وولّى ابن أخيه بدر الدّولة سليمان بن عبد الجبار نيابته في حلب[1] ، وصالح الفرنج مدّة سنة كاملة ، وأعطاهم من الضياع ما كان في أيديهم أيّام مملكتهم ٥ الأثارب وزردنا[2] .

موت ابن الموصول

وسار في محرّم من سنة ستّ عشرة وخمسائة إلى الشرق ليجمع العساكر ، فمات وزيرُه بحلب أبو الفضل بن الموصول في صفر وولّي الوزارة أبو الرجاء بن السرطان .

خبر بلك بن بهرام

وعبر إيلغازي وبلك في سابع عشر شهر ربيع الآخر الفُرات ـ ١٠ وكان بلك غازي ابن أخيه بهرام بن أرتق ، واستدعاه من أعمال الرُّوم وبيده عدة قلاع بالقرب من ملطية ـ وصحبتها عدّة من التُّركمان دون ما جرت عادته باستصحابه ، فعزل أبا الرجاء بن السرطان عن الوزارة ، وقبض عليه لسعاية سُعي به إليه عليه .

ونَزَلَ إيلغازي زَردنا ، نَزَل عليها في || العشرين من جُمادى الأولى ، [١٤٤ظ] ١٥ وحصرها أياماً وأخذ حوشها . وكان صاحبها قد سمع حين عبر إيلغازي الفُرات أنه ينزلها ، فجمع أصحابَه واستحلفهم على المصابرة من وقت نزولهم عليها مدّة خمسة عشر يوماً ، وحلف هُو لهم على أن ينجدهم ،

(١) في ابن الأثير ٨/٣٠٦ : « واستناب بحلب سليان ابن أخيه عبد الجبار بن أرتق ولقبه بدر الدولة » .

(٢) انظر خبر ذلك في ابن القلانسي ٢٠٩

ومضى على أن يستجيش ، فان جازت هذه المدّة ولم يصلهم فإنّه يبتاع دماءهم بكلّ ما يملكه . وقال لهم : « واللهُ لكم عليّ من الشاهدين ، لئن لم يخلصكم إلا إسلامي إنْ قبلَه أسلمتُ على يديه لخلاصكم » .

وخرج حتى وصل إلى بغدوين صاحب أنطاكية ، وهو بأكناف طرابلس في حكومة بينه وبين صاحبها ، فأخبره بعبود إيلغازي وبما بلغه من قصده زَردنا ، فقال : « مذ حلفنا له وحَلَف لنا ما نكثنا ، وحفظنا بلده في غيبته ونحن شيوخ ، وما أظنه يَغْدرُ ، بل ربّما قصد طرابلس أو قصدني في القدس ، لأنني ما صالحته إلّا على أنطاكية وأعمالها ، بل يجب أن تعود إلى أفامية وكفرطاب وتكشف ما يتجدد » . فعاد وكشف الأمر .

وسيّر إلى بغدوين فأعلمه بنزوله على زردنا ، فصالح صاحب طرابلس ، وشرط عليه الوصول إليه . ووصل أنطاكية ، واستدعى جوسلين ، ونصب المسلمون مجانيق أربعة على زَردنا ، وأخذوا الفصيل الأوّل ، فوَصل الفرنج بعد أربعة عشر يوماً من مُنازلة المسلمين لها ، فنزلوا تحت الدَّيْر .

وبلغ الخبر إيلغازي ، فترك زردنا وتوجّه نحوهم ، فنزل نوَاز ، وطلب أن يخرج الفرنج من المضيق إلى السَّعة فلم يخرجوا ، فرحل إلى تلّ السّلطان ، وأتابك طغتكين في صحبته ، فخرج الفرنج فنزلوا على نواز || وهجموا ربض الأثارب وأحرقوا البيدر والجدار . [١٤٥ و]

ودخل صاحبُها يوسف بن ميرخَان[1] قلعتَها ، ونزلوا أَبين ، ورحلوا

---

(١) في تاريخ العظيمي بالورقة ١٩٩ ظ : « يوسف الحرامي » .

منها فنزلوا دانيث[١]، وأقاموا عليها فلم يصلهم أحد، فعادوا إلى بلادهم، فعاد إيلغازي فنزل زَردنا، وهجم الحوش الثاني، وقتل جماعة من الفرنج.

نهاية إيلغازي

مرض ايلغازي

فعاد الفرنج ونزلوا تحت الدَّيْر، فرحل إيلغازي إلى نواز، وأقام ثلاثة أيام يزاحف الفرنج وهم لا ٥ يخرجون إلى الصَّحراء، فاتفق أن أكل إيلغازي لحمَ قديدٍ كثيراً وجوزاً أخضر وبطيخاً وفواكهَ، فانتفخ جوفُه وضاق نَفَسُه، واشتدَّ به الأمر، فرحل إلى حلب، وتزايد به المرض، فسار طغتكين إلى دمشق وبلك غازي إلى بلاده.

١٠ ودخل إيلغازي ليتداوى بحلب، فنزل القصر، ولم يخلص من علّته. وخرج عسكر حلب في ألف فارس إلى تُبَّل[٢] من عمل عزاز، ومعهم أمراء منهم دَولب[٣] بن قتلمش، فنهبوا وعادوا؛ فوقع عليهم عند حربل كليام[٤] في أربعين فارساً، فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة.

(١) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ١٧٦ وارجع إلى معجم البلدان لياقوت ٢/ ٥٤٠.

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٨٢٣/١ : « تُبَّل : بالضم ثم الفتح والتشديد ولام — من قرى حلب ثم من ناحية عزاز بها سوق ومنبر ».

(٣) في تاريخ العظيمي بالورقة ٢٠٠و : « وأغار دولاب بن قطلمش على بلاد اعزاز فقتله كليام صاحب عزاز .

(٤) هو (غليوم Guillaume). — وأما حربل فلم تقع لنا في المعاجم التي بين أيدينا .

وفي شهر رجب من هذه السنة، ظفر بلك غازي باللّعين جوسلين وابن خالته قلران[1] بالقُرب من سروج، فأسرهما وأسر ابن أخت طنكريد، وقد كان أسره في وقعة ليلون، واشترى نفسه بألف دينار وأسر ستّين فارساً.

٥ وطلب من جوسلين وقلران أن يسلّما ما بأيديهما من المعاقل فلم يفعلا، وقالا: «نحنُ والبلاد كالجمال[2] والحدج، متى عقر بعير حُوّل رحله إلى آخر، والذي بأيدينا قد صار بيد غيرنا». فأخذهما ومضى إلى بلده.

[١٤٥ظ] ووَصَل ‖ الفرنج بعد ذلك من تلّ باشر[3] في شعبان، وكبسوا ١٠ تلّ قبّاسين[4]، فخرج النائب ببزاعا مع أهلها فالتقوا، وانهزم المسلمون وقتل منهم تسعون رجلا.

موت ايلغازي

وأمّا إيلغازي فأقام أياماً، وصَلح مِنْ مرضه، وسار إلى ماردين، ثم خرج منها يريد ميّافارقين، فاشتدّ مرضُهُ في الطّريق، وتوفي بالقرب من ميّافارقين بقرية يقال لها «عجولين»[5]، ١٥ في أول شهر رمضان من سنة ستّ عشرة وخمسمائة.

---

(١) هو (غاليران Galéran) – في ابن القلانسي ٢٠٨: «وابن خالته كليام».

(٢) الحِدج: بالكسر، هو الحمل يشد على البعير.

(٣) انظر تعليقنا على موقع هذه القلعة في الصفحتين ١٤٨، ١٥٨ وارجع الى كتاب سوريا في عهد المالك لديمومبين ص ٩٢ والحاشية عن هارتمان.

(٤) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ١٢٢ السابقة وارجع إلى معجم البلدان لياقوت ٨٦٩/١

(٥) في ابن القلانسي ٢٠٨: «وورد الخبر بوفاة الامير نجم الدين إيل غازي بن أرتق بعلّة عرضت له، وهو نازل في قرية تعرف بالفحول من عمل ميا فارقين من ديار بكر، في السادس من شهر رمضان من السنة» – ولم نقع في معاجم البلدان على ذكر لاسم قرية «الفحول» او «عجولين»؛ ولعل ابن القلانسي صحّف كلمة «العجول» أو «عجولين» إلى الفحول.

القسم الثاني والعشرون

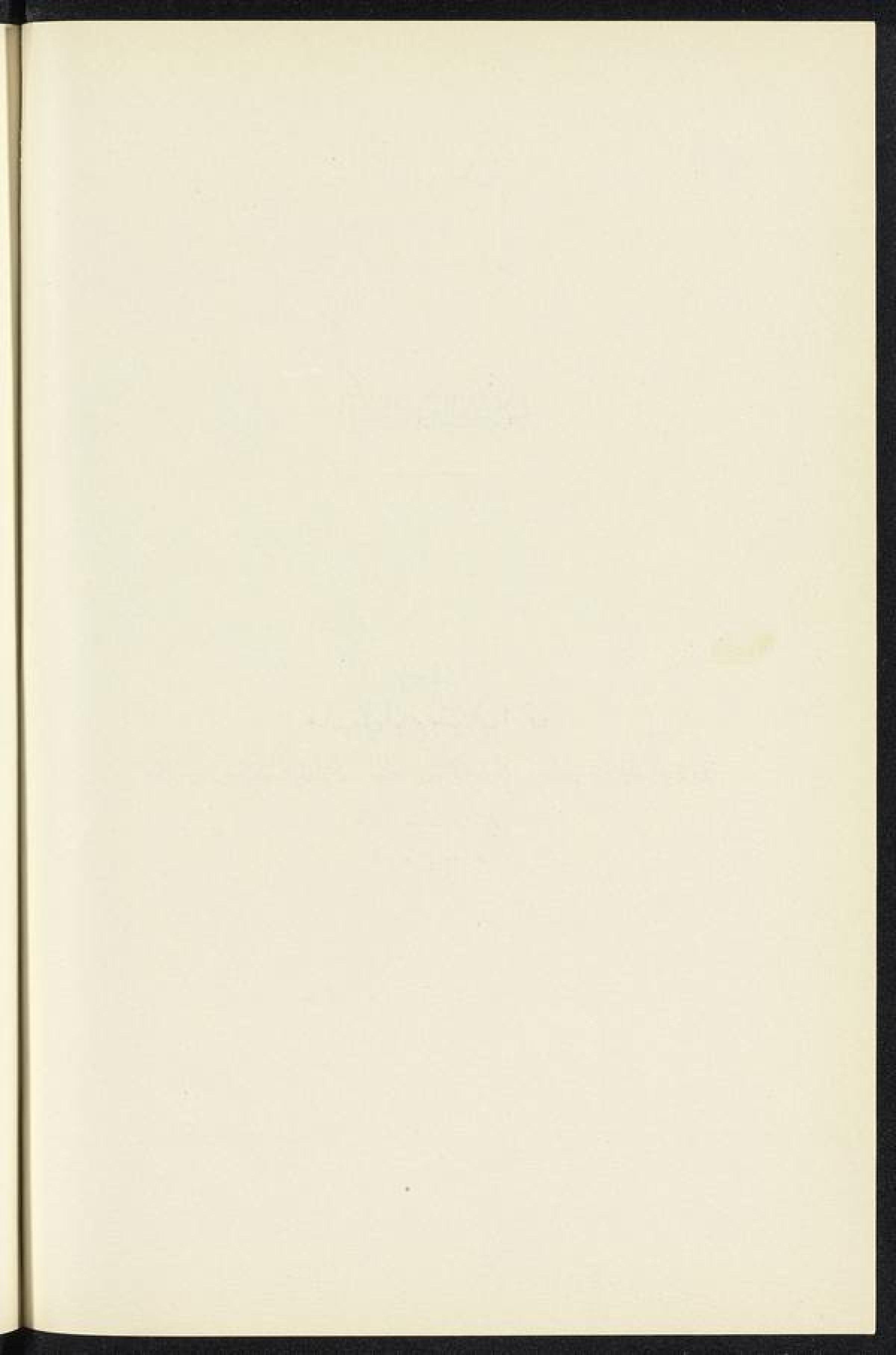
ذكر

حلب في أيام بقية بني أرتق

مُلكُ سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ـ مُلكُ بلك بن بهرام بن أرتق ـ مُلكُ تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق

مُلكُ آق سنقر البرسقي

٥١٦ هـ ـ ٥٢١ هـ



ملك سليمان بن عبد الجبار بن أرتق

وملك ابنهُ سليمان ميّافارقين، وابنه تمرتاش ماردين، وابنُ أخيه بدر الدّولة سليمان بن عبد الجبار بن أُرتق حلب. ولما سمع صاحب أنطاكية بوفاته حشد عسكره وجماعة من الأرمن، ونزل وادي بزاعا، وعاث فيه وأفسد ما قدر عليه، وحمل إليه أهلُ «الباب» من الوادي مالًا وخدموه.

فرحل إلى بالس وقاتلها بالمنجنيقات، وقرّروا على بالس مع ابن مالك مالًا يحمل إليه، فأسرف في الطلب وكان ببالس جماعة من التركمان ومن خيل حلب، فخرج أهلها والخيل التي عندهم واقتتلوا، فقُتِل من الفرنج جماعةٌ من المقدّمين، وظفر المسلمون أحسن ظفر.

فرحل يغدوين إلى الوادي وقد وصل ‹ سليمان بن ›[1] إيلغازي فحصر البيرة، وتسلّم حصنها على أن يؤمّن أهلها على أنفسهم فأخذهم وسار بهم إلى أنطاكية، وتتابعت غارات الفرنج حول حلب إلى آخر سنة ستّ عشرة وخمسمائة.

وولّى بدر الدّولة سليمان الوزارة بحلب أبا الرّجاء ابن السرطان ‹ سَعْد ›[2] الله بن هبة الله بن السّرطان، في صَفَر، بعد ما قبضَ عليه || إيلغازي — كما تقدم ذكره — [١٤٦ و]

(١) هذه الكلمة مطموسة في الأصل رأينا ان نملأها بما ترى متابعة للسياق.

(٢) هذه الكلمة غامضة في الأصل، قد أصابتها رطوبة فطمستها — وهي في تاريخ

وجدّد بدرُ الدّولة المدرسة الّتي بالزّجاجين بحلب، المعروفة ببني العجمي، بإشارة أبي طالب بن العجمي. وذكر لي أنّه عزم على أن يقفها على الفرق الأربع، ونقل آلتها من كنيسة داثرة كانت بالطّحّانين بحلب.

٥ وفي العاشر من شهر صفر من سنة سبع عشرة وخمسمائة، استقر الصّلح بين بدر الدّولة صاحب حلب وبين بغدوين صاحب أنطاكية، على أن يسلّم بدر الدولة إليه قلعة الأثارب فتسلموها[1]، وصارت لصاحبها أوّلاً سيرألان دمسخين[2]، وبقيتْ في يده إلى أن مات، وكانت في يد الحاجب جبريل بن برق[3]، فعوّضه بدر الدّولة عنها شِحنكيّة حلب. ١٠

مُلك بلك بن بهرام بن أرتق

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر صفر، سار بغدوين صاحب أنطاكية

العظيمي ٢٠٠ ظ: «أبو الرجاء بن السرطان» من غير ذكر لاسمه – وفي الزبد والضرب بالورقة ١٣ و: «ولّى بدر الدولة سليمان الوزارة بحلب أبا الرجاء سعدالله بن هبة بن السرطان» والزبد ينقل عن الزبدة لذلك تابعناه – ارجع الى الصفحة ١٧٣ بالمتن.

(١) في ابن الأثير ٣١١/٨: «وكان بحلب حينئذ بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق – وهو صاحبها – ولم يكن بالفرنج قوة وخافهم، فهادنهم على أن يسلم الأثارب ويكفوا عن بلاده، فأجابوه إلى ذلك وتسلموا الحصن وتمت الهدنة بينهم».

(٢) مرّ بنا هذا الاسم في ص ١٩٩ غير منقوط، وهنا وضع له الناسخ نقطة على الخاء واثنتين تحت الياء فأصبح (دمسخين) وقد اقترح المستشرق في حاشية ترجمته أن تكون «Meschin» تصحيفاً لكلمة «Medecin» وهو الطبيب بالفرنسية؛ ولم نقع عليه في المصادر الأخرى لنقض النظرية أو قبولها.

(٣) هذه الكلمة غير منقوطة كذلك، فلهذا حرنا كما حار المستشرق في ضبطها فلعلها «برق» أو «يُرق York»!

ليقاتل نور الدّولة بلك بن بهرام بن أُرتق ، وكان محاصرًا قلعة كركر[١] ، فالتقيا على موضع اسمه « اورش » بالقرب من قنطرة سنجة[٢] ، فكسره نور الدّولة بلك ، وأسره ، وقتل معظم عسكره ومقدّميه ونهب < خيمه > ، وفتح < الكركر >[٣] بعد جُمعة ؛ وكان في دون عدّة الفرنج. وجعل بغدوين في خرتبرت[٤] مع جوسلين وقلران .

ثمّ إنّ نور الدولة بلك عبر الفُرات ونزل على حلب وضايقها ، ونزل من قبليّها ، ثم انتقل إلى بانقوسا[٥] وأقام أيّاما ، ورحل إلى أرض النّيرب[٦] ، وجبرين[٧] ، وأمر بحرق الغلّة وأخذ الدّواب .

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٦/ ٢٦٢ : « كَرْ كَر : بالفتح ثم السكون وكاف أخرى وراء – . . حصن بين سميساط وحصن زياد ، وهو قلعة وقد خربت » – وحصن زياد ليس إلّا خربوط أو (خرتبرت) – وقد مرّ بنا ذلك من قبل.

(٢) مرّ بنا هذا الاسم من قبلُ ، وهو حيناً بالصاد وحيناً بالسين ، فارجع إلى تعليقنا في حاشية الصفحة ١٨٧ ، وانظر في معجم البلدان لياقوت ٣/١٦٢

(٣) كلمتان مطموستان الآن ، وقد قرأهما المستشرق والمخطوطة لم تصب بهذا البلل العظيم ، فنقلناها عنه ص ٦٢٦ ، وعن ابن الأثير ٨/٣١٣

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٢/٤١٧ : « خرتبرت : بالفتح ثم السكون وفتح التاء المثناة وباء موحدة مكسورة وراء ساكنة وتاء مثناة من فوقها – هو اسم أرمني ، وهو الحصن المعروف بحصن زياد الذي يجيء في أخبار بني حمدان ، في أقصى ديار بلاد بكر من بلاد الرّوم ، بينه وبين ملطية مسيرة يومين وبينهما الفرات » – وقد قلنا قبل سطور إنه « خربوط » ، وقد رسم في مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ٨/١١١ : « خرت برت ».

(٥) في معجم البلدان لياقوت ١/٤٨٢ : « بانقُوسا : بالقاف – جبل في ظاهر مدينة حلب من جهة الشمال » – وقد أصبح اليوم داخل المدينة ، وما يزال معروفاً بهذا الاسم.

(٦) النَّيْرَب : قرية قديمة كانت قائمة على تلّ مرتفع ، وهي في الجنوب الشرقي من حلب على بعد عشرة كيلومترات ، وما تزال تحمل هذا الاسم إلى اليوم .

(٧) جبرين : قرية شرقي حلب قريبة من النيرب .

ومضى قطعة من عسكره إلى حدادين[١] ، فأخذ أحدهم عنزاً ، فرماه بعض فَلّاحي الضيعة بسهم فقتله فحصرت مغارتها وأخذت بعد أن امتنع أهلها من التسليم ، فدخّنوا [١٤٦ظ] على المغارة فاختنق بها مائة وخمسون .

وخنق في مغارة تلّ عبّود وتعجين جماعة وسبوا نساء عفر تنّور[٢] وأولادها وباعوا بعضهم واستعبدوا بعضاً وأخذ لاهل حلب جشير[٣] خيل ثلاثمائة رأس ، وكان حريق الزرع من رهقات[٤] بلك وكان سبباً للغلاء العظيم .

دخوله حلب

وفي صباح يوم الثلاثاء ، غرة جمادى الأولى من سنة سبع عشرة وخمسمائة ، تسلّم مدينة حلب سلّمها إليه مقلّد بن سقويق بالأمان ومفرّج بن الفضل ، ونودي بشعار بلك من عدّة جهات ، وكسر باب أنطاكية ، وأخربت ثلمة من غربي باب اليهود .

وفي يوم الجمعة رابع الشهر تسلّم القلعة وجلس بها بعد ما نزل بدر الدّولة منها بيوم ؛ وقرر حالها ، وأخرج سلطان شاه بن رضوان ، وسيّره إلى حرّان ، وكان قد فتحها في شهر ربيع الآخر خوفاً منه .

ثم إنّه سار إلى البارة وهجمها ، وأسر الأسقف الّذي بها وقيّده ، ووكّل به ، ورحل إلى كفرطاب فغفل الموكّل به فهرب إلى

(١) لم تقع على موقع القرية في معاجم البلدان التي في أيدينا ، وقد رسمت بالذال المنقوطة بعد الحاء في الأصل المخطوط .

(٢) « تلّ عبّود » ، « تعجين » ، « عفر تنّور » : أعلامٌ لم تقع على تحديد لها أو تفسير في المعاجم التي بين أيدينا .

(٣) الجشير : الجُوالق الفخم .

(٤) الرَّهق : اسم من الإرهاق وهو حمل الانسان على ما لا يطيقه ، وهو الإثم .

كفرطاب [١] ، فعزم على قتال حصنها واسترجاع الأسقف في يوم الثلاثاء الثاني عشر من جمادى الآخرة .

أسرى الفرنج

فوصله مَنْ أخبره أنّ بغدوين الرويس وجوسلين وقلران وابن اخت طنكريد وابن أخت بغدوين وغيرهم من الأسرى الذين كانوا مسجونين بجب خرتبرت عاملوا قوماً من أهل حصن خرتبرت فأطلقوهم [٢] ، ووثبوا على الحصن فملكوه ، وأخذوا كلّ ما كان لنور الدولة فيه وكان جملة عظيمة ، فقال جوسلين : « كنا قد أشرفنا على الهلاك والآن فقد خلصنا ، والصواب أن نمضي ونحمل ما قدرنا عليه » . فما سمحتْ نفس بغدوين بترك الحصن || والخروج منه . [١٢٧ و]

فاتّفق رأيهم على خروج جُوسلين ، وحلّفوه على أنّه لا يُغيّر ثيابه ولا يأكل لحماً ولا يشرب إلا وقت القربان إلى أن يجمع جموع الفرنجة ويصل بهم إلى خرتبرت ويخلّصهم .

وأما بلك فإنّه سار حتّى نزل على خرتبرت ففتحه بالسّيف في ثالث وعشرين من رجب ، وقتل كل من كان به من أصحابه [٣] الّذين كفروا نعمته ومن كان فيه من الفرنج ، ولم يستبقِ سوى بغدوين الملك وقلران وابن أخت بغدوين ، وسيّرهم إلى حرّان وحبسهم بها .

---

(١) في تاريخ العظيمي ٢٠١ و : « هرب من عسكر بلك اسقف البارة ، وخلص » .

(٢) في ابن الأثير ٣١٣/٨ : « فأعمل الفرنج الحيلة باستمالة بعض الجند فظهروا وملكوا القلعة » – في ابن القلانسي ٢١٠ : « عملوا الحيلة فيما بينهم وملكوا القلعة وهربوا » .

(٣) في ابن القلانسي ٢١٠ : « وفي الشهر المذكور توجّه الأمير نور الدولة بلك في عسكره إلى خرتبرت وضايق قلعتها إلى أن استعادها من الافرنج الواثبين عليها ، ورتب فيها من يحفظها ويتيقظ فيها » – وفي ابن الأثير ٣١٣/٨ ما يقرب من هذا النص .

اغارة جوسلين

وأما جوسلين فمضى إلى القدس ، واستنجد بالفرنج ، ووصلوا تلّ باشر ، فسمعوا خبر فَتح خرتبرت بالسَّيف فسار إلى الوادي وقاتل بزاعا وأحرق بعض جدارها ثم أحرق الباب وقطع شجره ، وأحرق ما سواه من الوادي .

ثم نزل حيلان[١] ثم حلب من ناحية « مشهد الجفّ » من الشمال ، ٥ وخرّب المشاهد والبساتين ، وكسر الناس عند « مشهد طرود » بالقرب من بستان النّقره ، وقتل وسبى مقدار عشرين نفراً .

ثمّ رحل ونزل الجانب الغربي في البقعة السوداء ، وخرب مشاهد الجانب القبلي وبساتينه ، ونَبَش الضريح الّذي بِـ « مَشهد الدكّة » فلم يجد فيه شيئاً فألقى فيه النار ، والحلبيّون في كل يوم يقاتلونه أشدّ ١٠ قتال ، ويخسر معهم في كلّ حركة .

ثم رحل يوم الثلاثاء مستهلّ شهر رمضان ، ونزل السعديّ ، وقطع شجره ، وافترقوا منه وسار كلّ إلى بلده ، ووجد في منازلهم التي نزلوها نيّف وأربعون حصاناً موتى ، ونبش || النّاس منهم موتى جماعة . [١٤٧ظ]

فأمر القاضي ابن الخشّاب بموافقة من مقدّمي حلب أن تهدم ١٥ محاريب الكنائس الّتي للنصارى بحلب ، وأن يعمل لها محاريب إلى جهة القبلة وتغيّر أبوابها ، وتتّخذ مساجد : ففُعِل ذلك بكنيستهم العظمى ، وسُمّي مسجد السرّاجين[٢] : وهو مدرسة الحلاويين

(١) حَيلان : قرية قريبة من حلب فيها عين تصل بمياهها إلى حلب – انظر معجم البلدان لياقوت ٣٨٢/٢

(٢) في الأعلاق الخطيرة لابن شداد ، الجزء الأول ، مخطوطة رومة ، بالورقة ٧٦ ظ : « ان القاضي أبا الحسن بن القاضي أبي الفضل بن الخشاب الحلبيّ ، لما حاصر الفرنج حلب في

الآن. وكنيسة الحدادين: وهي مدرسة الحدادين[١] الآن؛ وكنيسة بدرب الحراف: وهي مكان مدرسة ابن المقدّم[٢]. ولم يترك للنّصارى بحلب سوى كنيستين لا غير، وهي الآن باقية.

هذا كلُّه ونور الدّولة بلك غائب عن مدينة حلب في بلاده.

٥ ثم إنّ جوسلين خرج في تاسع عشر شهر رمضان إلى الوادي والنّقرة والأحصّ، وأخذ ما يزيد عن خمسمائة فرس كانت في الغريب[٣]، حتّى لم يبق بحلب من الخيّالة خمسون فارساً لهم خيل؛ وأخذ من الدّواب البقر والغنم والجمال ما لا يُحصى، وقتل وسبى وخرب ما أمكنه وعاد إلى تل باشر.

١٠ وخرج سير ألان في عسكر أنطاكية من الأثارب حتى وصل الحانوتة وحلفا، وأخذ ما كان بقي من خيل حلب في الغريب في الجانب القبلي، وذلك مقدار ثلاثمائة فرس؛ وأخذ قافلة كانت واصلة من شيزر بغلّة.

سنة ثمان عشرة وخمسمائة، وبعثروا القبور التي بظاهرها وأحرقوا من فيها عمدوا إلى أربع كنائس من الكنائس التي كانت بها وصيّروها مساجد وكانت هذه المدرسة تعرف قديماً بمسجد السرّاجين، ولما ملك نور الدين حلب وقفه مدرسة وجدّد فيه مساكن يأوي اليها الفقهاء، وأيواناً».

(١) تحدث عنها ابن شدّاد في مخطوطة الأعلاق، بالورقة ٨١ ظ، بعنوان: «المدرسة الحدّادية»؛ وقال انها كانت من الكنائس الأربعة التي هدمت ثم بنيت من جديد.

(٢) في مخطوطة الأعلاق الخطيرة لابن شدّاد، بالورقة ٨٢ ظ: «المدرسة المقدّمية: أنشأها عز الدين عبد الملك المقدم، وكانت أحدى الكنائس الأربع التي صيّرها القاضي أبو الحسن ابن الخشّاب مساجد في سنة ثمان وعشرة وخمسمائة» — وفي الورقة ٣٥ ظ: أنها كانت في درب الحطّابين.

(٣) يبدو أنه كان موضعاً للخيول قائماً خارج جدران المدينة في القسم الجنوبي منها، كما يظهر بعد قليل من سياق الكلام.

ثم عبر جوسلين من الفُرات إلى شَبَخْتان وأغـار على تركمان وأكراد، فأخذ من الغنم والخيل ما يزيد على عشرة آلاف وسَبَى وقتل، ومَنْ سَلِمَ له فرس من عسكر حلب يخرجون مع الحراميّة ولا يقطعون الغارات على بلادهم، ويحضرون الأسارى مرّة بعد أخرى.

[١٤٨ و] ثم أغار || جوسلين على الجَبُّول[١]، وما حولها، وأخذ دوابّ كثيرة وتوجه إلى دير حافر[٢]، فخنق أهلها بالدّخان في المغاير، وفتح المقابر، وسلب الموتى أكفانهم. ٥

هرب المسلمين

وفي يوم الأربعاء سادس عشرين من ذي القعدة، عبر بلك إلى الشّام وقبض على نائب بهرام داعي الباطنية بحلب، وأمر بإخراجهم من حلب فباعوا أموالهم ورحالهم وخرجوا منها. ١٠

ثم انّ الأمير نور الدّولة بلـك جمع العساكر، ووصله أتابك طغتكين بعسكر دمشق وعسكر أق سنقر البرسقيّ، وعبروا حتى نزلوا على عزاز، وضايقوها بالحصار، وأخذوا عليها نقوباً إلى أن سهل أمرها، فتجمّع الفرنج وقصدوا ترحيل المسلمين عنها فالتقى الجيشان، وهزم المسلمون، وتفرّقوا بعد قتل مَن قُتل وأسر من أُسر. ١٥

وعمّر بلك حصن الناعورة[٣] بالنّقرة وحصن المغارة – على شطّ

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٢٩/٢: «الجَبُّول: بالفتح ثم التشديد، والواو ساكنة ولام – قرية كبيرة إلى جنب ملّاحة حلب، وفي الجبُّول ينصبّ نُهر بُطنان وهو نهر الذهب، ثم يجمّد ملحاً فيمتار منه كثير من بلدان الشام وبعض الجزيرة» – وما يزال هذا الموضع معروفاً بهذا الاسم إلى اليوم.

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٦٥٣/٢: «دير حافر: قرية بين حلب وبالس».

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٧٣٢/٦: «النّاعورة: بلفظ ناعورة الدولاب – موضع

الفرات — وتزوّج بالخاتون فرخنده خاتون بنت رضوان ، وعَرَّس بها في ثالث وعشرين ذي الحجّة من سنة سبع عشرة وخمسمائة .

عودة بلك

وفي المحرّم من سنة ثماني عشرة وخمسمائة ، تنكّر بلك على رئيس حلب [سلمان العجلاني وجعل عليها][1] رجلاً من ٥ أهل حرّان اسمه محمد بن سعدان ، ويعرف بابن سعدانة ، وكثر الأمن من الذعّار وقطّاع الطريق عند قدوم بلك حلب ؛ وأقام الهيبة العظيمة ؛ وتقدّم بفتح أبواب حلب ليلاً ونهاراً ، وحسم مادّة أرباب الفساد . وقال للحارس : « إنْ عدتُ سمعتُك تصيح ضربتُ عنقَك ! » .

ونقل بغدوين ومَنْ كان معه من حبس حرّان ، فحبسه في قلعة ١٠ حلب .

[١٤٨ظ] وتوجّه || في شهر صفر فرقةٌ من أصحابه الأتراك إلى ناحية عَزاز ، فوقع بينهم وبين الفرنج وقعةٌ عند مشحلا[2] ، وظَفِر بهم الأتراك ، وقتلوا منهم أربعين رجلاً من الخيّالة والرجّالة وأخذوا أسلابهم ، ووصل الباقون عَزاز وما فيهم إلا من جُرح جراحاً عدّة .

١٥ وانقطع المطر في كانونين ونصف شباط ، ثم تـدارك فأخصب

بين حلب وبالس فيه قصر لمسلمة بن عبد الملك . . . وبينه وبين حلب ثمانية أميال » — ولكننا لم نعرف أين موقع حصن المغارة في معاجم البلدان سوى ما نوّه به ابن العديم من قوله إنها على شط الفرات .

(١) نرى أن هذه العبارة ناقصة غامضة في المخطوطة ، فلعل الناسخ نسي جملة وسها عن نقلها ، فأردنا ان نكملها فوضعنا بين حاصرتين ما يسدّ الثغرة . وقد رأينا في تاريخ العظيمي ، بالورقة ٢٠١ ظ ما يعيننا على ذلك ، واليك عبارة العظيمي : « جلس على رياسة حلب محمد بن سعدان الحراني وعزل عنها سلمان العجلاني » .

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٥٣٧/٤ : « مَشْحَلا : بالحاء مهملة والقصر — قرية من نواحي عزاز من أعمال حلب » .

الزرع واستغلّ الناس ، وكان بحلب غلاء شديد[١] .

صاحب منبج

وفي صفر من سنة ثماني عشرة وخمسمائة ، تنكّر نور الدّولة بلك على حَسَّان بن كمشتكين صاحب منبج لشيء بلغه عنه ، فأنفذ قطعةً من عسكره مع ابن عمه تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق ، وتقدَّم إليهم أن يمرّوا على منبج ، ويطلبوا من حَسَّان أن يخرج معهم للإغارة على تلّ باشر فإذا خرج قبضوه[٢] ، ففعلوا ذلك ، ودخلوا منبج ، وعصى عليهم الحصن ودخله عيسى أخو حسان .

وسُيِّر حسان فحُبس في حصن بالو[٣] بعد أن عوقب وعُرّي ، وسحب على الشوك فلم يُسلّمها أخوه .

نصر المسلمين

وكتب عيسى إلى جوسلين : « إن وصلتَني وكشفتَ عني عسكر بلك سَلَّمْتُ إليكَ منبج » . وقيل : إنه نادى بشعار جوسلين بمنبج ، فمضى إلى بيت المقدس وطرابلس وجميع بلاد الفرنج ، وحشد ما يزيد على عشرة آلاف فارس وراجل ، ووصل نحو منبج ليرحل بلك عن منبج .

فسار إليه بلك لمّا قرب من منبج ، والتقيا يوم الاثنين ثامن عشر

---

(١) في تاريخ العظيمي ، بالورقة ٢٠١ ظ : « واحتبس المطر بالشام كانونين وشباط ، ثم تدارك الغيث ، فزرع الناس واستوى الزرع وحصدوا واستغلوا » – انظر عبارة ابن القلانسي ٢١٢ في وصف القحط واحتباس الغيث بأرض الشام .

(٢) في ابن الأثير ٣١٥/٨ : « في هذه السنة في صفر قبض بلك بن بهرام بن ارتق صاحب حلب على الأمير حسان البعلبكي صاحب منبج ، وسار اليها فحصرها فملك المدينة وحصر القلعة فامتنعت عليه » .

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٦٨٠/١ : « بَالُو : قلعة حصينة ، وبلدة من نواحي أرمينية بين أرزن الروم وخلاط » .

شهر ربيع الأول، واقتتل العسكران، وانهزم الفرنج، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى آخر النهار.

وحمل فيهم بلك || ذلك اليوم خمسين حملةً يفتك فيهم ويخرج سالماً، يضرب بالسيوف ويطعن بالرماح ولا يكلم، وعاد إلى منبج فبات مصلّياً مبتهلاً إلى الله تعالى لما جدده على يده من الظفر بالفرنج. [١٤٩و]

وأصبح يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول قتل كلّ أسير أسره في الوقعة، ثم زحف نحو الحصن ليختار موضعاً ينصب فيه المنجنيق، وعليه بيضة وبيده ترس.

مقتل بلك

وكان قد عزم على أن يستخلف ابنَ عمه تمرتاش بن إيلغازي على حصار منبج، ويطلع منجداً لأهل صور، فانَّ الفرنج كانوا في مضايقتها[١]. وفي تلك المضايقة أخذوها، فبينا كان بلك قائماً يأمر وينهى إذ جاءه سهم من الحصن. وقيل: إنه كان من يد عيسى، فوقع في ترقوته اليسرى فانتزعه وبصق عليه، وقال: «هذا قتل المسلمين كلهم». ومات لوقته[٢].

وقيل: بقي ساعات وقضى نحبه – رحمه الله – وحُمل إلى حلب، ودفن بها قبليّ مقام ابراهيم – عليه السَّلام –.

---

(١) في الأصل: «كانوا مضايقها» – ولعلها كما صوبنا متابعة للسّياق.

(٢) في ابن الاثير ٣١٥/٨: «وعاد إلى منبج فحصرها، فبينا هو يقاتل من بها أتاه سهم فقتله لا يدري من رماه واضطرب عسكره وتفرقوا وخلص حسان من الحبس؛ فكان حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق مع ابن عمه بلك، فحمله مقتولاً الى ظاهر حلب». – انظر العبارة نفسها في فصل عماد الدين زنكي، بالصفحة ٢٨٣

ملك تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق

تمرتاش في حلب

ووصل حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي إلى حلب يوم الأربعاء العشرين من شهر ربيع الأول، ودخل القلعة ونصب علمه، ونادى الناس بشعاره (١).

وسار سليمان بن إيلغازي من ميافارقين إلى خرتبرت وحصون بلك، وهي نيّف وخمسون موضعاً فتسلّمها. ٥

وسار داود بن سكمان، فأخذ حصن بالو وأطلق حسّان بن كمشتكين فعاد إلى منبج (٢).

فأما تمرتاش فإنّه لمّا ملك حلب ألهاه الصّبي واللعب عن التشمير والجدّ والنظر في أمور الملك، ففسدت الأحوال، وضعف أمر المسلمين بذلك، واستوزر أبا محمّد بن الموصول، ثم عزله وصادره ١٠ [١٤٩ظ] ‖ في رجب من سنة ثاني عشرة واستوزر أبا الرّجاء بن السّرطان، وولى الرئاسة بحلب فضائل بن صاعد بن بديع.

وسيّر إلى حرّان فحمل منها سلطان شاه بن رضوان، وكان بلك أسكنه بها؛ فاعتقله في دار بقلعة ماردين وكان فيها طاقة فتدلّى منها بحبل وهربَ إلى دارا، ثم رحل منها إلى حصن كيفا إلى داود بن ١٥ سكمان.

أعمال تمرتاش

وفي العشر الأواخر من ربيع الأول سار نائب جوسلين من الرها وأغار على ناحية شبختان ونهبها فسار إليه

(١) في المصدر نفسه: «وتسلمها في العشرين من ربيع الأول من هذه السنة».
(٢) في المصدر عينه: «وزال الحصار عن قلعة منبج وعاد إليها صاحبها حسان».

نائب تمرتاش عمر الخاص وكان نائبه وربيب أبيه إيلغازي وركب خلفه في ثلاثمائة فارس فلحقه على مرج اكساس، فقاتله وهزمه وقتله وقتل أكثر من كان معه من الفرنج، وعاد غانماً، وأنفذ رؤوسهم وما غنمه إلى تمرتاش إلى حلب.

٥ وولّاه تمرتاش شحنكية حلب وهو المدفون في القبّة التي مقابل باب مشهد ابراهيم — عليه السلام — واسمه مكتوب على جهاتها الأربع.

وولّى قلعة حلب رجلاً يقال له عبد الكريم.

وفي غرة جمادى الأولى من هذه السنة استقرّ الأمر بين الملك

١٠ بغدوين صاحب أنطاكية — وكان في سجن بلك بحلب — وبين تمرتاش ابن إيلغازي على تسليم الأثارب وزردنا والجزر وكفرطاب وعلى تسليم عزاز وثمانين ألف دينار وقدّم منها عشرين ألف دينار.

وحلف على ذلك وعلى أن يُخْرِجَ دُبَيْسَ بْنَ صَدَقَة من النَّاس، وكان قد وصل دبيس منهزماً من المسترشد[1] دبيس بن صدقة

١٥ بعد أن كسره المسترشد، وقتل خلقاً من عسكره فترك || بلاده، [١٥٠ و] وحمل ما قدر عليه من العين والعروض على ظهور المطايا؛ ووفد على ابن سالم بن مالك بن بدران إلى قلعة دوسر، واستجار به فأجاره، وغاضب المسترشد والسلطان محموداً في أمره.

وكاتب دُبَيْس قوماً من أهل حلب؛ وأنفذ لهم جملة دنانير، وسامهم

٢٠ تسليمها إليه[2]، وكشف ذلك رئيسها فضائل بن صاعد بن بديع،

(١) في بغية الطلب، المخطوطة، ٣٠٦/٧ وما يليها، تفصيل ما وقع بين المسترشد ودبيس
(٢) انظر ابن الاثير ٢١٦/٨

فأطلع على ذلك تمرتاش بن إيلغازي ، فأخذهم وعذّبهم وشنق بعضهم ، وصادر بعضاً ، وأحرق بعضاً .

غدر بغدوين

وكان المتوسّط حديث بغدوين مع تمرتاش الأمير أبو العساكر سلطان بن منقذ ، وسيّر أولاده وأولاد إخوته رهناً عن بغدوين إلى حلب . ٥

وفكّت قيود بغدوين وأحضر إلى مجلس تمرتاش ، وتواكلا وتشاربا وخلع عليه قباء ملكيًا وقلنسوة ذهب وخفافاً وراناً[1] ؛ وأعيد عليه الحصان الذي كان أخذه منه بلك يوم أسره ، فركبه ، وسار إلى شيزر يوم الأربعاء رابع جُمادى ، فبقي عند أبي العساكر حتى أحضر جماعة رهنًا على الوفاء بما شرطه لتمرتاش وهم : ابنته ، وابن جوسلين ، وغيرهما ١٠ من أولاد الفرنج ؛ وعدّتهم اثنا عشر نفرًا . وحمل العشرين ألف دينار التي عجّلها .

وقبض صاحبُ شيزر الرّهائن ، وأطلق بغدوين من سجن شيزر ، في يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب ، فخرج – لعنه الله – وغدر بتمرتاش وأنفذ إليه يقول : « البطريك الّذي لا يمكن خلافه سألني ١٥ عما بذلت ، وما الذي استقرّ ، فحين سمع حديثَ عزاز وتسليم حصنها منّي أبى ، وأمرني بالدفع عنها || وقال إنّ خطيئتك تُلزمني ؛ ولا أقدر [١٥٠ظ] على خلافه » . فتردّدت الرُسُل بينهما فلم يستقرّ على قاعدة[2] .

دبيس وبغدوين

وخالط دبيس جوسلين وبغدوين ، وصافاهم وصافوه بوساطة الأمير مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر ، واتّفق ٢٠

---

(١) الرّان : حذاء كالخف إلّا أنه أطول منه ولا قدم له . وأصله رين فقلبت الياء ألفاً .
(٢) في الأصل : « فلم يستقر قاعده » – ولعلّها كما صوبنا .

دبيس والفرنج على قواعد تعاهدوا عليها منها أن تكون حلب لدبيس والأموال والأرواح[1] للفرنج مع مواضع من بلد حلب تكون للفرنج ؛ وتقدّم دبيس إلى مرج دابق[2] فخرج إليه حسام الدّين تمرتاش فكسره .

وسار تمرتاش من حلب عندما علم بغدر الفرنج به إلي ماردين، في الخامس والعشرين من شهر رجب، ليستنجد بأخيه سليمان بن إيلغازي ويجمع العساكر، وبقي بنو مُنْقِذ رهائن بقلعة حلب عند تمرتاش ؛ وأولاد الفرنج رهائن عند أبي العساكر بن منقذ بشيزر .

والرسل مع هذا تتردّدُ بين تمرتاش وبغدوين إلى أن عادت الرسل في ثامن عشر شعبان مخبرة بنقض الهدنة، وبخروج بغدوين إلى أرتاح قاصداً النزول على حلب .

ورحل بغدوين من أرتاح حتى نزل على نهر قويق وأفسد كلّ ما كان عليه، ثمّ رحل فنزل على باب حلب، في يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان، وهو السادس من تشرين الأوّل .

وخرج دبيس وجوسلين من تلّ باشر، وقصدا ناحية الوادي، وأفسدا القُطْنَ والدُّخْن[3]، وسائر ما كان به وقوِّم ذلك بمائة ألف

---

(١) في بغية الطلب ٧/٣٠٧ ظ : « وأخبرني والدي رحمه الله عن أبيه أن دبيس بن صدقة عاهد الفرنج على أنهم يحاصرون حلب وتكون الأنفس والأموال للفرنج والبلاد لدبيس » .

(٢) انظر في موقع مرج دابق، زبدة الحلب ١/٢٩٦ بالحاشية .

(٣) الدخن : نباتات عشبية من النجليات فيه أنواع كثيرة تنبت بريّة في أنحاء الشام، وفيه أنواع تزرع لحبّها – انظر معجم الألفاظ الزراعية للامير مصطفى الشهابي ص ٤٧٤

دينار ، ورحلا ونزلا مع بغدوين على حلب ، ووصل إليهم الملك سُلطَان شاه بن رضوان .

[١٥١ و] ونزل بغدوين مقدّم || الفرنج من الجانب الغربي من حلب في الحلبة ، ونزل جوسلين على طريق عَزاز وما يجاوره يمنة ويسرة . ونزل دبيس وسلطان شاه بن رضوان مما يلي جوسلين من الشّرق ؛ وفي صحبة دبيس عيسى بن سالم بن مالك . ٥

ونزل يغي سيان بن عبد الجبّار بن أرتق صاحب بالس[١] مما يلي دبيس من الشّرق ، وكانت عدّة الخيم ثلاثمائة ؛ للفرنج مائتا خيمة وللمسلمين مائة خيمة .

اعمال الفرنج

وأقاموا على حلب يزاحفونها ، وقطعوا الشجر وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين ، وأخذوا توابيتهم إلى الخيم[٢] وجعلوها أوعيةً لطعامهم ، وسلبوا الأكفان ، وعمدوا إلى من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين . ١٠

وجعلوا يقولون : « هذا نبيّكم محمد ! » وآخر يقول : « هٰـذا عليّكم ! » وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب وقالوا : « يا مسلم أبصر كتابكم » . وثقبه الفرنجي بيده ، وشدّه بخيطين ، وعمله ١٥

---

(١) في بغية الطلب ٧/٣٠٩ ظ : « ونزل الفرنج غربي البلد وغربي قويق ومعهم عليّ بن سالم بن مالك وصاحب بالس أخو بدر الدّولة » .

(٢) في المصدر نفسه : « فقطعوا الشّجر وأخرجوا المشاهد الظاهرة ، وكان عدد الخيم ثلثمائة خيمة مائة للمسلمين . ونبش الفرنج القبور وأخرجوا الموتى بأكفانهم ، وعمدوا إلى من كان طرياً فشدّوا الحبال في ارجلهم وسحبوهم مقابل المسلمين » .

ثفرًا[1] لبرذونه؛ فظل البرذون يروثُ عليه، وكلّما أبصر الرَّوث على المصحف صَفّق بيديه وضحك عجباً وزهواً.

وأقاموا كلّما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه إلى المسلمين؛ والمسلمون يفعلون بمن يأسرونه من الفرنج كذلك.

٥　وربّما شنق المسلمون بعضهم، ويخرج الغزاة من باب العراق، ويسرقونهم من المخيم، ويقطعون عليهم الطّرق، ويقتلون ويأسرون. ويصيح المسلمون على دبيس من الأسوار: «دبيس، يا نحيس»! والرسل تتردد بينهم في الصّلح، ولا يستتبّ || إلى أن ضاق الأمر [١٥١ظ] بالمسلمين جداً.

١٠　وكان بحلب بدر الدّولة سليمان بن عبد الجبّار والحاجب عمر الخاص، ومعهما مقدار خمسمائة فارس؛ والذي يتولّى تدبيرها وهو في مقام الرئاسة القاضي أبو الفضل بن الخشّاب وتولّى حفظ المكان وبذل المال والغلال.

الحلبيون عند تمرتاش

فاتفقوا على أن سيّروا جدّ أبي قاضي حلب القاضي أبا غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة ونقيب ١٥ الأشراف وأبا عبد الله بن الجلي[2] فخرجوا ليلاً، ومضوا إلى تمرتاش إلى ماردين مستصرخين إليه ومستغيثين به فوجدوه وقد مات أخوه سليمان بن إيلغازي صاحب ميافارقين في شهر رمضان؛ وسار تمرتاش إلى بلاده ليملكها، واشتغل بملك تلك البلاد عن حلب.

(١) الثفر: بالتحريك وقد يسكّن – السّير الذي في مؤخر السّرج، ج. أثفار.
(٢) في بغية الطلب، المخطوطة ٧/٣٠٧ ظ: «وتوجّه جدّ أبي القاضي أبو غانم والشريف النقيب وابن الجلي يستغيثون إلى تمرتاش فما أغاثهم».

وكانت الرسلُ مترددةً بينه وبين أق سنقر البرسقيّ صاحب الموصل في اتِفاق الكلمة على قصد الفرنج و كشفهم عن حلب ؛ فاشتغل بهذا الأمر عن هذا التقرير ، والحلبيون عنده يمنّيهم ويمطلهم .

ولما خرج الحلبيّون من حلب بلغ الفرنج ذلك فسيّروا خلفهم من يلحقهم ، فلم يدركهم وأصبحوا في صباح تلك اللّيلة وصاحوا إلى أهل حلب : « أين قاضيكم ؟ وأين شريفكم[1] ؟ » فأُسقِط في أيديهم إلى أن وصل منهم كتابٌ بخبر سلامتهم .

وبقي الحلبيّون عند تمرتاش يحثّونه على التَّوجّه إلى حلب ، وهو يعدهم ولا يفعل ، وهم يقولون له : « نريد منكَ أن تصلَ بنفسك ، والحلبيون يكفونك أمرهم » .

فضاق الأمر بالحلبيّين إلى حدٍّ أكلوا فيه الكلاب والميتات ، وقلَّتِ الأقواتُ[2] ، ونفد ما عندهم ، وفشا المرض فيهم ، فكان

(١) في بغية الطلب المخطوطة ٦/ ٢٧٥ ظ : « فأخبرني والدي أبو الحسن أحمد وعمي أبو غانم محمد ،وحديث أحدهما ربما يزيد على الآخر قالا : سمعنا جدك – يعنيان أباهما أبا الفضل هبة الله – يقول : لما اشتد الحصار على حلب ، وقلّت الأقوات بها ، وضاق الامر بهم ، اتفق رأيهم على أن يسيروا أبي القاضي أبا غانم قاضي حلب والشريف زهرة وابن الجلي إلى حسام الدين تمرتاش إلى ماردين ، وكان هو المتولى حلب وهي في أيدي نوابه ، وقد تركها ومضى إلى ماردين واشتغل بملك تلك البلاد عن حلب ، قال : فاتفقوا على ذلك وأخرجوا أبي والشريف وابن الجلي ليلًا من البلد .

فلما أصبح الصباح صاح الفرنج إلى أهل البلد أين قاضيكم وأين شريفكم ؟ قال : فانقطعت ظهورنا وتشوشت قلوبنا وأيقنا بأنهم ظفروا بهم ، فوصلنا منهم كتاب يخبر أنهم قد وصلوا إلى مكان أمن عليهم بالوصول فطابت قلوب أهل حلب لذلك » .

(٢) في بغية الطلب ، المخطوطة ، ٦/ ٢٧٥ و : « وطال حصار حلب وأشرفت على الاستيلاء عليها وبلغ بهم الضرر الى حالة عظيمة حتى أكلوا الميتات والجيف ، ووقع فيهم المرض . فحكى لي والدي أنهم كانوا في وقت الحصار مطرحين من المرض في أزقة البلد ، فاذا زحف الفرنج وضرب بوق الفزع قاموا كأنما انشطوا من عقال ، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ؛ ثم يعود كل واحد من المرضى إلى فراشه » – انظر مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ٨/ ١١٦

[١٠٢ و] المرضى يئنّون لشدّة المرض، فإذا ضرب || البوق لزحف الفرنج قام المرضى كأنما أنشطوا من عقال، وزحفوا إلى الفرنج وردّوهم إلى خيامهم، ثم يعودون إلى مضاجعهم.

فكتب جدّي أبو الفضل هبة الله بن القاضي أبي غانم كتاباً إلى والده يخبره بما آل أمر حلب إليه من الجوع وأكل الميتات والمرض[١]، ٥ فوقع كتابه في يد تمرتاش فغضب وقال: «انظروا إلى هؤلاء يتجلّدون عليّ، ويقولون إذا وصلتَ فأهل حلب يكفونك أمرهم، ويغرّرون بي حتى أصل في قلّة، وقد بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة».

تملك آق سنقر البرسقي

نجدة البرسقي

ثمّ أمر بالتوكيل والتّضييق عليهم[٢]، فشرعوا في إعمال ١٠ الحيلة والهرب إلى آق سنقر[٣] البرسقيّ ليستصرخوا به فاحتالوا على الموكّلين بهم، حتى ناموا وخرجوا هاربين، فأصبحوا ابداداً.

(١) في بغية الطلب، المخطوطة، ٦/٢٧٥ ظ: «قال القاضي أبو الفضل: فكتبت كتاباً من حلب إلى والدي أبي غانم أخبره فيه بما حلّ بأهل حلب من الضر وأنه قد آل الأمر بهم إلى أكل القطط والكلاب والميتة، فوقع الكتاب في يد تمرتاش وشقّ عليه وغضب وقال: انظروا إلى جلد هؤلاء الفعلة الصنعة قد بلغ بهم الأمر إلى هذه الحالة وهم يكتمون ذلك ويتجلّدون ويغرونني ويقولون إذا وصلت إلينا نكفك أمرهم».

(٢) في بغية الطلب، بالموقع نفسه: «قال القاضي أبو غانم: فأمر تمرتاش بأن يوكل علينا فوكل بنا من يحفظنا خوفاً أن تنفصل عنه إلى غيره، فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل وأن نمضي إلى البرسقي ونستصرخ به ونستنجده» — ويورد ابن العديم بعد هذا الكلام تفصيل الهرب وكيف وقع، مما لا جدوى من اثباته هنا.

(٣) هو آق سنقر بن عبدالله البرسقي، وقيل اسمه سنقر، وكان مملوك الامير برسُق مملوك السلطان، وقد ذكرنا من قبل أن المؤرخين في رسم آق سنقر على وجهين، منهم من يجعلها كلمة واحدة (اقسنقر) ومنهم من يفصلها، وقد تابعنا في هذا الكتاب رسم ابن العديم نفسه عن خطّه في بغية الطلب — انظر الصفحة ١٧٧

وساروا حتى أتوا الموصل، فوجدوا البرسقي مريضاً مدنفاً، والناس قد مُنعوا من الدّخول عليه إلّا الأطبّاء، والفرّوج يدقّ له لشدّة الضعف[1]. ووصل إلى دبيس من أخبره بذلك، فضرب البشارة في عسكره، وارتفع عنده التكبير والتهليل، ونادى بعض أصحابه أهل حلب: قد مات من أمّلتم نصره. فكادت أنفس الحلبيّين ترهق.

واستؤذن للحلبيّين على البرسقيّ فأذن لهم، فدخلوا إليه، واستغاثوا به، وذكروا له ما أهل حلب فيه من الضرّ، فأكرمهم – رحمه الله – وقال لهم: «ترون ما أنا فيه الآن من المرض، ولكن قد جعلتُ لله عليّ نذراً إن عافاني من مرضي هذا لأبذلنّ جهدي في أمركم، والذبّ عن بلدكم، وقتال أعدائكم[2]».

[١٥٢ظ] قال القاضي أبو غانم قاضي حلب: فما مضى || ثلاثة أيام بعد ذلك حتى فارقته الحمى، فأخرج خيمته، ونادى في العساكر بالتأهب للجهاد إلى حلب.

وبقي أياماً وعمل العسكر أشغاله وخرج – رحمه الله – في عسكر قويّ، فوصل إلى الرّحبة، وكاتب أتابك طغتكين صاحب دمشق، وصمصام الدّين خيرخان بن قراجا صاحب حمص.

ورحل إلى بالس، وسار منها إلى حلب فوصلها يوم الخميس لثمان بقين من ذي الحجة من سنة ثماني عشرة.

(١) في بغية الطلب، المخطوطة، ٦/٢٧٦ ظ: «فوجدنا البرسقي مريضاً قد اشفى وهو يسقى أمراق الفراريج المدقوقة، فأعلم بمجيئنا فأذن لنا فدخلنا عليه ووجدناه مريضاً مدنفاً فشكونا إليه» – انظر ابن الأثير ٨/٣١٧.

(٢) ورد في بغية الطلب ما يقرب من هذه العبارة في نصّها ومعناها.

ولما قرب من حلب رحل دبيس ناشرًا أعلامه البيض إلى الفرنج عند قرية من حلب ، وتحوّلوا إلى جبل جَوْشَن كلّهم . وخرج الحلبيّون إلى خيامهم فنهبوها ونالوا منها ما أرادوا .

وخرج أهل حلب[١] والتقَوْا قسيم الدولة عند وصوله. وسار نحو الفرنج فانهزموا بين يديه من جبل جوشن[٢]، وهو يسير وراءهم على مهل حتى أبعدوا عن البلد .

فأرسل الشالشيّة[٣] ، وأمرهم أن يردّوا العسكر ، فجعل القاضي ابن الخشّاب يقول له : « يا مولانا لو ساق العسكر خلفهم أخذناهم ، فانهم منهزمون[٤] والعسكر محيطة بهم » . فقال له : « يا قاضي تَعْلَمُ أنَّ في بلدكم ما يقومُ بكم وبعسكري لو قُدِر علينا — والعياذ بالله — كسرةٌ ؟ » فقال : « لا » . فقال : « ما يؤمننا أن يرجعوا علينا ويكسرونا ، ويهلك المسلمون ، ولكن قد كفى الله شرّهم وندخل

(١) في بغية الطلب ، المخطوطة ، ٤/٢٧٦ ظ : « رحل الفرنج ونزلوا على جبل جوشن وتأخروا عن المدينة وساق إلى أن قارب المدينة وخرج أهلها إلى لقائه فقصد نحو الفرنج وأهل البلد مع عسكره فانهزم الفرنج من يديه وهو كبير ، ودآهم على مهل حتى أبعدوا عن البلد » .

(٢) ذكرنا في زبدة الحلب بالحاشية ١/١٣٧ موقع جبل جوشن من حلب ، وأنه على ربع ساعة من باب أنطاكية ، وقد كان مقدساً عند الشيعة ، وذكره ياقوت في معجم البلدان ٢/١٥٦

(٣) الشالشية : ترجمها المستشرق بالكشّافة Eclaireurs – وهي في معجم دوزى ١/٧٨٣ : « شلّاشات : الجنود الرّماة Tirailleurs » .

(٤) في بغية الطلب المخطوطة ٤/٢٧٧ و : « فجعل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يقول له : يا مولانا لو ساق المولى خلفهم أخذناهم بأسرهم فانهم منهزمون . قال فقال له : يا قاضي كن عاقلًا أتعلم أن في بلدكم ما يقوم بكم وبعسكري لو قدر والعياذ بالله علينا كسرة من العدوّ » – وبقية العبارة في البغية موافقة لما عندنا هنا، فقد نقلت بحروفها تقريباً – انظر ابن القلانسي ٢١٢

إلى البلد ونقوّيه وننظر في مصالحه، ونجمع لهم إن شاء الله، ونخرج إليهم بعد ذلك».

دخوله حلب

ورجع ودخل البلد وتسلّم قلعتها، ونظر في مصالح البلد وقوّاه، وأزال الظلم والمكوس || [١٥٣ و] وعدل فيهم عدلاً شاملاً وأحسن إليهم إحساناً كاملاً. ٥

وكتب لأهل حلب توقيعاً باطلاق المظالم والمكوس[١]، نسخته موجودة، بعد ما كان الحلبيّون منوا به من الظلم والمصادرة من عبد الكريم والي القلعة، وعمر الخاص والي البلد، وتسليطهما الجند والأتراك على مصادرة الناس بحيث أنهم استصفوا أموال جماعة من الأكابر والصدور وغيرهم في حالة الحصار. ١٠

وأما الفرنج فانهم توجهوا إلى الأثارب ودخلوا أنطاكية.

وشرع النّاس في الزّرع ببلد حلب في الثّاني عشر من شباط وجعلوا يبلّون الغلّة بالماء، ويزرعونها فنبتت وتداركت عليها الأمطار فأخصبت، وجاءت الغلّة من أجود الغلال وأزكاها[٢].

وأطلق البرسقيّ بني منقذ من الاعتقال بقلعة حلب، ورحل إلى ١٥ تلّ السّلطان[٣] في سنة تسع عشرة وخمسمائة، في أواخر المحرّم، وأقام به ثلاثة أيام، ورحل إلى أن وصل إلى شيزر في سابع صفر، وتسلّم

---

(١) في بغية الطلب، المخطوطة ٢٧٧/٦ و: «قال: ورجع ودخل البلد ورتّب الأحوال وجلب إليه الغلال وأمن الناس واستقروا».

(٢) في بغية الطلب: «قال وكان ذلك في آذار فجعل الناس يأخذون الحنطة والشعير ويبلّونها بالماء ويزرعونها، فاستغل الناس في تلك السنة مغلاً صالحاً.»

(٣) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ٢١، وارجع إلى زبدة الحلب ٢٧٨/١؛ وكذلك دوسو ٣١٣

أولاد الفرنج من ابن منقذ ، وباعهم بثمانين ألف دينار حُمِلَتْ إليه .

وأقام بأرض حماة أياماً حتى وصل إليه أتابك طغتكين ، فرحل في عساكره التي لا تحدّ كثرة ، ونزل كفرطاب فسلّمت إليه يوم الجمعة ثالث شهر ربيع الآخر ، وسلّمها إلى صمصام الدين خيرخان بن ٥ قراجا ، وكان قد وصل إليه من حمص والتقاه بتلّ السلطان[1] .

وسار إلى عزاز وقاتلها ، ونقبت قلعتها فقصدهم الفرنج ، فالتقوا سادس عشر ربيع الآخر[2] ، وكسر البرسقيّ كسرة عظيمة ، واستشهد ‖ جماعةٌ من المسلمين من السُّوقة والعامة ، ولم يقتل من الأمراء [١٥٣ظ] والمقدّمين أحد .

١٠ ووصل أق سنقر البرسقيّ سالماً إلى حلب ، وأقام على قنّسرين أياماً ، وتفرّقت العساكر إلى بلادهم ، ووصل أمير حاجب صارم الدّين بابك بن طلماس ، فولّاه البرسقي حلب وبلدها ، وعزل عنها سوتكين والياً كان ولّاه .

أق سنقر والفرنج

ووقعت الهدنة بين البرسقيّ والفرنج على أن يناصفهم في جبل السُّمَّاق[3] وغيره مما كان بأيدي الفرنج ،

(١) في بغية الطلب ، المخطوطة ، ٢٧٧/٦ ظ : « وسار الأمير صمصام الدين عن حمص في أول ربيع الأول فلقى الأمير قسيم الدولة البرسقيّ بتلّ سلطان بعد انفصاله عن حلب وانهزام الافرنج عنها . »

(٢) في ابن الأثير ٣١٨/٨ : « وسار إلى قلعة عزاز وهي من أعمال حلب من جهة الشمال وصاحبها جوسلين ، فحصرها فاجتمعت الفرنج ، فارسها وراجلها وقصدوه ليرحلوه عنها فلقيهم وضرب معهم مصافاً واقتتلوا قتالاً شديداً ، صبروا كلهم فيه ، فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر كثير ، وكان عدد القتلى أكثر من ألف قتيل من المسلمين وعاد منهزماً إلى حلب . »

(٣) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ٦٦ السابقة ، وأرجع إلى معجم البلدان لياقوت ٢١/٢

وسار البرسقيّ إلى الموصل فلم يزل الفرنج يعلّلون الشحن والمقطعين بالمحال في مغلّ ما وقعت الهدنة عليه إلى العشرين من شعبان من السّنة.

وسار بغدوين إلى بيت المقدس والرسولُ خلفه يُعلمه بأن الفرنج لا يمكِّنون أحدًا من رفع شيء من الصَّيافي؛ وأخذ بعض متصرفي المسلمين بعض الارتفاع من بعض الأماكن والهدنة على حالها، ٥
فتجمّع الفرنج ونزلوا رفنية.

وخرج شمس الخواص صاحبها طالباً أق سنقر البرسقيّ مستصرخاً به، وسلّمها إليهم ولده المستخلف فيها في آخر صفر من سنة عشرين وخمسمائة، وقصدوا بلد حمص فشعّثوه.

فجمع البرسقيّ العساكر وحشد، وسار نحو الشّام لحربهم حتى ١٠
وصل الرّقة في أواخر شهر ربيع الآخر، وسار إلى أن نزل بالنّقرة على النّاعورة[1] في الشهر المذكور، وأقام به أياماً والفرنج يراسلونه، فراسله جوسلين على أن تكون الضِّياع ما بين عزاز وحلب مناصفةً ‖ وأن يكون الحرب بينهما على غير ذلك، فاستقرّ هذا الأمر. [١٥٤ و]

وكان بدر الدّولة سليمان بن عبد الجبّار وشهريار بك[2] ابن عمه، ١٥
قد توجّها مع جماعة من التركمان إلى المعرّة فأوقعوا بعسكر الفرنج، وقتل المسلمون منهم مائة وخمسين، وأسروا جفري بلنك[3]، صاحب بَسَرْفوث، من جبل بني عليم، وأودع في سجن حلب.

وكان قد سيّر البرسقيّ ولده عزّ الدين مسعودًا منجدًا لصاحب

(١) انظر تعليقنا في حاشية الصفحة ٢١٦ السابقة، وارجع الى معجم البلدان لياقوت ٦/٧٣٢

(٢) الاسم غامض في الأصل ولم نقع على مثله في المصادر التي بين أيدينا فلعلّه كما رسمنا.

(٣) هو « Geoffroy Blanc ».

حمص ، فاندفع الفرنج عنها فعاد عزّ الدين إلى والده ، فتركه بحلب ، وعزل بابك[1] عن ولايتها وولّاها كافور الخادم إلى أن ينظر فيمن يوليه إيّاها ولاية مستقلة .

ورحل قسيم الدولة إلى الأثارب في الثامن مِنْ جمادى الآخرة من ٥ سنة عشرين ، وسيّر بابك بن طلماس في جماعة من العسكر والنقّابين إلى حصن الدير المجدّد فرق سرمدا ففتحه سلماً .

وقتل من الخيّالة بعد ذلك خمسون فارساً ، ونهب العساكرُ الغلال والفلاحين في سائر البلد الذي وصلت الغارات إليه ، ورفعوا الغلّة جميعها إلى حلب ، وزحفوا إلى قلعة الأثارب ، وخربوا الحوشين ، ولم ١٠ يتيسر فتحها .

ووصل بغدوين من القدس في جموع الفرنج ، ووصل إليه جوسلين ، ونزلوا عِمّ[2] وأرتاح ، وسيّروا إلى البرسقيّ : « ترحل[3] عن هذا الموضع ، ونتّفق على ما كنّا عليه في العام الخالي ، ونعيد رفنية عليك » . فتجنّبَ الحرب ، وخشي أن يتمّ على المسلمين ما تمّ على عزاز فصالحهم ١٥ إلى أن فرّج الخناق عن الأثارب ، وخرج صاحبها بماله ورجاله .

غدر الفرنج

فغدر الفرنج || [١٥٤ظ] وقالوا : « ما نصالح إلّا على أن تكون الأماكن التي ناصفنا فيها في العام الماضي لنا دون المسلمين » . فامتنع من ذلك وأقام على حلب أياماً والرسل تتردد بينهم ، فلما لم

(١) هو صارم الدين بابك بن طلماس وقد ولّاه البرسقي حلب كما مرّ بنا من قبل وكما يأتي بعد سطور .
(٢) ارجع إلى تعليقنا في حاشية الصفحة ١٣٥ السابقة لمعرفة موقع هذا الحصن من حلب .
(٣) في طبعة المستشرق لهذا النص ، بالصفحة ٦٥٣ : « ارحل عن هذا الموضع » .

تتفق حال عاد أق سنقر، ونزل قنّسرين ، ورحل إلى سرمين، وامتدت العساكر إلى الفوعة[١] ودانيث .

ونزل الفرنج على حوض معرّة مصرين، فأقاموا كذلك إلى نصف رجب ، ونفدت أزواد الفرنج ، فعادوا إلى بلادهم ، ثم عاد البرسقي وفي صحبته أتابك طغتكين ، وكان وصل إليـه وهو على قنسرين ٥ فدخلوا من العسكر ونزلوا باب حلب .

ومرض أتابك فعملت له المحفّات ، وأوصى إلى البرسقيّ ، وتوجه إلى دمشق، وسلّم البرسقي حلب وتدبيرها إلى ولده عزّالدين مسعود، فدخل حلب ، وأجمل السيرة وتحلّى بفعل الخير .

قتل البرسقي

١٠ وسار أبوه إلى الموصل ، فدخلها في ذي القعدة سنـة عشرين وخمسمائة[٢] ، وقصد الجامع بها ليصلّي فيه يوم الجمعة تاسع ذي القعدة ، وقصد المنبر ، فلما قرب منه وثب عليه ثمانية نفر في زيّ الزهّاد، فاخترطوا خناجر وقصدوه وعليه درع من الحديد، وحوله جمع عظيم وهو متحفظ منهم، فسبقوا أصحابه إليه ، فضربوه حتى أثخنوه[٣] وحُمل جريحاً فمات من يومه .

---

(١) ذكرنا موقع هذه القرية من نواحي حلب في حاشيتي الصفحتين ١٣٩ و١٤٨ ، فارجع إلى تعليقنا فيها ، وانظر في معجم البلدان لياقوت ٩٢٣/١ ، وديمومبين ٩١

(٢) في ابن الأثير ٣٢٠/٨ : « سنة ٥٢٠ هـ — في هذه السنة ثامن ذي القعدة قتل قسيم الدولة أقسنقر البرسقي صاحب الموصل بمدينة الموصل قتلته الباطنية يوم جمعة بالجامع، وكان يصلّي الجمعة مع العامة » .

(٣) في بغية الطلب ، المخطوطة ، ٢٧٨/٤ ظ : « فلما كان يوم الجمعة تاسع الشهر قصد الجامع ليصلي جماعة ويسمع الخاطب كما جرت عادته في أكثر الجمع فدخل الجامع وقصد المنبر ، فلما قرب منه وثب عليه ثمانية نفر في زي الزهّاد ، فاخترطوا خناجر وقصدوه وسبقوا الحفظة الذين حوله فضربوه حتى أثخنوه ، وجرحوا قوماً من حفظته وقتل الحفظة منهم قوماً

وقُتِلَ مَنْ كان وثب عليه من الباطنيَّة غير شاب واحد كان من كفرناصح ـ ضيعة من عمل عزاز[1] ـ فإنّه سلِم ، وكان له أم عجوز فلما سَمِعَتْ بقتل البرسقي وقتل من وثب عليه وكانت قد علمت أنَّ ابنها معهم فرحت واكتحلت وجلست مسرورة فوصلها || ابنها بعد [١٥٥ و] أيام سالماً فأحزنها ذلك ، وجزّت شعرها وسوّدت وجهها[2] . ٥

وقيل : إنَّ البرسقي قَتَل بيده منهم ثلاثةً ، وكان البرسقي ـ رحمه الله ـ قد رأى تلك الليلة في منامه عدّة من الكلاب ثاروا به فقتل بعضها ، ونال منه الباقون أذى شديدًا ، فقصَّ رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدّة أيام ، فقال : « لا أترك الجمعة لشيء أبدًا » . وكان من عادته أن يحضر الجمعة مع العامة ١٠ ـ رحمه الله ـ[3] وكان وزير البرسقيّ المؤيد بن عبد الخالق وكان قدم

وقبضوا قوماً . وحمل البرسقي بآخر رمقه إلى بيته . وهرب كلّ من في الجامع ، وبطلت صلاة الجمعة ، ومات الرجل من يومه . »

(١) في بغية الطلب ، بالموقع نفسه : « وقتل أصحابه من بقي في أيديهم من الباطنية ولم يفلت منهم سوى شاب كان من كفرناصح ، ضيعة من عمل عزاز من شمالي حلب » .

(٢) وردت هذه العبارة السابقة في بغية الطلب المخطوطة ٢٧٩/٦ و نقلها ابن العديم فيا يصرح لنا عن أبي الفوارس حمدان بن عبد الرحيم في تاريخه الذي جمعه ووقع إليه منه أوراق بخطه .

(٣) في بغية الطلب ، المخطوطة ، ٢٧٨/٦ ظ : « قال لي عز الدين أبو الحسن بن الأثير في سنة عشرين وخمسمائة قتل أق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة قتله باطنيّة ، وكان رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به فقتل بعضها ، ونال الباقون أذىً شديدًا ، فقصّ رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام ، فقال . . . » وهكذا فقد نقل ابن العديم إلى زبدة الحلب ما كتبه في تاريخه الكبير بحروفه — انظر ابن القلانسي ٢١٦ — وفي ابن الأثير ٣٢٠/٨ : « فركب الى الجامع على عادته وكان يصلّي في الصف الأول فوثب عليه بضعة عشر نفساً عدة الكلاب التي رآها فجرحوه بالسكاكين ، فجرح هو بيده منهم ثلاثة ، وقتل رحمه الله . »

معه حلب حين قدمها[(١)] .

عز الدين مسعود

وملك عزّ الدين مسعود حلب عند ورود الخبر عليه بقتل أبيه في سنة عشرين ، واستوزر المؤيّد وزير أبيه وولّى فيها من قِبَلِهِ الأمير تومان[(٢)] .

٥ وسار من حلب في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة إلى السلطان محمود وهو ببغداد، فسأله أن ينعم عليه ببلاد أبيه، فكتب له منشوراً بذلك ، فوصل إلى الموصل وملكها ، ثم نزل إلى الرّحبة قاصداً إلى الشام[(٣)] ؛ وكان يظن أنّ قاتل أبيه قومٌ من أهل حماة ، فأضمر للشّام وأهله شرّاً عظيماً[(٤)] .

موت مسعود

١٠ ورجع عما كان عليه من الأفعال المحمودة والإقبال على مجاهدة الفرنج[(٥)] ، وبلغ طغتكين عنه أنّه يقصده ، فتأهّبَ له فلمّا نزل بظاهر الرّحبة امتنع واليها من تسليمها، فحاصرها

(١) في ابن الأثير ٣٢٠/٨ : « ولما قتل كان ابنه عز الدين مسعود بحاب يحفظها من الفرنج فأرسل إليه أصحاب أبيه بالخبر ، فسار إلى الموصل ودخلها أول ذي الحجة ، وأحسن إلى أصحاب أبيه بها . وأقر وزيره المؤيد أبا غالب بن عبد الخالق بن عبد الرزاق على وزارته ، وأطاعه الأمراء والأجناد .

(٢) في ابن الأثير ٣٢٦/٨ : « واستناب بحلب أميراً اسمه قومان » – وهو بالتاء في زبدة الحلب عندنا وفي مفرج الكروب، ط. الدكتور جمال الدين الشيال ص٣٧ كذلك.

(٣) في ابن الأثير ٣٢١/٨ : « لما استقامت أموره في ولايته ، وراسل السلطان محموداً، وخطب له ولاية ما كان أبوه يتولّاه من الموصل وغيرها ، فأجاب السلطان إلى ما طلب ، فرتب الأمور وقررها ، فكثر جنده . »

(٤) في المصدر نفسه : « فطمع في التغلب على بلاد الشام ، فجمع عساكره وسار إلى الشام يريد قصد دمشق ، فابتدأ بالرحبة فوصل إليها ونازلها وقام يحاصرها ».

(٥) في ابن القلانسي ٢١٦ : « فلما استتب امره وقويت شوكته واستقامت ولايته شمخ بأنفه ونفخت حداثة السن في سحره ، وحدثته نفسه بمنازلة البلاد الشامية والطمع في تملك المعاقل الاسلامية والاطراح لمجاهدة العصب الافرنسية بالضدّ من أولى الحزامة والسداد وذوي البأس والبسالة » – انظر ابن الأثير ٣٢٦/٨

أيامًا فسلمها الوالي إليه ، ونزل فوجده قد مات فجأة ؛ وقيل : سقي سمًا فمات[١] .

تومان

ونَدِم الوالي على تسليم الرّحبة ، وكان قد وصلتْ قطعةٌ من العسكر لتقوية حلب || [١٠٠ظ] فنعهم تُومان من الدُّخول إليها، فوقع الشرّ بينه وبين رئيس حلب فَضَائل بن بديع ، ودَاخَلَهم إلى حلب .

خلتغ أبه

فوصل إلى حلب ختلغ أبه[٢] السُّلطانيّ غلام السُّلطان محمود ، ومعه توقيع مسعُود بن البرسقي بحلب ، كَتَبَه قبل وصوله إلى الرّحبة فلم يقبله تُومان والي حلب[٣] فعاد ختلغ أبه إلى الرّحبة ، ـ وقد جرى فيها ما ذكرناه من موت مسعود ـ .

فعاد ختلغ أبه على فوره إلى حلب فتسلّمها من يد تومان ، آخر جُمادى الآخرة ، وصعد إلى قلعتها بطالعٍ اختاره له المنجّمون ، فأخذه الطَّمع في أموال النّاس[٤] ، وصادر جماعةً من أهل حلب ، واتّهمهم

(١) في ابن القلانسي ٢١٧ : « فما كان بعد ذلك إلّا الأيام القلائل حتى انفصمت عُرى شبابه وتزل محتوم القضاء به بهجوم مرض حاد عليه بظاهر الرحبة أتى عليه وأصاره إلى المحتوم الذي لا بد عنه ولا مجير له منه » — في ابن الأثير ٣٢٦/٨ : « فأخذه مرض حاد وهو محاصر لها فتسلم القلعة ومات بعد ساعة ، فندم من جا على تسليمها اليه . ولما مات بقي مطروحاً على بساط لم يدفن ، وتفرق عنه عسكره ، ونهب بعضهم بعضاً فشغلوا عنه ، ثم دفن بعد ذلك ، وقام بعده أخ له صغير » .

(٢) في ابن الأثير ٣٢٦/٨ : « ثم انه ولى عليها أميراً اسمه قتلغ أبه » — أنظر تعليقنا في حاشية الصفحة ١٥٢ السابقة على كلمة ختلغ واقتراحنا ان تكون قطلغ أو خطلغ فالتاء والطاء تتناوبان وتتعاوران المكان عند المؤرخين كما في قطلمش وقتلمش وكل يرسمها كما يريد، وابن العديم يرسمه في بغية الطلب بخطه بالخاء فالتاء فاللام فالغين في مخطوطة استانبول ٢٠٦/٨ ظ .

(٣) في ابن الأثير ٣٢٦/٨ : « وسيّره بتوقيع إلى قومان بتسليمها فقال : بيني وبين عز الدين علامة لم أرها ، ولا أسلم إلّا بها، وكانت العلامة بينهما صورة غزال ، وكان مسعود بن البرسقي حسن التصوير » — انظر مفرج الكروب ٣٧/١

(٤) في المصدر نفسه : « فظهر منه بعد ايام جور شديد وظلم عظيم ، ومدّ يده إلى

بودائع المجنّ الفوعيّ ، رئيس حلب المقتول في أيام رضوان .

وقبض على شرف الدّين أبي طالب بن العجميّ وعمّه أبي عبدالله ، واعتقلها بحلب . وثقب كعاب أبي طالب وصادره ، فعاد فعلُه القبيحُ عليه بالبوار ، وضلّ رأي منجّمه في ذلك الاختيار .

وقام أهل حلب عليه فحصروه ، وقدّموا عليهم[1] بدر الدّولة سليمان بن عبد الجبّار ، ونادى أهلُ حلب بشعار بدر الدّولة ، وساعده على ذلك رئيسُ حلب فضائلُ بن صاعد ابن بديع ، وقبض على أصحاب ختلغ أبه ، وذلك في الثاني من شوّال .

وقصد حلب في تلك الحال ملك أنطاكية وجوسلين فصانعوه على مال حتّى رحل[2] ؛ وضايقوا القلعة وأحرقوا القصر ، ودخل إليهم إلى المدينة الملك ابراهيم بن رضوان ؛ ووصل إليهم حسّان صاحب منبج ، وصاحب بزاعا[3] ؛ ودام الحصار إلى النّصف من ذي الحجّة[4] .

أموال الناس لا سيّما التركات فإنه أخذها ، وتقرّب إليه الأشرار ، فنفرت قلوب الناس منه » – انظر مفرج الكروب ٣٨/١

(١) في ابن الأثير : « وقاموا ليلة الثلاثاء ثاني شوّال فقبضوا على كلّ من كان بالبلد من أصحاب قتلغ أبه ، وكان أكثرهم يشرب في البلد صبيحة العيد وزحفوا إلى القلعة فتحصن قتلغ أبه فيها بمن معه فحصروه . »

(٢) في ابن الأثير ، ٣٢٦/٨ : « وسمع الفرنج بذلك فتقدم جوسلين بعسكره إلى المدينة فصونع بمال فعاد عنها ، ثم وصل بعده صاحب أنطاكية في جمع من الفرنج فخندق الحلبيون حول القلعة ، فمنع الداخل والخارج إليها من ظاهر البلد » – في مفرج الكروب ٣٨/١ : « ثم وصل الجوسلين ملك الفرنج في مائتي فارس إلى باقوسا » .

(٣) في المصدر نفسه : « ووصل إلى حلب حسان صاحب منبج وحسن صاحب بزاعة لاصلاح الأمر فلم ينصلح » – في مفرج الكروب ٣٨/١ : « ووصل الأميران حسن وحسّان ابنا البعلبكي صاحبا منبج من بزاعة » .

(٤) في المصدر نفسه : « وأشرف الناس على الخطر العظيم إلى منتصف ذي الحجّة من السنة » – في مفرج الكروب ٣٩/١ : « وطال الحصار على ختلغ أبه إلى نصف ذي الحجة » .

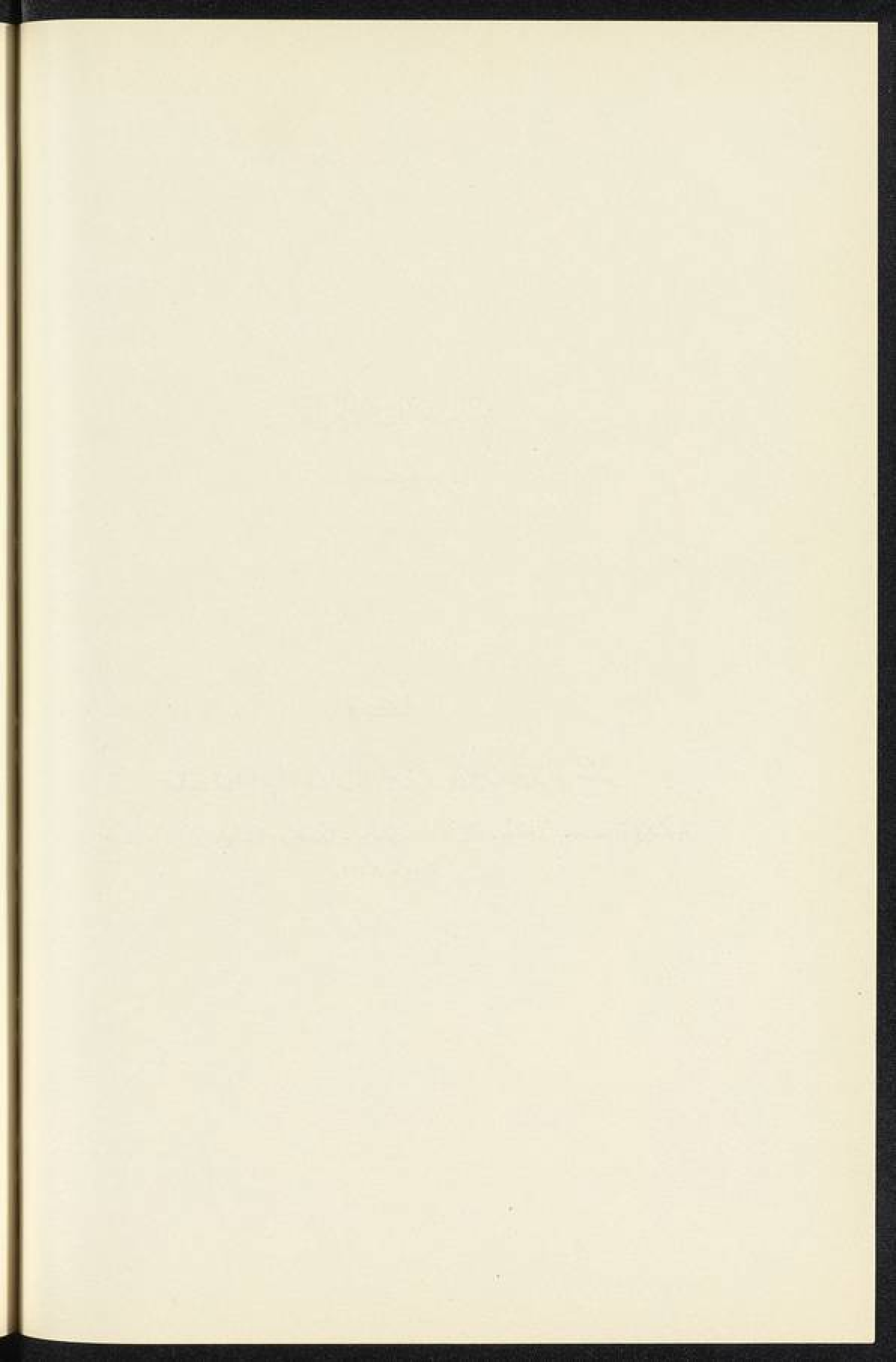
القسم الثالث والعشرون

ذِكْرُ

حَلَب في أيام أتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سُنقُر

أخبار عماد الدين في الشام والجزيرة - حروب الفرنج والروم - مقتل عماد الدين زنكي الشهيد

٥٢٢هـ - ٥٤١هـ



أخبار عماد الدين في الشام والجزيرة

[١٥٦و] دخوله حلب

وكان أتابك(١) || عماد الدّين زنكي بن قسيم الدّولة أق سنقر(٢) قد ملك الموصل بتواقيع السّلطان محمود، فَسَيَّر إليه شهاب الدّين مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر، وأعلمه بأحوال حلب وحصارها؛ فسيّر أتابك إليها عسكرًا مع الأمير سنقر دراز والأمير الحاجب صلاح الدّين حسن(٣).

---

(١) أتابك: هو الذي يربي أولاد الملوك، أتا: بالتركية هو الأب؛ بك: هو الأمير؛ ولما تقلّد زنكي الموصل سلّم إليه السلطان محمود ولديه ألب ارسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربّيها، فلهذا قيل له أتابك – انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان ١٩٣/١

(٢) هو أبو الجود عماد الدين زنكي بن آق سُنْقُر بن عبدالله الملقّب بالملك المنصور المعروف والده بالحاجب، كما في وفيات الأعيان ١٩٣/١ – وقد ترجم له ابن العديم في بغية الطلب، المخطوطة ٢٠٦/٨ و: «زنكي بن آق سنقر أبو المظفر التركي ... ويعرف بأتابك زنكي بن قسيم الدولة لأنه كان عنده ولدان للسلطان محمود بالموصل يربيها وكان مولده بحلب في أيام ولاية أبيه في سنة ثمانين وأربعمائة؛ وربّي بها، وكان في أول أمره مضافًا إلى آق سنقر البرسقي، والبرسقي شحنة بغداد، وولاّه البصرة. فلما عزل البرسقي عن شحنكية بغداد فارق البصرة وقصد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه فأكرمه وأقطعه البصرة وأعاده إليها في سنة ثمان عشرة وخمس مائة؛ ثم ترقت به الحال إلى أن ملك الموصل في سنة احدى وعشرين وخمسمائة» – انظر أخباره مفصلة في تاريخ الدولة الأتابكية، ملوك الموصل، لابن الأثير طبعة باريس ١٨٧٦ م؛ مع الترجمة الفرنسية.

(٣) في ابن الأثير ٣٢٦/٨: «فسير إلى حلب الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقوش وهما من أكابر البرسقي وقد صاروا معه» – في مفرج الكروب ٣٩/١: «وسيّر جيشًا مع الأمير صلاح الدين الياغيسياني حاجبه» – وفي بغية الطلب المخطوطة ٢٠٧/٨ و: «وصل الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقش وجماعة أمراء في عسكر قويّ إلى باب حلب».

ودخل الأميرُ صلاح الدّين فأصلح الحالَ ، ووَفَّق بينهما[١] على أن استدعيا أتابك زنكي من المَوْصل ، فتوَجَّـهَ بالجيوش إلى حلب ، وقيل : إنّ بدر الدَّوْلة وختلغ سارا إليه .

وقيل : إنّ ختلغ أبه لم يزل بالقلعة حتى وصل أتابك فنزل إليه ، وصعد أتابك إلى القلعة ، يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة ، من ٥ سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، وارتاد موضعاً ينقل أباه قسيم الدَّوْلـة إليه ويدفنه به ، وكان مدفوناً بالقبَّة التي على جبَل قَرَنْبيا[٢] . فعرض عليه بدرُ الدَّولة نقلَ أبيه إلى المدرسة التي أنشأها بالزَّجاجين[٣] .

وقيل : إنّ أبا طالب بن العجمي طلب منه ذلك ، فَنَقَلَهُ ورفعه في اللَّيل من سُور حلب ، ودفنه في البيت الشَّمالي من المدرسة ، واتَّخذه ١٠ تربةً لِمَنْ يموتُ من أولاده ، ووَقَفَ على المُقْرئين على تربة والده القرية

---

(١) الجملة غامضة في النص المثبت في المخطوطة ، فلعله يريد أن صلاح الدين العمادي كما تسميه البغية أصلح بين ختلغ أبه وبدر الدولة سليمان بن عبد الجبار وأرادهما على أن يسيرا إلى عماد الدين زنكي—وفي مفرّج الكروب ٣٩/١ : « واتفق الأمر على أن يسير ختلغ أبه وبدر الدولة إلى الأمير عماد الدين زنكي ، فلمّا ولّى استقر الأمر ، فمضيا إلى باب عماد الدين، وبقي في البلد حسن قراقوش والياً ولاية مستعارة»—وفي بغية الطلب ٢٠٧/٨ و : « فلمن ولّى عاد إلى منصبه » – وكذلك في تاريخ ابن الوردي ٣٦/٢

(٢) في ابن شدّاد ، مخطوطة رومة ، بالورقة ٣٦ ظ : « في شرقي المدينة مشهد قَرَنْبيا أنشأه عماد الدين آق سنقر قسيم الدولة صاحب حلب ، وكان هذا الموضع قديماً يعرف بقبر الأنبياء ، فحرّقته العامّة . وسبب بناء قسيم الدّولة لهذا المشهد أن شيخاً من أهل منبج رأى في حلب كأنّ عليّ بن أبي طالب عليه السّلام يصلّي فيه ، وأنه قال : قل لآق سنقر يبني على قرنبيا مشهداً . وقرنبيا : اسم الربوة » ، وقد نقل ابن شدّاد هذا الكلام عن المؤرخ الشيعي ابن أبي طيّ في تاريخ حلب ؛ ومرّ بنا هذا الاسم في الصفحة ١١٣

(٣) المدرسة الزجاجية : من المدارس الشافعية ، أنشأها بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب ، وهي أول مدرسة بنيت بحلب ابتدئ في عمارتها سنة ست عشرة وخمسمائة – كما في مخطوطة ابن شدّاد ، بالورقة ٦٢ و .

المعروفة بشامر[1] .

وأما الملك ابراهيم بن رضوان فإنّه هرب منه إلى نصيبين، وكانت في أقطاعه إلى أن مات .

قتل ختلغ

وأما ختلغ أبه فانّه سلّمه إلى فضائل بن بديع فكحله بداره، ثم قتله أتابك بعد ذلك .

٥

وقيل : إنّ بدر الدّولة هرب منه عند ذلك ؛ وهَرَب فضائل بن بديع إلى قلعة ابن مالك خوفاً من أتابك[2] .

[١٥٦ظ]

وَوَلّى || أتابك رئاسةَ حلب الرئيسَ صفيَّ الدّين أبا الحسن علي بن عبد الرّزّاق العجلاني البالسيّ ، فسلك أجملَ طريقةٍ مع النّاس .

١٠

الموصل والجزيرة

وخرج أتابك من حَلَب، وسار حتى نزل أرض حماة، فوصله صمصام الدّين خير خان بن قراجا ؛ وتأكّدت بينهما مودّةٌ لم تحمد عاقبتها ـ فيما نذكره بعد ـ وكذلك وصله سونج ابن تاج[3] الملوك .

ثم سار أتابك بعد ذلك ، فوطئ بساط السُّلطان ، في سنة ثلاث وعشرين وخمسائة ؛ وعاد بالتّواقيع السلطانيّة بملك الغرب كله، ودخل

١٥

---

(١) في الأعلاق الخطيرة لابن شداد ، مخطوطة رومة ، بالورقة ٦٢ظ : «ولما ملك الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر حلب سنة اثنتين وعشرين وخمسائة نقل والده قسيم الدولة آق سنقر من قرنبيا وكان مدفوناً بها فدفنه في شمالي هذه المدرسة ، وزاد في وقفها لأجل القرّاء المرتبين في التربة» – انظر الصفحة ١١٣ السابقة .

(٢) في ابن الأثير ٣٢٦/٨ : «قبض على قتلغ أبه وسلّمه إلى ابن بديع فكحله بداره بحلب فمات قتلغ أبه ، واستوحش ابن بديع فهرب إلى قلعة جعبر واستجار بصاحبها فأجاره» – في بغية الطلب ، المخطوطة ، ٢٠٧/٨ ظ : «وقبض على خُتلُغ أبه وحمله إلى حلب وسلمه إلى عدوّه ابن بديع فكحلوه بداره في النصف من رجب» .

(٣) جاء الدين سونج هو ابن تاج الملوك بوري بن طغتكين .

الموصل، ثم فتح قلعة السّنّ، وتوجّه إلى حلب، ودعى عسكره زدع الرّها.

وعبر أتابك الفرات إلى حلب بتوقيع السّلطان محمود، وقد كان السلطان آثر أن تكون البلاد لِدُبَيس، فقبّح المسترشدُ ذلك، وكاتب السُّلطان وقال له فيما قال: إنّ هذا أعان الفرنج على المسلمين وكثر سواد الكفار؛ فبطل هذا التدبير. ٥

واستقرّ ملك أتابك بالمَوْصل، والجزيرة، والرّحبة، وحلب، والتوقيع له بجميع البلاد الشّاميّة وغيرها.

زوجة أتابك — وتزوّج أتابك خاتونَ بنت الملك رضوان، وبَنَى بها في دير الزّبيب[1]؛ وكانت معه إلى أن فتح الخزانة بحلب، ١٠ واعتبر ما فيها، فرأى الكبر[2] الّذي كان على أبيه أق سنقر، حين قتله تُتُش جَدُّها، وهو مُلَوَّثٌ بالدّم، فهجرها من ذلك اليوم.

وقيل: إنه هدم المشهدَ الّذي على قبر رضوان، عند ذلك.

ودام أتابك مهاجرًا لها إلى أن دخلتْ على القاضي أبي غانم قاضي حلب؛ وشكت حالها، فصعد إليه وكان جبارًا إلّا أنه ينقاد ‖ إلى [١٥٧ و] ١٥ الحقّ، وإذا خُوِّف بالله خاف؛ فخرج ليركب؛ فلما ركب ذكر له القاضي ما ذَكَرَتْهُ خاتُون، فساق دابّته أتابك، ولم يردّ عليه جواباً، فجذب القاضي أبو غانم بلجام دابته، فوقفتْ، وقال له: «يا مَوْلانا،

(١) في بغية الطلب، المخطوطة ٨/٢٠٨ و: «وفي هذه المدة تزوج أتابك قسيم الدولة بخاتون بنت الملك رضوان ودخل بها ليلة الاثنين في عشرين من شعبان» – وتفصيل طلاقها وهجرها في بغية الطلب كما في الزبدة.

(٢) الكبر: ضرب من القماش أو الثياب – انظر دوزي ٢/٤٣٧، وترجمها المستشرق: «la tunique»

هٰذا الشَّرْعُ لا ينبغي العُدُولُ عنه » . فقال له أتابك : « اشهدْ عَلَيَّ أنها طَالِقٌ » . فأرسل اللجامَ وقال : « أمَّا السَّاعة فنعم ! » .

سوار بن ايتكين

واستوحشَ الأميرُ سوار بن أيتكين من تاج الملوك بوري صاحب دمشق ، وكان في خدمته ، فورد إلى حلب إلى خدمة أتابك ، في سنة أربع وعشرين ، فأكرمه وشرّفه ، وخلَعَ عليه ، وأجرى له الاقطاعات الكثيرة ، وأعطاه ولاية حلب وأعمالها ، واعتمد عليه في قتال الفرنج ، وكان له بصيرة بالحرب وتدبير الأمور ؛ وله وقعات كثيرة مع الفرنج ومواقف مشهورة أبان فيها عن شجاعة وإقدام ، وصار له بسببها الهيبة في قلوب الكفّار الأغتام.

حمص وحماة

وعزم أتابك في السَّنة على الجهاد ، وكتب إلى تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق ، يلتمس منه المساعدة[1] ، فأجابه إلى ذلك وتحالفا على الصَّفَاء .

وكتب تاج الملوك إلى ولده بهاء الدين سونج بحماة ، يأمره بالخروج بعسكره ، وجَهَّز إليه مِنْ دِمَشق خمسمائة فارس ، وجماعةً من الأمراء مقدّمهم شمس الخواص[2] ؛ فخرجوا[3] حتّى وصلوا إلى مخيّم أتابك على حلب ، فأكرمهم وتلقّاهم ، وأقاموا عنده ثلاثاً . ثم أظهروا الغارة على

---

(١) في ابن القلانسي ٢٢٧ : « وفي هذه السنة ، ورد الخبر بوصول الأمير عماد الدين أتابك زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل إلى حلب في عسكره عازماً على الجهاد ، وأرسل تاج الملوك بوري بن ظهير الدين أتابك يلتمس منه المعونة والاسعاد على محاربة الافرنج الأضداد ، وترددت الرسل بينهما في ذلك إلى أن أجاب إلى المراد » – انظر النص عند ابن الأثير ٨/٣٢٩

(٢) في ابن القلانسي بالصفحة نفسها : « يأمره بالخروج في عسكره والاختلاط بالعسكر الدمشقي ومقدّمه الأمير شمس الأمراء الخواص وعدّة من الأمراء والمقدّمين » .

(٣) في ابن القلانسي ٢٢٨ : « وتوجهوا جميعاً إلى مخيم عماد الدين أتابك فأحسن لقاءهم

عَزاز ، وركبوا وعطفوا على سونج ، وغدر به وبأصحابه ؛ ونهب خيامهم وأثقالهم وكراعهم ، وهرب بعضهم ، وقبض على سونج والباقين ، وحملهم || إلى حلب ، واعتقلهم فيها . [١٥٧ظ]

وسار من يومه إلى حماة فأخذها يوم السَّبت ثامن شوال ، وأقام بها أياماً ، وطلبها خير خان بن قراجا[1] صاحب حمص ، وبذل عليها مالاً ، فسلَّمها إليه بكرة الجمعة رابع عشر شوال ، وضربت بوقاته عليها ، وخطب له الخطيبُ على المنبر . فلمَّا كان وقت العصر من ذلك اليوم قبض عليه ونهب خيامه وجميع ما فيها . ٥

وسار فنزل حمص ، فقاتلها أربعين يوماً[2] لم يظفر فيها بطائل غير الربض ، وكان يربط خير خان على غراير التِّبن ، ويعاقبه ويعذِّبُهُ أنواع العَذَاب ، وانتقم اللهُ منه ببعض ظُلمه في الدُّنيا ، وهو كان يحرِّضُ أتابك على الغدر بسونج ، فكافأه الله . ١٠

وهجم الشِّتاء فعاد أتابك إلى حلب في ذي الحجَّة .

خبر الفرنج

وملكتْ أنطاكية زوجة البيمند بنت بغدوين[3] ، وحالفتْ جماعةٌ من الفرنج على قِتال أبيها ، ووقع بين الفرنج شرٌّ . ١٥

وبالغ في الاكرام لهم ، وأغفلهم أياماً ، وعمل عليهم وغدر بهم ، وقبض على سونج وولد تاج الملوك وعلى جماعة المقدَّمين ونهب خيامهم وأثقالهم وكراعهم ، فهرب منهم من هرب واعتقل الباقين ، وحملهم إلى حلب ، وأمر بحفظهم فيها » – انظر ابن الأثير ٨/٣٣٠

(١) في ابن الأثير ٨/٣٣٠ : « ورحل عنها إلى حمص وكان صاحبها قرجان بن قراجة » – في ابن القلانسي ٢٢٨ : « وكان صاحبها خيرخان بن قراجه » .

(٢) في ابن القلانسي : « فأقام عليها مدة طويلة يبالغ في المحاربة لأهلها والمضايقة لها فلم يتهيأ له فيها مطلب » – وفي ابن الأثير قريب من هذا المعنى .

(٣) ذكر المستشرق أنها : «Alix, fille de Baudoin»

وهجم المسلمون ربضَ الأثارب ، وربض معرّة مصرين ؛ فوصل بَغدوين من البيت المقـدّس ، وأغار على أنطاكية وأخذ قوماً من أصحاب ابنته ، فقطع أيديهم وأرجلهم .

وفتح قومٌ من السرجندية[1] باب أنطاكية ، فدخلها في سنـة خمس وعشرين ، فطرحتْ ابنتهُ نفسها عليه ، فصفح عن ذنبها ، وأخذ أنطاكية ، ووهبها جبلة واللّاذقية . وعاد إلى القُدس .

وتوجّه أتابك إلى الموصل في سنـة خمس وعشرين وخمسمائة ، واستصحب معه سونج بن تاج الملوك ، وبعض المقدّمين من عسكر دمشق ؛ وترك الباقين بحلب ؛ وتردّدَتِ المُراسلات في إطلاقهم ، فلم يفعل ؛ والتمس عنهم خمسين ألف || دينار أجاب تاج الملوك إلى تحصيلها وحملها . [١٥٨ و]

ووقع في هذه السَّنة وقعـة بين جوسلين وسوار ، بناحية حلب الشماليّة ، فكانت الغلبة لجوسلين ؛ وقَتل من المسلمين جماعةً ؛ وخرج سوار بعد ذلك فهجم ربض الأثارب ونَهَبه .

.. ووصل دُبَيس في هذه السّنة منهزماً من المسترشد ، دبيس به صدقه وكان قد كسره عسكر المسترشد في هذه السّنـة ، فانهزم وخفي خبرُه عن كلّ أحد ، فظهر بعد مدّة أنّه وصل إلى قلعة جعبر ، وأودع ابنَ السلطان عند مالك صاحبها ، وسار إلى جوسلين ، واستند إلى الفرنج فلم يَرَ ما يُعجِبُهُ .

---

(١) ترجمها المستشرق في تاريخ الحروب الصليبية ٣/٦٦١ : بأنها مفرزة من القواد الصغار : «Une troupe de sergents d'armes»

وكاتب تمرتاش ثم خاف من غَدْرِه، وأن يفادي به خير خان، فسار إلى بلد دمشق، فنزل ضالًا على مكتوم بن حَسَّان.

وقيل: كان سائرًا إلى صاحبة صَرْخد ليتزوَّجها، فضلَّ في الطريق[1]، ولم يكن معه دليلٌ عارفٌ بالمناهل.

٥ وقيل: كان قاصدًا حلّة مُرَيْن، فهلك أكثر أصحابه.

وحصل في حلّة حسان[2] كالمنقطع الوحيد في نفر يسيرٍ مِنْ أصحابه، فأنهض تاجُ الدَّوْلة بُوري العسكر إليه حينما سمع به، فأسَرَه، ووصلوا به إلى دمشقَ، لستٍّ خَلَوْنَ مِنْ شَعْبان سَنةَ خمسٍ وعشرين؛ وأنزله في دارٍ بقلعة دمشق، وأكرمه وأضافه، وحمل إليه من الملبوس والمفروش ما يليق به، واعتقله اعتقال كرامة[3]. وكاتَبَ المسترشدَ ١٠ في أمرِه، فردَّ عليه الجواب بالاحتياط عليه إلى أن يصل من يحمله إلى بغداد.

[١٥٨ظ] فلمَّا عرف أتابك زنكي ذلك، أنفذ رسوله إلى تاج الملوك || يطلبُ تسليم دبيس إليه، وأن يُطلِقَ له الخمسين ألف دينار المقرَّرة عن وَلَده

---

(١) في ابن الأثير ٨/٣٣٣: «جاءه قاصد من الشام صرخد يستدعيه إليها لأن صاحبها كان خصيًا فتوفى هذه السنة وخلف جارية سريّة له، فاستولت على القلعة وما فيها، وعلمت أنها لا يتم لها ذلك إلّا بأن تتصل برجل له قوة ونجدة، فوصف لها دبيس بن صدقة وكثرة عشيرته، وذكر لها حاله وما هو عليه بالعراق، فأرسلت تدعوه الى صرخد لتتزوج به وتسلّم القلعة وما فيها من مال وغيره إليه. فأخذ الأدلاء معه وسار من أرض العراق إلى الشام فضلّ به الأدلاء بنواحي دمشق» – انظر مفرج الكروب ١/٦٦

(٢) في تاريخ العظيميّ بالورقة ٢٠٧ ظ: «وسار دبيس نحو صاحبة صلخد ليتزوج بها فأضافه مكتوم بن حسّان بن مسمار بالحلّة، وابطن إلى تاج الملوك وقيل بالاتفاق فخرج إليه عسكر دمشق فقبضوا على دبيس» – انظر مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ١/١٣٥

(٣) في ابن الأثير ٨/٣٣٣: «فنزل بناس من كلب كانوا شرقي الغوطة، فأخذوه وحملوه الى تاج الملوك صاحب دمشق فحبسه عنده» – انظر مفرج الكروب ١/٦٥

سونج وبقيّة العسكر، فأجاب إلى ذلك، وتقرّر الشّرط عليه[1].

ووصل أتابك زنكي إلى قريب قارا[2] بسونج والمعتقلين؛ وتوجّه أصحابُ تاج الملوك بِدُبَيس فتسلّمهُ زنكي، وحمله في محفّة مُقيّداً؛ وسلَّم سونج بن تاج الملوك وجماعته إلى أصحابه.

٥ وكان يظنّ دُبَيس أنّ أتابك زنكي يُهلكه، فلمّا وصل إلى حلب أطلقه وأكرمه، وأنزله بحلب في دار لاجين، وأعطاه مائة ألف دينارٍ، وخلع عليه خِلعاً فاخرة[3].

وكان عَرَض لدبيس في طريقه وهو مُكبَّلٌ بالحديد شاعرٌ امتدحَهُ بأبياتٍ، ولم يكن معه ما يُجيزُه، فكتب له في رُقعةٍ هذَينِ البيتَينِ، ١٠ ودفعها إليه:

الجودُ فِعلي ولكنْ ليسَ لي مالُ ... وكيفَ يَصنَعُ مَنْ بالقَرضِ يَحتالُ

فهاكَ خطّي إلى أيام مَيسَرَتي ... دَيناً عليَّ فلي في الغَيبِ آمالُ

فَجاءه الشّاعر بحلب، وقد خَرجَ مُسيَّراً في مَيدان الحصا، فقال له: «يا أمير لي عليك دَيْناً» فقال: «واللهِ ما أعرِفُ لِأحدٍ عليَّ دَيناً»

(١) في ابن الأثير ٣٣٣/٨: «وسمع أتابك عماد الدين زنكي الخبر، وكان دبيس يقع فيه وينال منه، فأرسل إلى تاج الملوك يطلب منه دبيساً ليسلمه إليه ويطلق ولده ومن معه من الأمراء المأسورين وان امتنع من تسليمه سار إلى دمشق» - انظر تفصيل أمر دبيس في تاريخ الدولة الأتابكية ص ٨٢

(٢) القارة: اسم قرية كبيرة على قارعة الطريق، وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق، وأهلها كلهم نصارى - كما في معجم البلدان لياقوت ١٢/٦

(٣) في ابن الأثير ٣٣٣/٨: «وأرسل تاج الملوك دبيساً فأيقن دبيس بالهلاك، ففعل زنكي معه خلاف ما ظن، وأحسن إليه، وحمل له الأقوات والسلاح والدواب وسائر أمتعة الخزائن، وقدّمه حتى على نفسه، وفعل معه ما يفعل مع أكابر الملوك» - انظر مرآة الزمان ١٣٧/١

فقال: «بلى، وشاهِدُهُ منك»، وأخرج له خطَّه؛ فلما وقفَ عليه قال: «إي والله دَيْنٌ وأيُّ دَيْن!» وأمره أن يأتي إليه إذا نزل، فأتاه فأعطاه ألفَ دينار والخِلعةَ التي خلعها أتابك زنكي عليه، وكانت جبَّة أطلس وعمامة شَرْك.

وحصل دُبَيْس بعد ذلك عند السُّلطان مسعود، في سنة تسع ٥ وعشرين، حتى كسر مسعود المسترشد || وأسرَه على باب مراغة[1]. [١٥٩ و]

مقتل دبيس

وسيَّر السُّلطان إلى أتابك زنكي يَستدعيه، وعزم على الفَتْكِ به، واطلع دبيس على ذلك، فكتب إلى أتابك يُعلِمُهُ ويُحذِّرُهُ من المجيء، فامتنعَ. وكان السلطان قد سيَّر دُبَيْساً إلى الحلّة[2]، واطَّلع بعد ذلك على فِعل دُبَيْس، فردَّهُ. وحذَّره النَّاسُ فلم ١٠ يفعل فوصل. فلما وصل إلى الخيمة قام السُّلطان عن السَّرير، وقال: «هذا جزاء مَنْ يَخُونُ مولاه». وضرب رأسه فأطارَهُ، فبلغ ذلك زنكي فقال: «فَدَيْناهُ بالمالِ وفَدَانا بالرُّوحِ».

ووَصل سديدُ الدَّولة بن الأنباريّ كاتبُ الإنشاء للمسترشد إلى تاج الملوك، في أواخر ذي القعدة لتسليم دُبَيْس إلى مَنْ يحمله إلى ١٥ بغدادَ، فوجد الأمرَ قد فات، فعاد فصادفَتْه خيلُ أتابك زنكي بناحية الرَّحبة فأوقعوا به، وقبضُوه، ونهبُوا ما كان معه حتّى نهبوا القافلةَ الّتي كانت معه، وقتل بعضَ غِلمانه، ولقي شدّة عظيمة من الاعتقال إلى أن أُطلق، وعاد إلى بغداد[3].

(١) انظر موقع هذه البلدة في حاشية الصفحة ٢٦٠ الآتية.

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٣٢٢/٢: «الحِلّة: علم لعدة مواضع، وأشهرها حلّة بني مزيد، مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد... وتزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس.»

(٣) في تاريخ الدولة الأتابكية ٨٦: «فاتصل ذلك بالشهيد، وكان له في كل بلد

وفي سنة ستّ وعشرين وخمسمائة، فتح الملك كليام رامَ حمدان، وسار أتابك ودبيس إلى بغداد، مباينين للمسترشد، وعزما على أن يهجما بغداد، فبذل لهما الحِلّة، وأن يدخل نائبهما بغداد، فأبيا[1] فخرج إليهما المسترشد بنفسه، والتقوا في شعبان[2] على عَقَرْقُوف[3] فكسرهما.

٥ وعاد أتابك زنكي إلى الموصل، وسار دُبيس إلى السّلطان سنجر.

فتن الفرنج

ووقع بَيْنَ الفرنج، في هذه السنة، فتنٌ. وقتل بعضهم بعضاً، وقتل صاحب زردنا، ونزل التّركمان على بلد المَعَرّة وكفرطاب، وقسموا المغلّات، فاجتمع الفرنج[4] ‖ وهزموهم عن [١٥٩ظ] البلد، وفتحوا حصن قبّة ابن ملاعب، وأسروا منه بنتَ سالم بن مالك

١٠ وحريم ابنِ ملاعب، وخرّبوا الموضع.

وأوقع الأميرُ سيف الدّين سوار بفرنج تلّ باشر، وقتَلَ منهم خلقًا كثيرًا، وَوَثَب قومٌ من أهلِ الجبل على حِصْن القدموس[5]،

مَنْ يطالعه بالأخبار، فامتعض لذلك وأرسل إلى البرية وشحنها بالرجال وأمرهم بأخذ ابن الأنباريّ وحمله. فلما عاد أخذ بنواحي الرحبة وحمل إلى الشهيد فحبسه بالموصل. فأرسل الخليفة المسترشد بالله يشفع فيه، فأطلقه، وأحسن إليه.»

(١) في الأصل: «فأبوا» وصححناها بالتثنية. وهنا يستطرد ابن العديم فيتحدث عن أعمال دبيس كأنه حيّ، وقد ذكر وفاته في الصفحة السابقة.

(٢) في مفرّج الكروب ٥٠/١: «ونزل عمادالدين زنكي بالمنارية من دجيل، ثم التقيا في السابع والعشرين من رجب بمكان يقال له عقرقوف»—في ابن الأثير ٣٣٧/٨: «ونزل عماد الدين زنكي بالمنارية من دجيل، والتقيا بحصن البرامكة سابع عشرى رجب».

(٣) عَقَرْقُوف: قرية من نواحي دُجيل بينها وبين بغداد أربعة فراسخ كما في معجم البلدان لياقوت ٦٩٧/٣

(٤) في تاريخ العظيمي، ٢٠٨ ظ: «واجتمع الفرنج وهزموهم عن البلد وفتحوا حصن القبة، وأسروا منه حريم ابن ملاعب بنت سالم بن مالك».

(٥) حصن قديم غربيّ مصياف بينه وبين بانياس؛ ويسميه الغربيون Cademois – انظر دوسو ١٦٠

فأخذوه وسلّموه إلى سيف الملك بن عمرون، فاشتراه أبو الفتح الدّاعي الباطنيّ منه[1] .

ووصل صاحب القدموس إلى أنطاكية، وجمع وخرج إلى نَواز[2] ، وسار إلى قِنَّسرين في جموع الفرنج ، والتقَوْا بعَسكَر حلب وسوار ، في سنة ثمانٍ وعشرين في ربيع الأوّل ، فكسروا المُسلمين ، وقتلوا أبا القَاسم التّركماني ، وكان شجاعاً ، وقتلوا القاضي أبا يَعْلى بْنَ الخشّاب ، وغيرهما .

٥

وتحوّل الفرَنجُ إلى النّقرة ، فصالحهم سوار والعسكر ، فأوقعُوا بسريّةٍ منهم ، فقتلوهم ، وعادوا برؤوسهم وأَسرَى منهم ، فَسُرَّ النّاسُ بذلك بعد مساءتهم بالأمس[3] .

١٠

وأغارتْ خيل الرّها من الفرنج ببلد الشّمال ، وهي عابرة إلى عساكر الفرنج ، فأوقع بهم سوار وحَسّان صاحب منبج وقتلوهم بأسرهم وحملوا الرؤوس والأسرى إلى حلب[4] .

---

(١) في ابن الأثير ٨/٣٦١ : « سنة ٥٢٧ ﻫ – في هذه السنة اشترى الاسماعيلية بالشام قلعة حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون وصعدوا إليه ، وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج » – وكذلك في تاريخ العظيمي ٣٠٩ و .

(٢) في ابن القلانسي ٢٦٠ : « وفي صفر من السنة نهض صاحب بيت المقدس ملك الأفرنج في خيله إلى أطراف أعمال حلب، ووصل إلى موضع يعرف بنوار فنهض إليه الأمير سوار النائب في حلب في عسكر حلب» –وقد مر بنا في الصفحات السابقة تحديد موقع نَواز– في العظيمي : « صاحب القدموس » .

(٣) في ابن القلانسي ٢٦١ : « وعاد المسلمون برؤوس القتلى والقلائع إلى حلب فانجلت تلك الغمّة بتسهّل هذه النعمة .»

(٤) في المصدر نفسه : « ووصل الملك إلى أنطاكية ، وانتهى إلى سوّار خبر خيل الرّها ، فنهض الأمير سوّار وحسّان البعلبكي فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم في بلد الشمال ، وأسروا من وقع في أيديهم حياً ، وعادوا إلى حلب ظافرين سالمين ومعهم الأسرى والرؤوس» .

حروب السلاطين

وفتح شمسُ الملوك اسماعيل بن تاج الملوك حماة من يد نائب صلاح الدّين[1] ، وكان قد عزَم على ذٰلك ، فَتَحَصَّنَ واليها ، فانتهى ذلك إلى شمسِ الملوك ، فخرج في العشر الأواخر من شهر رَمَضان ، وعَزَم على قصدها والنّاس بها غافلون .

٥ وهجم يوم العيد على من فيها || وزَحف في الحال فتحصّنوا منه ، [١٦٠ و] فعاد في ذلك اليوم ، وقد نكا أصحابه في أهلها ، ثمّ زحف عليها زحفاً قويّاً ، فانهزموا بين يديه ، وهجم البلدَ فطلبوا الأمان فأمّنهم ، وحلّفه والي القلعه على أشياء اقترحها ، وأجابه إليها وسلمها إليه ، فسلّمها إلى شمس الخواصّ .

١٠ وحصر المسترشدُ الموصلَ ، وثارتْ الحروبُ بين السّلاطين ، فبلغ المسترشدَ ما أزعجه ، فعاد عنها ، فوصل حسام الدّين تمرتاش إلى خدمة أتابك زنكي ، فسار معه إلى لقاء داود بن سكمان بن أرْتُق ، فكسره أتابك بباب آمد ، وانهزم داوُد وأسر ولده ، وقتل جماعة[2] من أصحابهِ ، وذلك في يوم الجمعة سلخ جمادى الآخرة .

١٥ ونزل على آمد وحصَرَها ، وقَطَع شجَرها ، فصانَعهُ صاحبُها بمال[3] ،

(١) في مفرّج الكروب ١/٥٣ : « فلما نزل شمس الملوك على حماة حاصرها ، وذلك في العشر الأخير من رمضان من هذه السنة ، وكان الوالي بها وهو سنقر — غلام صلاح الدين محمد الباغسياني — مقطعها قد سمع الخبر » .

(٢) في مفرج الكروب ٥٤ : « اجتمع الأمير عماد الدين أتابك زنكي والأمير حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق ، وقصدا مدينة آمد وحاصراها ، فأرسل صاحبها إلى الأمير ركن الدين بن سقمان بن أرتق يستنجده ، فجمع العساكر ، وسار ليرحلها عنها فالتقوا على باب آمد ، واقتتلوا فانهزم ركن الدين وعاد مفلولاً ، وقتل من أصحابه جماعة كثيرة » — وفي ابن الأثير ٨/٣٤٣ مثل هذا في عبارة مماثلة ، وكذلك في ابن القلانسي ٢٤٣

(٣) في مفرج الكروب ١/٥٤ : « وأقام عماد الدين وحسام الدين على آمد محاصرين لها وقطعا الشجر وشعّثا البلد ، ثم عادا عنها من غير بلوغ غرض » — والعبارة عن العظيمي ٢٠٩ظ

فرحل عنها إلى قلعة الصّور[١] ففتحها، وفتح البارعيّة، وجبل جور[٢]، وذا القرنين، وَوَهَب ذلك كلّه لِحسام الدّين تمرتاش، وفتح طنزة[٣] فاستبقاها لنفسه.

وتزوّج أتابك صاحبة خِلاط ابنة سقمان القُطبي.

٥ واستولى أتابك[٤] على العَقر[٥] وشوش[٦] وغير ذلك من قلاع الأكراد؛ وأغار في هذه السَّنة سوار على الجزر وحصن زَردنا، وأوقع بالفرنج على حارم، وشَحن على بلد المَعرّتين، وعاد بالغنائم إلى حلب.

واستوزر زنكي في هذه السَّنة ضياء الدين أبا سعد الكفرتوثي، وكان مشهورًا بحسن الطَّريقة والكفاية وحبّ الخير والمذهب الحميد[٧]، ١٠ وقَدم معه إلى حلب، وعَزَم على قصدِ دمشق ومُضايقتها.

[١٦٠ظ] وذَكَرَ العظيميُّ في تاريخه[٨]: «أنه حَصَرَها || في هذه السَّنة مدّة،

(١) في ابن الأثير ٣٦٣/٨: «فقصد زنكي قلعة الصور من ديار بكر وحصرها».

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٢٠/٢: «جبل جور: بالجيم المضمومة وسكون الواو وراء: اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية، أهلها نصارى أرمن، وفيها قلاع وقرى».

(٣) طنزة: بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر، انظر معجم البلدان لياقوت ٥٥١/٣

(٤) في ابن الأثير ٣٦٣/٨: «في هذه السنة استولى عماد الدين زنكي على جميع قلاع الأكراد الحميدية منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرها» – وهو شبيه بما جاء في مفرج الكروب ٥٥/١

(٥) العقر: قلعة حصينة في جبال الموصل أهلها أكراد، وهي شرقي الموصل تعرف بعقر الحُميدية – انظر معجم البلدان لياقوت ٦٩٦/٣

(٦) شوش: بتكرير الشين وسكون الواو: قلعة عظيمة عالية جدًا قرب عقر الحميدية من أعمال الموصل، قيل هي أعلى من العقر وأكبر ولكنها في القدر دونها – انظر معجم البلدان لياقوت ٣٣٦/٣

(٧) في ابن الأثير ٣٦٣/٨: «واتصل به ضياء الدين أبو سعيد بن الكفرتوثي فاستوزره زنكي، وكان حسن الطريقة عظيم الرياسة والكفاية محبًا للخير».

(٨) يخالف ابن العديم هنا طريقته في كتابه «زبدة الحلب»، فيذكر أحد مصادره

ثمّ رحل إلى حلب ، ثمّ شرّق إلى المَوْصل [1] » .

والصحيح : أنّه حصرَها في سَنة تسع وعشرين وخمسمائة .

ظلم ابن بوري

وذلك أنّ صاحبها شمس الملوك أبا الفتح اسماعيل ابن بوري ، انهمك في المعاصي والقبائح ، وبالغ في الظُّلم ، ٥ وأعرض عن مصالح الدّين والنظر في أمور المسلمين ، بعد اهتمامه أوّلًا بذلك .

واستخدم بين يديه رجلًا كرديًا – يعرف ببدرَان الكافر – جاءه من بلد حمص ، وكان قليل الدّين متنوّعاً في أبواب الظلم ، ليس في قلبه لأحد رحمةٌ ، فَسَلَّطَه على ظُلم المسلمين ومصادرة المتصرّفين ١٠ بأنواعٍ قبيحةٍ من الظُّلم ؛ وظهر منه بُخلٌ عظيم وسَفَّتْ نفسُه إلى تناول الدنايا [2] وغير ذلك من الأفعال الذّميمة .

وعزم على مُصادرة كُتَّابه وحُجَّابه وأُمرائه ، فخاف منه أصحابُه ، واستشعروا منه ، ووقعَتْ الوَحشةُ بينهم .

وعرف عزم أتابك زنكي على قصد دمشق ، وأنه متى وَصَلها ١٥ سُلّمتْ إليه ، فكاتب أتابك زنكي وحَثَّه على سرعة الوصول إليها

وهو العظيمي وذلك ليخالفه في رأيه . وهذه الطريقة انفرد بها في كتابه بغية الطلب كما بيّنا في مقدمة الجزء الأول .

(١) في تاريخ العظيمي ، بالمخطوطة ، في الورقة ٢٠٩ ظ : « وحصر أتابك دمشق مدّة ، ثم رحل إلى حلب ، ثم شرّق إلى الموصل » – وذلك في حوادث سنة ٥٢٨ هـ. ويبدو أن ابن العديم استعمل النسخة التي وقعت لنا من تاريخ العظيمي ونقل عنها بما يطابق النصّ الذي بين أيدينا .

(٢) في مفرج الكروب ٥٧/١ : « شمس الملوك اسماعيل بن بوري بن طغتكين كان ظالمًا سيء السيرة إلى الغاية القصوى مع بخل زائد ودناءة نفس » – ومثل هذه العبارة عند ابن الأثير ٣٦٥/٨ ؛ وتفصيلها في ابن القلانسي ٢٦٥

ليسلّمها إليه طوعاً، وَشَرَطَ عليه أن يمكّنه من الانتقام من كلّ من يكرهه من المقدّمين والأمراء والأعيان؛ وكرّر المكاتبة إليه في ذلك، وقال: «إنْ أهملتَ هذا الأمرَ استدعيتُ الفرنج وسلّمتُ دمشقَ إليهم، وكان إثمُ المسلمين في عنقك[1]».

٥ وَشَرَعَ في نقل أمواله وأحواله إلى صَرخد؛ فظهر هذا الأمرُ لأصحابه، فأشفقوا من الهلاك وأعلموا والدتَه زمرّد خاتون[2] بذلك، فقلقتْ له، وحسّنوا لها قتلَهُ، وتمليك أخيه شهابِ الدّين محمود؛ فرجح ذلك في نظرها، وعزمتْ عليه، فانتظرتْ [١٦١ و] وقتَ خلوته مِن غلمانه وسلاحيّته، وأدخلتْ عليه من أصحابها مَنْ قتله[3].

مقتل ابن بوري

١٠ وأخرجتْهُ فأُلقِيَ في ناحية من الدّار ليشاهدَهُ غِلمانه وأصحابُه فسرّوا بذلك. وذلك في يوم الأربعاء الرّابع عشر من شهر ربيع الآخر، سنة تسع وعشرين وخمسمائة.

وقيل: إنّه اتّهم يُوسُفَ بْنَ فيروز حاجبَ أبيه بوالدته، فهرب

(١) في ابن الأثير ٣٦٦/٨: «كاتب عماد الدين زنكي أنه يسلم إليه دمشق ويحثه على سرعة الوصول، وأخلى المدينة من الذخائر والأموال. ونقل الجميع إلى صوبه. وتابع الرسل إلى زنكي يحثه إلى الوصول إليه؛ ويقول له: ان أهملت المجيء سلمت البلد إلى الفرنج» — تفصيل الخبر في ابن القلانسي ٢٤٥

(٢) في ابن القلانسي ٢٤٦: «وانهوا الحال إلى والدته الخاتون صفوة الملك فقلقت لذاك».

(٣) في ابن الأثير ٣٦٦/٨: «ثم انها ارتقبت الفرصة في الخلوة من غلمانه فلما رأته على ذلك أمرت غلمانها بقتله فقتل وأمرت بالقائه علي موضع في الدار ليشاهده غلمانه وأصحابه، فلما رأوه قتيلاً سرّوا لمصرعه وبالراحة من شره، وكان مولده سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة» — وفي مفرج الكروب ٥٧/١: «وتحقق ذلك أصحابه فواطأوا أمه على قتله فقتلته» — والتفصيل عند ابن القلانسي ٢٤٦

منه إلى تدمر ، فأراد قتلَ أمه ، فبلغها الخبرُ فقتلتهُ خوفاً منه[١] .

وأجلستْ والدتُه مكانه أخاه شهابَ الدّين محمودَ بن بوري[٢] ، وحلف النّاسُ له . وتوجّهَ أتابك زنكي من الموصل مُجدًّا ليتسلّم دمشق من شمس الملوك ، فوصل إلى الرّقة وقال : « أشتهي أن أدخل الحمام » . فأحضرَ صلاحُ الدّين مسيّب بن مالك صاحب الرّقة ، وقال له : « أتابك يَشتهي دخولَ الحَمام ، وهذه خمسمائة دينار تَسلّمها واعملْ له بها دعوة » فلم يشكّ في ذلك ، ودخلوها ، فلمّا حصلوا بها أخذوها منه ، وذلك في العشرين من شهر ربيع الآخر .

شهاب الدين محمود

وبَلَغه ما جرى بدمشق ، فلم يقطعْ طمَعَه فيها ، وسار فنزل العبيدية ، وراسَل أهلَ دمشق ، فلم يجيبوه إلى مطلوبه ، وردّوا عليه جواباً خشناً[٣] ، يتضمَنُ أنّ الكلمة قد اتّفقَتْ على حِفظ الدّولة والذبّ عنها ، فلم يحفل بذلك .

وسار إلى حماة فخرج إليه شمسُ الخواص بعد أن توثّق منه

(١) في ابن الأثير ٣٦٦/٨ : « وقيل : كان سبب قتله أن والده كان له صاحب اسمه يوسف بن فيروز ، وكان متمكناً منه ما كنّا في دولته ثم في دولة شمس الملوك بعده ، فاتّهم بأمّ شمس الملوك ؛ ووصل الخبر إليه بذلك فهمّ بقتل يوسف فهرب منه إلى تدمر وتحصن بها ، وأظهر الطاعة لشمس الملوك ، فأراد قتل أمه فبلغها الخبر فقتلته خوفاً منه والله أعلم » – انظر تفصيل ذلك في ابن القلانسي ٢٦٤

(٢) في ابن القلانسي ٢٤٧ : « وفي الوقت نودي بشعار أخيه الأمير شهاب الدين محمود ابن تاج الملوك بن أتابك ، جلس في منصبه بمحضر من والدته خاتون صفوة الملك وحضر الأمراء وأماثل الأجناد وأعيان الرعيّة ، فسلموا عليه بالإمرة واستحلفوا على الطاعة له ولوالدته والمناصحة في خدمتها والنصرة لأوليائها . »

(٣) في ابن القلانسي ٢٤٧ : « إلّا أنهم أكرموا وبجّلوا وأحسن إليهم ، وأعيدوا بأجمل جواب وألطف خطاب ، وأعلم عماد الدين جليّة الحال واتفاق الكلمة في حفظ الدّولة والذبّ عن الحوزة والبعث على إجمال الرعية والعود على أحسن نية » .

بالأيمان. ورحل إلى دمشق، وسار إليها، فنزل على دمشق في عسكر عظيم، وزحف عليها مراراً متعددة، فلم يظفر فيها بطائل[١]، واشتد الغلاء في العسكر، وعدموا القوتَ، وقفز جماعةٌ من العسكر إلى دمشق، ووقعت || المراسلةُ في حديث الصلح. وكان قد وصل مع [١٦١ظ] أتابك بعضُ أولاد السلطان فطلب أن يخرج شهابُ الدين محمود لوطء ٥ بساط ولد السلطان، فلم يفعل[٢].

واتفق الأمرُ على خروج أخيه تاج الملوك بهرام شاه، واتفق عند ذلك وصول بشر بن كريم بن بشر رسولاً من المسترشد إلى زنكي بخلعٍ هُيِّئَتْ له، وتقدم إليه بالرحيل عن دمشق والوصول إلى العراق، ليولّيه أمره وتدبيره، وأن يخطب للسلطان ألب أرسلان ١٠ داود بن محمود المُقيم بالموصل[٣] ــ وكان قد وصل هارباً من بين يدَيْ عمّه السلطان مسعود ــ فأكرمه أتابك.

فدخل الرسول وبهاء الدين بن الشهرزُوريّ إلى دمشق، وقرّرا هذه القاعدة وأخمدا الفتنة، وأكّدا الأيمان؛ وخطب يوم الجمعة الثامن والعشرين من جُمادى الأُولى بجامع دمشق بحضورهما، على القاعدة التي ١٥ وَصل فيها الرسول[٤].

---

(١) انظر تفصيل الأمر في ابن القلانسي ٢٦٨

(٢) في ابن القلانسي ٢٦٨ : « والتمس خروج الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك إليه لوطء بساط ولد السلطان الواصل معه ويخلع عليه ويعيده إلى بلده . »

(٣) في المصدر نفسه : « ووافق ذلك وصول الرئيس بشر بن كريم بن بشر رسولاً من الامام المسترشد بالله أمير المؤمنين إلى عماد الدين أتابك بخلع أعدّت له والأمر بالرحيل عن دمشق وترك التعرض لها والوصول إلى العراق لتولي أمره والتدبير له وأن يخطب للسلطان ألب ارسلان المقيم بالموصل » – انظر ابن الأثير ٣٦٦/٨

(٤) عبارة عن ابن العديم شبيهة بما عند ابن القلانسي ٢٦٨

نصر زنكي

وعاد أتابك من دمشق ، فلما وصل حماة قبض على شمس الخواصّ صاحبها ، وأنكر عليه أمرًا ظهر منه ، وشكا أهلها من نُوّابِهِ فَتَسلّمها منه ، وأطلقه فهرب ، ورَدَّ حماة إلى صلاح الدّين ورَحل مِنْ حَماة .

٥ وسار إلى بلد حلب ، فنزل على الأثارب ، ففتحها أوّلَ رجب ، ثمّ فَتح زَردنا ، ثمّ تلّ اغدي ، ثمّ فَتح مَعَرّة النُّعمان ، ومَنّ على أهلها بأملاكهم ، ثمّ فَتحَ كَفَرطاب ونزل على شيزر فخرج إليه أبو المغيث بن منقذ نائبًا عن أبيه ، ثمّ نَزل بارين[1] وأظهر أنه يحاصرها ، ثمّ سار وأهل حمص غادون ، فَشَنّ عليهم الغارةَ ، واستاق كلّ ما كان في ١٠ بلدها ونهبهم .

ووصل ابن الفنش[2] الفرنجي من بيت المقدس || وخرج في جموع الفرنج ، فنزل قِنَّسرين ، فسار إليهم أتابك فأحسن التَّدبير ، وما زال بالمسلمين حولهم حتى عادوا إلى بلادهم . [١٦٢ و]

وسار زنكي إلى حمص فأحرق زرعها ، وقاتلها في العشر الأواخر ١٥ من شوّال ، ثمّ سار إلى الموصل في ذي القعدة من هذه السَّنة .

وسار منها في المحرّم من سنة ثلاثين وخمسمائة إلى بغداد ، ومعه داود بن محمود بن محمّد بن ملكشاه الواصل إليه إلى الموصل ، فأنزله في دار السَّلطنة ببغداد ، وأتابك في الجانب الغربيّ ، والخليفة إذ ذاك الرَّاشد بعد قتل المُستَرشِد .

---

(١) بارين : والعامة تقول بعرين مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب — انظر معجم البلدان ١/٤٦٦

(٢) في المصادر الأجنبية :
«Berterand, fils d'Alphonse le franc, comte de Toulouse»

فوصل السّلطان مسعود[1] إلى بغداد فحصرهم بها فوقع الوباء في عسكره ، فسار إلى أرض واسط ليعبر إلى الجانب الغربيّ ، فاغتنم أتابك غيبته ، وسار إلى الموصل ، وسار داود إلى مراغة[2] .

وبلغ الخبر السّلطان مسعود فعاد ، فهرب الرّاشد ، ولحق أتابك بالموصل . ودخل مسعود بغداد ، فبايع محمد المقتفي[3] ، وخطب له ببغداد وأعمال السّلطان ، وبقيت الخطبة بالشّام والموصل على حالها إلى أن اتّفق أتابك زنكي والسّلطان مسعود واصطلحا ، وخطب بالشام والموصل للمقتفي ولمسعود . وفارق الرّاشد إذ ذاك زنكي ، وسار عن الموصل إلى خراسان في سنة إحدى وثلاثين .

حروب الفرنج والرّوم

وسار سيف الدّين سوار في سنة ثلاثين وخمسمائة في جمع من التركمان يبلغ ثلاثة آلاف إلى بلد اللاّذقيّة ، وأغار على الفرنج على غرّة وقلّة[4] احتراز ، فعادوا ومعهم ما يزيد على سبعة آلاف أسير ، ما

---

(١) في الأصل : « السلطان محمود » ، ولعلها « السلطان مسعود » كما يفهم من السّياق .

(٢) مراغة : بلدة مشهورة عظيمة ، أعظم وأشهر بلاد أذربيجان–انظر معجم البلدان لياقوت ٦/٤٧٦

(٣) في ابن القلانسي ٢٥٦ : « وحين خلت بغداد من الخليفة وتدبيره تمكّن من كل ما يريد فعله ، ويروم قصده . فأقام في منصب الخلافة أبا عبدالله محمد أخا المسترشد بالله ولقبه المقتفي لأمر الله . وعمره أربعون سنة ، وأخذ البيعة له على جاري الرسم ، وخطب له على المنابر في بلاده فقط في ذي القعدة سنة ٥٣٠ هـ » – انظر مفرج الكروب ١/٦٨ وتاريخ الدولة الأتابكية ٩٦

(٤) في ابن الأثير ٨/٣٥٣ : « في هذه السنة – في شعبان اجتمعت عساكر أتابك زنكي صاحب حلب وحماة مع الأمير اسوار نائبه بحلب وقصدوا بلاد الفرنج على حين غفلة

بين رجل وامرأة وصبيّ وصبيّة || ومائة ألف رأس من البقر والغنم [١٦٢ظ]
والخيل والحمير[١]، والّذي نهبوه – على ما ذُكر – مائة قرية وامتلأت
حلب من الأسارى والدّوابّ، واستغنى المسلمون بما حصل لهم من
الغنائم.

٥ ووصل أتابك زنكي من الموصل إلى حلب، في رابع وعشرين
من شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين، وسيّر صلاحَ الدين في مقدمته،
فنزل حمص. وسار أتابك إلى حماة، وعيّد عيدَ الفطر في الطّريق، وأخذ
من حلب معه خمسمائة راجلٍ لحصار حمص[٢].

ورحل أتابك من حماة إلى حمص في شوال وبها أُنُر[٣] من قِبَل
١٠ صاحب دمشق، فحصرها مدّة.

وخرج الفرنج نجدةً لحمص وغيلة لزنكي. فرحل عن حمص،
ولقيهم تحت قلعة بارين، فكسرتهم طلائعُ زنكي مع سوار، فأفنوا
عامّتهم[٤] قتلًا وأسرًا، وقتل أكثر من ألفين من الفرنج، ونجا القليلُ

منهم وقصدوا أعمال اللاذقية، ولم يتمكن أهلها من الانتقال عنها والاحتراز فنهبوا ما يزيد عن الوصف، وقتلوا وأسروا وفعلوا في بلاد الفرنج ما لم يفعله جم غيرهم.»

(١) في ابن الأثير ٣٥٣/٨: «وكان الأسرى سبعة آلاف اسير ما بين رجل وامرأة وصبيّ ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم» – وقد نقل ابن العديم عبارة ابن القلانسي ٢٥٥ إلى كتابه.

(٢) في تاريخ العظيمي بالورقة ٢١١و: «وأقبل أتابك إلى نحو حماة، وعيّد في الطريق. وأخذ من حلب خمسمائة رجل لحصار حمص» – وفي ابن الأثير ٣٥٧/٨: «في هذه السنة في شعبان، سار أتابك زنكي إلى مدينة حمص وقدم إليها حاجبه صلاح الدين محمد الياغيساني وهو أكبر أمير معه، وكان ذا مكر وحيل، أرسله ليتوصل مع من فيها ليسلموها إليه».

(٣) في ابن الأثير، بالصفحة نفسها: «فوصل اليها وفيها معين الدين أنر وهو الوالي عليها والحاكم فيها وهو أيضاً أكبر أمير بدمشق وحمص إقطاعه.»

(٤) في تاريخ العظيمي، بالمخطوطة ٢١١و: «وخرج الفرنج نجدة لحمص وغيلة لأتابك

منهم ، فدخل إلى بارين مع ملكهم كنـدياجور[١] صاحب القدس ؛ وأقام الحصار على بارين بعشر مجانيق ليلًا ونهارًا ، ثمَّ تقرَّر الصلح في العشر الأواخر من ذي القعدة على التَّسليم بعد خراب القلعة .

وخلع على الملك وأطلق ، وخرج الفرنج منها ، وتسلَّمها زنكي ، وعاد إلى حلب . ٥

واستقرَّ الصلح بين أتابك وصاحب دمشق ، وتزوَّج أتابك خاتون بنت جناح الدَّولة حسين ، على يد الإمام بُرهان الـدِّين البَلْخي[٢] ، ودخل عليها بحلب في هذه السَّنة .

ووصل في هذه السَّنة ملك الروم كالياني[٣] من القُسْطَنْطينيَّة في جموعه ، ووصل إلى أنطاكية فخالفه الفرنج ــ لطفاً من الله تعالى ــ ١٠ وأقام || إلى أن وصلته مراكبه البحريَّة بالأثقال والميرة والمال ، فاعتمد [١٦٣ و] لاون بن روبال[٤] صاحب الثّغور في حقِّه فتحاً عظيماً .

وتخوَّف أهلُ حلب منه فشَرَعوا في تحصينها وحفر خنادقها ، فعاد

فرحل عن حمص ولقيهم تحت قلعة بعرين فكسرتهم طلائع أتابك وفيها سيف الدين سوار فأجهز عليهم قتلًا وأسرًا وهرب القليل» - وهكذا تلاحظ أنَّ ابن العديم يتفق في اللفظ والمعنى مع العظيمي فلعله نقل عنه هنا وبدَّل بعض الكلمات على عادته - انظر تفصيل المعركة في ابن الأثير ٨/٣٥٨

(١) في ابن القلانسي ٢٥٩ : « كنداياجور » وقد ترجمه المستشرق في كتابه عن الحروب الصليبية بالصفحة ٦٧٣ : «Comte d'Anjou, roi de Jérusalem»

(٢) في تاريخ العظيمي ، بالمخطوطة ٢١١ ظ : « وقعت الهدنة بين أتابك وصاحب دمشق . وتزوجت خاتون به على يد الفقيه برهان الدين البلخيّ »

(٣) هو : «Jean Commène» – وقد حرَّف اسمه ابن القلانسي ٢٥٨ فأثبته : « متملك الروم كياليا‌ني » .

(٤) وضع المستشرق هذا الاسم في ترجمته ص ٦٧٣ :

«Léon, fils de Roubal (Roupen), roi de la Petite-Armenie»

إلى بلاد لاون فافتتحها جميعها ، فدخل إليه لاون مُتطارحاً ، فقال : « أنت بين الفرنج والأتراك لا يصلح لك المَقام » . فسيَّره إلى القُسطنطينية ، وأقام في عين زربة[1] وأذنة[2] والثُّغور ، مدَّة الشتاء .

وكان في عودهِ عن أنطاكية إلى ناحية بغراس[3] في الثَّاني والعشرين من ذي الحجة من سنة إحدى وثلاثين ، أنفذ رسوله إلى زنكي ، وظفر سوار بسرِيَّة وافرةِ العَدَدِ مِن عَسْكره ، فقَتَل وأسر ، ودخل بهم إلى حلب[4] .

ووصل الرَّسولُ إلى زنكي ، وهو متوجِّهٌ إلى القبلة فردَّه ومعه هدية إلى ملك الروم فهود وبزاة وصقور[5] على يد الحاجب حسن ، فعاد إليه ومعه رسول منه وأخبره بأنه يحاصر بلاد لاون ، فسَار إلى حماة ، ورحل إلى حمص فقاتلها .

ثم سار في نصف المحرَّم من سنة اثنتين وثلاثين فنزل بعلبك ، وأخذ منها مالاً ، وسار إلى ناحية البقاع فملك حصن المجدل من أيدي

---

(١) عَيْن زربي : بلد بالثغر من نواحي المصيصة ، واسمها الاعجمي : Anazarbe – انظر زبدة الحلب ١ / ١٣٢ بالحاشية ومعجم البلدان لياقوت ٣/ ٧٦١ – وعبارة ابن القلانسي ٢٥٨ : « وتسلم أذنه والمصيصة وغيرهما وحاصر عين زربة » .

(٢) أذنة : مدينة على نهر سيحون من غربيه – انظر زبدة الحلب ١/ ١٦١ بالحاشية ومعجم البلدان لياقوت ١ / ١٧٩

(٣) بغراس : مدينة في لحف جبل اللكام ، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى انطاكية من حلب – انظر زبدة الحلب ١/ ١٥٩ – ومعجم البلدان لياقوت ١ / ٦٩٣

(٤) في تاريخ العظيمي بالمخطوطة ٢١١ ظ : «وأوقع سيف الدين بسريّة من الروم فقتل وأسر ، وأدخل الأسرى إلى حلب » .

(٥) عبارة العظيمي : « ورد رسول ملك الروم على أتابك وهو بالقبلة فردَّهُ ، ومعه هدية الى ملك الروم : فهود وبزاة وصقور » ؛ فابن العديم نقلها عنه من غير شك .

الدمشقيين ، ودخل في طاعته ابراهيم بن طرغت والي بانياس[١] .

وشتّى أتابك زنكي بأرض دمشق ، وورد عليه رسول الخليفة المقتفي والسلطان مسعود بالتشريف[٢] ، ثمّ رحل أتابك عن دمشق في شهر ربيع الآخر ، وعاد إلى حماة ، ثمّ رحل عنها إلى حمص ، فخيّم عليها ، وجرّد من حلب رجالًا لِحصارها ، وجمع عليها جموعاً كثيرة ، ٥ وهجم المدينة ، و كسر أهلها || ونالَ منهم منالًا عظيماً . [١٦٣ظ]

ونَقضَ الفرنج الهدنة الّتي كانت بينهم وبين زنكي على حلب ، وأظهروا العِناد ، وقبضوا على التّجار بأنطاكية والسّفار من أهل حلب ، في جمادى الأولى من السّنة ، بعد إحسانه إليهم واصطناعه لمقدّميهم ، حين أظفره الله بهم ، وانضافوا إلى ملك الرُّوم كالياني . ١٠

ظهور الروم

وَظَهر مَلِكُ الرُّوم بغتةً من طريق مدينة البلاط ، يوم الخميس الكبير من صومهم ، ونزل يومَ الأحد يومَ عيد النّصارى ، وهو الحادي والعشرون من شهر رجب ، على حصن بزاعا .

وانتشَرتِ الخيلُ بغتةً فلطف الله بالمسلمين ، فرأوا رجلًا من كافر تُرك ومعه جماعة منهم ، قد تاهوا عن عسكر الروم[٣] ، وأظهروا ١٥ أنّهم مستأمنةٌ وأنذروا من بحلب بالرُّوم .

---

(١) في ابن القلانسي ٢٦٣ : « وفي رابع عشر المحرّم ، وصل أتابك في عسكره إلى حماة ورحل عنها متوجّهاً إلى ناحية البقاع فملك حصن المجدل من أيدي الدمشقيين . . » وهكذا نقل عنه ابن العديم ما جاء في تاريخه – وفي العظيمي ٢١١ ظ : « واقبل نحو دمشق وجرّد من أهل ثمانمائة راجل للخدمة واقبل نحو البقاع وفتح المجدل » .

(٢) هذه العبارة منقولة عن العظيمي بالورقة ٢١٢ و .

(٣) هذه العبارة منقوله عن العظيمي ، بالورقة ٢١٢ و ، ويزيد عليها في المخطوطة : « فما أحس الناس إلّا برجل من كافر ترك ومعه جماعة قد تاهوا عن عسكر الروم (فعرّف الناس بظهور الملك) وأظهر انه مستأمن فكأنه كان من الملائكة » – وأما ابن القلانسي

فتحرَّزَ النَّاسُ وتحفَّظوا ، وكاتبوا أتابك زنكي بذلك ، فوصله الخبر وهو على حمص ، فسيّر في الحال الأمير سيف الدّين سوار والرّجالة الحلبيّين وخمسمائة فارس ، في أربعة من الأمراء الاصفهسلاريّة[1] منهم زين الدّين علي كوچك ، فقويت قلوب أهل حلب بهم ، ووصلوا ٥ في سابع وعشرين من رجب .

وأمّا الرُّوم فإنّهم حصروا حصن بزاعا ، وقاتلوه سبعة أيّام ، فضعفتْ قُلوب المسلمين ، وكان الحصن في يد امرأة فسلّموه إلى الرُّوم بالأمان ، بعد أن توثّقوا منهم بالعهود والأيمان ، فغدروا بهم ، وأسروا من بزاعا ستة آلاف مسلم أو يزيدون ؛ وأقام المِلكُ بالوادي يدخّن على مَغاير ١٠ الباب عشرة أيّام ، فهلكوا بالدخان[2] .

حصار حلب

ثمّ رحل فنزل يوم الأربعاء الخامس من شعبان ، بأرض الناعورة ، ثُمّ رحل يوم الخميس || سادس شعبان ، ومعه [١٦٤ و] ريمند صاحب أنطاكية وابن جوسلين ، فنزل على حلب ونَصَب خيمته من قبليّها على نهر قويق ، وأرض السعدي[3] ، وقاتل حَلَب يوم الثلاثاء ١٥ من ناحية بُرج الغَنَم ، وخرج إليهم أحداثُ حلب ، فقاتلوهم وظهروا عليهم ، وقُتِل من الرُّوم مقدَّمٌ كبيرٌ ورجعوا إلى خيمهم خائبين .

فيورد قريباً من العبارة ٢٦٥ : « واستأمن منهم إلى حلب جماعة من كافر تُرك وانذروا من بحلب بالروم ، فحذروا وضمّوا أطرافهم ».

(١) هذه العبارة منقولة كذلك عن العظيمي .

(٢) هذا النصّ كذلك منقول عن العظيمي مع شيء من التصرّف .

(٣) في تاريخ العظيمي ، بالورقة ٢١٢ ظ : « ورحل إلى الناعورة ثم إلى حلب في سادس شعبان ، وضرب خيمه قبليّ حلب على نهر قويق ، وقاتل حلب يوم الثلاثاء ».

ورَحل يوم الأربعاء ثامن شعبان مقتبلًا إلى صلدي[١] ، فخاف مَنْ بِقَلْعَة الأثارب من الجُند المسلمين ، فهربوا منها يوم الخميس تاسع شعبان ، وطرحوا النّار في خزائنهم .

وعَرف الرُّوم ذلك فخَفّتْ منهم سرّيةٌ وجماعةٌ من الفرنج ، ومعهم سبي بزاعا والوادي ، فملكوا القلعة ، وألجأوا السَّبْيَ إلى خنادقها وأحواشها[٢] ، فهرب جماعةٌ منهم إلى حلب ، وأعلموا الأميرَ سيفَ الدّين سوار بْنَ أيتكين بذلك ، وأنّ الروم انعزلوا عنها .

فنهض إليهم سوار في لَمَّةٍ من العسكر ، فصابحهم وقد انتشروا بعد طلوع الشَّمْس ، فوقع عليهم واستخلص السَّبي جميعَه إلّا اليسير منهم[٣] ، وأركب الضُّعَفاء منهم خلف الخَيَّالة حتّى أنّه أخذ بنفسه جماعةً من الصّبيان ، وأركبهم بين يديه ومِنْ خلفه ، ووصل بهم إلى حلب ، ولم يبق من السَّبي إلّا القليل ، ووصل بهم إلى حلب في يوم السَّبت الحادي عشر من شعبان ، فسُرَّ أهلُ حلب سرورًا عظيمًا[٤] .

وكان أتابك قد رحل من حمص إلى حماة ثم رحل إلى سَلَمية ،

---

(١) في تاريخ العظيمي : « ورحل يوم الأربعاء ثامن شعبان مقتبلًا ، وخاف من بالاثارب من الجند فانهزموا منها ليلة الخميس » – وهكذا نلاحظ ان ابن العديم زاد كلمة (صلدى) والمستشرق يقترح أن تكون « سمدي » – وأما ابن القلانسي فيوردها كما يلي ٢٦٥ : « ورحلوا عنها غداة يوم الأربعاء ثامن شعبان مقتبلين إلى أرض صلدع » . وصلدي : قرية قريبة من حلب على نهر قويق – انظر زبدة الحلب ٢٦٤/١

(٢) هذه العبارة منقولة عن تاريخ العظيمي ، بالورقة ٢١٢ ظ ، وتمامها في العظيمي بعد هذا الكلام : « وهرب منهم قوم إلى حلب فأعلموهم بذلك فنهض إليهم الأمير سيف الدين سوار » – انظر ابن القلانسي ٢٦٥

(٣) عبارة العظيمي : « فخلصوا السبي جميعه إلّا من قد اطلع إلى القلعة فردهم إلى حلب ما مقدره ألف روح » .

(٤) في ابن القلانسي ٢٦٦ : « وسر أهل حلب بهذه النوبة سرورًا عظيمًا » .

ورحل ملك الرُّوم إلى بلد مَعَرّة النُّعمان، ورحل عنها يوم الاثنين ثالث عشر شعبان إلى جهة شَيْزَر[1]، ونزلوا كفرطاب وَرَمَوْهـا بالمجانيق، فسلّمها أهلها في نصفِ شعبان.

وهرب أهل الجسر[2]، وتركوه خالياً || فوصله الرُّوم، وجلسوا [١٦٤ظ] فيه ورحلوا عنه إلى شيزر، يوم الخميس سادس عشر شعبان، فوصلوها في مائة ألف راكب ومائة ألف راجل، ومعهم من الكراع والسّلاح ما لا يحصيه إلّا الله، فنزلوا الرّابية المشرِفَة على بلدة شيزر، وأقاموا يومَهم ويوم الجمعة إلى آخر النّهار.

وركبوا وهجموا البلدَ، فقاتلهم النّاسُ وجُرح أبو المرهف نصر ابن منقذ[3]، ومات في رمضَان من جُرحه ذلك.

هرب الروم

ثمّ انهزم الرُّوم، وخرجوا، ونزل صاحب أنطاكية في مسجد سمّون، وجوسلين في المصلّى، وركب الملكُ يوم السّبت، وطلع إلى الجبل المقابل لقلعة شيزر المعروف بجريجس، ونصب على القلعة ثمانية عشر منجنيقاً وأربع لعب تمنع النّاس من الماء.

وَدَام القتالُ عشرة أيام، ولقي أهل قلعة شيزر بلاءً عظيماً، ثمّ اقتصروا في القتال على المجانيق، وأقاموا إلى يوم السّبت تاسع شهر رمضان.

---

(١) في العظيمي ٢١٢ ظ: «ورحل أتابك من حماة إلى سلمية في يوم الاثنين ثالث عشر شعبان، ورحل الملك عن بلد المعرّة مقبلاً، وهرب جند كفرطاب منها ونزل الروم شيزر يوم الخميس سادس عشر شعبان» – أنظر مفرج الكروب ١/٧٨، وابن الأثير ٨/ ٣٦٠

(٢) هو جسر الحديد، وقد مرّ ذكره في الصفحة ١٣٦ وعلقنا في الحاشية على موقعه.

(٣) في ابن الأثير ٨/ ٣٦٠: «وأما الروم فأنهم قصدوا قلعة شيزر فانها من أمنع الحصون وانما حصروها لأنها لم تكن لزنكي فلا يكون له في حفظها اهتمام، وإنما كانت للأمير أبي العساكر سلطان بن عليّ بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني» – انظر مفرج الكروب ١/٧٨، والدولة الأتابكية لابن الأثير ٩٩

وبلغهم أنَّ قرا أرسلان بن داود بن سكمان بن أُرْتُق عَبَر الفُرات في جموعٍ عظيمة تزيد عن خمسين ألفاً من التّركمان وغيرهم، فأحرقوا آلات الحصار، ورحلوا عن شيزر[1]، وتركوا مجانيق عظاماً رفعها أتابك إلى قلعة حلب بعد رحيلهم، وساروا بعد أن هجموا ربض شيزر دفعات عدة[2]، ويخرجهم المسلمون منها. ٥

فوصل صلاح الدّين من حماة يوم السَّبت تاسع الشَّهر، وبلغه أنَّ الفرنج هربوا من كفرطاب فسار إليها، وملكها، ووصل أتابك يوم الأحد عاشر الشّهر، وسار إلى الجسر يوم الاثنين، فوجد الفرنج قد هربوا منه نصف اللّيل ونزل أهلهُ من «أبي قبيس»[3]، فمنعوهم ‖ وَدَخل الرُّوم مضيق أفامية إلى أنطاكية، وطلبها من الفرنج فلم ١٠ [١٦٥ و] يعطوه إيَّاها، فرحل عنها إلى بلاده، وسَيَّر أتابك خلفهم سريَّة من من العسكر تتخطَّفهم. هذا كلّه وأتابك لم يستحضر قرا أرسلان بن داود، ولم يجتمع به؛ بل بَعَث إليه يأمُره بالعود إلى أبيه، وأنَّه مستغنٍ عنه[4] وانحاز عنهم فنزل أرض حمص، وكتب إلى شهاب الدّين محمود ابن بوري يطلبها. ١٥

(١) في ابن القلانسي ٢٦٦ : وكان سبب رحيل الروم عن شيزر ما انتهى إليهم من وصول التركمان وتجمّع العساكر خاسرين وكان مدة اقامتهم ثلثة وعشرين يوماً » — في ابن الأثير ٨ / ٣٦٠ : « فرحل ملك الروم عنها في رمضان وكان مقامه عليها أربعين يوماً وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها ».

(٢) في العظيمي : « هاجموا ربض شيزر دفعات عدة والله تعالى يعطي النصر للمسلمين عليهم فرحلوا عنها سحرة السبت تاسع رمضان، فكانت مدة الحصارة ثلثة وعشرين ليلة ».

(٣) في الأصل : « من بوقبس » بغير نقط، ولعلها كما ارتأى المستشرق : « من أبي قبيس» — وفي معجم البلدان لياقوت ١ / ١٠٢ : «وأبو قبيس أيضاً حصن مقابل شيزر معروف».

(٤) هذا النص منقول عن تاريخ العظيمي، بالورقة ٢١٣ و، ويزيد فيه : «وأنه مستغن لم يلتفت إليه ».

وترددت الرسل بينهم على أن يسلّم إلى أتابك حمص، ويعوّض أمر واليها ببارين، واللكمة[١]، والحصن الشرقي، وأن يتزوّج أتابك أمه زمرّد خاتون بنت جاولي، ويتزوّج محمود ابنةَ أتابك، ويسلّم أتابك حمص، ويسلّم الدمشقيون المواضع المذكورة.

٥ وسارت زمرّد خاتون مِن دارها إلى عسكر زنكي[٢] مع أصحابه المندوبين لإيصالها إليه في أواخر شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين، وقد اجتمع [عنده][٣] رسول الخليفة المقتفي، وألبسه التشريف الواصل إليه، ورسول السّلطان، ورسول مصر، والرّوم، ودمشق.

ورحل أتابك عن حمص، وسار إلى حلب، ثمّ خرج منها إلى بزاعا

١٠ وفَتَحها بالسّيف، يوم الثلاثاء تاسع عشر محرّم من سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة[٤]؛ وقَتَل كلّ من كان بها على قبر شرف الدّولة مسلم بن قريش[٥]، وكان ضُرب عليها بسَهْم في عينِهِ فمات.

(١) في معجم البلدان لياقوت ٦/٣٦٥: «اللّكمة: حصن بالساحل قرب عرقة والله أعلم».

(٢) في مفرج الكروب ١/٧٧: «وخطب زمرد خاتون وهي التي ذكرنا أنها قتلت ولدها شمس الملوك، وزفت إليه في رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، واعتقد عماد الدين أنه اذا تزوجها كان ذلك طريقاً إلى تملكه دمشق، فلما لم يحصل له ذلك أعرض عنها» – في تاريخ العظيمي: «واجتمع بخاتون زمرّد وصلت إليه من دمشق» – في ابن القلانسي ٢٦٦: «الخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاولي... وتوجهت الخاتون صفوة الملك والدة شهاب الدين من دارها إلى عسكر عماد الدين أتابك بناحية حمص وحماة مع أصحاب عماد الدين المندوبين لايصالها إليه في أواخر شهر رمضان منها».

(٣) أضفنا الكلمة للسّياق – وفي العظيمي: «واجتمع عنده رسل ملوك الأرض، ولبس التشريف الواصل إليه مع ابن الانباري بظاهر حلب».

(٤) في مفرج الكروب ١/٨٣: «وفي المحرم سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وصل الأمير عماد الدين رحمه الله إلى حلب، واستفز أهلها وأهل حماة وأهل منبج على حصن بزاعة حتى فتحه بالسيف.»

(٥) في الأصل المخطوط: «مسلم بن قرواش بن مسلم بن قريش» وهو غير صحيح،

وَعاد منها إلى حلب، وسار إلى الأثارب، ففتحها، في ثالث صَفَر.

أثر الزلازل

وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر، حدثت زلزلةٌ شديدةٌ ثمّ اتبعتها أخرى، وتواصلت الزّلازل، فهرب النّاس[١] من حلب إلى ظاهر البلد ‖ [١٦٥ظ] وَخرجت الأحجارُ من الحيطان إلى الطّريق، وسمع النّاسُ دويًا عظيماً، وانقلبت الأثاربُ فهلك فيها ستمائة من المسلمين[٢]، وسلم الوالي ومعه نفرٌ يسير. وهلك أكثر البلاد من شيح، وتلّ عمار، وتلّ خالد، وزَردنا[٣]؛ وشُوهِدَت الأرضُ تموج، والأحجار عليها تضطّرب كالحنطة في الغربال.

وانهدمَ في حلب دورٌ كثيرةٌ، وتشعّث السّورُ، واضطّربت جُدران القلعة[٤]، وسار أتابك مشرّقًا فنَزَل القلعة[٥] فأخذها، وسار منها إلى القلعة، ثمّ إلى الموصل.

فارجع إلى حاشية الصفحة ٦٩ في ترجمته، لذلك حذفنا الزائد في المخطوطة هنا.

(١) في ابن الأثير ٨/٣٦٥ : «وفيها في صفر كانت زلازل كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلاد، وكان أشدها بالشام، وكانت متوالية عشر ليال كل ليلة عشر دفعات، فخرب كثير من البلاد ولاسيا حلب، فان أهلها كما كثرت عليهم فارقوا البلاد وخرجوا إلى الصحراء.»

(٢) في تاريخ العظيمي، بالورقة ٢١٣ ظ : «وانقلبت قلعة الأثارب بكلّ من فيها، ودامت الزلازل، وكان يحدث دويّ عظيم قبلها ثم يأتي بعده كذلك أربعة أشهر» – والغريب أن العظيمي لم يسجّل خراب حلب وهو منها، وابن القلانسيّ الدمشقي نقل إلينا خبر ذلك في تفصيل أمين.

(٣) مرّ بنا في حواشي الصفحات السابقة تحديد مواقع هذه الأماكن.

(٤) في ابن القلانسي ٢٦٨:«وتناصرت الأخبار من الثقات السفار والواردين من ناحية الشمال بصفة هذه الرجفات المذكورات، وأنها كانت في حلب وما والاها من البلاد والمعاقل والأعمال أشدّ ما يكون بحيث انهدم في حلب الكثير من الدور، وتشعث السور، واضطربت جدران القلعة» – ولا شك في ابن العديم أخذ عن هذا النصّ.

(٥) لم نفهم ماذا يريد ابن العديم من قوله : «فنزل القلعة فأخذها وسار منها إلى القلعة»، ولعل في النسخة نقصاً جعل النصّ غامضاً، فهو قد شرّق يريد قلعة . . . وسار

وتواترت الزّلازل إلى شوّال ، وقيل : إنّ عدّتها كانت ثمانين زلزلة.

وكان في سنة اثنتين وثلاثين قد عوّل أتابك على قبض أملاك الحلبيين الّتي استحدثوها من أيام رضوان إلى آخر أيام إيلغازي ، ثمّ قرّر عليهم عشرة آلاف دينار ، فأدّوا من ذلك ألف دينار ؛ وجاءت هذه الزّلازل ، فهرب أتابك من القلعة إلى ميدانها حافياً ، وأطلق القطيعة .

وفي هذه السّنة نهض سوار إلى الفرنج فغنم من بلادهم ، ولحقوه فاستخلصوا ما غنم ، وانهزم المسلمون فغنم الفرنج ، وأخذوا منهم ألفاً ومائتي فارس ، وأسروا صاحب الكهف ابنَ عمرون ، وكان قد سلّمها إلى الباطنيّة .

وفي شهر رمضان منها ، استحكمَ الفَسادُ بين أتابك وتمرتاش ، فنزل أتابك زنكي دارا ، وحصرها وافتتحها[1] في شوّال ، وأخذ رأس عين[2] وجَبَل جُور[3] وَذَا القَرْنَيْنِ . ومات سوتكين الكرجيّ بحرّان ، فأنفَذَ أتابك زنكي وأخذها .

منها إلى قلعة . . . ثم إلى الموصل . ولم نقع في المصادر التي بين أيدينا على ما يوضّح النصّ أو ينير السبيل إلى تعديله وتصحيحه .

(١) في مفرّج الكروب ١/٨٣ : «وفي هذه السنة نازل عماد الدين قلعة دارا وهي للأمير حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق ، فلم ينل منها طائلا وخاف على المسلمين ، ثم رحل منها إلى حرّان »– ثم يقول : « ثم مات سودكين فنازلها عسكر عماد الدين فتسلم المدينة ».

(٢) رأس عين ، ويقال رأس العين ، والعامة تقول كذلك : وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين ودنيسر ، وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخاً – انظر معجم البلدان لياقوت ٢/٧٣١

(٣) في الأصل : « جبلجور » كلمة متصلة وصحيحها ما أثبتنا ، وقد مرّ ذكرها في الصفحة ٢٥٦ ، وبيّنا الموقع في حاشيتها عن معجم البلدان .

مقتل محمود

وقُتِلَ شِهابُ الدّين محمود بن تاج الملوك على فراشه، ليلةَ الجمعة الثالثة والعشرين من شوّال[١] من السنة، قتله البغش[٢] [١٦٦و] ‖ ويوسف الخادم، وفرّاش، وكان قد قرّبهم واصطفاهم.

وسيّر أنر إلى محمّد أخيه صاحب بعلبك، فأجلسه في منصب أخيه[٣] وأخرج أخاه بهرام شاه فمضى إلى حلب وشرّق إلى أتابك زنكي. ٥

وعلمتْ والدتُه زمرّدخاتون، فأرسلت إلى زوجها زنكي، وهو بالموصل تستدعيه لطلب الثأر بولدها، وتحثّه على الوصول، فأقبلَ وفي مقدّمته الأمير الحاجب صلاح الدّين، فسار إلى حماة.

ووصل زنكي حتّى عبر الفرات، ونزل بالناعورة[٤]، ودخل حلب، ورحل إلى حماة في سابع ذي الحجة، ورحل إلى حمص، ثم إلى ١٠ بعلبك، فحصرها أوّل محرّم من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وضربها بالمجانيق[٥] إلى أن فتحها يوم الاثنين رابع عشر صفر.

---

(١) في ابن القلانسي ٢٦٨ : «وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من شوال من السنة في غدانه، ظهرت الحادثة المدبّرة على الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بن ظهير الدين أتابك، وقتله في فراشه وهو في نومه في ليلة الجمعة المذكورة، بيد غلمانه الملاعين البغش الأرمنيّ الذي اصطنعه وقرّبه إليه، واعتمد في أشغاله عليه، ويوسف الخادم الذي وثق به في نومه لديه، والخزكاويّ الفرّاش الراقد حواليه» – انظر بقية النص عند ابن القلانسي.

(٢) في الأصل: «البغش» – وفي طبعة المستشرق: «البقش» – وفي ابن القلانسي كما مرّ بنا: «البغش الأرمنيّ».

(٣) في ابن القلانسي ٢٦٩ : «وكُتب إلى الأمير جمال الدين محمد بن تاج الملوك أخيه صاحب بعلبك بصورة الحال، فبادر بالوصول إلى دمشق في أسرع وقت وأقرب أوان، فجلس في منصبه وعقد الأمر له.»

(٤) تفصيل هذا الخبر في ابن القلانسي ٢٦٩، ومفرّج الكروب ٨٥/١

(٥) في مفرج الكروب ٨٦/١: «ونصب عليها أربعة عشر منجنيقاً ترمي ليلاً ونهاراً، فأشرف من بها على الهلاك، فطلبوا الأمان وسلموا إليه المدينة» – انظر تفصيل الأمر عند ابن القلانسي ٢٦٩

وفتح القلعة يوم الخميس خامس وعشرين منه، وأقام بها إلى منتصف شهر ربيع الآخر، وكان قد حلف لأهل القلعة بالأيمان المغلّظة والمصحف والطلاق، فلما نزلوا غدر بهم [1]، وسلخ واليها، وشنق الباقين، وكانوا سبعةً وثلاثين رجلًا، وغَدَر بالنّساء، وأخذهم.

موت محمد بن بوري

٥ وسار في نِصف ربيع الآخر إلى دمشق لمُضايقتها، فنزل على دَارَيّا [2]، وزحف إلى البلد [3]، وراسل محمَّد بن بوري في تسليمها، وأخذ بعلبكّ وحمص، وما يقترح معها عوضًا عنها، وأراد إجابته إلى ذلك فمنعه أصحابه، وخوّفوه الغدرَ به، فمات محمّد بن بوري، في ثامن شعبان [4]، ونصبَ وَلَدَه عَضب الدّولة ١٠ أبق مكانه [5].

غارات الفرنج

وكاتب أنز الفرنج في نجدته، وتسليم بانياس من ابراهيم ابن طرغت إليهم، فتجمّعوا لذلك، فرحل أتابك عن

---

(١) في ابن القلانسي ٢٦٩ : « فلما حصلت في ملكته نكث عهده ونقض أمانه لحنق أسرّه وغيظ على من كان فيها أكنّه، فأمر بصلبهم ولم يفلت منهم إلّا من حماه أجله .»

(٢) دارياً : قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة، والنسبة اليها داراني على غير قياس – انظر معجم البلدان لياقوت ٥٣٦/٢

(٣) في ابن القلانسي ٢٧٠ : « فرحل عن البقاع ونزل على دارياً ظاهر دمشق في يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الآخر منها .»

(٤) في ابن القلانسي ٢٧١ : « وابتدأ بجمال الدين محمد بن تاج الملوك مرض اتّصل به في جمادى الأولى من السنة فصار يخفّ تارة ويثقل، ويمضي ويعود، ويقلّ ويزيد، إلى أن اشتد به اشتدادًا وقع اليأس معه منه، ولم يكن له فيه طبّ ولا راق، ولم يزل على هذه الحال إلى أن قضى محتوم نحبه، وصار إلى رحمة ربه في ليلة الجمعة الثامن من شعبان منها، في الوقت الذي أصيب فيه أخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك رحمهما الله، فعجب الناس من ذلك واتفاق الوقت والساعة .»

(٥) هو الأمير عضب الدولة أبو سعيد آبق بن جمال الدين محمد » – انظر ابن القلانسي

[١٦٦ظ] دمشق، في خامس شهر رمضان، للقاء الفرنج || ان قربوا منه إلى ناحية بصرى [١] وصرخد [٢] من حوران، وأقام مدّة، ثم عاد إلى الغُوطة فنزل عذراء [٣] وأحرق عدة ضياع من الغوطة.

ووصل الفرنج فنزلوا بالميدان، فرحل أتابك إلى ناحية حمص. وأسر [٤] ريمند صاحب أنطاكية ابراهيم بن طرغت صاحب بانياس، ٥ وقتله. ونزل معين الدّين أنر عليها فحصرها وتسلّمها، وسلّمها إلى الفرنج، وعادت خاتُون إلى حلب في العشرين من ربيع الأوّل.

وعاد أتابك إلى حلب في الرّابع والعشرين من جُمادى الأُولى، واستقرّ الحالُ بين زنكي وأبق على أن خطب لزنكي بدمشق.

١٠ ومات قاضي حلب أبو غَانم محمّد بن أبي جرادة في شهر ربيع الآخر من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، فولّى أتابك قضاء حلب وَلَده أبا الفضل هبة الله بن محمد بن أبي جرادة، ولمّا استحضره وولّاه القضاء قال له: « هذا الأمرُ قد نزعتهُ من عُنقي، وقلّدتُك إيّاه، فينبغي أن

---

٢٧١ – في مفرج الكروب ٨٧/١: « فأجلس في الملك بعده ولده الأمير مجير الدين آبق بن محمد، وهو آخر ملوك دمشق من بيت طغتكين ».

(١) بُصرى: بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران – انظر معجم البلدان لياقوت ٦٥٤/١

(٢) صَرْخَد: بلد ملاصق لبلاد حَوْران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة – انظر معجم البلدان لياقوت ٣٨٠/٣

(٣) في ابن الأثير ٣٦٧/٨: « ونزل بعذراء شماليها سادس شوال » – وقد ذكرها ياقوت في معجم البلدان ٦٢٥/٣: «وهي قرية بغوطة دمشق من اقليم خولان معروفة وإليها ينسب مرج. واذا انحدرت من ثنية العقاب وأشرفتَ على الغوطة فتأملت على يسارك رأيتها أول قرية تلي الجبل، وبها منارة ».

(٤) في الأصل: « وكسر » وصحيحها كما اثبتنا.

تتقي اللهَ وأن تساويَ بين الخصمين ، هكذا[1] » ؛ وجمع بين أصابعه.

وكثر عَيْث التّركمان وفسادهم ، وامتدت أيديهم إلى بلاد الفرنج ، فأرسلوا رسولًا إلى أتابك يشكونهم ، فعاد الرّسول متنصِّلًا ، فلقيه قومٌ من التّركمان فقتلوه ، فأغار الفرنج على حلب ، فأخذوا من العرب والتّركمان ما لا يُحصى .

وعاد أتابك في سنة ستّ وثلاثين على الحلبيّين بالقطيعة الّتي كان قرّرها على الأمـلاك ، وأرسل اليهم عليّ الفُوتي العجميّ ، فعسف النّاس في استخراج القطيعة ، وأخرق بهم ، ومات ابن شقارة بحلب ، وصارت أملاكهُ إلى بيت المـال فردّ على النّاس ما كان وُظّف ‖ على أملاكه من القطيعة وأخذه منهم . [١٦٧ و]

وأغار الفرنج في سنة ستّ وثلاثين وخمسمائة على بلد سَرْمين ، وأخرّبوا ونهبوا ، ثمّ تحوّلوا إلى جبل السُّمّاق ، وكذلـك فعلوا بكفرطاب ، وتفرّقوا فأغار علم الـدّين بن سيف الدّين سوار مع التّركمان إلى باب أنطاكية ، وعادوا بالغنائم والوسيق العظيم .

وأغار لجة التركي وكان قد نزح عن دمشق إلى خدمة زنكي على بلد الفرنج ، في جمادى ، فساق وسبى وقتل . وذكر أن عدّة المقتولين سبعمائة رجل[2] .

---

(١) في بغية الطلب ٨/٢١٢ و : « وسمعتُ عمي أبا غانم يقول : قال لي والدي أبو الفضل : لما مات أبي القاضي أبو غانم وولاني أتابك زنكي القضاء بعده على أهل حلب وأعمالها ، واحضرني بمجلسه وقال لي : يا قاضي هذا أمر قد نزعته من عنقي وقلدتك إياه ، فانظر كيف تكون ، واتق الله بيننا وبين الخصمين ولا تخلف أحداً ؛ ومن امتنع عليك فيها أنا من ورائك » .

(٢) في تاريخ العظيمي ، بالورقة ٢١٥ و : « وفي جمادى أغار لجة التركي على بلاد الفرنج

واتّفق في هذه السَّنة خلفٌ شديدٌ بين أتابك زنكي وقرا أرسلان ابن داود بن سكمان بناحية بهمرد[١]، فالتقيا فكسره أتابك، وفتح بهمرد، وعاد إلى الجزيرة، ثم إلى الموصل فشتّى بها.

وفي هذه السّنة تقرَّر الصُّلح بين أتابك والأُرتقيَّة ووصل أولادُهم إلى الخدمة ثمّ عادوا.

٥

وفي خامس شعبان مات وزيرُ أتابك ضياء الدّين بن الكفرتوثي[٢] ووزّر موضعه أبا الرضا بنَ صدقة، ثمّ عزله في سنة ثمان وثلاثين.

ونهض سوار في شهر رمضان إلى بلد أنطاكية، وعند الجسر جمع عظيم وخيم مضروبة من الفرنج، فخاض التّركمان إليهم العاصي، وكسروا الجميع هناك، وقتلوا كلّ من كان بالخيم، ونهبوا وسبوا، وعادوا إلى حلب بالوسيق العظيم، والأسرى والرؤوس[٣].

١٠

وفتح أتابك قلعة أشب المشهورة بالحصانة[٤]، في ثالث وعشرين

وساق وسبي ونفر إليه نفر من الفرنج فظفر بهم وقتل منهم سبعمائة وعاد بالغنائم والوسيق والقلائع » – في ابن القلانسي ٢٧٤ : « فيها ورد الخبر من ناحية الشمال باغارة الأمير لجه التركي النازح عن دمشق إلى خدمة الأمير عماد الدين أتابك على بلد الفرنج وظفره بخيلهم وفتكه بهم بحيث ذكر أن عدّة المقتولين منهم تقدير سبعمائة رجل ».

(١) في مفرج الكروب ٨٩/١ : « جرت وقعة بين عماد الدين والأمير ركن الدين داود بن سقمان ن أرتق صاحب حصن كيفا فانهزم ركن الدين وملك عماد الدين بهمرد ».

(٢) في ابن القلانسي ٢٧٥ : « وفيها ورد الخبر بوفاة ضياء أبي سعيد بن الكفرتوثي وزير الأمير عماد الدين أتابك في خامس شعبان » وكذلك جاء النص عند العظيمي.

(٣) هذا النصّ منقول عن تاريخ العظيمي : « ونهض الأمير سيف الدين في العشر الثاني من رمضان إلى بلد أنطاكية، وعند الجسر جمع كثير وخيم مضروبة وقطعة من العسكر يخطفون الأطراف فخاض التركمان إليهم العاصي وكسروا الجمع هناك وقتلوا من كان بالخيم ونهبوا وسبوا، وعاد سيف الدين إلى حلب بالوسيق العظيم والقلائع والرؤوس والأسرى ».

(٤) في ابن الأثير ٦/٩ : « في هذه السنة أرسل أتابك زنكي جيشاً إلى قلعة أشب وكانت أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنها وبها أموالهم وأهلهم فحصروها وضيقوا

من شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين .

وخرج ملك أنطاكية إلى وادي بزاعا ، فخرج سوار فردّهم إلى بلد الشمال || واجتمع سوار وجوسلين بين العسكرين فاتّفق الصلح بينهما [١] . [١٦٧ظ]

وفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، فتح أتابك قلعة انيرون [٢] ، وبعدها قلعة حيزان [٣] ، ومما كان أيضاً بيد الفرنج جملين [٤] ، والموزّر [٥] ، وتل مَوْزَن [٦] ، وغيرهما . ٥

وخرج عسكر حلب فظفروا بفرقةٍ كبيرةٍ [٧] من التجّار والأجناد

على من جا فملكوها ، فأمر باخراجها وبناء القلعة المعروفة بالعارية عوضاً عنها » – وفي تاريخ العظيمي أنه فتحها ليلة القدر .

(١) في تاريخ العظيمي ، بالورقة ٢١٥ ظ : « فظهر ملك أنطاكية إلى وادي بزاعة فنهض إليه الأمير سوار فردّهم إلى بلد الشمال ، وأغار الجوسلين إلى شط الفرات وسبى أهل عكرمة بأمرهم تسعمائة روح » – ثم يقول : « واجتمع الأمير سيف الدين والجوسلين ببلد الشمالي في المعسكرين واتفق الصلح بينهما » .

(٢) في الأصل « أنيرون » ؛ وفي العظيمي مثلها – وفي القلانسي ٢٧٧ بهامشها عن الفارقي : « ايزون » .

(٣) حيزان : بلد فيه شجر وبساتين كثيرة ومياه غزيرة ، وهي قرب إسْعِرت من ديار بكر – انظر معجم البلدان لياقوت ٢/٣٨٠

(٤) في الأعلاق الخطيرة ، قسم الجزيرة ٣/٢٠ ظ : « جملين والموزر : قلعتان لهما عملان متسعان بين بلاد ديار مضر وبلاد ديار بكر على يوم من حرّان ما زالتا في أيدي من تملك ديار مضر إلى أن استولى عليها الفرنج عند ملكهم للرها . »

(٥) مُوَزّر : بالضم وتشديد الزاي وراء كأنه مفعل : كورة بالجزيرة منها نصيبين الروم – انظر معجم البلدان لياقوت ٤/٦٧٩

(٦) تل مَوْزَن : بفتح الميم وسكون الواو وفتح الزاي وآخره نون : بلد قديم بين رأس عين وسروج ، وبينه وبين رأس عين نحو عشرة أميال – انظر معجم البلدان لياقوت ١ / ٨٢٧

(٧) في الأصل : « فظفروا برفقة كثيرة » – وصحيحها كما أثبتنا ، فهو تصحيف من الناسخ ، وقد جاء في ابن القلانسي ٢٧٨ : « وفي جُمادى الأولى منها ورد الخبر من ناحية

وغيرهم خرجتْ من أنطاكية تريد بلادَ الفرنج ، ومعها مال كثير ودوابّ ومتاع ، فأوقعوا بهم ، وقتلوا جميعَ الخيّالة من الفرنج الخارجين لحمايتهم ، وأخذوا ما كان معهم ، وعادوا إلى حلب ، وذلك في جمادى الأولى من السّنة .

وفي يوم الأربعاء خامس وعشرين من ذي القعدة ، وقعتْ خيـلُ تركمان نهضتْ من بلد حلب ، فأوقعتْ بخيلٍ خارجةٍ من بَاسُوطـا فقتلوهم ، وأسروا صاحب باسوطا وجاءوا به إلى حلب ، فسلّموه إلى سوار فقيّده[1] . ٥

وعزل أتابك وزيرَهُ جلالَ الـدّين أبا الرّضا بالمَوْصل ، واستوزر أبا الغنائم حَبَشي بن مُحمّد الحلّي[2] . ١٠

فتح الرّها ، وكان أتابك زنكي لا يزال يفكّر في فتح الرّها ، ونفسه في كل حين تطالبه بذلك ، إلى أن عرف أنّ جوسلين صاحبها قد خرج منها[3]

الشمال تفيد بأن عسكر حلب ظفر بفرقة كبيرة من التجار والأجناد وغيرهم خرجت من أنطاكية تريد بلاد الافرنج ومعها مال كثير ودواب ومتاع وأثاث فأوقعوا بها واشتملوا على ما كان فيها ، وقتلوا من كان معها من خيالة الأفرنج لحمايتها والذب عنها ؛ وعاد إلى حلب بالمال والسبي والأسرى والدوابّ »- وقد أثبتنا نصّ ابن القلانسي لنبرهن على أن ابن العديم نقله عنه وأسقط بعض كلمات منه على عادته .

(١) نقل ابن العديم هذا النصّ عن تاريخ العظيمي ، بالورقة ٢١٧ و ، مع تغيير بعض الكلمات يبعض . وهنا يقف تاريخ العظيمي فنحرم من المقابلة عليه والاستفادة منه ، وقد نقل عنه ابن العديم نقلًا حرفيًا كثيرًا كما بيّنا ، ولكنّ العظيمي يسجّل التاريخ حتى نهاية سنة ٥٣٨ هـ فحسب .

(٢) في ابن القلانسي ٢٧٧ : « وفيها ورد الخبر بعزل عماد الدين أتابك وزيره أبا الرضا ابن صدقة لأسباب أوجبت ذاك ، ودعت اليه ، وأغراض بعث عليه ، واستوزر مكانه . »

(٣) في ابن الأثير ٩/٨ : « وفارق جوسلين الرّها وعبر الفرات الى بلاد الغربية ، فجاءت عيون أتابك إليه فأخبروه الخبر فنادى في العسكر بالرحيل . »

في معظم عسكره ، في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، لأمرٍ اقتضاه ؛ فسارع أتابك إلى النّزول عليها في عسكرٍ عظيم ؛ وكاتب التّركمان بالوصول إليه ، فوصل خلقٌ عظيم .

وأحاط المسلمون بها من كلّ الجهات ، وحالوا بينها وبين مَنْ ٥ يدخل إليها بميرةٍ أو غيرها ، ونصب عليها المجانيق ؛ وشرع الحلبيّون فنقبوا عدّة مواضع عرفوا أمرها إلى أن وصلوا تحت أساس أبراج السُّور ، فعلقوه بالأخشاب ، واستأذنوا أتابك في إطلاق النّار فيه فدخل إلى النّقب نفسه وشاهده ثم أَذِنَ لهم ، فألقَوا النّارَ فيه ، فوقع السُّور في الحال[١] .

١٠ وهجم || المسلمون البلد ، وملكوه بالسَّيف يوم السَّبت سادس [١٦٨ و] عشر جمادى الآخرة[٢] ، وشرعوا في النّهب والقتل والأسر والسَّبي ، حتّى امتلأت أيديهم من الغنائم . ثمّ أمر أتابك برفع السَّيف عن أهلها ، ومنع السَّبي ، وردّه من أيدي المسلمين ، وأوصى بأهلها خيرًا ، وشرع في عمارة ما انهدم منها وترميمه[٣] .

١٥ وكان جمالُ الدّين أبو المعالي فضل الله بن ماهان رئيسُ حَرّان هو الّذي يحثُّ أتابك في جميع الأوقات على أخذها ، ويسهّل عليه أمرها ،

---

(١) في ابن الأثير كذلك ، بالصفحة نفسها : « فسقطت البدنة التي نقبها النقابون ، وأخذ البلد عنوة وقهرًا . »

(٢) في مفرج الكروب ١/٩٦ : « وحصر القلعة فملكها وذلك لأربع عشر بقيت من جمادى الآخرة من هذه السنة ، ونهب الناس الأموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال » – ومثل هذا النص في ابن الأثير .

(٣) في ابن الأثير : « فأمر فنودي في العساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم واعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم فردوا الجميع عن آخره لم يفقد منه شيء الا الشاذ النادر » – ومثل ذلك في مفرج الكروب فهما متشابهان متفقان في النص .

فوُجِدَ على عضادة محرابها مكتوب[١] :

أَصبحْتُ صِفْرًا مِنْ «بني الأصفرِ» أَخْتالُ بالأَعْلامِ والمِنْبَرِ[٢]

دَانٍ مِنَ المَعْرُوفِ حَالٍ بِهِ نَاءٍ عن الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ

مُطَهَّرِ الرَّحْبِ عَلَى أَنَّني لَوْلَا «جَمَالُ الدِّينِ» لَمْ أَطْهرِ[٣]

فبلغَ ذلكَ رئيسَ حران، فقال: «امْحُوا جمالَ الدِّين، واكتبوا ٥ عمادَ الدِّين». فبلغ ذلك زنكي، فقال: «صَدَقَ الشَّاعِرُ لولاكَ ما طَمِعْنَا فيها». وأمر عُمّالَه بتخفيف الوطأة عليهم في الخراج، وأن يأخذوه على قَدْرِ مغلّاتها[٤].

ثمّ رحل إلى سروج ففتحها، وهرب الفرنج منها، ثمّ رحل فنزل على البيرة، في هذه السنة فحاصرها في هذه السنة. ١٠

وجاءه الخبر من الموصل أن نصير الدّين جقر نائبه بالموصل قُتل[٥]، فخاف عليها، وترك البيرة بعد أن قارب أخذها،

مقتل جقر

(١) وردت الأبيات في بغية الطلب ٨/٢١٠و : «فلما فتحها أوصى بأهلها خيرًا، ولم يسب أهلها ونوى عمارتها، ووجدوا على عضادة المحراب مكتوبًا :

أصبحت صفرًا من بني الأصفر أختال (الأبيات)

فبلغ ذلك رئيس حرّان جمال الدين فضل الله أبا المعالي، فقال : امحوا جمال الدين واكتبوا عماد الدين فبلغ ذلك عماد الدين فقال : صدق الشاعر، لولاك ما طمعنا فيها. وأمر عماله إذا جاءت جائحة في الغلّة أن يأخذوا الخراج على قدرها . » – في النجوم الزاهرة ٥/٢٧٥ : «وجدوا مكتوبًا عليها سطرين بالسريانيّة، فجاء شيخ يهودي فحملها إلى العربية».

(٢) في النجوم الزاهرة : «أصبحت خلوًا»

(٣) في النجوم : «فطهر الرحب على أنني لولا ابن سنقر لم أطهر»

(٤) بقية النصّ وتفصيل الأمر في بغية الطلب المخطوطة .

(٥) في ابن الأثير ٩/٩ : «في هذه السنة في ذي القعدة قتل نصير الدين جقر نائب أتابك زنكي بالموصل والأعمال جميعها التي شرقي الفرات» – في مفرج الكروب ١/٩٥ : «فحسن بعض المفسدين للملك ألب ارسلان قتل نصير الدين وقال : ان قتلته ملكت الموصل وغيرها، ولا يبقى مع أتابك زنكي فارس واحد» – وهذا شبيه بما عند ابن الأثير.

وسار حتّى دخل الموصل، وأخذ فرخانشاه ابن السّلطان الّذي قتل جقر، وعزم على تملّك الموصل، فقتله بدم جَقر، ووَلّى الموصل مكانَهُ الأميرَ زَيْنَ الدّين علي كوچك[1].

ثُمّ ‖ شَرَع زنكي في الجمع والاحتشاد، والاستكثار من عمل [١٦٨ظ] المجانيق، وآلة الحرب، في أوائل سنة أربعين وخمسمائة؛ ويُظهر للنّاس أنّ ذلك لقصد الجهاد. وبعضُ النّاس يقولُ: إنه لقَصْد دمشق ومُنازلتها. وكان ببعلبكّ مجانيق فَحُمِلَتْ إلى حمصَ، في شعبان من هذه السَّنة.

وقيل: إنّ عَزْمَهُ انثنى عن الجهاد في هذه السّنة، وأنّ جماعةً من الأرمن بالرّها عاملوا عليها، وأرادوا الإيقاعَ بمن كان فيها من المسلمين واطّلع على حالهم؛ وتوجه أتابك من الموصل نحوها، وقُوبل مَن عَزَمَ على الفساد بالقتل والصلب.

مَقْتَلُ عِمادِ الدّين زَنْكي الشَّهيد

وسار ونزل على قلعة جعبر بالمرج[2] الشَّرقي تحت القلعة، يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجّة، فأقام عليها إلى ليلة الأحد سادس شهر ربيع الآخر نصف اللّيل من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، فقتله يرنقش الخادم؛ كان يهدّده في النّهار، فخاف منه فقتله في اللّيل في فراشه[3].

---

(١) في ابن الأثير: «ففارق البيرة وأرسل زين الدين عليّ بن بكتكين إلى قلعة الموصل والياً على ما كان نصير الدين يتولّاه» – وهو زين الدين علي كوچك، كما في مفرج الكروب ٩٦/١

(٢) الكلمة غامضة هنا، وقد وضعها المستشرق: «بالبرج الشرقي» – وأما بغية الطلب، المخطوطة بالورقة ٢١٣/٨: «ونزل على قلعة جعبر بالمرج الشرقي تحت القلعة» إلى آخر ما أثبته ابن العديم في الزبدة.

(٣) جاء هذا النصّ نفسه في بغية الطلب المخطوطة وقد ذكر ابن العديم مصدره فقال:

وقيل: إنه شرب ونام، فانتبه فوجد يرنقش الخادم وجماعةً من غلمانه يشربون فضلَ شرابه، فتوعّدهم. ونام فأجمعوا على قتله، وجاء يرنقش إلى تحت القَلعة، فنادى أهلَ القلعة: «شيلوني فقد قتلتُ أتابك». فقالوا له: «اِذهبْ إلى لَعنَةِ الله، فقد قتلتَ المسلمين كُلّهم بقتله[1]».

وقد كان أتابك ضايقَ القلعة، فقلَّ الماءُ فيها جدًّا، والرُّسل من صاحبها عليّ بن مالك تَتَردَّدُ بينه وبين أتابك، فبذل عليُّ بنُ مالك له ثلاثين ألف دينار ليرحلَ عنها، فأجابه إلى ذلك. ٥

[١٦٩ و] وَنَزل الرَّسول، وقد جمع الذَّهبَ || حتّى قلع الحلقَ من آذان أَخواتِهِ[2]، وأحضر الرَّسولَ، وقال لبعضِ خواصّه: «اِمضِ بفَرَسه وقرّبه إلى قِدْرِ اليَخْني فإنْ شَرِبَ منه فأعلمني». ففعل ذلك، فشربَ الفرسُ مَرقَةَ اليخني، فعلم أنَّ الماءَ قد قلَّ عندهم، فغالط الرَّسولَ ودافعه، ولم يُجِبْهُ إلى مُلتَمَسِهِ، فأُسقِط في يد عليّ بن مالك. ١٠

وكان في القلعة عنده بقرة وحش، وقد أَجهَدَها العَطَشُ، فصعدتْ في دَرَجة المِئْذنة حتّى عَلَت عليها، ورفعت رأسها إلى السَّماء، وصاحَتْ

«قرأتُ في تاريخ أبي شجاع محمد بن عليّ بن الدهّان الفرضي في حوادث سنة احدى وأربعين وخمسمائة قال: وفي هذه السنة قُتل عماد الدين زنكي ليلة الأحد سادس عشر ... الخ» – وفي ابن الأثير ٩/١٣: «قتله جماعة من مماليكه ليلًا غيلة وهربوا إلى قلعة جعبر، فصاحوا على من جا من العسكر يعلمونهم بقتله وأظهروا الفرح فدخل أصحابه إليه فأدركوه وبه رمق».

(١) ورد هذا النص بحروفه في بغية الطلب المخطوطة ٨/٢١٣و. – وارجع إلى الصفحة ٢١٩ السابقة.

(٢) في بغية الطلب المخطوطة ٨/٢١٤ و: «ونزل رسول عمّي اليه وقد جمع الذهب حتى قلع الحلق من آذان عماتي أخواته على ما حكى لي بعض المشايخ. قال: فلما نزل الرسول إليه قال له بعض خواصه: امضِ بفرسه وقرّبه إلى قدر اليخني فان شرب منه فاعلمني .. الخ» ..

صيحةً عظيمةً ، فَأَرْسَلَ اللهُ سحابةً ظَلَّلَتِ[1] القلعةَ ، وأمطروا حتى رووا ، فتقدَّم حسَّان البعلبكيّ صاحب مَنْبِج إلى تحتِ القلعة، ونادى عليَّ بْنَ مَالك ، وقال لـه : « يا أمير عليّ ، ايشْ بقى يخلّصك من أتابك » فقال له : « يا عاقِل ، يُخلّصني الّذي خلّصك مِنْ حبْس بلك » . يعني حين قُتِل[2] بلك على منبج وخلص حسّان ، فصدق فأله – وكان ما ذكرناه – .

وأخبرني والدي – رحمه الله – أنَّ حارس أتابك كان يحرُسه في اللَّيْلَة الّتي قُتِل فيها بهٰذَيْن البيتين[3] :

يَا رَاقِد اللَّيْل مَسْرُورًا بأوَّلِهِ ، إنَّ الحَوادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحَارا !
لَا تَأْمَنَنَّ بِلَيْلٍ طَابَ أَوَّلُـهُ فَرُبَّ آخر لَيْـلٍ أَجَّجَ النَّارا !

وكان أتابك جبارًا عظيماً ذا هيبـة وسطوة . وقيل : إنَّ الشاووش[4] كان يصيح خارج باب العراق ، وهو نازل من القَلْعَة . وكان إذا ركبَ مَشَى العسكرُ خَلْفَهُ كأنهم بَيْنَ خَيْطَيْن مَخافةَ أنْ يدوسَ العَسْكَرُ شيئاً من الزَّرع ، ولا يجسر أحدٌ من هيبته أن يدوسَ عِرْقاً منه[5] ، ولا يمشي || فرسُه فيه ، ولا يجسر أحدٌ من أجناده أن يأخـذ [١٦٩ظ]

(١) هذا النصّ كله في بغية الطلب ٨/٢١٤ ظ : « وصاحت صيحة عظيمة ملأت الوادي قال : فأرسل الله سبحانه سحابة ظلّلت القلعة وامطروا حتى رووا »

(٢) أصاب الورقة بلل ومع ذلك حاولنا قراءة ما فيها ، وقد اقترح المستشرق لهذه الكلمة : « حين نزل » وهي في النصّ المبدَل: « قتل » .

(٣) في بغية الطلب : « سمعتُ والدي رحمه الله يقول: ان حارس أتابك كان يحرسه في الليلة التي قتل فيها بهذين البيتين » – ثم روى ابن العديم ما نقله إلى الزبدة.

(٤) الشاوُش : كلمة تركية بمعنى حرس للسلطان أو غيره ، وهو عند العثمانيين (جاوش) ولا تزال الكلمة في أسماع الناس لكثير من الأقطار العربية–انظر دوزي ٧١٧/١

(٥) وقع هذا النصّ بتمامه في بغية الطلب ٨/٢١٠ ظ : « قرأتُ في تاريخ حرّان جمع

لفلّاح علاقة تبن إلّا بثمنها أو بخطٍ من الدّيوان إلى رئيس القرية؛ وإنْ تعدّى أحدٌ صلبه[1].

وكان يقولُ: «ما يتّفق أن يكونَ أكثر من ظالمٍ واحد» – يعني نفسه – فعمرت البلادُ في أيّامِهِ بعد خَرَابها وأَمِنَتْ بعد خَوْفِها. وكان لا يُبْقي على مُفْسِدٍ، وأوصى ولاتَه وعُمّاله بأهل حَرّان، ونهى عن الكلف والسّخر والتّثقيل على الرّعية[2]. هذا ما حكاه أهل حَرّان عنه.

وأما فلّاحو حلب فإنّهم يَذْكُرون عنه ضدَّ ذلك[3].

وكانت الأسعار في السّنة الّتي تُوُفّي فيها رخيةً جدًّا. الحنطة ستّ مكايك[4] بدينار؛ والشّعير اثنا عشر مكّوكاً بدينار؛ والعَدس

أبي المحاسن بن سلامة الحرّانيّ قال: حدّثني أبي – رحمه الله – قال: كان أتابك زنكي بن قسيم الدولة أق سنقر رحمه الله اذا ركب مشى العسكر خلفه كأنهم بين خيطين ...» وهو مطابق لما عندنا في الزبدة.

(١) في بغية الطلب: «وان تعدى أحد صلبه عليها».

(٢) في بغية الطلب ٨/٢١١ و: «وكان لا يبقي على مفسد، وأوصى ولاته بأهل حرّان وعمّاله، ونهى عن الكلف والمغارم والسخر والتثقيل على الرعية وأقام الحدود في بلاده – رضي الله عنه – هذا ما حكاه أبو المحاسن عنه».

(٣) في بغية الطلب، بالصفحة المذكورة: «وسمعتُ من جماعة من فلاحي حلب أنه كان عليهم منه جور وظلم في أيام ولايته، وأكثر ما كان يذكر عنه من الظلم ما يلزم الناس به من جمع الرجّالة للقتال والحصار. فان كان ذلك في جهاد الكفار فقد كان يجلب عليهم ذلك، وله إلزامهم به. وبلغني أنه لا يتجاسر أحد من رعيته كائناً من كان أن يظلم احدًا من خلق الله. ويقول. لا يتفق ظالمان، يعني نفسه وغيره».

(٤) في كتاب النقود العربية للأب انستاس الكرملي ٢٠٦: «المكّوك: وهو

أربع مكايك بدينار ؛ والجلبان خمسة مكايك بدينار؛ والقطن ستّون رطلًا بدينار ؛ والدّينار هو الّذي جعله أتابك دينارَ الغلّة ؛ وقدره خمسون قرطيساً برساً[1] وذلك لقلّة العالم[2] .

وَلَمّا قُتِلَ افترقتْ عساكِرُهُ فأخذ عسكر حلب ولدَه[3] نورَ الدّين أبا القاسم محمودَ بن زنكي ، وطلبوا حلب فملّكوه إيّاها ، وأخذ نورُ الدّين خاتَمَه من إصْبِعِهِ قبلَ مسيره إلى حلب . وسار أجنادُ المَوْصل بسَيْف الدّين غازي إلى الموصل وملكها .

وبقي أتابك وَحدَه ، فخرج أهلُ الرّافقة[4] فغَسّلوه بقحف جرّة ،

مكيال يسع صاعاً ونصفاً ، أو نصف رطل إلى ثماني أواقيّ – وجمع المكوك مكاكيك ، وقد تخفف فيقال مكاكيّ » وقد بسطنا أمر القفيز والمكوك في الصفحة ١٢

(١) في الأصل : « برشا » وصحيحها ما أثبتنا – وقد ترجم المستشرق هذه الكلمة : «Cinquante assignats en papier de papyrus»

(٢) أسهب المؤرخون في مدح أتابك زنكي ، وأخصّهم ابن الأثير في كتابه « الباهر في تاريخ دولته ودولة أولاده » كما يُعلمنا في الكامل ٩/١٣ ، وقد رأينا له في تاريخ الدولة الأتابكية ذكرًا اصفاته واخلاقه طبعة باريس من الصفحة ١٣٦ – ١٥٢ ؛ وفي مفرّج الكروب ١/١٠٠–١٠٦ ، وفي الروضتين ١/٦٣–٦٦ ، وفي غيرها من التواريخ والكتب.

(٣) في بغية الطلب ٨/٢١٣ ظ : « وافترقت العساكر فأخذ أولاد الدّاية نور الدين محمود الملك العادل ابن عمادالدين زنكي وطلبوا حلب والشام ، فملكها ؛ وسار أجناد الموصل بسيف الدين غازي إلى الموصل وأعمالها فملكها وملك الجزيرة » .

(٤) في بغية الطلب المخطوطة : « وبقي عماد الدين أتابك زنكي وحده ، فخرج إليه أهل الرافقة فغسلوه بقحف جرّة ، ودفنوه على باب مشهد الامام عليّ عليه السلام في جوار الشهداء من الصّحابة ، وبنى بنوه عليه قبة ، فهي باقية الى الآن . كذا قال أبو المحاسن ، وانما دفن أولًا داخل مشهد عليّ رضى الله عنه ، ثم نقل من ذلك الموضع إلى جوار الشهداء كما يذكر بعد هذا ، وبنى عليه ولده نور الدين محمود حائطاً يقصر عن القامة ، ولم يُبن عليه

ودفنوه على باب مَشْهَدِ عَلِيٍّ ـ عليه السَّلام ـ في جوار الشُّهَداء من الصَّحابة ـ رِضْوانُ الله عليهم ـ وَبنى بَنُوهُ عليه قبة، فهي باقية إلى الآن[1].

عليه قبة» – وفي ابن القلانسي ٢٨٥ : «ونهبت أمواله الجمة وخزائنه الدائرة، وقبر هناك بغير تكفين إلى أن نُقل كما حكي إلى مشهد الرقة» – انظر حاشية الصفحة عن الفارقي.

(١) هنا ينتهي النصّ الذي نشره المستشرق باربيه ده مينار نقلًا عن مخطوطة باريس من كتاب الزبدة مما يتعلق بالحروب الصليبية، وقد طبع في باريس ١٨٨٤، واستغرق من صفحاته ٥٧٧–٦٩٠؛ انظر بدء النص في الصفحة ١٢٩ من هذا الجزء الذي بين يديك.

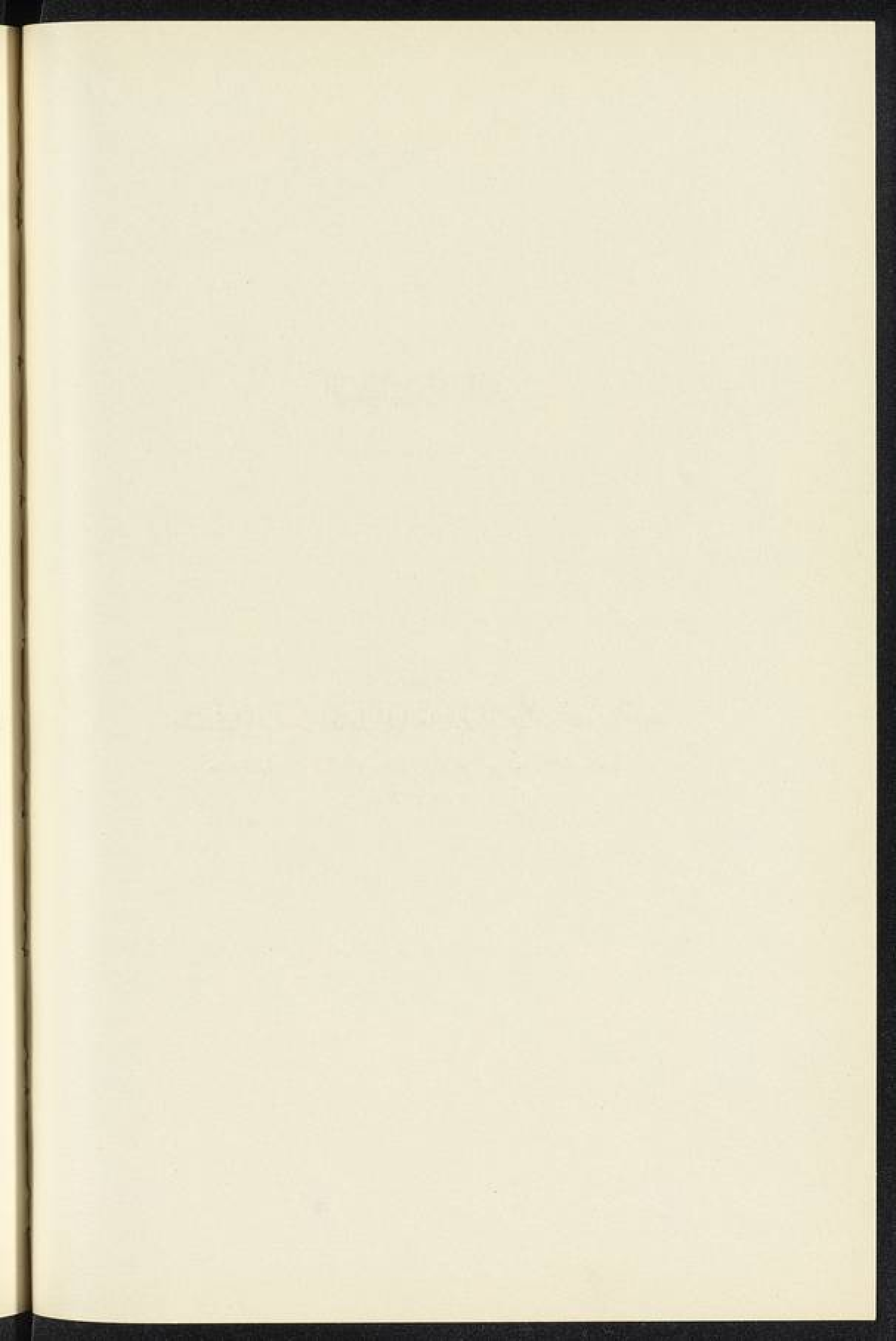
القسم الرابع والعشرون

ذكر

حلب في أيام الملك العادل أبي القاسم نور الدين محمود بن زنكي الشهيد

حكم نور الدين في الشام – حروب الفرنج – نور الدين والأيوبيون

٥٤١ هـ – ٥٦٩ هـ



حُكم نور الدين في الشام

ملك حلب

وملك الملكُ العادل نورُ الدين أبو القاسم محمود بن زنكي (١) ابن أق سنقر حلب، عند ذلك في شهر || ربيع الآخر يوم [١٧٠و] الثلاثاء عاشر الشهر، سنة إحدى وأربعين وخمسمائة.

ووصل إليه صلاح الدين الياغيسياني (٢) يُدبّر أموره ويقوم بحفظ

(١) ترجم له كثير من المؤرخين وفيهم ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان ٨٧/٢، وقد قال فيه: «وكانت ولادته يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع عشر شوّال سنة إحدى عشرة وخمسمائة... وكان أسمر اللون طويل القامة حسن الصورة، ليس بوجهه شعر سوى ذقنه» – وفي النجوم الزاهرة ٢٨٢/٥: «نور الدين محمود صاحب دمشق المعروف بالشهيد» – وفي تاريخ أبي الفداء ١٩/٢: «ولما قتل زنكي كان ولده نور الدين محمود حاضراً عنده، فأخذ خاتم والده وهو ميت من اصبعه، وسار إلى حلب فملكها» – وفي مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ١٩١/٨: «واولاده – أي زنكي – الثلاثة: مودود، وغازي، ومحمود. ولقب مودود قطب الدين، ولقب غازي سيف الدّين، ولقب محمود نور الدين. وكان لزنكي ولد آخر اسمه أمير ميران لقبه نصرة الدين؛ وليس له عقب. ونور الدين كان له اسماعيل مات وانقرض عقبه بعده، والعقب لقطب الدين مودود».

(٢) في الفارقي بهامش ابن القلانسي ٢٨٦: «وتفرّق الناس فرقتين، فأخذ صلاح محمد بن أيوب اليغسياني نور الدين محمود بن أتابك وعسكر الشام ومضوا الى الشام فملك حلب وحماة ومنبج وحرّان وحمص وجميع ما بيد أتابك من الشام واستقرّ به. وسرنا نحن مع الملك وعساكر ديار ربيعة فطلبنا الموصل فوصلنا إلى سنجار» – في الكامل لابن الأثير ١٣/٩: «وكان حينئذ يتولّى ديوان زنكي ويحكم في دولته من أصحاب العمائم جمال الدين محمد بن عليّ وهو المنفرد بالحكم ومعه أمير حاجب صلاح الدين محمد الياغيسياني فاتفقا على حفظ الدّولة... وبقي أخوه نور الدين بحلب وهي له، وسار اليه صلاح الدين الياغيسياني مدبّر أمره والقائم بدولته وحفظها» – وفي الروضتين ٤٧/١: «وكان نور الدين محمود ابن الشهيد قد سار لما قتل والده إلى حلب فملكها وذلك باشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك» – أنظر مفرج الكروب ١٠٧/١، ١١٠

دَوْلَته ، فحينئذٍ راسلَ جوسلين الفرنجي أهلَ الرّهـا وعامّتهم من الأرمن ، وحَمَلهم على العصيان وتسليم البلد ، فأجابوه إلى ذلـك[1] ، وواعدُوهم يوماً يصلُ إليهم فيه .

وسار إليها فملك البلد ، وامتنعت القلعة فقاتلها ، فبلغ الخبر إلى نور الدّين محمود بن زنكي ، وهو بحلب ، فسار إليها في عسكره[2] ، ٥ فخرج جوسلين هارباً إلى بلده .

ودخلها نُور الدّين فنَهَبَها وسَبَى أهلَها ، وخَلَتْ منهم ، فَلَمْ يَبْقَ بها منهم إلّا القليل[3] .

وأرسل نورالدّين مِنْ سَبْيِها جارية في جُملة ما أهداهُ إلى زَيْن الدّين علي كُوجك[4] ، نائب أبيه بالموصل ، فلمّا رآها دخل إليهـا ، وخرج ١٠ مِنْ عندها وقد اغتسل ، وقال لِمَنْ عِنده : « تَعْلَمُونَ ما جرى لي يَوْمَنا هذا ؟ » قالوا : « لا » ، قال : « لمّا فتحنا الرّها مع الشّهيد وَقَعَ بيـدي من النّهب جاريةٌ رائقة أعجبني حسنُهـا ومال قلبي إليها ، فلم يكن

---

(١) في ابن القلانسي ٢٨٨ : « ووردت الأخبـار في أثناء ذلك في أيام من جُمادى الآخرة من السنة بان ابن جوسلين جمع الافرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة من النصارى المقيمين فيها فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من المسلمين » – وكذلك في الروضتين ١/٤٨ ، ومفرج الكروب ١/١١٠

(٢) هذا النصّ مطابق لما عند ابن الأثير ٩/١٤ فهو منقول عنه .

(٣) في ابن الأثير ، بالصفحة المذكورة : « ودخل نور الدين المدينة ونهبها حينئذ وسبى أهلها وفي هذه الدفعة نهبت وخلت ولم يبق بها منهم إلّا القليل » .

(٤) في الروضتين ١/٤٩ : « ان نور الدين أرسل من غنائمها إلى الامراء وأرسل إلى زين الدين عليّ جملة من الجواري فحملن إلى داره ودخل لينظر اليهن ، فخرج وقد اغتسل وهو يضحك فسئل عن ذلك فقال : لما فتحنا الرها مع الشهيد كان في جملة ما غنمت جارية . . . » – انظر ابن الأثير ٩/١٤ ، والدولة الأتابكية لابن الأثير ١٥٧

بأسرع من أن أمر الشهيد فنودي بردّ السَّبي والمال المنهوب ، وكان مَهيباً مخوفاً ، فرددتها وقلبي متعلّق بها ، فلما كان الآن جاءتني هديّة نور الدّين وفيها عدّة جوارٍ منهنّ تلك الجارية ، فوطئتها خوفاً أن يقع مثل تلك الدّفعة » .

الفرنج وشرع نور الدّين – رحمهُ الله – في صرف همّته إلى الجهاد ، فدخل في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، إلى بلد الفرنج ، ففتح أرتاح بالسّيف ، ونهبها[1] . وفتح حصن مابولة ، وبسرفوث ، ‖ وكفرلاثا [١٧٠ظ] وهاب .

وكان الفرنج بعد قتل والده قد طمعوا وظنّوا أنهم يستردّون ما أخذه ، فلما رأوا من نور الدّين الجدّ في أول أمره ، علموا بُعد ما أمّلوه .

وخرج ملك الألمان ونزل على دمشق ، في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وسار لنجدتها سيفُ الدّين غازي من الموصل ، ونور الدين محمود ، فوصلا إلى حمص[2] .

---

(١) في أبي الفداء ٢ / ٢٠ : « ففتح منها مدينة ارتاح بالسيف ، وحصر مأمولة وبصرفوت وكفرلاثا » – وفي ابن الأثير ٩ / ١٧ : « ففتح منه مدينة أرتاح بالسيف وحصر مابولة وبصرفوث وكفرلاثا » – وقد علقنا في حواشي الصفحات السابقة على مواقع هذه البلدان فارجع إليها . وأما مابولة فلم نستطع أن نقطع في تحديد موقعها ، فلعلها حصن مالون الذي ذكره كاهن ص ١٥٠ في كتابه عن سورية الشمالية .

(٢) في ابن الأثير ٩ / ٢٠ : « في هذه السنة سار ملك الالمان من بلاده في خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج عازماً على قصد بلاد الاسلام وهو لا يشك في ملكها بأيسر قتال لكثرة جموعه وتوافر أمواله وعدده ، فلما وصل إلى الشام قصده من به من الفرنج وخدموه » – وفي مفرج الكروب ١ / ١١٢ : « نازل ملك الألمان بجموعه ومن انضم اليه من فرنج الساحل مدينة دمشق وصاحبها مجير الدين ابق بن محمد » .

وتوجّه نور الدّين إلى بعلبك، واجتمع بمعين الدّين أنر بها، ورحل ملكُ الألمان عَن دِمَشق، وكان صحبتُه ولد الفنش، وكان جده قد أخذ طرابلس من المسلمين. فأخذ ولد الفنش[1] هذا حصن العريمة من الفرنج، وعزم على أخذ طرابلس من القمص، فأرسل القمص إلى نور الدّين إلى بعلبك يقول له في قصد حصن العريمة وأخذِهِ مِنْ وَلد الفنش. ٥

فسار نُور الدّين ومُعين الدّين أنر معه، وسيرا إلى سَيْفِ الدّين غازي إلى حمص، يستنجدانِهِ فأمدّهما بعسكرٍ كثيرٍ مع الدُّبيسي[2] صاحب الجزيرة، فنازلوا الحِصْن، وحصروه وبه ولدُ الفنش.

فزحف المُسلمون إليه مرارًا، ونقب النقّابون السُّور فطلب مَنْ به مِنَ الفرنج الأمانَ، فملكه المسلمون، وأخذوا كلّ مَنْ بِهِ مِنْ ١٠ فارسٍ وراجل، وصبيّ، وامرأةٍ، وفيهم ابن الفنش، وأخربوا الحصنَ، وعادوا إلى حمص[3].

ثم عاد سيف الدين غازي إلى الموصل.

وتجمّع الفرنج ليقصدُوا أعمالَ حلب، فخرج إليهم نورُ الدّين بعسكره والتقاهم بيغرى[4]، واقتتلوا قتالًا شديدًا، فانهزم ١٥ [١٧١و] الفرنج، وأسر منهم جماعة وقُتل خلقٌ، ولم ينجُ إلّا القليل.

---

(١) في ابن القلانسي ٣٠٠: «ولد الملك الفنش أحد ملوك الافرنج المقدّم ذكرهم» – وفي مفرج الكروب ١/١١٤: «ولد الادفونش» وهو الفونس في اللغة الأعجمية – انظر ابن الأثير ٩/٢١

(٢) في مفرج الكروب ١/١١٤: «الأمير عز الدين الدبيسي فقطع جزيرة ابن عمر» – في ابن الأثير: «مع الأمير أبي بكر عز الدين الدبيسي».

(٣) تتشابه النصوص عند ابن الأثير وابن واصل، ويبدو أن ابن العديم أخذ عن نصّ ابن الأثير ٩/٢١

(٤) في الأصل عندنا: «بيعرا» بالباء المكررة والعين والراء ورسم الألف وهي في

وفي هذه الوقعة يقول الشيخ أبو عبد الله القيسراني[1] مِن قصيدة[2] :

وَكَيفَ لَا نُثنِي[3] عَلى عَيشِنا ا لـ مَحمُودِ والسُّلطَانُ «مَحمُودُ»
وَصَارِمُ الأسلَامِ لَا يَنثَنِي إلا وشِلوُ الكُفرِ مَقدُودُ
٥ مَكَارِمٌ[4] لَم تَكُ مَوجُودَةً إلا وَ«نُورُ الدّينِ» مَوجُودُ[5]

المدارس والعلماء

وَشرع نُور الدّين في تجديد المدارس والرّباطات بحلب، وجلَب أهلَ العِلم والفقهاءَ إليها، فجدّد المدرسة المعروفة بالحَلاويّين، في سنة ثلاث وأربعين وخمسائة؛ واستدعى بُرهانَ الدّين أبا الحسن علي بن الحسن البَلْخي الحَنفي وَوَلّاهُ تَدرِيسَها، ١٠ فغيّر الأذان بحلب، ومنَع المؤذّنين مِن قولهم : «حيَّ عَلى خيرِ

مفرج الكروب : «يغري» – انظر دوسو ٤٣٦ : حيث يقول ان يغري على حدود العمق بجوار دربساك، وأبو الفداء في تقويم البلدان ٢٦١ – وابن الأثير ٩/ ٢٢ : «هزم نور الدين الفرنج بمكان اسمه يغرى من أرض الشام».

(١) هو أبو عبدالله محمد بن نصر بن صغير بن داغر المخزومي الخالديّ الحلبيّ الملقب شرف الدين المعروف بابن القيسراني، وكان من الشعراء المجيدين في الشام ويقول ابن خلكان إنه ظفر بديوانه وهو في حلب بخطه، ونقل منه أشياء إلى كتابه وفيات الأعيان، ولد سنة ٤٧٨ وتوفي سنة ٥٤٨ هـ بمدينة دمشق وما يزال ديوانه مخطوطاً – انظر وفيات الأعيان ١٦/٢

(٢) في ابن الأثير ٩/ ٢٢ : «وفي هذه الوقعة يقول ابن القيسراني في قصيدته التي أولها :

يا ليت أن الصدّ مصدودُ أولا، فليت النوم مردودُ

ومنها ما هو في ذكر نور الدين :

وكيف لا يثنى على عيشنا الـ ـمحمود والسلطان محمود»

– وقد وردت الأبيات في مفرج الكروب ١/ ١١٥، وفي الروضتين ١/ ٥٥

(٣) في ابن الأثير: «وكيف لا يثنى» –وفي نسختنا، والروضتين: «وكيف لا نثنى».

(٤) في الروضتين، ومفرج الكروب : «مناقب لم تك».

(٥) أكثر القصيدة في الروضتين ١/ ٥٦ يحسن الرجوع إليها .

العمَل[١] » وجَلسَ تحت المنارة ومعه الفقهاء ، وقال لهم : « مَنْ لم يؤذن الأذانَ المشروعَ فألقوه من المنارة على رأسه » . فأذَّنوا الأذانَ المشروع[٢] ، واستمرّ الأمرُ مِنْ ذلك اليوم .

وجَدّدَ المدرسةَ العَصْرُونيّة[٣] على مذهب الشافعي ، وولّاها شرف الدين بْنَ أبي عَصْرُون ، ومدرسةَ النفري[٤] ، وولّاها القطبَ النّيسابُوريّ[٥] ، ومسجد الغَضَائِري وَقَفَ عليه وقفاً ، وولّاهُ الشيخَ شُعَيب[٦] ، وصار يُعْرَفُ به .

(١) في ابن القلانسي ٣٠١ : « وفي رجب في هذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأن صاحبها نور الدين أتابك أمر بابطال حيّ على خير العمل في أواخر تأذين الغداة والتظاهر بسب الصّحابة – رضي الله عنهم – وأنكر ذلك انكاراً شديداً وحظر المعاودة إلى شيء من هذا المنكر وساعده على ذلك الفقيه الامام برهان الدين أبو الحسن علي الحنفي وجماعة من السنّة بحلب » .

(٢) في حاشية نسختنا المخطوطة كتب بخط متأخر سقيم : « هذه حكاية تدل على أن شعار الرافضة كان ظاهراً بحلب وقد زال ذلك ، وكان ابتداء هذا الشعار في أيام سعد الدولة وذكر معه قوله : حيّ على خير العمل ، محمد وعليّ خير البشر وكان ذلك في سنة سبع وستين وثلاثمائة ، وقيل : سنة تسع وسبعين ، وقيل : سنة ثمان وخمسين . وقد تقدم ذلك كله في مسير سعد الدّولة من حمص الى حلب وذلك قبل هذا بكراريس وقد كتبنا هناك على الحاشية : هذا مبدأ ظهور شعار الرافضة بحلب » . – والواقع أننا أثبتنا ذلك بحاشية كتابنا الأول زبدة الحلب ١/١٧٢ ، في حوادث سنة ٣٦٧ ، فارجع إليها للموازنة بين الحاشيتين فهما بخط واحد يبدو أنه خط أحد مالكي النسخة المتأخرين .

(٣) انظر تعليقنا على هذه المدرسة في زبدة الحلب ١ /٢٩٣ حيث نقلنا عن مخطوطة كنوز الذهب ، نسخة رومة بالورقة ٦٣ ظ .

(٤) في مخطوطة رومة بالورقة ٦٥ ظ : « المدرسة النفرية النورية الشافعية أنشأها نور الدين في سنة أربع وأربعين وخمسمائة . أول من تولى التدريس بها قطب الدين مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الطرثيثي مصنف كتاب الهادي في الفقه والتزم فيه أن لا يأتي إلّا بالقول الذي عليه الفتيا » .

(٥) توفي قطب الدين النيسابوري سنة ٥٧٨ هـ ودفن غربيّ دمشق بجوار مدافن الصوفية – انظر وفيات الأعيان ٢ /٩٢

(٦) ذكرنا في زبدة الحلب ١ /٢٨ بالحاشية نقلًا عن بغية الطلب أن هذا المسجد داخل

وبقيَ بُرهانُ الدّين البلخي بحلب مُدرّساً بالحَلاوِيّة(١) إلى أن أخرجه مجدُ الدّين بن الدّاية، لوحشةٍ وقعت بينهما(٢)، ووَليها علاءُ الدّين عبدُ الرحمن بن محمود الغزنوي(٣) ‖ ومات ووَليها ابنه محمود(٤)، [١٧١ظ] ثُمّ وليها الرّضيّ صاحبُ المحيط(٥)، ثُمّ وليها علاءُ الدّين الكاشاني(٦).

باب أنطاكية وان الغضايري كان يعبد الله فيه ثم جاء نور الدين فوقف عليه وقفاً وجعل فيه الشيخ شعيباً يقرئ الناس الفقه ».

(١) هذه المدرسة ما تزال عامرة إلى اليوم قبالة الجامع الأمويّ بحلب وقد ذكرها سبط ابن العجمي في كنوز الذهب بخطوطته : « المدرسة الحنفية الحلوية : هذه المدرسة تجاه باب الجامع الكبير الغربيّ كانت أولاً كنيسة من بناء هيلانة أم قسطنطين ، وهيلانة هي التي بنت القامة بيت المقدس على مكان المصلوب » — وكانت هذه المدرسة تعرف قديماً بمدرسة السراجين .

(٢) في مخطوطة كنوز الذهب : « ولم يزل برهان الدين مدرساً إلى أن خرج من حلب لأمر جرى بينه وبين مجد الدين أبي بكر محمد بن محمد بن نوشتكين بن الدّاية لما كان نائباً عن السلطان بحلب ».

(٣) في كنوز الذهب، مخطوطة رومة : « وتولى المدرسة بعد خروجه الفقيه الامام عبد الرحمن بن محمود بن محمد بن جعفر الغزنوي أبو الفتح ، وقيل أبو محمد الحنفي الملقب علاء الدين فأقام بها مدرساً إلى أن توفي بحلب لسبع بقين من شوّال سنة أربع وستين وخمسمائة ».

(٤) في كنوز الذهب : « وولي بعده ولده محمود وكان صغيراً ، فتولى تدبيره الحسام عليّ بن أحمد بن مكي الرازي الوردي ثم ولي بعده الإمام رضى الدين محمد بن محمد أبو عبدالله السرخسي ، وكان في لسانه لكنة فتعصب عليه جماعة الفقهاء الحنفية وصغروا أمره عند نور الدين وكانت وفاته يوم الجمعة آخر جمعة في رجب سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ».

(٥) في الجواهر المضية ٢/١٢٨ : « محمد بن محمد بن محمد العلامة الملقب رضيّ الدين وبرهان الاسلام السرخسيّ ، كان إماماً كبيراً مصنف المحيط وهو أربع مصنفات المحيط الكبير وهو نحو من أربعين مجلداً » ثم ينقل كلام ابن العديم فيه بما يتفق مع النصّ الذي نقله صاحب كنوز الذهب قبل سطور .

(٦) في كنوز الذهب : « واتفق أن أبا بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الملقب علاء الدين سيّر رسولاً من الروم الى نور الدين فعرض عليه المقام بحلب والتدريس بالحلوية فأجابه إلى ذلك » — وتوفي علاء الدين هذا سنة ٥٨٧ هـ . — وفي الجواهر المضية نقلاً عن ابن العديم في بغية الطلب : « وكان الكاساني صاحب البدائع قد ورد في ذلك الزمان رسولاً فكتب له نور الدين خطبة المدرسة الحلاوية فمضى في الرسالة ثم عاد وتولى التدريس بها » —

وتُوفّي سيفُ الدّين غازي بن زنكي بالموصل في سنة أربع وأربعين[(١)] وتَرَكَ ولدًا صغيرًا، فربّاه عَمّه نورُ الدّين، وعَطَفَ عليه.

خبر الموصل

واتّفق الوزيرُ جمال الدّين وزينُ الدين علي[(٢)] على أن مَلَّكوا قُطب الدّين مودود بن زنكي الموصلَ، وكان نُور الدّين أكبرَ منه، وكاتَبَهُ جماعةٌ من الأمراء وطلبُوه.

وفيمَنْ كاتَبَهُ المقدّمُ[(٣)] عبد الملك والد شمس الدّين محمد، وكان بسنجار[(٤)]، فكتب إليه يَستدعيه ليتسلّم سِنجار.

فَسارَ جريدةً في سَبْعين فارساً من أمراء دَوْلته فوصل سنجار[(٥)]

وفي الزبد والضرب لابن الحنبلي مخطوطة المدينة، بالورقة ١٣ ظ: «قلت: وهو غير أشرف الدين أشرف الكاشاني الحنفي الذي ذكره صاحب الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية... لأن أشرف الدين توفي بكاشغر وعلاء الدين مات بحلب ودفن بمقام ابرهيم التحتاني، وهو صاحب كتاب بدائع الصنائع».

(١) في مفرج الكروب ١/١١٦: «لما عاد سيف الدين الى الموصل عرض له مرض حاد... فتوفي في آخر جمادى الآخرة من هذه السنة اعني سنة أربع واربعين وخمسمائة، فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وشهرًا وعشرين يوماً» – انظر ابن الأثير ٩/٢٣

(٢) في مفرج الكروب ١/١١٧: «لما توفي سيف الدين غازي كان قطب الدين مودود مقيماً بالموصل، فاتفق الوزير جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني والأمير زين الدين علي كوجك صاحب إربل والمقدّم على الجيوش على تمليك قطب الدين فاستحلفوه وحلفوا له وأركبوه الى دار السلطنة وزين الدين ماش في ركابه، وتسلّم جميع ما كان بيد سيف الدين من البلاد» – انظر ابن الأثير ٩/٢٦

(٣) في مفرج الكروب ١/١١٨: «لما ملك قطب الدين الموصل كان أخوه نور الدين بحلب، وهو اكبر منه، فكاتبه بعض الامراء وطلبوه إليهم، منهم المقدّم والد شمس الدين ابن المقدم وكان دزدارًا بسنجار».

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٣/١٥٨: «سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عالٍ.»

(٥) في ابن الأثير ٩/٢٦: «فوصل إلى ماكسين في نفر يسير... ثم سار الى سنجار».

مُجدًّا، ونزل بظاهر البَلد، وأرسل الى المقدّم يُعلمه بوصولـه، فرآهُ الرَّسول وقد سار إلى الموصل، وترك ولدَهُ شمسَ الدّين محمّدًا بالقلعة، فسَيَّر مَنْ لَحق أباه في الطَّريق، وأعلمـه بوصول نور الدّين، فعاد إلى سنجار، وسلّمها إليـه، وأرسل إلى قرا أرسلان[١] صاحبِ الحِصن

٥ يستدعيه لمودّة كانت بينهما، فوصل إليه.

ولما سمع قطبُ الدّين[٢] والوزيرُ جمـال الدّين، وزينُ الدّين بالموصل، جمعوا العَسَاكر، وعزموا على قَصْد سِنجار وساروا إلى تَلّ أعفر[٣]، فأشار الوزير جمالُ الدّين بمداراته، وقال: «إنّنا نحنُ قـد عظّمنا محلّه عند السُّلطان[٤]، وجعلنا محلّنا دونه، وهو فيعظِّمنا عند

١٠ الفرنج، ويُظهِرُ أنّهُ تبعٌ لنا، ويقول: إنْ كُنتم كما نُحبّ وإلّا سلّمتُ البلادَ إلى صاحب الموصل، وحينئذٍ يفعل بكم ويصنع، فإنْ هَزَمْناه طمعَ ‖ فينا السُّلطان ويقولُ: إنّ الّذي كانوا يعظِّمونَهُ، ويخوّفوننا به [١٧٢ و]

(١) في ابن الأثير: «وارسل الى فخر الدين قرا ارسلان صاحب ...» وهكذا ينقل ابن العديم أكثر معلوماته عن ابن الأثير – وفي مفرج الكروب ١/١١٩: «صاحب حصن كيفا».

(٢) في ابن الأثير: «فلما سمع أتابك قطب الدين».

(٣) في ابن الأثير: «تلّ يعفر» – وفي الاصل عندنا: «تلّ عفر» – وفي ياقوت بمعجم البلدان ١/٨٦٣: «تل أعفر: بالفاء، هكذا تقول عامة الناس، واما خواصّهم فيقولون تلّ يعفر، وقيل إنما أصله التلّ الأعفر للونه فغيّر بكثرة الاستعمال وطلب الخفة– وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل في وسط وادٍ فيه نهر جارٍ».

(٤) وردت العبارة قريبة مما عند ابن الأثير وابن واصل، وسننقل عبارة ابن الأثير فهي تبدو اقرب الى التمام: «ليس من الرأي محاقته وقتاله، فاننا نحن قد عظمنا محلّه عند السلطان وما هو بصدده من الغزاة، وجعلنا أنفسنا دونه وهو يظهر للفرنج تعظيماً وأنـه تبعنا ولا يزال يقول لهم ان كنتم كما يجبّ وإلّا سلمت البلاد لصاحب الموصل، وحينئذ يفعل بكم ويصنع؛ فاذا لقيناه فانْ هزمناه طمع السلطان فينا ...» وبقية العبارة حرفية مشابهة لما عندنا تماماً.

أضعفُ منهم، وقد هزموه، وإنْ هو هَزَمَنا طَمِع فيهِ الفرنج، ويقولون: إنَّ الّذي كان يحتمي بهم أضعفُ منه، وبالجملة فهو ابنُ أتابك الكبير»؛ وأشار بالصُّلح.

وسار إلى نور الدين بنفسه، فوفّق بينهما على أن يسلّم سنجار إلى قطب الدّين، ويتسلّم الرّحبة، ويستقلّ نورُ الدّين بالشّام جميعه، ٥
وقطب الدين بالجزيرة ما خلا الرّها، فإنها لنور الدين[1].

حُرُوبُ الفرنج

وعاد نُور الدّين إلى الشّام، وأخذ ما كان قد ادّخره أبوه أتابك مِن الخزائن، وكانت كثيرةً جدًّا.

نصر نور الدين

فغزا نورُ الدين محمود بن زنكي بلدَ الفرنج[2] من ناحية أنطاكية، وقصَدَ حِصْنَ حارم وهو للفرنج، فحَصَرَه، ١٠
وخرب ربضه، ونَهَب سوادَه، ثُمّ رحل إلى حِصن أنب[3] فَحَصَرَهُ أيضًا.

فاجتمع الفرنجُ مع البرنس صاحب أنطاكية وحارم، وتلك الأعمال، وساروا إلى نور الدّين ليرحّلوه عن انّب، فلقيهم يومَ الأربعاء حادي وعشرين من صفر، سنة أربع وأربعين وخمسمائة، واقتتلوا ١٥
قتالًا عظيماً، وباشر نُور الدين القتالَ ذلك اليوم، فانهزمَ الفرنجُ

(١) انظر ابن الأثير ٢٦/٩، ومفرج الكروب ١٢٠/١

(٢) هذه العبارة وما يليها منقولة عن ابن الأثير حرفياً ٢٥/٩، وقد اختصر ابن القلانسي هذه العبارة ٣٠٢

(٣) مرّ بنا في حواشي الصفحة (١٣٥) السابقة ذكر موقع انّب.

أقبحَ هزيمةٍ، وقُتل منهم جمعٌ كثير[1]، وأُسر مثله.

وكان مِمّن قُتل ذلك اليوم البرنس صاحب أنطاكية، وكان مِنْ عظماء الفرنج وأقويائهم[2]. ويُحكى عنه أنّه كان يأخذُ الركاب الحديد بيده، فَيُطْبِقُهُ بيدِهِ الواحدة، وأنّه مرّ يوماً وهو راكبٌ حصاناً قوياً تحت قنطرةٍ فيها حلقةٌ أو شيء ممّا يتعلّق به، فتعلّق بيديهِ وضمّ ٥ فخذيه عَلَى الحصان فَمَنَعَهُ الحركةَ. [١٧٢ظ]

فلما قُتل البرنسُ مَلَكَ بَعْدَهُ ابنُه بيمند، وتزوّجتْ أمّه بابرنس آخر، ليدبّر البلدَ إلى أن يكبر ابنها[3]، وأقام معها بأنطاكية، فغزاهم نُور الدّين غزوةً ثانيةً، فاجتمعوا ولقوه فَهَزَمَهم، وقَتَلَ منهم خلقاً ١٠ وأسر كذلك، وأسر البرنس الثّاني زوج أم بيمند، واستقلّ بيمند بأنطاكية.

وفي ذلك يقولُ الشّيخُ أبو عَبدالله القَيْسَرانيّ مِنْ قَصِيدَةٍ أوّلها[4]:

---

(١) نقل ابن العديم ما تقدّم من عبارة عن ابن الأثير ٢٥/٩ حرفياً – انظر مفرج الكروب ١٢١/١

(٢) في ابن الأثير ٢٥/٩: «صاحب أنطاكية وكان عاتياً من عتاة الفرنج وعظيماً من عظائهم» – وفي ابن القلانسي ٣٠٥: «ووجد اللعين البلنس مقدّمهم صريعاً بين حماته وأبطاله، فعرف وقطع رأسه وحمل الى نور الدين، فوصل حامله باحسن صلة. وكان هذا اللعين من أبطال الافرنج المشهورين بالفروسيّة وشدة البأس وقلّة الحيل وعظم الخلقة مع اشتهار الهيبة وكبر السطوة والتناهي في الشر، وذلك يوم الاربعاء الحادي والعشرين من صفر سنة ٤٤».

(٣) في ابن الأثير ٢٥/٩: «ولما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند وهو طفل فتزوجت امه ببرنس آخر ليدبر البلد الى ان يكبر ابنها وأقام معها بأنطاكية» – وهكذا ينقل ابن العديم عن الكامل لابن الأثير– انظر مفرج الكروب ١٢١/١، والروضتين ٥٨/١

(٤) جاءت القصيدة في الروضتين ٥٨/١ وهي تنيف على خمسين بيتاً، وجاء منها في الكامل لابن الأثير ٢٥/٩، وفي مفرج الكروب ١٢١/١

هٰذِي العَزَائِمُ لَا مَا تَـدَّعِي القُضُبُ
[وَذِي المَكَارِمُ لَا مَا قَالَتِ الكُتُبُ](١)
صَافَحْتَ يَا «ابنَ عِمَادِ الدِّينِ» ذروتها
براحـةٍ للمَسَاعي دُونَها تَعَبُ
أغرَتْ سُيوفُكَ بالأفرنج راجفـةً
فُؤادُ رومِيةَ الكُبْرَى لهـا يَجِبُ
ضَرَبْتَ كبشَهُمُ مِنهـا بِقَاصِمَةٍ
أودى بهـا الصُّلْبُ وانحطَّت بها الصُّلُبُ
طَهَّرْتَ أرْضَ الأعـادي مِنْ دِمائِهِم
طَهَارةً كلُّ سَيْفٍ عِندَهـا جُنُبُ

وَقال ابنُ مُنير(٢) في ذلك(٣) :

صَدَمَ الصَّليبَ على صَلَابةِ عُودِهِ فتفَرَّقَتْ أيدي سَبَا خَشَبَاتُه
وَسَقَى البرنْسَ وَقَدْ تبرْنَسَ ذِلَّةً بالرّوحِ ممّا قدْ جنَت غدَرَاتُه(٤)

(١) أثبت الناسخ صدر البيت فحسب ثم ترك بياضاً فأكملناه عن المصادر المذكورة.

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي الملقب مهذّب الدين عين الزمان الشاعر المشهور ، له ديوان شعر ، قدم دمشق فسكنها ، وكان كثير الهجاء خبيث اللسان ، وكان بينه وبين القيسراني مكاتبات وأجوبة ومهاجاة وكانا مقيمين بحلب ومتنافسين في صناعتها ، وكانت وفاته في جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ هـ بحلب ودفن في جبل جوشن بقرب المشهد الذي هناك – انظر وفيات الأعيان ٥٠/١ ، وتاريخ ابن عساكر طبعة بدران بدمشق ١٣٣٠ ؛ ٩٧/٢ .

(٣) وردت القصيدة في الروضتين ٦٠/١ وهي تنيف على ستين بيتاً وجاء منها في مفرج الكروب ١٢٢/١ عدة أبيات؛ ومطلعها في الروضتين : « أقوى الضّلال وأقفرت عرصاتُـه وعلا الهدى وتبلّجت قسماتُه » وتقع هذه الأبيات الثلاثـة التي رواها ابن العديم في منتصف القصيدة الكبيرة .

(٤) في ابن الوردي ٤٩/٢ : « بالروح مما قد جنت غدراته » – وفي الأصل عندنا : « بالروح ممقر ما جنت » – ولعلها كما أثبتنا .

تَمْشِي القَنَاةُ بِرَأسِهِ وَهُوَ الّذي نَظَمَتْ مَدَارَ النَيِّرَيْنِ قَنَاتُه

وَسارَ نُور الدّين محمود إلى أفامية، في سنة خمس وأربعين، فالتجأ الفرنجُ إلى حصنها فقاتله، واجتمع الفرنج وساروا إليه ليرحّلوه عنه، فوجدوه قد مَلَكه وملأه من الرّجال والذّخائر، فَسَار في طلبهم ٥ فعدلوا عَن طريقه، ودخلوا بلادهم [1].

وَجمع نُور الدّين العساكرَ وَسَار إلى بلادِ جُوسلين الفرنجي [2] ليملكها ‖ وكَان جُوسلين من أشْجَع الفرنج وَأسدّهم رأياً [3]، فجمع [١٧٣و] الفرنجَ وأكثر، وسار إلى نُور الدّين والتقيا، فانهزم المُسلمون وقُتل منهم وأسر [4].

١٠ وكَان سِلَاحدار نُور الدّين مِمَّنْ أُسر، فأخذ جوسلين سلاحه [5]، فسيَّره إلى الملك مَسْعُود بن قِلج أرسلان صاحب قونية [6]، وقال: «هٰذا سلاحُ زَوْج ابنتِك» [7]. فعظُم ذلك على نُور الدّين، وهَجر

(١) انظر ابن الأثير ٩/٢٧، ومفرج الكروب ١/١٢٢

(٢) في ابن الأثير ٩/٢٩: «وسار الى بلاد جوسلين الفرنجي وهي شمال حلب منها تلّ باشر وعين تاب واعزاز وغيرها».

(٣) في ابن الأثير ٩/٢٩: «وكان جوسلين — لعنه الله — فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة والرأي» — انظر مفرج الكروب ١/١٢٣

(٤) هذه عبارة ابن الأثير نفسها.

(٥) في ابن الأثير ٩/٢٩: «وكان في جملة من أسر سلاح دار نور الدين فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين» — والسلاح دار تكتب عند المؤرخين متصلة ومنفصلة، وتعني مرتبة صاحب السلاح عند السلطان يختاره بين مقدّمي الامراء، وما تزال بعض الأسر في الشام تحمل هذا الاسم التركي الى اليوم.

(٦) هذه عبارة ابن الأثير — أما مفرج الكروب ١/١٢٣: «مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قطلمش السلجوقي صاحب بلاد الرّوم».

(٧) في مفرج الكروب ١/١٢٣: «هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه» — ومثل هذه العبارة في ابن الأثير.

الرّاحةَ إلى أن يأخذ بثأره[١]، وجعل يفكّر في حيلةٍ يحتـالُ بها على جوسلين، وعلم أنّه إن قصدَهُ احتمى في حُصونِه.

أسر جوسلين

فأحضر أمراء التّركمان، وبذل لهم الرّغائب إنْ ظَفِروا بجوسلين، فجعلوا عليه العيونَ، فخرج إلى الصَّيد فظفر به طائفةٌ من التّركمان، فصانَعَهم على مال يُؤَدّيه إليهم، فأجابوه ٥ إلى إطلاقه إذا أحضر المالَ، وأرسلَ في إحضاره[٢].

فمضى بعضُ التّركمان إلى مجدِ الدّين أبي بكر بنِ الـدّاية، وكان ابنَ دايةِ نُور الدّين، واستنابَهُ في حلب، وسلّم أمورها إليهِ، فأحسَنَ الولايةَ فيها والتَّدبيرَ، فَأعلَمَ ذلك التّركماني ابنَ الداية بصورةِ الحالِ، فَسيّرَ مجدُ الدّين معه عسكرًا، فكبسوا أولئـك التُّركمان، وأخذوا ١٠ جوسلين أسيرًا، وأحضروه إلى ابن الدّاية، في محرم هذه السّنة[٣].

فسار نُور الدّين عند ذلك إلى قلاع جوسلين، ففتح عَزاز بعد الحصار، في ثامن عشر شهر ربيع الأوّل، سنة خمس وأربعين وخمسمائة، وفَتح تلَ باشر، وتلَ خالد؛ وفتَح عَينْ تاب[٤] سنة خمسين[٥]؛ وفتح

(١) عبارة ابن الأثير نفسها.

(٢) عند ابن الأثير: «فأرسل في احضاره» وكذلك في مفرج الكروب، وفيما سوى اختلاف هذه العبارة فالنصّ واحد في هذه التواريخ.

(٣) انظر قريباً من هذه العبارة عند ابن الاثير وابن واصل – ويزيد ابن الأثير: «وكان أسره من اعظم الفتوح لانه كان شيطاناً عاتياً شديدا على المسلمين قاسي القلب، واصيبت النصرانية كافة بأسره»

(٤) في معجم البلدان لياقوت ٣/٧٥٩: «عين تاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية، وكانت تعرف بدلوك، ودلوك رستاقها، وهي الآن من أعمال حلب» – وما يزال الناس يسمونها الى يومنا هذا الاسم ويكتبونها متصلة، وهي تقع في الجمهورية التركية – انظر حاشية ص ١١ من هذا الجزء.

(٥) كذا في الاصل وهو خطأ، ولعل الناسخ اراد ان يكتب خمسمائة وست وأربعين وهي سنة فتحها فسها.

قُورس[١] والرّاونـدان[٢] وبرج الرّصاص[٣]، وحصن البيرة[٤] وكفرسود[٥] ومرعش ونهر الجوز.

وتَجمّع الفرنج وساروا إليه وهو ببـلاد جوسلين ليمنعوه عن عن فتحها، في سنة سبع وأربعين وخمسمائـة، فلمّا قربُوا منه رَجع إليهم، ولَقيهم || عند دلوك، فاقتتلوا فانهزم الفرنج، وقتـل منهم [١٧٣ظ] وأسر كثير، وعاد إلى دلوك ففتحها[٦].

وأمّا تلّ باشر فإنّه تسلّمها منهم بعد فتحه دمشق، لأنهم لمّا علموا أنّه فتح دمشق، وأنّه يقصدهم ولا طاقة لهم به راسلوه، وبذلوا له تسليمها إليه، فَسَيّر إليهم الأميرَ حسّان صاحب منبج لقربها من منبج فتسلّمها منهم، وحصّنها.

فتح دمشق

وكان فتحه دمشق في صفر[٧] سنة تسع وأربعين وخمسمائة، لأنّ الفرنج أخذوا عسقلان من المصريين في سنة ثمان

(١) قورس: انظر فيها زبدة الحلب ٢٦٢/١ بالحاشية.

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٧٤١/٢: «الراوندان: قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة من نواحي حلب».

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٥٤٩/١: «برج الرّصاص: قلعة ولها رساتيق من أعمال حلب قرب أنطاكية».

(٤) في ابن الأثير ٢٩/٩، ومفرج الكروب ١٢٦/١: «حصن البارة» وقد مرّ بنا ذكر موقعها.

(٥) لعلها كما في معجم البلدان لياقوت ٢٨٨/٤: كَفَرْسُوت: بالتاء في آخرها على أنها من اعمال حلب قرب بَهَسْنا – وقد صحّفها كتاب الروضتين ٧٢/١ فجعلها: «كفرسوب» وقد نقل النصّ عن ابن الأثير من نسخة قديمة.

(٦) انظر خبر ذلك عند ابن الأثير ٣٢/٩، ومفرج الكروب ١٢٥/١، والروضتين ٧٦/١

(٧) في ابن القلانسي ٣٢٧: «يوم الاحد العاشر من صفر» وفي هذا المصدر تفصيل الفتح وقد أوجزه ابن العديم.

وأربعين، ولم يكن له طريق إلى إزعاجهم عنها لاعتراض دمشق[1] بينه وبين عسقلان[2].

وطمع الفرنج[3] في دمشق، وجعلوا عليها قطيعةً يأخذونها منهم في كلّ سنة، فخاف نُور الدّين أن يملكها الفرنج، فاحتالَ في أخذها لعلمه أنّ أخذها بالقهر يصعب لأنّه متى نازلها راسلَ صاحبها الفرنج مستنجدًا بهم، وأعانوه خوفًا من نور الدّين أن يملكها فيقوى بها عليهم.

فراسل مجير الدين[4] أبق بن محمد بن بوري صاحبها، واستماله وهاداه، وأظهر له المودّة حتى وثق به، فكان يقول له في بعض الأوقات: «إنّ فلانًا قد كاتبني في تسليم دمشق» — يعني بعض أمراء مجير الدين — فكان يبعد ذلك عنه، ويأخذ أقطاعه، فلمّا لم يبقَ عندهُ أحد من الأمراء قدّم أميرًا يقال له عَطاء بن حفاظ الخَادم، وكان شجاعاً وفوض إليه أمورَ دولته، فكان نُور الدّين لا يتمكّن من أخذ دمشق منه، فقبض عليه مجيرُ الدّين وقتله.

فسارَ نُور الدّين حينئذٍ إلى دمشق، وكان قد كاتَبَ أهلَها

(١) في ابن الأثير ٩/٦٥: «في هذه السنة في صفر ملك نور الدين محمود بن زنكي ابن آقسنقر مدينة دمشق واخذها من صاحبها مجير الدين أنز بن محمد بن بوري بن طغدكين أتابك وكان سبب حرصه على ملكها ان الفرنج لما ملكوا في العام الماضي مدينة عسقلان لم يكن لنور الدين طريق الى ازعاجهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان» — وفي مفرج الكروب ١/١٢٥: «آخر من ملك دمشق من بيت الامير ظهيرالدين أتابك طغتكين الامير مجيرالدين آبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن طغتكين وكان القيم بتدبير أموره معين الدين أنر مملوك جدّه» — انظر مفرج الكروب ١/١٢٦

(٢) عسقلان: مدينة بالشام من اعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويقال لها عروس الشام وكذلك يقال لدمشق أيضاً — انظر معجم البلدان لياقوت ٣/٦٧٤

(٣) هذا النص شبيه في عبارته بما عند ابن الأثير ٩/٦٥ وعنه نقل ابن واصل.

(٤) هذه العبارة منقولة كذلك عن ابن الأثير حتى كلمة: «وقتله».

واستمالهم ، وكان النّاس يميلون إليه ، لما هو عليه من العَـدْل والدّيانة والاحسان ، فوعدوه بالتّسليم إليه .

فلمّا حصرَ دمشقَ أرسل مُجير الدّين[1] إلى الفرنج || [١٧٤ و] يبـذُل لهم الأموالَ وتسليم قلعة بعلبكّ إليهم ، لينجدوه ويرحلوا نورَ الدّين عنه ، ٥ فشرعوا في جَمع فارسهم وراجلهم لذلك .

موت مجير الدين

فتسلّم نورُ الدّين دمشقَ ، وخرج الفرنج وقد قُضي الأمر[2] فعادوا خائبين ، وسلّمها إليـه أهلُها من باب شرقي ، والتجأ مجير[3] الدّين إلى القلعة ، فراسله وبَذَل له عوضاً عنها حمص ، وغيرها ؛ فسلّمها إليه وَسار إلى حمص ، ثمّ إنّه راسلَ أهـلَ ١٠ دمشقَ ، فعلم نُور الدّين ، فخاف منه ، فأخذ منـه حمصَ ، وعوّضه ببالسَ ، فلم يَرْضَ بذلك ، وسار إلى بغداد فمات بها .

وسار نورُ الدّين إلى حارم[4] ، وهي لبيمند صاحب أنطاكيـة ،

---

(١) في ابن الأثير ٦٦/٩ : «فلما حضر نورالدين البلد ارسل مجيرالدين الى الفرنج يبذل لهم الاموال وتسليم قلعة بعلبك إليهم لينجدوه ويرحلوا نور الدين عنه فشرعوا . . . » — وهكذا نبرهن على النقل الحرفيّ عند ابن العديم مع تبديل بسيط في بعض الكلمات .

(٢) في ابن الأثير ٦٦/٩ : « فعادوا بخفي حنين ، واما كيفية تسليم دمشق فانه لما حصرها ثار الاحداث الذين راسلهم فسلّموا اليه البلد من الباب الشرقي وملكه » .

(٣) في الأَصل المخطوط عندنـا : « والتجى معين الدين » وهو سهو من الناسخ وصحيحها ما وضعنا — في ابن القلانسي ٣٢٧ : « وكان مجيرالدين لما أحس بالغلبة والقهر قد انحزم في خواصه الى القلعة» — في ابن الأثير ٦٦/٩ : «وحصر مجير الدين في القلعة وراسله في تسليمها وبذل له أقطاعاً من جملته مدينة حمص فسلّمها إليه وسار إلى حمص وأعطاه عوضاً عنها بالس فلم يرضها وسار منها الى العراق وأقام ببغداد وابتنى بها داراً بالقرب من النظامية وتوفي بها . » — وقد نقل هذا النص مفرج الكروب وأضاف : « وصفت الممالك بالشام لنور الدين » .

(٤) في ابن الأثير ٦٩/٩ : « قلعة حارم وهي للفرنج ثم لبيمند صاحب انطاكية وهي تقارب أنطاكية من شرقيها » — انظر الروضتين ١٠٠/١

وحَصَرَها في سنة إحدى وخمسين ، وضَيّق على أهلها ، فتجمَّع الفرنج وعَزَموا على قصْدِهِ فأرسل والي حارم إلى الفرنج ، وقال : « لا تلتقوه فإنّه إنْ هزَمكم أخَذَ حارمَ وغيرها، ونحنُ في قُوَّةٍ والرأيُ مطاولته»[1] فأرسلوا إلى نُور الدّين ، وصالحوه على أن يُعطوه نصف أعمال حارم ، ورجع نور الدّين إلى حلب .

أثر الزلازل

ووقعتِ الزَّلازل[2] في شهر رجب في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، بالشّام ، فخربت حماة ، وشيزر ، و كفرطاب ، وأفامية ، ومعرّة النعمان ، وحمص ، وحصن الشميمس[3] ، عند سلمية ، وغير ذلك من بلاد الفرنج . وتَهدَّمتْ أسوارُ هـذه البلاد فجمع نُورُ الدّين العساكرَ ، وخاف على البـلاد من الفرنج ، وشرع في عمارتها حتّى أمِنَ علَيْها .

خراب شيزر

وأمّا شيزر ، فانقلبت القلعة[4] على صاحبها وأهلـه ، فهلكوا كلُّهم ، وكان قد ختَن ولدًا له وعمـل وليمةً ، وأحضر أهلَه في داره ، وكان له فرسٌ يُحبّه ولا يكاد يفارقـه ، وإذا

(١) انظر العبارة عند ابن الأثير ، ومفرج الكروب والروضتين ١٠١/١

(٢) انظر تفصيل الخبر عن هذه الزلازل في ابن القلانسي ٣٣٥ ، والروضتين ١٠٦/١

(٣) لم نقع على موقعه وقد انفرد بذكره ابن العديم ، وذكر ابن الأثير ٥٣/٩ «حصن الاكراد» .

(٤) في ابن الأثير ٥٣/٩ : « هذا الحصن قريب من حماة بينهما نصف نهار وهو على جبل عال منيع لا يسلك إليه الا عن طريق واحدة ، وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس إلى ان انتهى الامر الى ابي مرهف نصر بن علي بن نصر بن منقذ بعد أبيه أبي الحسن عليّ وكان بيده الى أن مات سنة احدى وتسعين واربعمائة . . .» – وفي ابن القلانسي ٣٤٦ : «وأما حصنها المشهور فانه انهدم على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر ابن منقذ رحمه الله ومن تبعه الا اليسير ممن كان خارجاً » – انظر مفرج الكروب ١٢٨/١

كان في مجلس أقيم ذلك الفرس على || بابه، فكان ذلك اليوم على [١٧٤ظ]
الباب، فجاءت الزَّلزلةُ فقام النَّاس ليخرجوا من الدَّار فخرج واحدٌ
من الباب فرمحه ذلك الفرس فقتله، فامتنع النَّاسُ من الخروج،
فسقطتِ الدَّارُ عليهم فهلكوا[١].

٥ وبادرَ نُورُ الدِّين، ووصل إلى شيزر، وقد هَلَك تاجُ الدَّولة بْنُ
مُنقِذ وأولادُه، ولم يَسلَمْ مِنهُمْ إلّا الخاتون أُخت شمس الملوك زوجة
تاج الدَّولة، ونُبِشَتْ من تحت الرَّدْم سالمةً، فتسلَّم القلعةَ وعمَّر أسوارَها
ودورَها، وكان نُور الدِّين قد سَأل أُختَ شمس الملوك عن المال
وهدَّدها، فذكرتْ له أنَّ الدار سقطتْ عليها وعليهم، ونُبِشَتْ هيَ
١٠ دُونهم، وَلا تَعلَمُ بشيءٍ، وإنْ كان لهم شيءٌ فهو تحت الرَّدْم.

وكانَ شرفُ الدَّولة اسماعيل غائباً، فلمّا حضر وعايَن قلعةَ شيزر،
ورأى زوجةَ أخيه في ذلك الذُّلِّ بعد العزِّ، عَمِلَ قصيدةً أوَّلها:

لَيسَ الصَّباحُ مِنَ المَساءِ بأَمثَلِ ... فأَقولُ لِلّيلِ الطَّويلِ ألا انْجلي[٢]

قَالَ فيها:

١٥ يا «تاجَ دَوْلَةِ هاشِم» بَلْ يا أبا التِّيجانِ بَلْ يا قَصْدَ كُلِّ مُؤَمِّلِ
لَوْ عايَنَتْ عَيْناكَ «قَلْعَةَ شيزَرٍ» والسِّتْرُ دُونَ نِسائِها لم يُسْبَلِ
لَرَأَيتَ حِصْناً هائِلَ المَرأَى غَدَا مُتَهِلاً مِثْلَ النَّقا المُتَهَيِّلِ
لا يَهتَدي فِيهِ السُّعاةُ لِمَسْلَكٍ فكأَنَّما تَسْري بِقاعٍ مُهْوِلِ

ذَكَرَ فيها زَوجَةَ أخيهِ، فقال:

(١) جاءت هذه الحكاية كذلك في ابن الأثير ٩/٥٤
(٢) يضمّن قول امرئ القيس: «ألا ايها الليل الطويل ألا انجلي»

[١٧٥ و]

نَزَلَتْ عَلى رَغمِ الزَّمانِ ولَوْ حوَتْ يُمناكَ قائِمَ سَيفِها لَمْ تَنزِلِ
فَتَبَدَّلَتْ عَنْ كِبرِها بِتَواضُعٍ وتَعَوَّضَتْ عن عِزِّها بِتَذَلُّلِ

وأقامَتِ الزَّلازِلُ تَتَرَدَّدُ في البلاد سبع سنين، وهلك فيها خلق كثير.

وفي هذه السَّنة أبطلَ الملكُ العادِلُ نُورُ الدّين، وهو بشيزر، مظالمَ ومكوساً بِبلاده كلّها مقدارها مائة وخمسون ألف دينار. ٥

ثمَّ إنَّ نور الدّين تلطَّف الحال مع ضحَّاكٍ البِقاعي[١]، وراسله، وهو ببعلبكّ، وكان قد عصَى فيها بعد فتح دمشق، ولم يرَ أن يحصره بها لِقُرْبه من الفرنج، فسلَّمها إلى نُور الدّين في هذه السَّنة.

وجَرَتْ وقعةٌ بين نور الدّين وبين الفرنج بين طبريّة وبانياس، فكسرهم نُور الدّين كسرةً عظيمةً في جُمادى الأُولى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة. ١٠

مرض نور الدين

ثمَّ عاد نُور الدّين إلى حلب، فمرض بها في سنة أربع وخمسين[٢] مرضاً شديداً بقلعتها، وأشفى على الموت، وكان بحلب أخوه الأصغر نصرة الدّين أمير أميران محمَّد بن زنكي[٣]؛ ١٥ وأُرْجِفَ بِموْتِ نُور الدّين، فجمع أمير أميران النَّاس، واستمالَ الحلبيّين، وملَكَ المدينةَ دُونَ القَلْعَة، وأَذِنَ للشِّيعة أنْ يزيدوا في الأذان:

---

(١) انظر خبر ذلك في مفرج الكروب ١٢٨/١ – وفي ابن الاثير ٥٧/٩: «يقال له ضحاك البقاعي منسوب الى بقاع بعلبك وكان قد ولاه اياها صاحب دمشق».

(٢) جاء تفصيل ذلك في ابن الأثير ٦٧/٩، وفي مفرج الكروب ١٣٠/١ – وفي ابن القلانسي ٣٥٥

(٣) في ابن الأثير: «أميران» – وفي ابن القلانسي ٣٥٥: «أمير ميران».

« حيَّ على خيرِ العملِ محمّدٌ وعليٌّ خيرُ البَشَر » ، على عادتهم مِنْ قَبْـل ، فالوا إليه لذلك[١] .

وثارتْ فتنة بين السنّة والشيعة ، ونَهبَ الشيعـةُ مَدْرَسة ابنِ عَصْرُون وغيرها من أدر السنّة ، وكان أسد الدّين شِيرْكوه[٢] بحمص ،
٥ فبلغه ذلك فسار إلى دمشق ليغلب عليها ، وكان بهـا أخوه نَجْمُ الدّين أيوب || فأنكر عليه ذلك ، وقال : « أهلَكْتَنا والمصلحةُ أن تعود إلى حلبَ ، فانْ كان نَور الدّين حياً خدمتَه في هـذا الوقت ، وإنْ كانَ ماتَ فأنا في دمشق ، وتفعل ما تريد »[٣] . [١٧٥ظ]

فعاد مُجدًّا إلى حلب ، فوجد نُور الدّين وقد ترَجح إلى الصَّلاح ،
١٠ فأجلسه في طَيَّارةٍ[٤] مُشْرِفَةٍ إلى المدينة ، بحيثُ يراه النَّـاسُ كلّهم ، وهو مصفرّ الوجه من المرض ، ونادَوْا إلى الناس : « هذا سُلطانكم » . فقال بعضُهم : « ما هٰذا نُور الدّين ، بل هو فلان » _ يعنون رجلاً كان يشبهه وقد طلى وجهه بصفرة ، ليخدعوا الناس بذلك _ .

ولما تحقّق أمير أميران عافيةَ أخيه خرَج من الدّار الّتي كان بها
١٥ تحتَ القلعة ، وبيده تُرْسٌ يحميه من النّشَّاب ، وكان النَّاس قد تفرّقوا

(١) في ابن القلانسي ٣٤٩ : « واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جملتها اعادة رسمهم في التأذين بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر ، فأجابهم إلى ما رغبوا فيه وأحسن القول لهم والوعد ونزل في داره » .

(٢) هو أبو الحارث شيركوه بن شاذى بن مروان الملقب الملك المنصور أسد الدين عمّ السلطان صلاح الدين ، توفي بالقاهرة سنة ٥٦٤ ﻫ. ولم يخلف ولدًا سوى ناصر الدين محمد بن شيركوه الملقب بالملك القاهر . – وشيركوه : لفظ اعجمي تفسيره بالعربية اسد الجبل ، فشير : اسد ، وكوه : جبل – انظر في ترجمته وفيات الاعيان ٢٢٧/١

(٣) وردت هذه العبارة نفسها في مفرج الكروب ١٣١/١ مع شيء من الاختلاف .

(٤) في مفرج الكروب ١٣١/١ : « وأجلس نور الدين في شباك يراه الناس » .

عنهُ، فسار إلى حرّان، فملكها[1].

فتنة الشيعة

وسيّر نور الدين[2] إلى قاضي حلب، جدّي أبي الفضل هِبَة الله بن أبي جرادة، وكان يلي بها القضاء والخطابة والإمامة، وقالَ لَهُ: «تمضي إلى الجامع، وتصلّي بالنّاس، ويعاد الأذانُ إلى ما كان عليه». ٥

فنزلَ جدّي، وجلس بشمالية الجامع تحتَ المنارة، واستدعى المؤذّنين، وأمرَهم بالأذان المشروع على رأي أبي حنيفة، فخافوا فقال لهم: «هَا أنا أسفَل منكم ولي أسوةٌ بكم».

فصَعد المؤذّنون وشرعوا في الأذان، فاجتمع تحت المنارة مِنْ عوامّ الشّيعة وغوغائهم خلقٌ كثير؛ فقام القاضي إليهم، وقال: ١٠ «يا أصحابَنا، وفقكم الله، مَنْ كان على طهارةٍ فليدخل وليصلِّ، ومَنْ كان مُحدثًا فليجدّد وضوءَهُ ويُصلّي، فانَّ المولى نُور الدين – بحَمْدِ الله – في عافية، وقد تقدّم بما يفعل، فانصرفوا راشدين.» فانصرفوا وقالوا[3]: «ايش نقول || لقاضينا»! ونزل المؤذّنون وصلّى [١٧٦ و] بالنّاس، وسكنت الفتنُ. ١٥

فلما عُوفي نُورُ الدين قَصَدَ حرّان، فهرب نصرة الدين أمير أميران،

---

(١) في ابن الأثير ومفرج الكروب: «فلما رأوه حيًّا تفرقوا عن أخيه أميران فسار إلى حران فملكها».

(٢) نقل ابن الحنبلي هذا النص التالي بحروفه إلى كتابه الزبد والضرب فقابلناه على ما في مخطوطة المدينة بالورقة ١٥ و، فلم نقع على اختلاف الا في كلمة واحدة.

(٣) في الاصل: «وقال ايش نقول» ولعلّ صحيحها كما جاء عند ابن الحنبلي: «وقالوا ايش نقول».

وترك أولادَه بالقلعة بحرّان فتسلّمها، وأخرجهم منها، وسلّمها إلى زين الدّين علي كوچك، نائب أخيه، قطب الدّين[1].

ثمّ سار إلى الرقّة وبها أولادُ أميركُ الجاندار[2]، وقد ماتَ أبوهم، فشفع إليه بعضُ الأمراء في إبقائها عليهم، فَغَضِب، وقال: «هلّا شَفِعتم في أولاد أخي لمّا أخذت مِنهم حرّان، وكانتِ الشّفاعةُ فيهم مِنْ أحبِّ الأشياء إليّ»؛ وأخذها منهم.

عود الفرنج

وخرج مجدُ الدّين بْنُ الدّاية مِن حلب إلى الغَزاة، في شهر رجب من سنة خمس وخمسين[3]، فلقي جوسلين بن جوسلين، فكسره، وأخذه أسيرًا، ودخل به إلى قلعة حلب.

ثمّ إنّ الفرنج أغاروا على بلد عَيْنتاب، فأخذوا التّركمان، ونهبوا أغنامهم، وعادوا يُريدون أنطاكية، فخرج إليهم مجدُ الدّين، ولقيهم بالجُومة، وكسرهم، وقتل منهم خلقاً عظيماً، وأسر البرنسَ الثّانيَ

---

(١) هذه العبارة مشابهة لما عند ابن الأثير ٦٧/٩، واما مفرج الكروب ١٣١/١: «الامير زين الدين علي كوچك بن بكتكين صاحب إربل ونائب أخيه قطب الدين مودود ابن زنكي.

(٢) في ابن الأثير ٦٧/٩: «وبها أولاد أميرك الجاندار وهو من أعيان الأمراء وقد توفي وبقي أولاده فنازلها فشفع جماعة من الامراء فيهم فغضب من ذلك وقال: هلا شفعتم في أولاد أخي لما أخذت منهم حرّان وكانت الشفاعة فيهم من أحب الاشياء اليّ، فلم يشفعهم وأخذها منهم» – وهذا دليل على نقل ابن العديم عن الكامل كما نقل عنه ابن واصل في مفرج الكروب.

(٣) تقف حوادث التاريخ في ابن القلانسي عند هذه السنة ٥٥٥ هـ. ، وبذلك نحرم من مصدر ثمين في تفصيل الاخبار عن دمشق والشام كلّه؛ وقد توفي صاحب هذا التاريخ – وهو حمزة بن أسد بن عليّ بن محمد أبو يعلى التميمي العميد الدمشقي ويعرف بابن القلانسي – في دمشق يوم الجمعة سابع شهر ربيع الاول ودفن بقاسيون سنة ٥٥٥ هـ. وبذلك يكون قد سجّل الحوادث حتى قرب وفاته. – انظر النجوم الزاهرة ٣٣٢/٥

وخلقاً معه ، ودخل بهم إلى حلب في مستهلّ ذي الحجّة من سنة ستّ وخمسين وخمسمائة .

وفي سَنة سبع ، ولّى نورُ الدّين كمالَ الدّين أبا الفَضل محمّد بن الشّهرزوري قضاء ممالكه كلِّها ؛ وأمر القضاةَ ببلادِه أنْ يكتبوا في الكُتب بالنّيابة عنه ، وكان قدْ حلَف له على ذلك وعاهده عليه ، ٥ وكان ذلك بدمشق في السَّنة المذكورة ، فامتنع زكيّ الدّين قاضي دمشق ، فعُزلَ ؛ وكُتب إلى جدّي أبي الفضل بحلب ، فامتنع أيضاً .

ووَصل نُور الدّين ومعه مجد الدّين بن الدّاية ، واستدعاه نُور الدّين إلى القلعة ، وقال : « كُنّا قدْ عاهَدْنا كمالَ [١٧٦ظ] الدّين ، وحلفنا له على هذا الأمر ، وما أنتَ إلّا نائبي ، وله اسم قضاء البلاد لا غير » فامتنَع ١٠ وقال : « لا أنوبُ عن مَكانَيْن » . فولّى قضاء حلب مُحيي الدّين أبا حامد ابن كمال الدّين ، وأبا المفاخر عبد الغفور بن لُقمان الكردي ؛ وذلك بأشارة مَجدِ الدّين لوحشةٍ كانتْ بينهُ وبَيْنَ جدّي .

ثُمّ إنّ نُور الدّين جَمعَ العَساكِرَ بحلب ، في سنة سبع ، وسار إلى حارم ، وقاتلها ، فجمع الفرنجُ جموعَهم ، وساروا إليه . فطلب منهم ١٥ المَصاف فلم يجيبوه ، وتلطّفوا معه حتّى عاد إلى حلب[١] .

هزيمة نور الدين

ثمّ جمع العساكر في سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة ، ودخل إلى بلاد الفرنج ، ونزل في البقيعة تحت حصن

(١) في ابن الأثير ٧٩/٩ : « فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه إليه وراسلوه وتلطفوا الحال معه ، فلما رأى أنه لا يمكنه أخذ الحصن ولا يجيبونه إلى المصاف عاد إلى بلاده» – انظر مفرج الكروب ١٣٦/١

الأكراد محاصراً له ، وعازماً على أن يقصد طرابلس [١] .

فاجتمع الفرنج ، وخَرَج معهم الدّوقس الرّومي ، وكان قد خرج في جمعٍ كثيرٍ من الرُّوم ، واتّفق [٢] رأيهم على كبسة المسلمين نهاراً ، فإنهم يكونون آمنين ، فركبوا لوقتهم ولم يتوقفوا [٣] ، وساروا مجدّين إلى أن قربوا من يزك [٤] المسلمين ، فلم يكن لهم بهم طاقة ، وأرسلوا إلى نور الدّين يعرّفونه الحال فرهقهم الفرنج بالحملة عليهم فلم يثبت المسلمون وعادوا منهزمين إلى نور الدّين والفرنجُ في ظُهورهم ، فوصلوا جميعاً إلى عسكر نور الدّين ، ولم يتمكّن المسلمونَ من رُكوب الخَيل وأخذِ السّلاح [٥] ، حتّى خالطهم الفرنجُ ، فقتلوا ، وأسروا ، قتلاً عظيماً وأسراً كبيراً .

وكان الدّوقس أشدّهم على المُسلمين [٦] ، فلم يُبق أصحابُه على أحدٍ ، وقصدوا خيمةَ نُور الدّين ، وقد ركب فيها فرسه ، فنجا بنفسه ، ولسرعته ركبَ الفرسَ والشُّبحةُ [٧] في رجله ، ‖ فنزل انسانٌ كرديٌّ ، [١٧٧ و]

(١) هذا النص هو عين ما جاء عند ابن الأثير ٨٣/٩

(٢) هذا النص التالي نقله ابن العديم عن الكامل لابن الاثير بحروفه .

(٣) في ابن الأثير : «ولم يتوقفوا حتى يجمعوا عساكرهم وساروا مجدين فلم يشعر بذلك المسلمون الا وقد قربوا منهم ،فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك فأرسلوا الى نور الدين يعرفونه الحال»

(٤) اليَزَك : الحرس في الصفوف الامامية للجيش ، أو ما نسميه اليوم الفرق الكشافة في الطليعة – انظر معجم دوزي ٨٥١/٢

(٥) أخذ ابن العديم النص المتقدم عن ابن الأثير ٨٣/٩ وتمامه بعد ذلك : « واخذ السلاح إلا وقد خالطوهم فأكثروا القتل والأسر » .

(٦) في ابن الأثير : « وكان أشدهم على المسلمين الدوقس الرومي ، فانه كان قد خرج من بلاده الى الساحل في جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين في زعمهم فلم يبقوا على أحد وقصدوا خيمة نور . . . » وهكذا يتفق بعد ذلك مع ما ينقل ابن العديم حرفياً .

(٧) الشُّبحة : سلسلة من الحديد تربط بها رجل الفرس من طرف ويثبت الطرف الثاني بالوتد وذلك لئلا يهرب الفرس ، وهو معروف حتى اليوم – انظر معجم دوزي ٧١٩/١

وفداه بنفسه، فقطع الشبحة، ونجا نورُ الدين، وقُتل الكرديُّ، فأحسنَ إلى مخلفيه، ووَقَف عليهم الوقوف[1].

ووَصل نُور الدين الى بُحَيرة قَدس[2]، وبينه وبين المعركة نحو أربعة فراسخ؛ وتلاحق به مَنْ سَلِمَ من العسكر، فقال له بعضُهم: «المصلحةُ أنْ نَسير، فانَّ الفرنج ربّما طمعوا وجاؤوا إلينا، ونحنُ على هٰذهِ الحال»؛ فوبّخهُ وأسكتَهُ، وقال: «إذا كان معي ألف فارس التقَيْتُهم، وَوَاللهِ لَا أستظِلُّ بسقفٍ حتى آخذَ بثأري وثأرِ الاسلام[3]»

خلق نور الدين

وأرسل إلى حلب ودمشق، وأحضَر الأموالَ والثيابَ والخيامَ والسّلاحَ والخيلَ، فأعطى الناسَ عوضاً عمّا أخذ منهم بقولهم، وأصبح عسكرُه كأنْ لم يُهزَمْ ولم يُنكَبْ، وكلّ مَنْ قُتِل أعطَى أولادَه أقطاعه[4].

ولمّا رأى أصحابُ نُورالدّين كثرةَ خَرجه قال له بعضُ صَحابة السُّوء: «إنَّ لك في بلادِكَ إدراراتٍ وصلاتٍ ووقوفاً كثيرة على الفقهاء، والفقراء، والقرّاء، والصوفيّة وغيرهم؛ فلو استعنتَ بها في هٰذا الوقتِ لكانَ أصلح». فغضبَ من ذٰلك وقال: «واللهِ إنني لا أرجو النَّصر إلّا بدُعاء أُولٰئكَ، فإنّما تُرزَقُون وتُنصَرُون بضُعَفائكم، كيف أقطعُ صلات قومٍ يُقاتلون عنّي وأنا نائمٌ على فراشي بسهامٍ لا تُخطئ، وهؤلاء القوم لهم نَصيبٌ في بيت المال، كيف يحلّ لي أن أعطيه غيرهم[5]!»

(١) هذه عبارة ابن الأثير ٨٣/٩، ومفرج الكروب ١٣٥/١

(٢) في ابن الأثير: «بحيرة قدس بالقرب من حمص».

(٣) هذا النص شبيه بما جاء عند ابن الأثير.

(٤) هذه العبارة نفسها في ابن الأثير ٨٣/٩

(٥) هذا النصّ المتقدم نُقل بحرفيته عن ابن الأثير من غير اختلاف في العبارة؛

وقيل : إنَّ بُرهان الدِّين البَلْخي قال لِنُور الدِّين : « أتُرِيدُونَ أن تنصروا وفي عَسْكركم الخمور والطُّبول والزّمورُ ، كَلَّا || وَالله . » [١٧٧ظ]
فلمَّا سمع نُور الدِّين كلامَه عاهد الله على التَّوْبَة ، ونَزَع عَنْهُ ثيابَه تلك التي كان يلبسُها ، والتزم بلبس الخَشن ؛ وبطل جميع ما كان بَقي
٥ في بلاده من الأعشار والمُكوس والضَّرائب ؛ ومنع من ارتكابِ الفَوَاحِش ، وكتب إلى البلادِ إلى زُهّادها وعُبّادها يذكُرُ لَهم ما نال المُسلمين مِنَ القَتْل والأسر ، ويستمدّ منهم الدُّعاء ، وان يَحُثُّوا المُسلمين على الغَزَاة ؛ وكاتَبَ المُلوكَ الإسلامية يطلُب منهم النجد والاستعدادَ ، وامتنعَ من النَّوم على الوَطِيء وعن جَميع الشَّهَوات .

نُورُالدِّين وَالأيُوبِيُّون

١٠ وراسلـه الفرنجُ في طلب الصُّلح فامتنع (١) ، فبينا هو في الاستعداد للجهاد إذ وَرَدَ عليه في شهر ربيع الأوَّل ، من سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، شاور (٢) وزير العَاضِد (٣) بمصر إلى دمشق ، ملتجئاً

فالكامل مصدر أساسي لابن العديم في هذا الفصل من فصول تاريخه بعد ان انقطع ابن القلانسي والعظيمي عن امداده بالمصادر – انظر مفرج الكروب ١٣٦/١ فقد نقل كذلك عن ابن الأثير حرفياً .

(١) في ابن الأثير ٨٣/٩ : « ثم ان الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح فلم يجبهم وتركوا عند حصن الاكراد من يحميه وعادوا الى بلادهم » .

(٢) هو ابو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شاس بن مغيث . . . ابن موازن السعديّ – انظر في ترجمته وفيات الاعيان ٢٢٠/١ ، والنجوم الزاهرة ٣٣٨/٥

(٣) هو الخليفة ابو محمد عبدالله العاضد بالله ابن الأمير يوسف ابن الخليفة الحافظ بالله . . . الفاطمي العبيدي المغربي الاصل المصريّ ، الحادي عشر من خلفاء بني عبيد بمصر ، توفي في يوم عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ وعمره ثلاث وعشرون سنة ، فكانت أيامه احدى عشرة سنة ، وهو آخر خلفاء مصر – انظر النجوم الزاهرة ٣٣٤/٥ ، وابن خلكان ٢٦٩/١ ، وابن الأثير ١١١/٩

إليه، ومستجيراً به على ضرغام[1]، وكان قد نازعه في الوزارة وغلب عليها.

وطلب منه إرسالَ العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه، ويكون لنُور الدّين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون نائبه مقيماً بعساكره في مصر، ويتصرَّفُ بأمر نُور الدّين واختياره، ٥ فبقي متردّداً بين أن يفعلَ ذلك وبين أن يجعلَ جلّ قصده إلى الفرنج.

شيركوه ثُمَّ قويَ عزمُهُ وسيَّر[2] أسد الدّين شيركوه بن شادي، في عسكر معه، في جُمادى الأُولى من سنة تسع وخمسين، وتقدّم إلى أسد الدّين أن يُعيد شاوَرَ إلى مَنصبه.

١٠ وسار نُور الدّين إلى طرف بلاد الفرنج[3] ممّا يَلي دمشق، بما بقي من العساكر ليمنَعَ الفرنجَ من التّعرُّض لِأسد الدّين وشاور في طريقهما، [١٧٨ و] فاشتغل الفرنج || بحفظ بلادهم من نُور الدّين عن التّعرُّض لهما، ووَصل أسدُ الدّين وشاور إلى بلبيس[4]، فخرج إليهم ناصر الدّين[5] أخو ضِرغام

---

(١) هو ضرغام بن سوّار الملقب بالمنصور كما في مفرج الكروب ١/١٣٧

(٢) في مفرج الكروب ١/١٣٨ : « ثم انه قوى عزمه وصمم على اجابة شاور الى ملتمسه، واستخار الله سبحانه في ذلك، فتقدم الى اسد الدين بالتجهز للمضي مع شاور واستصحب معه العساكر وسار في صحبته شاور » – انظر ابن الأثير ٩/٨٦

(٣) في ابن الأثير ٩/٨٦ : « وسار نور الدين الى طرف بلاد الفرنج مما يلي دمشق بعساكره ليمنع الفرنج من التعرض لاسد الدين ومن معه » .

(٤) في معجم البلدان لياقوت ١/٧١٢ : « بِلبِيس : بكسر الباءين وسكون اللام وياء وسين مهمله – كذا ضبطه نصر الاسكندري، قال والعامة تقول بلبَيْس : مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام » .

(٥) في الاصل المخطوط : « ناصر المسلمين » وهو سهو من الناسخ – في ابن الأثير ٩/٨٥ : « فخرج اليهم ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر المصريين ولقيهم فانهزم وعاد الى القاهرة » – انظر مفرج الكروب ١/١٣٩

بعسكر المصريّين ، ولقيهم فانهزمَ وعاد إلى القاهرة .

وَوَصل أسدُ الدّين إلى القاهرة ، فنزل عليها في آخر جُمادى الآخرة ، فخرج ضرغام[١] فقتل ، وقُتــل أخوه ، وخلع على شاور وأعيد إلى الوزارة .

٥ وأقام أسدُ الدّين بظاهر القاهرة ، فَغَدر شاور[٢] ، وعاد عمّا كان قرّره مع نُور الدّين . وأمر أسد الدّين بالعَوْد إلى الشّام فامتنع ، وطلب ما كان استقرّ فلم يُجبه إليه ، فأرسل أَسَدُ الــدّين نُوّابَه فتسلّموا بلبيس ، وحكم على البلاد الشرقية .

فأرسل شاور إلى الفرنج ، واستنجدَ بهم ، وخوّفهم من نُور الدّين ١٠ إنْ مَلَك مصرَ ، فسارعُوا إلى تَلْبِيَتِهِ ، وطَمِعُوا في مُلْكِ الدِّيار المِصْرِيّة ، وساروا إلى بلبيس ، وسار نُور الدّين إلى طرف بلادهم ليمنعهم عن المسير ، فلم يلتفتوا ، وتركوا في بلادهم مَنْ يحفظها[٣] .

وَسار مَلِكُ القُدْس في الباقين إلى بلبيس ، واستعان بجَمْع كثير كانُوا خرجوا إلى زيارة القُدس[٤] ؛ وأقام أسدُ الــدّين ببلبيس ، ١٥ وحصَره الفرنجُ ، والعسكر المصريّ ثلاثةَ أشهرٍ وهو يغاديهم القتال

(١) في ابن الأثير : « فخرج ضرغام سلخ الشهر فقتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقي يومين ثم حمل ودفن في القرافة . وقتل اخوه فارس المسلمين وخلع على شاور مستهل رجب وأعيد إلى الوزارة وتمكن منها » .

(٢) في ابن الأثير : « فغدر به شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضاً وأرسل اليه يأمره بالعودة الى الشام » .

(٣) شبيه بما عند ابن الأثير .

(٤) في ابن الأثير : « وكان قد وصل الى الساحل جمع كثير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس فاستعان بهم الفرنج الساحلية فأعانوهم » .

ويراوحهم ، فلم يظفروا منـه بطائل ، مع أنَّ سور بلبيس قصيرٌ[(١)] ، وهو مِنْ طِين .

قصد الفرنج

فعندَ ذلك خَرَج نُور الدّين لِقَصْدِ بلاد الفرنج ، ونَزَل إلى حلب وجمع العساكر وأرسَل إلى أخيه قطب الدّين صاحب الموصل ، وإلى فخر الدّين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا[(٢)] ، وإلى ٥ نجم الدّين ألبي صاحب ماردين || وَغَيْرِهم مِنْ أَصحاب الأَطراف [١٧٨ظ] واستنجدَ بهم .

فسارَ قطبُ الدّين ومقدَّمُ عسكره زينُ الـدّين علي كوچك ، وسَيَّر صاحب ماردين عسكره ؛ وأما صاحبُ الحصن[(٣)] فقال لـه خواصّه ونُدماؤه : « على أيّ شيء عَزَمْتَ ؟ » فقال : « على القعود ، ١٠ فإنَّ نورَ الدّين قَدْ تَحَشَّفَ مِنْ كثرة الصَّوم والصَّلاة ، فهو يُلقي نفسه وَمَنْ معه في المهالك » .

فلمّا جاء الغدُ أمر العسكر أن يتجهَّز للغزاة فسألوه عمّا صدَفَهُ عَنْ رأيه[(٤)] ، فقال : « إنَّ نُور الدّين إنْ لم أَنجِـدْهُ خرجتْ بلادي عَنْ

(١) في ابن الأثير : « مع ان سورها قصير جدًّا وليس له خندق ولافصل يحميها » .

(٢) في ابن الأثير ٨٦/٩ مثل مـا عندنا من نص – في مفرج الكروب ١٦٣/١ : « وكاتب أخاه قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل ، وقرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا والديار الجزرية ، ونجم الدين ألب أرسلان بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين ، وأصحاب الاطراف يدعوهم الى مساعدته » .

(٣) في ابن الأثير ٨٦/٩ : « واما فخر الدين صاحب الحصن فبلغني عنه انـه قال له ندماؤه وخواصه : على اي شيء عزمت فقال . . . »

(٤) في ابن الأثير : « فقال له اولئك : ما عدا مما بدا ؟ فارقناك امس عـلى حالة فنراك اليوم على ضدها . فقال ان نورالدين قد سلك معي طريقاً ان لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي وأخرجوا البلاد عن يدي فانـه قد كاتب . . . . » – انظر مفرج الكروب ١٦٦/١

يَدي ، فانه قد كاتَبَ زُهّادَها والمنقطعين عن الـدّنيا يستمدُّ منهم الدّعاء ، ويطلبُ منهم أن يحثّوا المسلمين على الغَزاة ، وقـدْ قَعَد كلُّ وَاحدٍ منهم ومعه أتباعُه وأصحابُه ، وهم يقرؤون كُتُبَ نور الدّين ، ويبـكون ، فأخافُ أن يجتمعوا على لَعنتي والدعـاء عليَّ » . ثم تجهّز وسار بنفسِهِ[1] .

ولمّا اجتمعتِ العَساكِرُ خَرَجَ نُور الدّين إلى حارم[2] ، وحصَرها ، ونصب المجانيقَ عليها ، وزحف إليها ، فخرج البرنس بيمند ، والقمص صاحب طرابلس ، وابن جوسلين والدوك مقدّم كبير من الرّوم[3] ، وابن لاون مَلِكُ الأرمن ، وجَمَعوا جميعَ مَنْ بَقي من الفرنج بالسّاحل ، وقَصَدوا نورَ الدّين .

فرحل إلى أرتاح ليتمكّن منهم إنْ طلبُوه < ويبتعدوا >[4] عَن البلاد إنْ لقوه ؛ وسيَّر اثقالَـهُ إلى تيزين ، فساروا فنزلوا على الصفيف[5] ، ثمّ عادوا إلى حَارم ، فتبعهم نُور الدّين على تعبئةِ الحرب ، فلمّا تَقاربوا اصطَفّوا للقتال فحملَ الفرنجُ على ميمنة المسلمين ، وفيها

---

(١) هذه العبارة قريبة جدًا مما عند ابن الأثير .

(٢) في ابن الاثير : « وأما نجم الدين فانه سير عسكرًا ، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فحصرها ونصب عليها المجانيق وتابع الزحف اليها » .

(٣) في ابن الأثير : « وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج والدوك وهو مقدم كبير من الروم » .

(٤) في الأصل : طمس وبلل : « و . . . . وا » وقد اقتبسنا من نص ابن الأثير الذي ينقل عنه ابن العديم ففيه « رحل عن حارم الى ارتاح طمعاً ان يتبعوه فيتمكن منهم يبعدهم عن بلادهم إذا لقوه » – انظر مفرج الكروب ١/١٤٦

(٥) في ابن الأثير : « فساروا فنزلوا على غمر ثم علموا عجزهم عن لقائه فعادوا إلى حارم ، فلما عادوا تبعهم نورالدين » – في مفرج الكروب : « فنزلوا على عم » .

عسكر حلب وصاحب الحصن ، فانهزم المسلمون[١] حتى وصلوا إلى جدارهم ، ونورُ الدين واقفٌ بإزائهم || على تلّ هُناك يتضرّعُ إلى الله ، [١٧٩ و] وهو مكشوفُ الرأس .

وبَقيَ راجلُ الفرنج فوق عِمّ ، مما يلي حارم بالصّفيف ، فَعطَفَ عَلَيهم زينُ الدين علي كوجك ، في عسكر المَوْصل ؛ وكان نورُ الدين قد جعله كميناً في طرف العَمْق ، وآجام القصب ؛ فقَتَلَهم عن آخرهم . ٥

ورجعتِ الخيّالة من الفرنج خوفاً على الرّاجل أن يتبعوا المسلمين ، فيقع المسلمون عليهم ، فوجدوا الأمرَ على ما قدّرُوه ، فرأوا الرّجالة منهم قتلى وأسرى ، واتّبعهم نور الدين مع من انهزم من المسلمين ، فأحاطوا بهم من جميع الجهات ، فاشتدّ الحرب ، وكثر القتلُ في الفرنج ، فوقعت عليهم الغلبة[٢] . ١٠

وعَدَل المسلمون إلى الأسر[٣] ، فأسروا صاحبَ أنطاكية ، وصاحبَ طرابلس ، والدوكَ مقدّم الروم ، وابنَ جوسلين ، ولم يسلم إلّا مليح بن لَاون ؛ قيل إنّ الياروقيّة أفرجوا له حتى هرب ، لأنّه كان خالَهُمْ . وكانَ عدّة القتلى تَزيدُ على عَشرَة آلاف[٤] . ١٥

(١) في ابن الأثير : « فانهزم المسلمون وتبعهم الفرنج فقيل كانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأي دبروه وهو ان يتبعهم الفرنج فيبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين بالسيوف » .

(٢) ارجع الى ابن الأثير ٨٦/٩ ومفرج الكروب ١٦٦/١

(٣) في ابن الأثير : « فعدل حينئذ المسلمون عن القتل الى الأسر فأسروا ما لا يحد ، وفي جملة الاسرى صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وكان شيطان الفرنج وأشدهم شكيمة على المسلمين والدوك مقدم الروم وابن جوسلين » .

(٤) في الروضتين ١٣٣/١ نقلاً عن العماد الكاتب : « وقتل في معركة واحدة منهم عشرين ألفاً » .

وسار إلى حارم فملكها في شهر رمضان من السَّنة[١]، وبثَّ سراياه في أعمال أنطاكية، فنهبوها وأسروا أهلها، وباع البرنس[٢] بمالٍ عظيم وأسرى من المسلمين.

ثمَّ ساروا في هذه السَّنة إلى دمشق، بعد أن أذِنَ لعسكر الموصل
٥ وديار بكر بالعَوْد إلى بلادهم، ثمَّ خرج إلى بانياس، فحصرَها وقاتلها. وكانَ معَهُ أخوه نصرة الدِّين أمير أميران – وكان قد رضي عنه وسامحه – وهو على حارم، بعد أن دخلَ إلى الفرنج، فأصابه سهم[٣] أذهَبَ إحدَى عَيْنَيْهِ، فقال له: «لو كُشِفَ لَكَ عن الأجر الَّذي أُعِدَّ لَكَ لتمنَّيْتَ ذَهابَ الأُخرى». وجدَّ في حصارها وفتحها، وملأ القلعة
١٠ بالذَّخائر والرِّجال[٤]، || وشاطر الفرنج في أعمالِ طَبرية، وقرَّروا له[٥] [١٧٩ظ] على ما سوى ذلك مالًا في كلّ سنة.

ووصل خَبَرُ فتح حارم وبانياس إلى الفرنج النَّازلين على بلبيس، فأرادوا العَوْد إلى بلادهم، فراسلوا أسدَ الدِّين في الصُّلح رجاء أن يَلحَقوا بانياس، فاتَّفق الحالُ معهم على أن يَعُود إلى الشَّام، ويسلِّم ما

(١) في مفرج الكروب ١٤٥/١: «وسار نور الدين الى حارم فتسلمها لتسع بقين من رمضان من هذه السنة أعني سنة تسع وخمسين وخمسمائة».

(٢) في ابن الأثير ٨٧/٩: «ثم انه فادى برنس بيمند صاحب أنطاكية واشترى من المسلمين خلقاً كثيراً فأطلقهم» – انظر مفرج الكروب ١٤٥/١

(٣) في ابن الأثير ٨٧/٩: «وكان من جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كشف لك عن الاجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الاخرى وجد في حصارها» – انظر مفرج الكروب ١٤٦/١

(٤) في ابن الأثير ٨٧/٩: «فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالاً» – انظر مفرج الكروب ١٤٦/١

(٥) في ابن الأثير: «وقرروا له على الاعمال التي لم يشاطرهم عليها مالاً في كل سنة»

بيده من أعمال مصر إلى أهلها، ولم يَكُنْ عنده علمٌ بما جرى لِنُور الدّين بالشَّام ، وكانَت الذَّخائر قد قلَّتْ عِنْدَه ببلبيس[1].

وخَرَج من الدِّيار المصرية إلى الشَّام ، وجاء الفرنج ليدركوا بانياس ، فوجدوا الأَمرَ قدْ فاتَ ، وكَشَفَ أسدُ الدّين الديارَ المصرية، واستصغر أمرَ مَنْ بها . ٥

ودخلتْ سَنة إحدى وستّين وخمسمائة ، فَسَار نُور الدّين إلى المُنَيطِرَة[2] جريدةً في قلّة من العسكر ، على غَفْلَة من الفرنج ، وَحصر حصنها ، وأخذه عنوةً ، وقَتَل مَنْ به ، وسَبى وغنم غنيمةً كثيرةً ، وأيس الفرنجُ من استرجاعه بعد أن تجمَّعوا له وتفرّقوا[3] .

وتحدَّث أسدُ الدّين مع نُور الدّين ، في عوده إلى الدّيار المصريّة، ١٠ فلمَّا رأى جِدَّه سيَّره إليها في ألفي فارس، منْ خِيار العسكر ، في سنة اثنتين وستّين وخمسمائة .

فسار على البرّ ، وترَكَ بلادَ الفرنج على يمينه، فوصل الديار المصريّة، وعَبر النّيلَ إلى الجانبِ الغَرْبيّ عند أطفيح[4] ، وحكم على البلاد

---

(١) انظر الخبر عند ابن الأثير ٩/٨٧

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٦٧٣/٤ : « المُنَيطِرة : تصغير الطاء مهملة – حصن بالشام قريب من طرابلس » .

(٣) في ابن الأثير : « فأخذه عنوة وقهرًا ، وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة . . . فلما ملكه تفرقوا وأيسوا من ردّه » – في مفرج الكروب ١٤٨/١ : « وذكر القاضي بهاء الدين بن شداد : ان الواقعة كانت سنة اثنتين وستين وخمسمائة » .

(٤) في الاصل : « ايفح » – وهي مصحّفة ؛ وصحيحها اطفيح : وهي من البلاد المصرية القديمة الواقعة على الشاطئ الشرقي للنيل، وكانت في عهد الفراعنة قاعدة قسم ماتونو ، وفي عهد الرومان قاعدة قسم أفروديتون ، وفي عهد العرب قاعدة كورة الاطفيحية، وكان يقال لها الشرقية لوقوع بلادها شرقي النيل ، وفي سنة ١٨٩٨ أصبح المركز الصف واصبحت

الغربية ، ونزل بالجيزة[1] مقابل مصر[2] ، فأقام نيفاً وخمسين يوماً .

فأرسل شاور واستنجد بالفرنج ، فسار أسدُ الدين إلى الصَّعيد ، وبَلَغ إلى مَوْضع يعرف بالبَابَيْن[3] ؛ وسارت العساكرُ المصريّة والفرنجيّة ‖ خلفه ؛ فوصلوا إليه وهو على تعبئة[4] [١٨٠ و]

صلاح الدين

٥ وقد جعل أثقاله في القلب ليتكثّر بها ؛ وجعل ابنَ أخيه صلاح الدين[5] في القلب ، وأوْصاهم متَى حملوا عليه أن يندفع بين أيديهم قليلاً ، فإذا عادُوا فارجعُوا في أعقابهم .

واختار من يثق بشجاعته ، ووقف بهم في الميمنة ، فحمل الفرنجُ على القلب ، فاندفع بين أيديهم غير مفرقين ، فحمل أسدُ الدّين بمن

١٠ معه على مَنْ بَقي منهم ، فهزمهم ووضع السَّيف فيهم ، وأكثر القتلَ والأسرَ ، وعاد الّذين حَملوا على القلب فوجدوا أصحابهم قد مَضوا قتلاً وأسراً فانهزموا[6] .

اطفيح احدى بلاد مركز الصف بمديرية الجيزة ، ومـا تزال كذلك الى اليوم — انظر النجوم الزاهرة ٣١٧/٥ والحاشية ، ومفرج الكروب ١٤٩/١ والحاشية ، وابن الاثير ٩٥/٩

(١) الجيزة : معناها الجانب والناحية ، وجمعها جيز ، أنشأها العرب سنة ٢١ هـ على الشاطئ الغربي للنيل وسموها الجيزة لانها في المكان الذي اجتازوا فيه النيل بين الفسطاط وبين جانب الوادي الغربي الممتد من الجيزة الى الجبل . وكانت مدينة الجيزة في عهد العرب قاعدة لكورة الجيزة ، وفي عهد المماليك قاعدة للاعمال الجيزية . وقد سميت مديرية الجيزة سنة ١٨٣٣ ، وما تزال هذه المدينة قاعدة لها الى اليوم — انظر النجوم الزاهرة ٣٦٨/٥ والحاشية .

(٢) في النجوم الزاهرة : « حتى نزل بر الجيزة غربي مصر على بحر النيل » .

(٣) قرية كانت تقع في الجنوب من مدينة المنيا .

(٤) في ابن الأثير ٩٥/٩ : « فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبية ، وجعل الاثقال في القلب » .

(٥) في النجوم الزاهرة ٣٦٨/٥ : « ورتب اسد الدين عساكره فجعل صلاح الدين في الميمنة ، وفي الميسرة الاكراد ، واسد الدين في القلب » .

(٦) هذه العبارة السابقة قريبة من عند ابن الأثير ومفرج الكروب — وفي النجوم

وسار أسدُ الدّين إلى الاسكندريّة ، ففتحها باتّفاق من أهلها ، واستناب بها صلاحَ الدين ، وعاد إلى الصّعيد ، وجبى أمواله[1].

وتجمّع الفرنج والمصريّون، وحصَروا صلاحَ الدّين بالاسكندريّة[2]، فصبروا على الحصار إلى أن عاد أسدُ الدّين ، فوقعَ الصُّلح على أن يَدْفعوا لأسد الدّين خمسين ألف دينار ، سوى ما أخذ من البلاد، وأن الفرنج لا يُقيمون في البلاد ، فاصطلحوا على ذلك ، وعاد إلى الشّام؛ وتسلّم المصريّون الاسكندريّة[3].

وأمّا نُور الدّين فإنّه جمَع العساكرَ في هذه السّنة ، ودخل مِن حِمص إلى بلاد الفرنج ، فنازَل عَرقَة، ونهب بلدها[4]، وخرّب بلادَهم ، وفتَح صافيتا والعَريمة ، وعاد إلى حمص ، وخرج إلى بانياس ، وخرج إلى هونين[5] ، فانهزم الفرنج عنه وأحرقوه، فوصل إليه نُور الدين من الغَد ، فخرب سوره وعاد .

وكان حسّان صاحب منبج قد مات ، وأقطع نُور الدّين منبج

الزاهرة : « فقتلا منهم الوفاً وأسرا مائة وسبعين فارساً » .

(١) هذه العبارة السابقة قريبة مما عند ابن الاثير ٩/٩٥ — واما في النجوم الزاهرة ٥/٣٦٩ : « فلو ساق اسد الدين خلفهم في الحال ملك القاهرة وانما عدل الى الاسكندرية فتلقاه أهلها طائعين فدخلها وولي عليها صلاح الدين » .

(٢) في النجوم الزاهرة : « فحصروا الاسكندرية أربعة اشهر » .

(٣) انظر النص عند ابن الاثير ٩/٩٦ ففيه تفصيل الخبر .

(٤) في ابن الأثير : « فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الفرنج فاجتازوا على حصن الاكراد فأغاروا ونهبوا وقصدوا عرقة فنازلوها وحصروها وحصروا حلبة وأخذوها وضربوها » — انظر مفرج الكروب ١/١٥٣

(٥) في ابن الأثير ٩/٩٦ : « وقصدوا حصن هونين وهو للفرنج ايضاً من امنع حصونهم ومعاقلهم ، فانهزم الفرنج عنه وأحرقوه فوصل نور الدين من الغد فهدم سوره جميعه وأراد الدخول الى بيروت » .

[١٨٠ظ] ولده غازي بن حسّان[1] ، فعصى عليه في هذه || السّنة ، فَسَيَّر إليـه عسكرًا ، وأخذوها منه فأقطعها أخاه قطب الدّين ينال بن حسّان ، وهو الّذي ابتنى المدرسةَ الحنفيَّة بمنبج .

وفي سنة ثلاثٍ وستّين وخمسمائة ، نَزَل شهابُ الدّين مالك ابن عليّ بن مالك[2] صاحب قلعة جعبر ليتصيّد ، فأخذه بنو كلاب أسيرًا وحملوه إلى نُورالدّين في رجب ، فاعتقله وأحسنَ إليه ، وَرَغَّبه في الأقطاع فلم يُجبْهُ ، فَعَدل إلى الشدّة والعُنف .

قلعة جعبر

٥

ثمّ سَيّر إليها عسكرًا فلم يقدر على فتحها ، فعـدل إلى اللّين مع صاحبها ، إلى أن اتّفق الحالُ على أن عَوّضَهُ عنها بسروج وبزاعـا والمَلّوحة[3] ، وسلّم إليه القلعَة في سنة أربع وستّين ، وقيل لمالـك : « أيّما أحبُّ إليكَ سروج أو القلعة ؟ » فقال : « هذه أكثر مالاً ، وأمّا العزُّ ففارقناهُ بالقلعة » .

١٠

وفي هذه السَّنة أطلقَ نور الدّين في بلادهِ بعضَ ما كان قد بقي من المظالمِ والمؤن .

---

(١) في ابن الأثير ٩٧/٩ : « في هذه السنة عصى غازي بن حسان المنبجيّ على نورالدين محمود بن زنكي صاحب الشام وكان نورالدين قد أقطعه مدينة منبج فامتنع عليه فيها » – انظر مفرج الكروب ١٥٣/١

(٢) في مفرج الكروب ١٥٥/١ : « إن شهاب الدين مالك العقيلي نزل يتصيد فاخذه بنو كلب اسيرًا » – وباقي العبارة قريب من عند ابن العديم وابن الاثير .

(٣) في مفرج الكروب ١٥٥/١ : « وتسلم سروج واعمالها والملاحة التي في بلد حلب وباب وبزاعة » – ولعل هذا تصحيف من ابن واصل ؛ وصحيحها المَلّوحة كما أثبتها ابن العديم وقد جاءت في معجم البلدان لياقوت ٦٣٨/٤ : « المَلّوحة : بالفتح ثم تشديد اللام وضمها وحاء مهملة – قرية كبيرة من قرى حلب » – واما ابن الأثير فيقول ٩٩/٩ : « والملاحة التي بين بلد حلب وباب بزاعة » .

ثمّ إنّ الفرنج طمعوا في الدّيار المصريّة فصعدوا إليها في سنة أربع وستّين وخمسائة ، وأخذوا بلبيس [١] وساروا إلى القاهرة فقاتلوها [٢] ؛ وَسَيّر العاضِدُ يستغيثُ إلى نُور الدّين ، وسيّر شُعُورَ نِسائه في الكتب [٣] ، فوصله الرّسول وهو بحلب ، وبذل له ثُلث بلاد مصر ، وأن يكون أسدُ الدّين مقيماً عندهم . ٥

وكتبوا إلى أسدالدّين بمثل ذلك ، فوصل إلى نور الدين إلى حلب من حمص [٤] وقد عزم على الايفاد إليه ، فأمره بالتجهّز إلى مصر ، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثّياب والسّلاح والدّواب ، وحكمه في العسكر والخزائن || فاختار ألفَيْ فارسٍ ، وأخذ المال وجمع ستّةَ آلاف فارس ، وسار هو ونور الدّين إلى دمشق [٥] فوصلها سلخ صفر ، ورحل إلى رأس الماء . ١٠

أسد الدين

[١٨١ و]

وأضاف إلى أسد الدّين جماعةً أخرى من الأمراء منهم [٦] : عزّ الدّين جورديك ، وغرس الدّين قلج ، وشرف الدّين برغش ،

(١) في ابن الأثير ٩/٩٩ : « ونازلوا مدينة بلبيس وملكوها قهرًا مستهل صفر ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا » .

(٢) انظر تفصيل ما فعلوا بالقاهرة في ابن الاثير ٩/٩٩ والروضتين ١/١٦٣

(٣) في ابن الأثير ٩/٩٩ : « ارسل الخليفة العاضد الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج ، وارسل في الكتب شعور النساء وقال : هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج » .

(٤) في ابن الأثير ٩/١٠٠ : « أرسل الى اسد الدين يستدعيه إليه فخرج القاصد في طلبه فلقيه على باب حلب وقد قدمها من حمص وكانت اقطاعه » .

(٥) العبارة قريبة من ابن الأثير ٩/١٠٠ : « وسار هو ونور الدين الى باب دمشق فوصلها سلخ صفر ورحل الى رأس الماء » .

(٦) في ابن الأثير : « منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال بن حسّان المنبجي وصلاح الدين يوسف بن أيوب أخي شيركوه » .

وعَيْن الدَّولة بن يارُوق، وقطب الدّين ينال بن حسّان، وصلاح الدّين ابن أخيه.

وسارَ أسدُ الدّين، فلما قاربَ مصر رحل عنها الفرنج إلى بلادهم، ووصل أسدُ الدّين إلى القاهرة سابع جمادى الآخرة، ودخل إليها

٥ واجتمع بالعاضد، وخلع عليه وعاد إلى خيامه، وفي نفس شاور منه ما فيها، ولا يتجاسر على إظهاره[١].

مقتل شاور

وكان شاور يخرج في الأحيان إلى أسد الدّين يجتمع به، فخرج في بعض الأيّام على عادَتِهِ فلمْ يجده في الخيام، وكان قد مَضَى لزيارة قَبْرِ الشّافعيّ – رضيَ اللهُ عنه – فلقيَه صلاحُ الدّين،

١٠ وجورديك، في جَمْعٍ من العسكر وخدموه، وأعلمُوه أنّ أسد الدّين قد مضى للزّيارة فقال: «نَمْضِي إليه» فساروا جميعاً، فساوره صلاحُ الدين وجورديك[٢]، وألقياه إلى الأرض، فهرب عنه أصحابُه وأُخِذَ أسيراً.

وأرسلوا إلى أسد الدّين فحضر في الحال، وجاءه التَّوقيع في الحال

١٥ بالوزارة على يد خادمٍ خاصٍ، ويقول: «لا بُدَّ من رأسه» جرياً على عادتهم في وزرائهم أنّ الذي يقوى على الآخر يقتله. فقُتِل وأُنفذ رأسُهُ إلى العاضِد[٣].

---

(١) انظر عبارة ابن الأثير ٩/١٠٠: «فلم يتجاسر على اظهار ما في نفسه».

(٢) في ابن الأثير ٩/١٠١: «فسايره صلاح الدين وجرديك وألقوه إلى الأرض عن فرسه فهرب أصحابه عنه فأخذ أسيراً فلم يمكنه قتله بغير أمر أسد الدين فتوكلوا بحفظه».

(٣) ارجع إلى النص عند ابن الأثير ٩/١٠١: «وأرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخر».

موت أسد الدين

وأنفذ إلى أسد الدّين خلعة الوزارة، فسار ودخل القصرَ، وتَرَتَّب وزيرًا في سابع عشر شهر ربيع الآخر، ودام آمرًا ناهياً[1] ‖ إلى أن عرض له خوانيق، فمات في الثّاني والعشرين من جُمادى الآخرة[2]. [١٨١ظ]

صلاح الدين والخليفة

٥ وفوّض الأمر بعده إلى ابن أخيه، وكان جماعة من الأمراء[3] الّذين كانوا مع أسد الدّين قد تَطاولوا إلى الوزارة، منهم: عَيْنُ الدّولة بن ياروق، وسيف الدّين المشطوب[4]، وشهابُ الدّين محمود الحَارميّ — خال السُّلطان صلاح الدّين — وقطبُ الدّين يَنال بن حسّان[5].

١٠ فأرسلَ العَاضِدُ إلى صَلاح الدّين، وأحضره عنده، وولّاه الوزارة بعد عمّه، وخلع عليه، ولقّبه بالملك النّاصر، فاستَتَبَّتْ أحوالُه، وبَذل المال، وتاب عَنْ شُرب الخمر، وأخذ في الجدّ والتّشمير في أموره

---

(١) في ابن الأثير: «فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور أمير الجيوش وسار بالخلع إلى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور».

(٢) في ابن الاثير ١٠١/٩: «فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام».

(٣) في ابن الأثير ١٠٢/٩: «فان جماعة من الامراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده منهم عين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين وكل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع أصحابه ليغالب عليها» — انظر مفرج الكروب ١٦٨/١

(٤) في مفرج الكروب: «سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وكان جده صاحب قلاع الهكارية» — انظر تاريخ الدولة الأتابكية ٢٥٥

(٥) في مفرج الكروب: «قطب الدين خسرو بن التليل وهو ابن أخي ابن أبي الهيجاء الهذباني صاحب اربل» — انظر كذلك الدولة الاتابكية ٢٥٥

كلها ، وكان الفقيهُ عيسى الهكّاري[١] معه ، فيُل الأمراء الّذين كانوا قد طمعوا بالوزارة إلى الانقياد إليه ، فأجابوا سِوى عين الدّولة ابن يَارُوق ، فإنّه امتنَع ، وعاد إلى نُور الدّين إلى الشّام .

فاستمرَّ الملكُ الناصر بالـدّيار المصريّة وزيرًا ، وهو نائبٌ عن ٥ نُورالدّين ، وكان إذا كتب إليه كتاباً يكتب: « الأمير الاسفهسلار ، وكافّة الأُمراء بالدّيار المصريّة يَفعَلون كذا » . وتكتب العلامة على رأس الكتاب ، ولا يذكر اسمه[٢] .

وسَيَّر الملكُ النّاصرَ ، وطلب أباه نجم الدّين وأهله ، فَسَيَّرهم نُورُ الدّين إليه مع عسكر ، واجتمع معهم من التُّجّار خلقٌ عظيمٌ ، وذلك ١٠ في سنة خمسٍ وستّين .

وخاف نُور الـدّين عليهم من الفرنج ، فسار في عساكره إلى الكرك[٣] فحصره ونصب عليـه المجانيق ، فتجمّع الفرنج ، وساروا إليه وتقدّمهم ابن الهنفَري ، وابن الدقيق[٤] ، فرحل نُورالدّين نحوهما قبل

(١) في ابن الأثير ١٠٢/٩ : « وكان الفقيه عيسى الهكاري معه فسعى مع المشطوب حتى أماله إليه وقال له إن هذا الأمر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما » .

(٢) في ابن الاثير : « وثبت قدم صلاح الدين ومع هذا فهو نائب عن نور الدين وكان نور الدين يكاتبه بالأمير الاسفهسلار ويكتب علامتـه على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الأمير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا . . » – وهكذا نجد اتفاق العبارة بين ابن العديم وابن الأثير – انظر حاشية مفرج الكروب ١٧٣/١ حيث يشرح الناشر أمر العلامة والطغراء بوضوح وفائدة عن المقريزي بالخطط ٣٦٧/٣

(٣) في معجم البلدان ٢٦٢/٤ : « الكَرَك : اسم لقلعة حصينة جدًا في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم والبيت المقدس وهي على سن جبل عال تحيط بها أودية إلّا من جهة الربض » – وفي ابن الأثير ١٠٦/٩ : « الكرك وهو من امنع المعاقل على طرف البر » .

(٤) في ابن الأثير : « ابن هنفرى وقريب بن الرقيق ؛ وهما فارسا الفرنج في وقتهما »

[١٨٢ و] أن تلحقهما بقيّة عساكر ‖ الفرنج فرجعا خوفاً منه واجتمعا ببقيّة الفرنج .

وسلك نُور الدّين(١) وسط بلادهم ، فنهب وأحرق ما في طريقه إلى أن وصل إلى بلاد الاسلام ، فنزل على عَشترا(٢) على عزم الغزاة ، فأتاه خبرُ الزّلازل الحادثة بالشّام ، فإنّها خربَت حلب خراباً شنيعاً ، وخرج أهلها إلى ظاهرها . ٥

الزلازل

وتواترتِ الزّلازل بها أيّاماً متعدّدة ، وكانت في ثاني عشر شوّال من السّنة يوم الاثنين طلوع الشمس ، وَهلك من النّاس ما يزيدُ على خمسة آلاف نفر ذكر وأنثى ، وكان قد احترق جامعُ حلب وما يجاورُه من الأسواق قبل ذلك في سنة أربع وستّين وخمسمائة ، فاهتمّ نورُ الدّين في عمارته وإعادته والأسواق التي تليه إلى ما كانت عليه . وقيل : إنّ الاسماعيليّة أحرقوه . ١٠

وبلغه أيضاً وفاةُ مجد الدّين ابن دايته ، أخيه من الرضاعة بحلب ، في شهر رمضان سنة خمس وستّين وخمسمائة ، فتوجّه نور الدّين إلى حلب ، فوجد أسوارها وأسواقها(٣) قد تهدّمت . ١٥

– وفي الدولة الأتابكية ٢٦١ : « ابن الحنفري وقريب بن الدقيق » ويترجمها المستشرق وهو يحاول رد الاسماء إلى أصلها :

«Fils de Honfroi de Toron, et Karîb, fils d'Ed-dakik (Serait - ce le nom de Guermond de Péquigny) »

(١) العبارة التالية قريبة مما عند ابن الأثير ١٠٦/٩

(٢) في معجم البلدان ٦٧٩/٣ : « عَشْتَرا : بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح التاء المثناة من فوق ثم الراء والقصر – موضع بحوران من أعمال دمشق » .

(٣) في ابن الأثير ١٠٦/٩ : « ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد فاحها كانت قد أتت عليها » – انظر مفرج الكروب ١٨٥/١

ونزل على ظاهر حلب حتّى أحكم عمارة جميع أسوارها، وبنى الفَصيل الدائر على البلد، وهو سورٌ ثانٍ.

ورمّم نوّابُه ما خرب من الحُصُون والقلاع مثل بعلبك، وحمص وحماة، وبارين، وغيرها.

٥ وخرجَ نورُ الدّين إلى تلّ باشر، فوصله الخبرُ بوفاة أخيه قطب الدّين بالموصل في ذي الحجّة[١]، وكان أوصى بالمُلك لابنه الأكبر عماد الدّين زنكي، وكان طوع عمّه نور الدّين لكثرة مقامه عنده، ولأنّه زوجُ ابنته.

وفاة قطب الدين

ثمّ إنّ فخرالدّين عبد المسيح[٢] وخاتون || ابنة تمرتاش بن إيلغازي [١٨٢ظ]

١٠ زوجة قطب الدّين، وهي والدة سيف الدّين غازي بن قطب الدّين اتفقا على صَرف قطب الدّين عن وصيّته لابنه عماد الدّين إلى سيف الدّين غازي.

فَرَحل عمادُ الدّين[٣] إلى عمّه نور الدّين مستنصراً به ليعينه على أخذ المُلك له؛ فسار نُور الدّين في سنة ستّ وستّين وخمسمائة، وعبر

١٥ الفُرات عِند قلعة جَعْبر في مستهلّ المحرّم، وقصد الرّقّة فحصرها

---

(١) في ابن الأثير : « في هذه السنة في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكي بن أقسنقر صاحب الموصل بالموصل، وكان مرضه حمّى حادة، ولما اشتد مرضه وصى بالملك بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكي وعدل عنه إلى ابنه الآخر سيف الدين غازي » – انظر سيرة قطب الدين في مفرج الكروب ١٨٩/١

(٢) في ابن الأثير ١٠٧/٩ : « فاتفق فخر الدين وخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي وهي والدة سيف الدين على صرف الملك عن عماد الدين إلى سيف الدين ».

(٣) في ابن الأثير ١٠٧/٩ : « فدخل عماد الدين إلى عمّه نور الدين مستنصراً به ليعينه على أخذ الملك لنفسه ».

وأخذها ؛ ثم سار في[1] الخابور ، فملكه جميعه ، وملك نصيبين، وأقام بها يجمع العساكرَ،وكانت أكثر عساكره في الشّام في مقابلة الفرنج.

فلمّا اجتمعت العساكرُ سار إلى سنجار فحصرها ، ونصب عليها المجانيق ، وفتحها فسلّمها إلى عماد الدّين زنكي ابن أخيه ؛ وجاءته كتُب الأمراء بالَموصل يبذلون له الطّاعة ، ويحثّونه على الوصول ٥ إليهم ، فسار إلى الموصل[2] .

وكان سيفُ الدّين غازي وعبدالمسيح قد سَيّرا عزّ الدّين مسعود ابن قطب الدّين إلى أتابك شمس الدّين إيلدكز صاحب أذربيجان وأصبهان ، يستنجدانه على نُور الدّين ، فأرسل إيلدكز إليه رسولاً يَنهاه عن التعرُّض للمَوْصل فقَال نور الدين : « قُلْ لصَاحِبك أَنَا أصلح ١٠ لِأوْلَاد أخي منك ، فلا تَدخُلْ بيننا ؛ وعند الفراغ من إصلاح بلادهم يكونُ لي معكَ الحديث على باب هَمَذان ، فانك قد ملكتَ هذه المملكةَ العظيمةَ ، وأهملتَ الثُّغور حتّى غلب الكرج عليها ؛ وقد بُليتُ أنا ولي مثل رُبع بلادك بالفرنج ، فأخذتُ مُعْظَمَ بلادهم ، وأسرتُ ملوكهم[3] » . ١٥

[١٨٣ و] وأقام على الموصل فعزم ‖ مَنْ بها مِنَ الأمراء على مُجاهرة عبد المسيح بالعصيان ، وتسليم البلد إلى نُور الدّين ، فعلم بذلك ،

---

(١) في ابن الأثير : « ثم سار إلى الخابور فملكه جميعه وملك نصيبين وأقام بها فجمع العساكر ».

(٢) العبارة السابقة مطابقة لما عند ابن الأثير ١٠٩/٩

(٣) هذه العبارة السابقة منقولة عن ابن الأثير ١٠٩/٩ – انظر مفرج الكروب ١٩٢/١ .

فأرسل إلى نُور الدّين في تسليم البلد على أن يقرّه بيد سيف الدّين ؛ وطلب الأمان لِنفسه(١) وعلى أن يمضي صُحبته إلى الشّام ، ويقطعه ما يرضيه فتسلّم البلد(٢) ، وأبقى فيه سيفَ الدّين غازي .

وعاد إلى حلب فدخلها في شعبان من هذه السَّنة .

٥　الخطبة العباسية　وكتب إلى الملك النَّاصر صلاح الدّين يأمرُهُ بقطع الخُطبة العاضِديّة وإقامة الخطبة المُستَضيئيّة العبَّاسيَّة ، فامتنع واعتذر بالخوف من قيام أهل الدّيار المصرية عليه(٣) ، وكان يُؤثر أن لا يقطع الخُطبة للمصريّين في ذلك الوقت ، خوفاً من نُور الدّين أن يدخل إلى الدّيار المصريّة فيأخذها منه ، وإذا كان العَاضِدُ معه امتنعَ

١٠　وأهل مصر معه ، فلم يَقبل عذرَه نُور الدّين ، وألحّ عليه(٤) .

وكانَ العاضِدُ مريضاً فخطب للمستضيء(٥) في الدّيار المصريّة . وتُوفّي العَاضِدُ ، ولم يعلم بِقَطع الخُطبة . وقيل : إنّه علم قبل موته ؛ وكان ذلك في سنة سبع وستّين وخمسمائة .

---

(١) العبارة السابقة منقولة عن ابن الأثير ١١٠/٩

(٢) في ابن الأثير : « فتسلّم البلد ثالث عشر جمادى الأولى من هذه السنة ودخل القلعة من باب السرّ » .

(٣) العبارة السابقة كما في ابن الاثير ١١١/٩ ، وباقي العبارة قريب مما في الكامل .

(٤) في ابن الأثير : « وألح عليه بقطع خطبته وألزمه إلزاماً لا فسحة له في مخالفته ، وكان على الحقيقة نائب نور الدين » .

(٥) هو المستضيء بأمر الله الحسن أبو محمد بن المستنجد بالله ، ولد سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وأمه أم ولد أرمنية اسمها غضة ، بويع بالخلافة يوم موت أبيه ، وتوفي سنة ٥٧٥هـ — انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ط. المنيرية ، ص ٢٩٤ وما يليها — وارجع كذلك إلى مفرج الكروب ١٩٥/١ ، ٢٠٣

وفي هذه السَّنة تَتَبَّع نُور الدّين[1] رسوم المظالم والمؤن في جميع البلاد الّتي بيده ، فأزالها وعفى رسومها ومحا آثار المنكرات والفواحش ، بعدما كان أطلق مِنْ ذلك في تواريخ متقدّمة ، وكان مبلغ ما أطلقه أوّلًا وثانياً خمسمائة ألف وستّة وثمانين ألفًا وأربعمائة وستّين دينارًا . ٥

وكان رأى وزيرهُ مُوفّق الدّين خالد بن القَيْسَراني في المَنام كأنّهُ يُفصّل ثياب || نُور الدين ، فَفَسَّر ذلك عليه ، ففكّر في ذلك ولم يردّ عليه جواباً ، فخجل وزيرُه وبَقي أيّاماً واستدعاه ، وقال : « تعال يا خالد ، اغسل ثيابي » ؛ وأمرَهُ فكتب توقيعاً بازالة ما ذكرناه . [١٨٣ظ]

أخبار الناصر

وسارَ المَلِكُ النَّاصِرُ[2] من مصر غازياً ، فنازل حصن الشّوبك[3] وحصره ، فطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيّام ، فلمّا سمع نُور الدّين بذلك سار عن دمشق ، فدخل بلاد الفرنج من الجهة الأخرى ، فقيل للملك الناصر : « إنْ دَخَل نُور الدين مِنْ جانب وأنتَ مِنْ هذا الجانب مَلَكَ بلادَ الفرنج ، فلا يبقى لك مَعَهُ بديار مصر مقام ، وإنْ جاء وانتَ هُهنا فلا بُدَّ لك من الاجتماع به ، ١٠ ١٥

(١) في مفرج الكروب ١/١٩٦ : « وأطلق نور الدين المكوس بالموصل كلها وكذلك فعل في سائر ما فتحه من البلاد » .

(٢) في ابن الأثير ٩/١١٢ : « ان صلاح الدين يوسف بن أيوب سار عن مصر في صفر من هذه السنة إلى بلاد الفرنج غازيًا ونازل حصن الشوبك وبينه وبين الكرك يوم وحصره وضيّق على من به من الفرنج » .

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٣/٣٣٢ : « الشَّوْبَك : بالفتح ثم السكون ثم الباء الموحدة المفتوحة وآخره كاف إن كان عربيًا فهو مرتجل – قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمّان وأيلة والقلزم قرب الكرك » .

ويبقى هُو المتحكِّم فيك بما شاء ؛ والمصلحةُ الرّجوع إلى مصر[(١)] » .

فرحل عن الشَّوبك إلى مصر ، وكتب إلى نُور الدين يعتذرُ باختلال أمور الدّيار المصريّة وأنَّ شيعتها[(٢)] عزموا على الوثوب بها ، فلم يَقْبَلْ نُور الدين عذرَهُ ، وتَغَيَّر عليه وعزم على الدّخول إلى الديار ٥ المصريّة[(٣)] .

سبب أيوب

فسمع الملكُ النّاصر ، فجمع أباه نجم الدين وخاله شهابَ الدين ، وتقيَّ الدين عمر ، وغيرهم من الأمراء ، وأعلمهم ما بلغَهُ مِنْ حركة نُور الدين واستشارهم ، فلم يجبه أحدٌ ، فقام تقي الدين[(٤)] ، وقال : « إذا جاءنا قاتَلْنَاهُ » ووافقَهُ غيره من أهله ، فشتمهم ١٠ نجمُ الدين أيوب والدُ المَلِكِ النَّاصِرِ ، وأقعد تقيَّ الدين ، وقال للملكِ النَّاصر : « أنا أبوك ، وهذا شِهابُ الدين خالُك ، ونحنُ أكثر محبَّةً لك مِنْ جميع مَنْ تَرى ؛ ووَاللهِ لو رأيتُ أنا وَهذا خالك نورَ الدين لم يمكننا[(٥)] إلَّا أن نُقَبِّل الأرضَ بَيْنَ يديه ، ولو أَمرنا أَنْ نَضْرب عُنقك بالسَّيف لفعلنا . ‖ فإذا كُنَّا نحنُ هكذا ، فما ظنُّك بغيرنا ، وكلّ مَنْ [١٨٤ و] ١٥ تراه عندك[(٦)] ، فهو كذلك ، وهذه البلادُ لِنُور الدين ، ونحن مماليكه

---

(١) ارجع إلى عبارة ابن الأثير ١١٣/٩

(٢) في ابن الأثير : « لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين وأنهم عازمون على الوثوب بها » .

(٣) في ابن الأثير : « وعزم على قصد مصر واخراجه عنها » .

(٤) في ابن الأثير : « فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فقال : إذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد ووافقه غيره من أهلهم » .

(٥) في ابن الأثير ١١٣/٩ : « وهذا خالك نور الدين لم يمكنا إلّا أن نقبل بين يديه » – انظر تفصيل الحديث في هذه الجلسة كتاب السلوك للمقريزي ٤٩/١

(٦) في ابن الأثير ١١٣/٩ : « وكلّ من تراه عندك من الامراء لو رأى نور الدين

ونوَّابه فيها ، فانْ أراد عزْلكَ سمعْنا وأطعْنا ، والرَّأيُ أنْ تكتبَ كتاباً مع نجَّابٍ وتقول له : بَلَغَني أنَّك تريدُ الحركة لأجل البلاد ، ولا حاجة إلى ذلك بَل يُرْسِلُ المَوْلى نجّاباً يَضَعُ في رَقَبتي مِنديلاً ، ويأخذُني إليك[1] » . وتَفَرَّقوا .

فلمَّا خلا نجمُ الدِّين أيُّوب بالمَلِكِ النَّاصِرُ قالَ لَهُ : « كَيْفَ فعلْتَ مِثْلَ هذا ؟ أما تَعْلَمُ أنَّ نُور الدِّين إذا سَمِعَ عَزْمَنا على مَنْعِهِ ومُحاربتِهِ جَعلْنا أهمَّ الوجوه إليهِ ، وحينئذٍ لا نَقْوى بِهِ[2] ، وأمَّا إذا بلَغَهُ طاعتُنا له تَركنا واشتغلَ بغيرِنا ؛ والأقْدارُ بِيدِ الله ؛ وَوَالله لَوْ أراد نُور الدِّين قَصَبَةً مِنْ قَصَبِ السُّكَّرِ لقاتلْتُه عليها حتّى أمنعه أو أقتل » . ففعل ما أشار به عليه والده ، فتركَ نُور الدين قصده ، واشتغل بغيره[3] .

وخَرَجَ نُور الدين بالعساكر ، ففتح حصن عَرقة[4] ، وصافيتا ، وعريمة ، ونهب وخرَّب بلاد الفرنج ثم هادنهم .

وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه » وبقية العبارة مشابهة في نصها لابن العديم – انظر مفرج الكروب ١/٢٢٢

(١) في ابن الأثير : « ويأخذني إليك وما ههنا من يمتنع وقام الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا » – انظر السلوك للمقريزي ١/٤٩

(٢) في ابن الأثير : « لا نقوى عليه . وأما الآن إذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والأقدار تعمل عملها . » – انظر الروضتين ١/٢٠٤

(٣) في ابن الأثير ١١٣/٩ : « واشتغل بغيره ، فكان الامر كما ظنه أيوب فتوفي نور الدين ولم يقصده ، وملك صلاح الدين البلاد ، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها » – ومثل ذلك في مفرج الكروب ١/٢٢٣

(٤) في ابن الأثير : « وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه ، وأرسل طائفة من العسكر الى حصن صافيتا وعريمة فأخذها عنوة ونهب وضرب وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعادوا إليه وهو بعرقة » .

ثمّ إن الفرنج [١] ساروا إلى بلد حوران في سنة ثمان وستّين للغارة، فسار نُور الدين إليهم، فنزل عَشْتَرَا، وسَيَّر عسكره إلى أعمال طبريّة، فغنموا غنائمَ عظيمة، وعادوا.

ملك الارمن

وكانَ نُور الدين قد اسْتَخْدَم مليح بن لاون [٢]، ملك الأرْمن، وأَقْطَعَهُ أقطاعاً من بلاد الإسلام، وحضر معه حُروباً متعدّدة فأنجدَهُ في هذه السّنة [٣] بطائفةٍ مِنْ عَسْكَرِهِ، فدخل مليح إلى أذَنَة وطرسوس والمَصِّيصة، وفتحها من يَد مَلِك الرُّوم، وأرسل إلى نُور الدين كثيراً من غنائمهم وثلاثين أسيراً من أعيانهم [٤].

وقَصَد قلج أرسلان [٥] || ذَا النُّون بن الدَّانشمند صاحب ملطية [١٨٤ظ] وسيواس [٦]، وأخذ بلادَه، وأخرجه عنها طريداً، فاستجار بنور الدين، ووصل إليه فأكرمه، وسَيَّر إلى قلج أرسلان يشفع إليه في إعادة بلاده إليه، فلم يفعل؛ فسار نُور الدين إليه في هذه السَّنة فابتدأ بكيسوم [٧]،

(١) انظر تفصيل ذلك في ابن الأثير ١١٨/٩

(٢) في ابن الأثير ١١٩/٩ : « في هذه السنة – ٥٦٨ هـ – في جُمادى الأولى هزم مليح بن ليون الأرمني صاحب بلاد الدروب المجاورة لحلب عسكر الروم من القسطنطينية »

(٣) ذكر ابن الأثير في سبب انجاده : « قال : أستعين به على قتال أهل ملته وأريح طائفة من عسكري تكون بازائه لتمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له ، وكان مليح أيضاً يتقوى بنور الدين على من يجاوره من الأرمن والروم . وكانت مدينة أذنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية فأخذها مليح منهم ».

(٤) في ابن الأثير : « فسير نور الدين بعض ذلك إلى الخليفة المستضيء بأمر الله وكتب يعتد بهذا الفتح لأن بعض جنده فعلوه ».

(٥) هو عز الدين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان بن قطلمش السلجوقي صاحب قونية – انظر مفرج الكروب ٢٣٣/١

(٦) في ابن الأثير ١٢٠/٩ : « صاحب ملطية وسيواس واقصرا وغيرها » .

(٧) في ابن الأثير « بكبسون » وكذلك في مفرج الكروب وصحيحها ما جاء عند

وبهسنى[١] ، ومَرْعَش ، ومرزبان ، وما يليها . وكان ملكه مرعش ، في أوائل ذي القَعدة ، والباقي بعدها .

وسَيَّر طائفةً مِنْ عَسكرِهِ إلى سيواس ، فملكها ؛ وراسله قلج أرسلان في الصُّلح ، وأتاه من أخبار الفرنج ما أزعجه فصالحه، وأعطى سيواس ذا النّون ، وجعل معه قِطعةً مِنْ عسكره ؛ وَشرط على قلج أرسلان إنجادَهُ بعساكره إلى الغزاة[٢] .

قتال الفرنج

واتّفق نُور الدين وصلاح الدين على أن يصل كلُّ واحدٍ منهما من جهته ، وتواعدا على يوم معلوم على أن يتّفقا على قتال الفرنج ، وأيّهما سبق أقام للآخر منتظرًا ، إلى أن يقدم عليه ، فَسَبق صلاحُ الدين ووصل إلى الكرك وحصره[٣] .

وسارَ نور الدين فوصل إلى الرَّقيم[٤] – وبينه وبين الكرك مَرْحَلَتان – فَخَاف صلاحُ الدين ، واتّفق رأيه ورأيُ أهله على العَوْد إلى مصرَ لِعِلْمِهِم بأنّهما متى اجتمعا كان نور الدين قادرًا على أخذ مصر منه .

ابن العديم – وكيسوم : قرية مستطيلة من أعمال سميساط ، وفيها حصن كبير على تلعة – انظر معجم البلدان ٤/٣٣٣

(١) في معجم البلدان لياقوت ١/٧٧٠ : « جسنًا : بفتحتين وسكون النّون ونون وألف – قلعة حصينة عجيبة بقرب مرعش وسميساط ورستاقها هو رستاق كَيْسُوم » – وفي ابن الأثير : « بهنسى » وهو تصحيف

(٢) انظر ابن الأثير ٩/١٢٠ ، ومفرج الكروب ١/٢٣٣

(٣) العبارة السابقة مأخوذة عن ابن الأثير ٩/١٢١

(٤) الرقيم : بقرب البلقاء من أطراف الشام – انظر معجم البلدان لياقوت كذلك ٢/٨٠٤ .

فعاد إلى مصر ، وأرسلَ الفقيهَ عيسى[1] إلى نُور الدين يعتذر عن رَحيله بأنّه كان استخلفَ أباه نجمَ الدين أيّوب على مصر ، وأنه بلغه أنّه مريضٌ ، ويخاف أنْ يحدث به حادثُ الموت فتخرج البلادُ عن أيديهم ، ولم يكن مريضاً ، وأرسل [١٨٥ و] مع الفقيه عيسى من التُّحف والهدايا ما يجلّ عن الوَصْف ، فجاء إليه فأعلمه برسالة صَلاح الدين ، ٥ فعظم ذلك عليه[2] ولم يظهر التأثّر بذلك ، وقال : « حفظ مصر أهمُّ عندنا » .

موت ايوب

واتّفق أنّ صلاحَ الدين وصل إلى مصر فوجد أباه قد سَقَطَ عن الفَرس ، وبقي أيامًا ومات ، وهو غائبٌ عنه ، ١٠ في السّابع والعشرين من ذي الحجّة من سنة ثمان وستّين وخمسمائة[3] .

وخاف صلاحُ الدين من نورالدين أن يدخلَ مصر فيأخذها منهم ، فشرع في تحصيل مملكةٍ أخرى[4] لتكون عدّة له بحيث أنّ نُور الدين إنْ غلَبه إلى الديار المصريّة سارَ هُو وأهلُه إليها وأقاموا بها .

فَسيّرَ أخاهُ الأكبرَ تُورَانْشاه بإذْنِ نُور الدين له في ذلك، وسَيّرهُ

---

(١) في ابن الأثير ١٢١/٩ : « فلما عاد أرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين . . . » وبقية العبارة شبيهة بما عند ابن العديم .

(٢) في ابن الأثير ١٢١/٩ : « فعظم عليه وعلم المراد من العود إلّا أنه لم يظهر للرسول تأثرًا بل قال له حفظ مصر أهم عندنا من غيرها » .

(٣) توفي الملك الأفضل نجم الدين أيوب والد الملك الناصر صلاح الدين في مصر يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذي الحجة ، كما يقول مفرج الكروب ٢٣٠/١ — انظر ابن الأثير : « ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة » وعنه نقل ابن العديم وأخذ بروايته — انظر سيرة صلاح الدين لابن شداد ٣٦

(٤) في ابن الأثير ١٢٣/٩ : « فشرعوا في تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها تكون عدة لهم ان اخرجهم نور الدين من مصر ساروا إليها وأقاموا بها » .

قاصداً عَبْدَ النبي بن مهدي[١]، وكان دعا إلى نفسه، وقطع خُطبة بني العبّاس، فمضى إليها، وفتح زَبيد[٢] وعدن[٣] ومُعظَمَ بلاد اليمن.

موت نور الدين

وَصلاحُ الدين على ما كان عليه من الطّاعة في الظّاهر لِنُور الدين إلى أن اتّفق أنْ مَرِضَ نُور الدين بِعِلّة الخَوانيق[٤] بدمشق، وتُوفّي بها يومَ الأربعاء حادي عشر شوّال من سنة تسع وستّين وخمسمائة، وكانَ قدْ شرَع في التّأهب للدخول إلى الديار المصريّة وختن ولده الملك الصّالح اسماعيل بدمشق[٥]، في خامس شوّال، وأخرج صَدَقات كثيرة وكسوات للأيتام الّذين خَتنهم معه[٦].

واتّسع مُلكهُ بحيثُ خُطِبَ له بالحَرَمَين الشّريفَين وبلاد اليَمن

(١) في ابن الأثير: « فسيّروا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وهو أخو صلاح الدين الأكبر إلى بلد النوبة، فكان ما ذكرناه، فلما عاد إلى مصر استأذنوا نور الدين في أن يسير إلى اليمن لقصد عبد النبي صاحب زبيد لأجل قطع الخطبة العباسية فاذن في ذلك » – انظر مفرج الكروب ٢٣٨/١

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٩١٥/٢: « زَبيد بفتح اوله وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت – اسم مدينة يُقال لها الحُصَيْب ثم غلب عليها اسم الوادي فلا تعرف إلّا به، وهي مدينة مشهورة باليمن أحدثت أيام المأمون، وبإزائها ساحل غلافقة وساحل المندب ».

(٣) عَدَن: مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن– انظر معجم البلدان لياقوت ٦٢١/٣ – وأما ابن الأثير ١٢٢/٩: « عدن: وهي على البحر ولها مرسى عظيم وهي فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس وغير ذلك، وهي من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها ».

(٤) في ابن الأثير ١٢٥/٩: « وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته » – والخوانيق: هي الذبحة الصدرية كما يسميها الطبّ الحديث.

(٥) انظر في حفلات الختان مفرج الكروب ٢٦٠/١ وما يليها.

(٦) في ابن الأثير ١٢٦/٩: « ودفن بقلعة دمشق ونقل منها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين » – ومثل هذا القول جاء في مفرج الكروب ٢٦٣/١

[١٨٥ظ] الّتي افتتحها شمس || الملوك ، وانعمر بلد حلب في زَمَانِهِ لِعَدْله وحُسْن سيرته[١] حتّى لم تبقَ مزرعةٌ في جبل ولا وَادٍ إلّا وفيها سكّانٌ ولها مُغِلٌّ .

وَصار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن أكثر من المدينة ، ٥ مثل الحَاضِر السُّلَيْمَاني[٢] ، وخارجَ باب الأربعين[٣] ، وغير ذلك من الأبواب جميعها .

وارتفعَت الأسْعَار مَعَ كَثْرَة المغلّات لكثْرة العالم ، حتّى كانت الأَسْعَارُ في السَّنة الّتي ماتَ فيها بَعْدَ ذلك الرّخص في السَّنَة التي مات فيها والده[٤] : الحنطة مكّوكٌ ونصف بدينار ، والشّعير مكُّوكان ونصف ١٠ بدينار ، والعَدَس مكّوكٌ ومصع بدينار ، والجلبّان كذلك ، والقُطن ستّةُ أرطالِ جوْز بدينار .

وَٱللهُ تَعَالى يَرْحَمُهُ

(١) انظر تفصيل الامر في سيرته وعدله عند ابن الأثير ١٢٥/٩ ؛ ومفرج الكروب ١٦٨/١ وما يليها من صفحات ؛ والدولة الأتابكية ٢٩٣ ، وتاريخ أبي الفداء ٥٨/٢ ، وتاريخ ابن الوردي ٨٣/٢ ، والمنتظم لابن الجوزي ٢٤٩/١٠ ، والنجوم الزاهرة ٧١/٦ ، والروضتين ٢٢٨/١ ، وسيرة صلاح الدين لابن شدّاد ٣٧

(٢) الحاضر السليماني : قصر بناه سليمان بن عبد الملك بالحاضر أيام ولايته وكان قد تأنق في بنائه وزخرفته واليه ينسب – كما في الدر المنتخب لابن الشحنة ٥٨

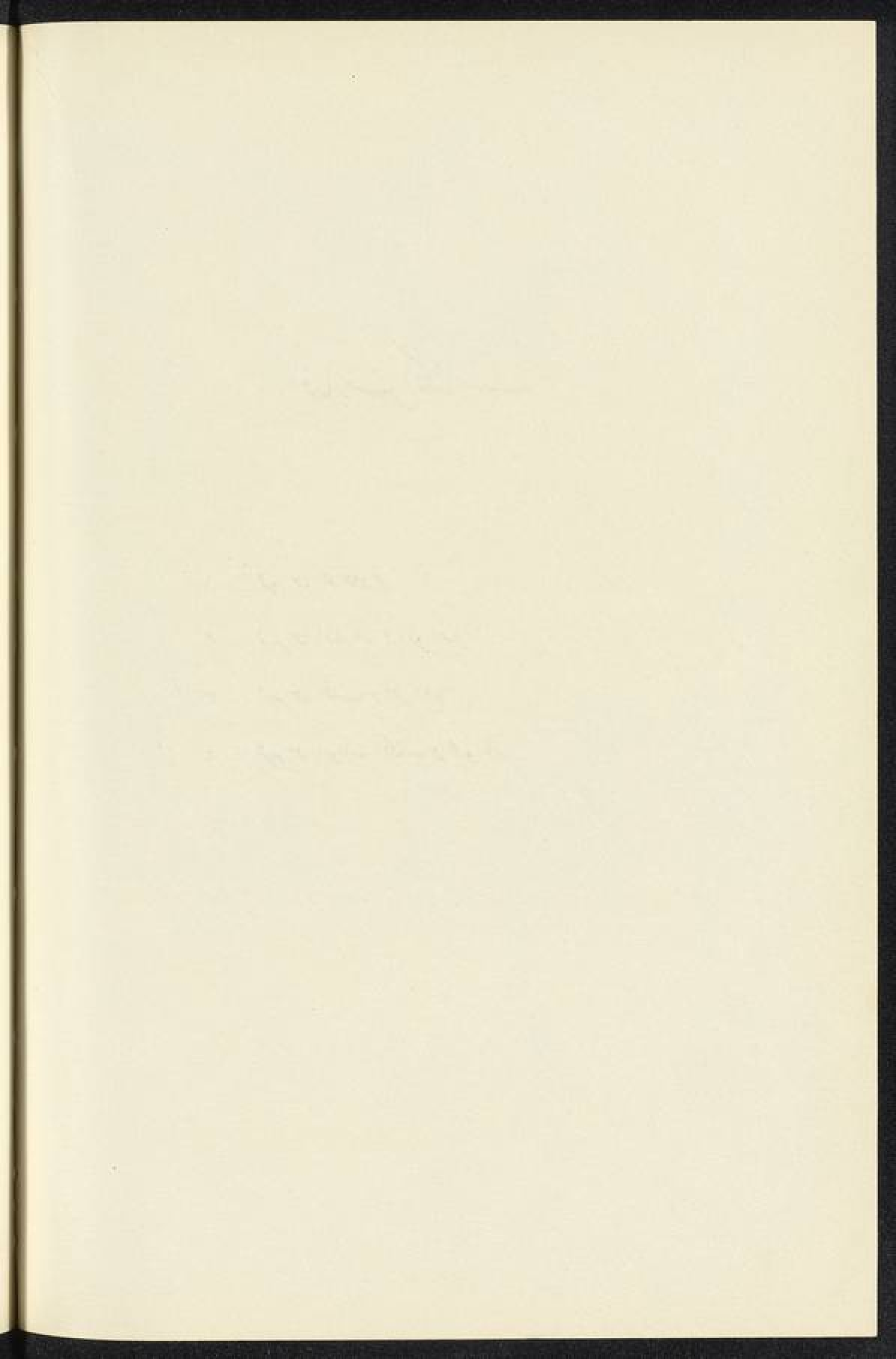
(٣) باب الأربعين : من أبواب حلب القديمة ، اختلف في تسميته ، وكان قد خرب ولم يبق منه في عهد ابن الشحنة بناء ولا حجارة – انظر الدر المنتخب ٤٣

(٤) انظر الأسعار في عهد عماد الدين زنكي ، آخر القسم السابق ، ص ٢٨٤ ، لتوازن بينها وبين ما يثبت ابن العديم هنا .

تمّ الجزء الثاني

من زبدة الحلب

فهارس الكتاب



فهرس الأعلام

جمعنا في هذا الفهرس أعلام الرجال والقبائل والطوائف التي جاءت في متن «الزبدة»، أو وردت في الحواشي التي علقناها وأضفناها توضيحاً وبياناً. وقد رتبنا هذه الأعلام بالكنى أو بالألقاب أو الأسماء والأنساب كما اشتهرت. واعتبرنا كلمة ابن وأب وأم أساسية في صلب الاسم سواء أكانت في بدئه أم في وسطه كأنّ الاسم مركب.

وذكرنا في هذا الفهرس عناوين الكتب بين قوسين إلى جانب أسماء المؤلفين، ووضعنا نجمة (*) إلى يمين السطر نحيل بها القارئ إلى عنوان الكتاب في «فهرس الكتب والمراجع» فقد دللنا على المصادر في الحواشي حينا باسم الكتاب وحينا باسم مؤلفه بغية الإيجاز والاختصار. واكتفينا بذكر أرقام الصفحات، وأهملنا ذكر السطر منها، وإنما أشرنا بأرقام مختلفة فجعلنا الأرقام الدقيقة للدلالة على وجود الاسم في الحواشي تمييزًا لها عما جاء في المتن من كلام ابن العديم.

ب

غ

ف

فهرس البلدان والمواضع

كثرت أسماء المواضع والبلدان في تاريخ حلب لابن العديم حتى لكأنه جعله في جغرافية حلب وأطرافها ، متبعاً في ذلك خطة كتابه الكبير . وقد استعنا في تحديد البلدان ووصف المواضع ياقوت الحمويّ ، وهو صديق ابن العديم ومعاصره ، فهو أحسن من يعرّف الأماكن لعصره .

وقد جعلنا هذا الفهرس لترتيب أسماء هذه الأماكن ما جاء منها في متن ابن العديم أو ما ورد في الحواشي التي علقناها . وأشرنا في هذا الفهرس كذلك بأرقام دقيقة لما وقع في الحاشية تمييزًا لها عما في المتن .

ا

خ

د

غ

ف

ق

فهرس الكتب والمراجع

وضعنا في ذيل مقدمتنا جدولاً لبيان الرموز المستعملة والاختصارات الواردة في الطبعة ؛ وسنورد في هذا الفهرس العناوين الموجزة لأسماء الكتب والمراجع ، وما ورد منهـا على لسان ابن العديم او ما علقناه في الحواشي .

وقد ذكرنا إلى جانب هذه الكتب أسماء مؤلفيها ، ليسهل الرجوع معها إلى فهرس الأعلام فقد ألمنا إلى المصادر حيناً بأسمائهم وحيناً بعنـاوين الكتب ؛ وحددنا في الفهرس الطبعات التي اعتمدنا عليها بالسنين والبلدان ، وأشرنا إلى ما لم يطبع منها بكلمة « مخطوطة » . وجعلنا الأرقام الدقيقة كذلك لما ذُكر من الكتب في حواشي الطبعة تمييزاً لها عما ذكره ابن العديم في « الزبدة » .

ا

١ — « أسامة بن منقذ ، صفحة من تاريخ الحروب الصليبية » — لمحمد أحمد حسين (القاهرة ١٩٤٦) ٧٦
٢ — « الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة » — لابن شدّاد (مخطوطة) ٧٨ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ٢١٤ ، ٣٤٣ ، ٣٧٧
٣ — « الأنساب » — للسمعاني (طبعة جيب بلندن) ١٦١
٤ — « الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعرّي » — لكمال الدين بن العديم (في كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء — مصر ١٩٤٤) ٩٣

ب

٥ — « بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع » — لعلاء الدين الكاشاني (مصر ١٩١٠) ٢٩٥ ، ٢٩٦
٦ — « بغية الطلب في تاريخ حلب » — لكمال الدين بن العديم (مخطوطة استانبول) ٧٦ ، ٧٨ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٩٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥
— البلدان = « مختصر كتاب البلدان »

ت

— تاريخ ابن الأثير = « الكامل في التاريخ »
— تاريخ ابن الشحنة = « الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب »
— تاريخ ابن عساكر = « تاريخ دمشق أو التاريخ الكبير »
٧ — « تاريخ ابن الوردي » — (مصر ١٢٨٥ ه) ٢٤٣ ، ٢٤١
٨ — « تاريخ أبي شجاع محمد بن عليّ بن الدهان » — (وقع لابن العديم ولم يصل إلينا) ٢٨٣
— تاريخ أبي الفداء = « المختصر في أخبار البشر »
٩ — « تاريخ حرّان » — لابن سلامة الحرّاني (وقع لابن العديم) ٢٨٣

١١ – « تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين » – لجلال الدين السيوطي (مصر ط. المنيرية) ٣٣٣
١٢ – « تاريخ دمشق أو التاريخ الكبير » – لابن عساكر (ط. دمشق ، عبد القادر بدران ١٣٢٩/١٩١١) ٣١ ، ٣٠٠
١٣ – « تاريخ الدولة الأتابكية » – لابن الأثير (ط. باريس) ٢٤١ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٩٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ؛ ٣٤١
١٤ – « تاريخ العظيمي » – لمحمد بن عليّ العظيمي (مخطوطة) ١١ ، ١٣ ، ٣٢ ، ٤٦ ، ٨٣ ، ١٣٨ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨
١٥ – « تاريخ المرداسيين » – لمولّلر (باللاتينية) ٧٠
١٦ – « تعريف القدماء بأبي العلاء » – جمعته لجنة آثار أبي العلاء المعرّي (مصر ١٩٤٤) ٩٣
١٧ – « تقويم البلدان » – لأبي الفداء (طبعة ده سلان باريس ١٨٤٠) ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٤٩ ، ٢٩٣

ج

١٨ – « جغرافية سورية القديمة » – دوسو (بالفرنسية ، في باريس ١٩٢٧) ٦٦
١٩ – « جمهرة اللغة » – لابن دريد (حيدر آباد الدكن ١٣٤٤) ٦٥
٢٠ – « الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية » – لأبي الوفاء القرشي (حيدر آباد الدكن ١٣٣٢) ١٩ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦

ح

– الحروب الصليبية = « مؤرخو الحروب الصليبية »

خ

٢١ – « الخطط والآثار » – للمقريزي (مصر ١٢٧٠) ٣٢٩

د

٢٢ – « الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب » – لابن الشحنة (بيروت ١٩٠٩) ٦٩ ، ٢٤١

٢٣ – « ديوان ابن حيّوس » – تحقيق خليل مردم بك (دمشق ١٩٥١ في جزءين) ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٧٤

٢٤ – « ديوان ابن سنان أبي محمد الخفاجي » – (مخطوطة) ١٥ ، ١٨

ذ

٢٥ – « ذيل تاريخ دمشق » – لابن القلانسي (طبعة آمدروز في بيروت ١٩٠٨) ٩ ، ١٣ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٧٣

٢٦ – « الذيل على طبقات الحنابلة » – لابن رجب البغدادي (حققه هنري لاووست وسامي الدهان ، ونشر الجزء الأول بدمشق ١٩٥١) ١٧

ر

٢٧ – « الروضتين في أخبار الدولتين » – تأليف شهاب الدين أبي شامة المقدسي (ط. مصر ١٢٨٧) ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦ ، ٣٣٦ ، ٣٤١

ز

٢٨ – « زبدة الحلب من تاريخ حلب » – لكمال الدين بن العديم (تحقيق سامي الدهان ، الجزء الأول ، دمشق ١٩٥١) ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ٢١٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٤ ، ٢٥٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٩٤ ، ٣٠٣

٢٩ – « الزبد والضرب في تاريخ حلب » – لابن الحنبلي (مخطوطة) ٦٩ ، ٩٣ ، ٣١٠ ، ٣٩٦ ، ٣١٠

س

٣٠ – « السلوك لمعرفة دول الملوك » – لتقي الدين أحمد المقريزي (القاهرة ١٩٣٤) ٣٣٥ ، ٣٣٦

٣١ – « سوريا الشمالية في عصر الصليبيين » – كلود كاهن (بالفرنسية في باريس ١٩٤٠) ٣٩١

٣٢ – « سوريا في عهد المماليك » – غودفروا ديومبين (بالفرنسية في باريس ١٩٢٣) ٣٠٦
٣٣ – « سيرة صلاح الدين الأيوبيّ » – لبهاء الدين بن شدّاد (مصر ١٣١٧) ٣٣٩ ، ٣٤١

ش

٣٤ – « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » – لعبد الحيّ بن العماد الحنبليّ (مصر ١٩٣١) ٣٥

ص

٣٥ – « صبح الأعشى في صناعة الانشا » – للقلقشندي (مصر ١٩١٣ – ١٩١٨) ٣٤

ط

– طبقات الحنابلة = « الذيل على طبقات الحنابلة »
– طبقات الحنفية = « الجواهر المضيّة في طبقات الحنفيّة »

ف

٣٦ – « فوات الوفيات » – لابن شاكر الكتبيّ (مصر ١٢٩٩) ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠

ق

٣٧ – « قاموس ما أغفلته القواميس العربية » – لدوزي (بالفرنسية في باريس ١٩٢٧) ١١ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٠٠ ، ٣٣٩ ، ٣١٣

ك

٣٨ – « الكامل في التاريخ » – لابن الأثير (مصر ١٣٤٨ – ١٣٥٣) ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٩ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٣٣
٣٩ – « كنوز الذهب في تاريخ حلب » – لسبط ابن العجمي (مخطوطة) ٣٩٤ ، ٣٩٥

ل

٤٠ – « اللباب في تهذيب الأنساب » – لابن الأثير (مصر ١٣٥٧) ١٦١
٤١ – « لواء حلب » – لهارتمان (بالألمانية ، سنة ١٨٩٥) ١٦

م

٤٢ – « المحيط الكبير » – لرضي الدين السرخسي ، ٢٩٥

٤٣ – « مختصر كتاب البلدان » – لابن الفقيه الهمذاني (ليدن ١٣٠٢/١٨٨٥) ٣٤

٤٤ – « المختصر في أخبار البشر » – لأبي الفداء (القسطنطينية ١٢٨٦) ٢٨٩ ، ٣٤١

٤٥ – « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » – لسبط ابن الجوزي (حيدر آباد الدكن ١٣٧٠/١٩٥١)
٣٦ ، ٢١ ، ١٥٠ ، ٢١١ ، ٢٣٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٨٩

٤٦ – « مسالك الممالك » – لأبي اسحق الاصطخري (ليدن ١٩٣٧) ٣٥

٤٧ – « معجم الألفاظ الزراعية » – للأمير مصطفى الشهابي (دمشق ١٩٣٤) ٣٢٣

٤٨ – « معجم البلدان » – لياقوت الحموي (طبعة وستفلد في ليبتسيك ١٢٧٨/١٨٦٦) ١٠ ،
١٣ ، ١٦ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٥٤ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٦ ،
٩٠ ، ٩١ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ،
١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٨ ، ١٧٦ ،
١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ،
٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ،
٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ،
٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠

٤٩ – « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع » – للبكري (مصر ١٩٤٥–١٩٤٩) ١٠٩

٥٠ – « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » – لجمال الدين بن واصل (طبعه الدكتور جمال الدين الشيال ، الجزء الأول بمصر ١٩٥٣) ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ،
٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ،
٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ،
٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣ ،
٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ،
٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١

٥١ – « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » – لابن الجوزي (طبعة حيدر آباد ١٣٥٩) ١٧ ، ٢٥ ،
٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٧٦ ، ٢٤١

٥٢ – « مؤرخو الحروب الصليبية » – نصوص مختلفة من المؤرخين العرب وترجمتها إلى الفرنسية (الجزء الثالث في باريس ١٨٨٤) ١٠١ ، ١٣٩ ، ١٦٧ ، ١٩٥ ، ٢٦٣ ، ٢٨٦

ن

٥٣ – « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » – لابن تغري بردي (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٦) ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٧٤ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩١ ، ١١٢ ، ١٣٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٩ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤١

٥٤ – « النقود العربية وعلم النميات » – نشره الاب انستاس الكرملي (القاهرة ١٩٣٩) ٣٨٤

و

٥٥ – « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » – لابن خلكان (مصر ١٣١٠) ١٧ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١٧٩ ، ٢٤١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٩ ، ٣١٥

فهرس محتويات الكتاب

الصفحة

زبدة الحلب – الجزء الثاني

من ٤٥٧ هـ إلى ٥٦٩ هـ

الصفحة

القسم السادس عشر :

القسم السابع عشر :

القسم الثامن عشر :

القسم التاسع عشر :

الصفحة

الصفحة

القسم الثالث والعشرون :

القسم الرابع والعشرون :

فهارس الكتاب

تصويب بعض الأخطاء

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
١٩	٦	ديار مصر	ديار مضر
٦١	٥	سأشَكر	سأشكر
٧٦	١٠	شرفُ	شرفِ
١١٢	٢٢	قرنبيا	قرنبيا
١٦٦	١٧	قرنبيا	قَرَنْبيا
١٥٣	١١	ختلع	ختلغ

وأما باقي الأخطاء مما لم تقف عليه فنعتمد فيه فطنة القارئ ودقته فهو يرى ما لا يرى المؤلف أو الناشر .

تمّ طبعُ هذا الجزء الثاني في المطبعة
الكاثوليكية ببيروت ، يوم الجمعة
الثاني من شهر تموز (يوليو) لسنة
ألف وتسعمائة وأربع وخمسين ميلادية

INSTITUT FRANÇAIS DE DAMAS

SAMI DAHAN
Docteur ès Lettres
Membre de l'Académie Arabe de Damas

HISTOIRE D'ALEP

par

KAMĀL AD-DĪN IBN AL-ʿADĪM

588-660/1192-1262

TOME II
457-569/1064-1173

DAMAS
1954



